الحروب الصليبية

تاريخ أوربا في العصور الوسطى

دور الألمان فى الحروب الصليبية في بلاد الشام

دكتور :صلاح ضبيع



دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام



اسم الكتاب : دور الألمان في الحروب الصليبية

اسم المؤلف : د.صلاح صلاح محمد ضبيع

تصميم الغلاف : محمود حمدي

المكتب العربي للمعارف

١٠ شارع الفريق محمد رشاد حسن -

خلف عمر أفندي - ميدان الحجاز - مصر الجديدة

ت: ٢٦٢٣٧١٧٣- فاكس : ٢٦٢٢٥١٢٨

بريد ألكتروني : malghaly@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

مجمد ، صلاح محمد ضبيع

الحروب الصليبية : دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام/ تأليف صلاح محمد ضبيع.

- ط١ .- القاهرة : المكتب العربي للمعارف ، [٢٠٠٨]

٤٢٤ص ؛ ١٧×٢٤سم .

تدمك ٨ ٥٧٤ ٢٧٦ ٩٧٧

١-الحروب الصليبية في فلسطين والشام

أ-العنوان

٩٥٣,٠٧٣٩٣

رقم الإيداع : ٢٠٠٨/٢٣١٦٥

الترقيم الدولي : I.S.B.N 977-276-574-8

الحروب الصليبية

دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام

٥٤٠هـ / ١١٤٥م إلى ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م

تأليف

دكتور / صلاح محمد ضبيع محمد

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية الآداب - جامعة سوهاج

الناشر

المكتب العربي للمعارف



المقدمة

شهدت العصور الوسطى في القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد حركة خطيرة تركت آثارًا عميقة المدى في سيرة تاريخ البشرية، وهي الحركة التي اتفق المؤرخون على تسميتها باسم الحروب الصليبية، والتي اتخذت من الدين ستارًا لإخفاء مطامعها الاستعمارية في الشرق الأدنى الإسلامي.

ومهما بحثنا في أسباب الحروب الصليبية، فسنجد أن العامل الديني كان أخرها، والحقيقة أن هدفها كان الاستيلاء على أرض المسلمين ونهب ثرواتهم، تحت ستار تخليص الأراضي المقدسة من أيدي المسلمين.

وقد لعبت البابوية في الغرب الأوربي دورًا رئيسيًّا في قيام الحروب الصليبية، فهي التي دعت إليها وتبنتها ووجهت مسارها، وحرصت البابوية على تشجيع الفرسان والنبلاء في الغرب الأوربي على التخلص من منازعاتهم وحروبهم الداخلية والتوجه لقتال المسلمين في الشرق الأدنى، وأعلنت أن من حق الفرسان والنبلاء الاستيلاء على الأراضي الواقعة تحت أيدي المسلمين، تلك الأراضي التي تفيض باللبن والعسل، ووعدت البابوية كل من يشترك في الحروب الصليبية بالغفران التام عن ذنوبه وخطاياه وحماية ممتلكاته لحين عودته إلى وطنه.

وبدأت سلسلةُ الأحداث التي أدت إلى قيام الحملة الصليبية الأولى بالدعوى التي وجهها البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ – ١٠٩٩) Urban II في مجمع كليرمونت بفرنسا في ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥م، حيث دعا إلى قتال المسلمين أملا في إنقاذ المسيحيين الشرقيين، وتخليص بيت المقدس من أيدي المسلمين.

والواقع أن الاستجابة لنداء البابا كانت سريعة وقوية، إذ هتف الحاضرون بعبارة "هكذا أراد الله" التي تردد صداها في أوربا الغربية من أدناها إلى أقصاها، وسرعان ما اتخذوا الصليب على صدورهم وأكتافهم كشعار لهم؛ لهذا عرفوا بالصليبيين، وعرفت حروبهم باسم الحروب الصليبية نسبة إلى ذلك.

وقد نجحت الحملة الصليبية الأولى في الوصول إلى هدفها، ولكن هذا النجاح لم يرجع إلى قوة الصليبيين أو كثرة عددهم، أو شجاعة فرسانهم، أو توافر الحماس الديني لديهم، ولكنه يرجع إلى تشرذم العالم الإسلامي آنذاك، وحروبهم الداخلية، وعدم الفهم الحقيقي لهدف الغرب الأوربي من هذه الحروب.

والحقيقة أن المذابح التي ارتكبها الصليبيون في بيت المقدس ضد المسلمين تفوق الوصف، فعلى حد قول مؤرخ لاتيني معاصر: "خاضت خيولهم في دماء المسلمين حتى ركبها".

ولاشك في أن هذه المذابح تركت جرحًا عميقًا في العالم الإسلامي ظل ماثلاً في أذهان المسلمين، ولكنه لم يبعث اليأس في قلوبهم.

ونظرًا لما تركته الحروب الصليبية من آثار هامة في تاريخ البشرية، جرى الاهتمام بها من قبل المؤرخين المحدثين في الشرق والغرب على حد سواء؛ ولهذا فقد ظهرت مؤلفات كثيرة تناولت تاريخ الحروب الصليبية، وعالجت الحملات الصليبية على الشرق، وأفاضت في الحديث عن الصليبيين والشعوب الأوربية التي شاركت في تلك الحملات.

وعلى الرغم من كثرة ما كتب عن الحروب الصليبية من بحوث ومؤلفات عالجت موضوعات وقضايا وأحداثًا هامة، إلا أنها لم تعط كل شعوبها اهتمامًا خاصًا، ولم تظهر كل خفاياها؛ إذ لازالت الحروب

الصليبية ميدانًا هامًّا وحقلاً خصبًا أمام الدارسين والباحثين لإلقاء الضوء على الكثير من جوانبها.

والجديرُ بالذكرِ أن الألمان كانوا من ضمن الشعوب الأوربية التي شاركت في صنع أحداث الحروب الصليبية في منطقة الشرق الأدنى، إلا أن مشاركتهم لم تبدأ إلا منذ سنة ١١٤٥م (٥٤٠هـ)، وقد استمرت هذه المشاركة حتى سنة ١٢٢٩م (٦٢٧هـ). والواقع أن تأخر الألمان عن المشاركة في الحملة الصليبية الأولى يرجع إلى الظروف التي كانت سائدة في ألمانيا قبيل الدعوى للحملة الصليبية الأولى وعندما تمكن الألمان من التغلب على مشاكلهم الداخلية أقدموا على المشاركة في الحملات الصليبية بصورة فعالة.

ولم يقتصر دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام على المشاركة في الحملات الصليبية فقط، بل تمكنوا من تكوين منظمة حربية لهم في بلاد الشام عرفت باسم "منظمة الفرسان التيوتون" شأنها في ذلك شأن منظمة الداوية والإسبتارية.

وظلت هذه المنظمات تلعب دورها في بلاد الشام إلى أن تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من الاستيلاء على عكا عام ١٢٩١م (٦٩٠هـ) فراحت تبحث لها عن مأوى جديد، ومن ثم نجد أن فرسان التيوتون اتخذوا الجهات الوثنية في شرق أوربا ميدانًا لنشاطهم.

وعلى أية حال، فإن موضوع "دور الألمان في الحروب الصليبية في بلام الشام" خلال الفترة (١١٤٥ – ١٢٢٩م / ٥٤٠ – ٦٢٧هـ)، تم اختيارهُ لمحاولة إلقاء الضوء على الوضع في ألمانيا قبيل الدعوة للحروب الصليبية، لاسيما أن هذا الوضع لعب الدور الحاسم في عدم مشاركة الألمان منذ قيام الحملة الصليبية الأولى، وهو ما لم يتم دراسته قبل ذلك، وعلاوة على ذلك، فإن دراسة دور الألمان في

الحروب الصليبية منذ إسهامهم في الحملة الصليبية الثانية ١١٤٧م وحتى ١٢٢٩م جاء لإظهار الدور الذي لعبه الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام، شأنهم في ذلك شأن بقية شعوب أوربا الغربية.

وفي الحملة الصليبية الثانية نلاحظ أن البابوية لم تكن لديها الرغبة في أن يقوم الألمان بأي دور فيها؛ نظرًا لحاجتها لهم في الغرب الأوربي للدفاع عن مصالحها ضد النورمان في جنوب إيطاليا من جهة وثورات أهالي روما ضدها من جهة أخرى، وعلى النقيض من ذلك، شجعت البابوية الألمان على الاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة.

وقد قسمتُ موضوعَ الدراسة إلى تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، والحقيقة أن التمهيد يأتي على جانب كبير من الأهمية، إذ أوضحنا فيه الأوضاع السياسية في ألمانيا قبيل الحروب الصليبية وهي الفترة الحاسمة في التاريخ الألماني حيث انسلخ فيها الأمراء الألمان عن سلطة التاج الإمبراطوري وكونوا دوقيات خاصة بهم، الأمر الذي جعل من المستحيل قيام حكومة مركزية في ألمانيا بعد ذلك.

وفي الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٦م و١٠٧٣م أشرت إلى أثر وفاة هنري الثالث (١٠٣٩–١٠٥٦م) Henry III على ألمانيا وإيطاليا وإلى جهود الإمبراطور هنري الرابع (١٠٥٦ – ١١٠٦م) Henry V من أجل إقامة حكومة مركزية في ألمانيا، وتناولت في الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٧٣و١٠٩٠م جهود الإمبراطور هنري الرابع في القضاء على ثورات دوقية سكسونيا.

وفي النزاع الدائر بين الإمبراطورية والبابوية تحدثت عن العلاقات بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جويجوري السابع (١٠٧٣ – ١٠٨٥م) Gregory VII وكيف أنها كانت في البداية ودية

إلى حد كبير، ثم انقلبت إلى عداء خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٧٥ و١٠٨٥م، وأشرت كذلك إلى علاقة الإمبراطور هنري الرابع بخلفاء البابا جريجوري السابع خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٨٥ و١٠٩٥م، وبينت كيف أن البابا أوربان الثاني تمكن من إذلال هنري الرابع عن طريق الأحلاف العسكرية تارة، واستقطاب أهل بيت الإمبراطور تارة أخرى.

أما الفصل الأول الذي جاء بعنوان "دور الألمان في الحملة الصليبية الثانية في بلاد الشام"، فقد تحدثنا فيه عن أثر استرجاع عماد الدين زنكي لمدينة الرها على كل من المسلمين والصليبيين وبيزنطة وغرب أوربا، في محاولة لإظهار ما كانت تمثله هذه المدينة بالنسبة لكل طرف من هذه الأطراف، وعالجت أيضًا كيفية وصول خبر سقوط الرها إلى الغرب الأوربي، الأمر الذي أدى إلى قيام البابا إيوجين الثالث (١١٤٥ – ١١٥٣) Eugenus III بالدعوة لحملة صليبية جديدة، واستعرضت في هذا الفصل دور القديس برنارد في الدعوة للحملة الصليبية في ألمانيا، ورفض كنراد الثالث (١١٣٩ – ١١٥٢م) Conrad III الاستجابة لدعوة برنارد في البداية، ثم استجابته بعد ذلك، وما قام به من استعدادات قبل الرحيل بالحملة الصليبية من ألمانيا وأوضاعها السياسية آنئذ.

كما تحدثت عن أحداث الحملة الصليبية الألمانية في الأراضي البيزنطية وفي آسيا الصغرى وما تعرض له الألمان هناك، الأمر الذي ترتب عليه عودة كنراد الثالث لبيزنطة تاركًا قواته تواصل تقدمها مع لويس السابع. وتعرضت أيضًا لعودة كنراد الثالث من بيزنطة لبلاد الشام والأحداث التي شارك فيها الألمان هناك حتى عودة كنراد لألمانيا في ٨ سبتمبر سنة ١١٤٨م وفي نهاية هذا الفصل تحدثت عن فشل هذه الحملة وأثرها في الكيان الصليبي ببلاد الشام.

وفي الفصل الثاني وهو بعنوان: "دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام في الفترة من ١١٨٧ إلى ١١٩٨م"، تناولت الدور الذي لعبه كنراد من مونتفرات الذي جاء من الغرب الأوربي عشية استرداد صلاح الدين لمدينة بيت المقدس ١١٨٧م (٥٨٣هـ)، وتزعم كنراد للصليبيين في صور ضد صلاح الدين، واستغاثته بالغرب الأوربي، ولقد لقيت هذه الاستغاثة استجابة لدى البابوية التي أخذت تدعو للقيام بحملة صليبية جديدة في أوربا.

وتعرضت في هذا الفصل لمدى تلهف الإمبراطور فردريك الأول بربار وسا (١١٥٢-١١٩٠م) Frederick I Barbarossa على الاشتراك في الحملة الصليبية، والاستعدادات التي قام بها قبل الخروج بالحملة، ثم خروجه بالحملة في ١١ مايو سنة ١١٨٩م، والصعوبات التي واجهته في منطقة البلقان، والتي انتهت بعقد اتفاقية أدريانويل في ١٤ فبراير سنة ١١٩٠م بينه وبين الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجيلوس (١١٨٥ – ١١٩٥) Isaac II.

وفي هذا الفصل أوضحت التقارب البيزنطي الأيوبي غداه حملة فردريك، وألقيت الضوء على الأهوال التي تعرض لها الألمان في آسيا الصغرى حتى وصولهم إلى قونية في ١٨ مايو سنة ١١٩٠م، وأثر ذلك على صلاح الدين الأيوبي، ثم تحدثت عن وفاة الإمبراطور فردريك في ١٠ يونيو من نفس العام، والنتائج التي ترتبت عليها، وأشرت أيضًا إلى وصول قوات الإمبراطور فردريك الأول إلى عكا تحت قيادة ابنه فردريك دوق سوابيا، وما قامت به هناك حتى وفاته في ٢٠ يناير سنة ١١٩١م، وأحوال قواته بعد وفاته. كما عالجت في هذه الدراسة جهود الإمبراطور هنري السادس (١١٩٠ – ١١٩٧م) Henry VI الصليبية ضد بلاد الشام منذ أن حمل الصليب ١١٩٥م،

ثم دعوته للحملة في ألمانيا وإرسال قواته لبلاد الشام، والدور الذي قامت به هناك حتى فبراير سنة ١١٩٨م.

أما الفصل الثالث، وهو بعنوان: "حملة الإمبراطور فردريك الثاني على بلاد الشام"، فقد ألقيت فيه الضوء على حمل فردريك الصليب سنة ١٢١٥م دون الرجوع إلى البابوية في ذلك، ثم مماطلته في الخروج بالحملة الصليبية وموقف البابوين أنوسنت الثالث (١١٩٨- ١٢١٦م) Innocent III وهونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧م) Honorius III منه، وما جرى من سعى البابوية لزواج فردريك من إيزابيلا الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، وتعرضت أيضًا لمدى اهتمام فردريك ببلاد الشام بعد زواجه، ومدى استعداداته للحملة الصليبية، وتسوية وضعه في ألمانيا، وفي هذا الفصل ألقيت الضوء على الدعوة التي وجهها السلطان الكامل محمد الأيوبي إلى فردريك الثاني لقدومه لبلاد الشام؛ لمساعدته ضد أخيه المعظم وعالجت النزاع بين الإمبراطورية والبابوية الذي نشب بين البابا جريجوري التاسع (١٢٢٧-١٢٤١م) Gregory VII والإمبراطور فردريك الثاني. كما أشرت إلى بعض الأعمال الحربية التي قامت بها القوات التي أرسلها فردريك في بلاد الشام قبل قدومه، وتحدثت أيضًا عن قدوم فردريك لبلاد الشام وموقف الصليبيين منه، والموقف على الجبهة الإسلامية، وبدء المفاوضات بين فردريك والسلطان الكامل، وتوقفها من جانب الكامل، واستئنافها مرة أخرى حتى تم عقد اتفاقية يافا في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩م، وأثر تلك الاتفاقية على المسلمين والصليبيين، ودخول فردريك بيت المقدس ١٧ مارس ١٢٢٩م، والأحداث التي واكبت وجوده هناك، ثم عودته لعكا ورحيله إلى أوربا في مستهل مايو سنة ١٢٢٩م.

وفي الفصل الرابع والأخير، وهو بعنوان "هيئة منظمة التيوتون الألمانية في بلاد الشام من ١١٢٨ إلى ١٢٢٩م "تناولت نشأة منظمتي الداوية والإستبارية، ثم نشأة المستشفى الألماني في بيت المقدس وتطوره وانتقاله إلى عكا بعد سقوط بيت المقدس في أيدي صلاح الدين الأيوبي ثم تحول المستشفى الألماني إلى منظمة عسكرية عام ١١٩٨م.

وقد تحدثت عن رداء منظمة التيوتون، والنظام الإداري داخلها، ورؤسائها وممتلكاتها وقلاعها حتى سنة ١٢٢٩م.

وفي الخاتمة تناولت أهم النتائج التي توصلت إليها في البحث.

وأخيرًا وليس آخرًا، فمن الواجب إرجاع الفضل لأهله من ذوي الفضل، فخروج هذا العمل على هذا النحو يرجع إلى فضل أستاذي والأب الروحي المعين الذي لا ينضب، المؤرخ الأستاذ الدكتور/ محمود محمد على الحويري، والحق أقول: إن أستاذي ووالدي تحمل عبء الإشراف على هذا البحث منذ أن أختار لي هذا الموضوع، وإرشاداته وتوجيهاته العلمية خلال جمع المادة العلمية، ومراجعتها بعد الكتابة لأكثر من مرة، وفي كل مراجعة كانت توجيهات أستاذي تضفي على الكتابة رونقًا جميلاً، فإلى سيادته أقدم تقديري واحترامي وإعزازي وشكري، وفي القلب الكثير.

كما أقدم شكري لإخواني وأصدقائي الأستاذ عبد الحافظ عبد الخالق البنا المدرس المساعد بآداب الزقازيق، والأستاذ حاتم الطحاوي اللذين قدما لي بعض المصادر والمراجع التي خدمت الموضوع، وأقدم شكري واحترامي لأساتذتي وزملائي بقسم التاريخ بآداب سوهاج والأقسام الأخرى، وإلى العاملين بمكتبات جامعة القاهرة والجامعة الأمريكية ودير الآباء الفرنسيسكان والآباءالدومنيكان ومكتبة آداب سوهاج.

الدراسة النقدية للمصادر

دراسة تحليلية لأهم مصادر ومراجع البحث استعنت في هذه الدراسة بعدد كبير من المصادر الإسلامية والأوربية المعاصرة لفترة أحداث البحث والقريبة منها، فضلاً عن المراجع الحديثة، ولا يخفى على باحث التاريخ -لاسيما في فترة العصور الوسطى- أن المصادر الإسلامية والأوربية التي تناولت الحروب الصليبية كان مؤرخوها يسهبون دائمًا في الأحداث التي تناولوها، لاسيما عندما تكون هناك مواجهة بين المسلمين والصليبيين.

أما عن المصادر الإسلامية فقد اعتمدت في دراستي على المؤرخ ابن القلانسي في كتابه "ذيل تاريخ دمشق"، تحقيق أميدروز، (لبنان، ١٩٠٨م)، وابن القلانسي هو أبو يعلى حمزة بن راشد التميمي الدمشقي، ولد سنة ٤٧٢هـ/ ١٠٧٩م، وقد اهتم بدراسة العلوم الدينية، وشغل عدة مناصب إدارية هامة في دمشق والشام، منها رئاسته لديوان الإنشاء بمدينة دمشق، وليس من شك أن رئاسته للديوان جعلته في وسط أخبار الوقائع والأحداث، وقد أتيح له أن يعرف عن قرب أحداث الحربين الصليبيتين الأولى والثانية حتى وقت دخول نور الدين دمشق سنة ١١٥٤م.

وتناول ابن القلانسي أحداث المنطقة الواقعة بين سنتي ٣٦٠ و٥٥٥هـ.

والواقع أن روايته للأحداث جاءت مقتضبة جدًّا، ولكنها دقيقة، وهذا يرجع لقربة من الأحداث، ومن المعروف أنه أول من تعرض للحروب الصليبية من المؤرخين المسلمين، وعلى الرغم من أنه كان في دمشق غداه حصار الصليبيين لها، إلا أنه لم يترك لنا وصفًا لهذا

الحصار كما يجب، ولم يشر لنقل المعسكر الصليبيي من الجهة الغربية لمدينة دمشق إلى الجهة الشرقية، ومع ذلك فقد أفاد كتابُه البحث لما ذكره من إشارات لما تعرض له الجيش الألماني في آسيا الصغرى، إلى جانب وصول كنراد الثالث لبلاد الشام، ثم أثر حصار الألمان لدمشق على سكانها، لاسيما عندما وصل كنراد إلى نهر بردي.

وانفرد بن القلانسي بالإشارة إلى عودة بعض قوات الجيش الألماني من بلاد الشام قبل حصار دمشق، ولكن يؤخذ عيهِ إغفاله تمامًا الحديث عن مراسلات معين الدين آنر لأبناء زنكي.

ومن المصادر الهامة أيضًا التي أفادتني في كتابة البحث كتاب "الفتح القسي في الفتح القدسي" للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق محمد محمود صبيح (القاهرة، ١٩٦٥م)، والعماد الكاتب هو أبو عبد الله محمد بن صفي الدين أبي الفرج بن نفيس الدين، ولد في أصفهان سنة ٥١٩هـ (١١٣٢م) وتلقى بعض علومه الدينية في بغداد وبلاد الشام، وكان فقيها شافعيًا، عمل في خدمة نور الدين محمود بن زنكي بدمشق، وأشرف على ديوان الإنشاء ثم عمل في خدمة السلطان صلاح الدين الأيوبي، ولازمه في أوقات الحرب والسلم، وكان من خواصه ومستشاريه، وتوفى العماد الأصفهاني في مستهل رمضان سنة ٥٩٧هـ (يونيو سنة ١٢٠١م) ودفن بمقابر الصوفية بدمشق[1].

ويُعتبر كتاب "الفتح القسي في الفتح القدسي" من الكتب التاريخية الهامة لدراسة تاريخ الحروب الصليبية لاسيما في عهد صلاح الدين الأيوبي؛ نظرًا لأن العماد كان معاصرًا للأحداث، كما أنه كان قريبًا

---

١) الفتح بن على البنداري: من كتاب البرقة الشامي، للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق فتحية النبراوي، (القاهرة، ١٩٧٩م) ص٢-٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ١٣، (بيروت، ١٩٨١ - ١٩٨٢م)، ص ٣٠.

من صلاح الدين مما أتاح له أن يرى ويسمع عن قرب حروب السلطان مع الصليبيين بين سنتي ٥٨٣ و٥٨٩هـ. أي فترة استرداد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م)، والحملة الصليبية الثالثة التي شارك فيها الإمبراطور الألماني فردريك برباروسا.

والواقع أن أسلوب العماد فيه تكلفٌ وسجعٌ ومحسناتٌ بديعيةٌ ولفظيةٌ كثيرةٌ، ورغم ذلك فقد أفاد البحث من خلال إشاراته لبعض المصاعب التي تعرض لها الألمان في آسيا الصغرى خلال حملة فردريك برباروسا، وموقف قلج أرسلان الثاني منها، وغرق فردريك في ١٠ يونيو سنة ١١٩٠م، كذلك أشار بصفة عامة لأحداث الحملة بعد وفاة فردريك برباروسا وتولية ابنه فردريك دوق سوابيا، وما قامت به القوات الألمانية في بلاد الشام حتى وفاة دوق سوبيا في يناير ١١٩١م وانفرد العماد من دون المصادر الإسلامية المعاصرة بالإشارة إلى بعض التنظيمات الداخلية في ألمانيا قبل رحيل فردريك بالحملة الصليبية؛ وعلى العموم فالكتاب يعد من أعظم الوثائق وأجدرها بالثقة والاعتماد لبعض مراحل الحروب الصليبية.

وهناك مصدر هام استفدت منه كثيرًا وهو كتاب "النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية" تأليف ابن شداد، والذي حققه المرحوم الدكتور جمال الدين الشيال، (القاهرة، ١٩٦٤م).

وابن شداد هو أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم بن عتبة بن محمد بن عتاب الأسدي، ولد بالموصل في رمضان سنة ٥٣٩هـ (مارس ١١٤٥م)، ونشأ بها في رعايةٍ أخواله بني شداد فنسب إليهم، ولعل ذلك يرجع إلى وفاة والده المبكرة.

كان ابن شداد عالمًا من علماء الموصل، تولى التدريس والقضاء وعرف بالحكمة والاتزان، وقد اتصل بخدمة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م) عندما أتى لزيارة القدس بعد استرداد صلاح الدين

لها، وقد ولاه صلاح الدين قضاة العكسر، ومنذ ذلك التاريخ لم يفارق ابن شداد صلاح الدين حتى وفاة الأخير، وقد توفى ابن شداد في صفر ٦٣٢ هـ (نوفمبر ١٢٣٤م).

والجدير بالذكر، أن ابن شداد في كتابه "النوادر السلطانية" قد خلط بين نوعين من الكتابة وهي التدوين التاريخي Historiography والتراجم Biography، فكتابه يدور حول شخصية صلاح الدين ودوره في الجهاد ضد العدوان الصليبيي، وبهذا فهو سيرة للسلطان صلاح الدين أكثر منه تاريخا، وقد أفاد البحث في إشارته لبعض المخاطر التي تعرض لها فردريك بربار وسا وقواته في آسيا الصغرى، وأشار لموقف قلج أرسلان من فردريك، ووفاة الأخير وأحوال قواته بعده.

وتكمن أهمية النوادر السلطانية في أن مؤلفه كان معاصرًا للأحداث وشاهد عيان لمعظم ما دونه في هذا الكتاب، فجاءت كتابته دقيقة وصادقة، وامتاز ابن شداد بأسلوبه السهل وعرضه السلس الممتع، والجدير بالذكر أنه المصدر الوحيد بين المصادر الإسلامية المعاصرة الذي أشار لأثر وفاة فردريك دوق سوابيا على قواته.

وأفدتُ أيضًا من ابن الأثير في مؤلفه "الكامل في التاريخ"، وابن الأثير هو أبو الحسن على بن أبي الكرم الملقب بعز الدين والمعروف بابن الأثير، ولد بجزيرة ابن عمر الواقعة على نهر الفرات سنة ٥٥٥هـ (١١٦١م)، ونشأ بها ثم انتقل إلى الموصل حيث نشأ في كنف أمراء البيت الزنكي، وتنقل بين الموصل وبغداد ودمشق والقدس، وتُوفي بالموصل سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٤م) (١).

---

١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، جـ١، (القاهرة، ١٢٧٥هـ) ص ٤٩٤ - ٤٩٥.

ويقع مؤلفه "الكامل" في ١٣ جزءًا، ويتناول أحداث وتاريخ العالم منذ بدء الخليقة وحتى العصر الذي عاش فيه في النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي، وهو مكتوب على الطريقة الحولية.

وابن الأثير يكتب بأسلوب واضح وسلس، وهو من المؤرخين الموضوعيين إلى أقصى درجة في تناول أحداث الفترة التي عاشها وشاهدها في العصر الأيوبي.

لقد كان ابن الأثير أمينا ودقيقًا في نقل الحوادث، وكان عالمًا ناقدًا بصيرًا ذا ذهن متوقد، وهو يوازن التأريخ للأقطار الإسلامية موازنة تتسم بشمول النظرة. وجدير بالذكر أنه ليس هناك من القرائن والأدلة، ما يثبت أن ابن الأثير كان متعصبًا في روايته، أو متحاملاً على فريق دون آخر.

ويعتبر كتاب "الكامل" أساسًا لدراسة الحروب الصليبية؛ لأن ابن الأثير عاصر جزء هامًّا من حوادث تلك الحركة، وكان قريبًا من مواقع الأحداث، ولهذا جاء صادقًا فيما رواه عنها، ولكنه رغم ذلك يدين في عدد من رواياته لابن القلانسي وابن الجوزي والعماد الأصفهاني، كما أن العديد من المؤرخين الذين أعقبوه يدينون له في كثير مما كتبوه، لاسيما أبو شامة وبن واصل والنويري وأبو الفدا وابن الوردي وابن كثير وابن خلدون. وقد أفاد ابن الأثير البحث في الحديث عن دور معين الدين آنر في الدفاع عن دمشق وطب النجدة من سيف الدين غازي ابن زنكي أمير الموصل، وأحداث حملة فردريك برباروسا، والقوات التي أرسلها الإمبراطور الألماني هنرى السادس، وحملة الإمبراطور فردريك الثاني، واستغاثة السلطان الكامل الأيوبي بهذا الإمبراطور.

وثمة مصدرٌ هامٌ اعتمدت عليه هو كتاب "مرآه الزمان في تاريخ الأعيان" لمؤلفه ابن الجوزي، وهو شمس الدين أبو المظفر يوسف بن

فذاوغلي. ولد عام ٥٨٢هـ (١١٨٦م) ببغداد، وتعلم فيها وعاش معظم حياته في دمشق حيث عمل مدرسًا وكاتبًا، كان صديقًا للمعظم عيسى سلطان دمشق ومن بعده ابنه الملك الناصر داود، ولذلك وجدناه يقوم بإلقاء الخطبة في جامع دمشق الكبير عندما تنازل السلطان الكامل لفردريك الثاني عند مدينة بيت المقدس. وقد تُوفي ابن الجوزي سنة ٦٥٤هـ (١٢٥٦م)، ويعدُ كتابُه "مرآة الزمان" من المصادر الهامة التي لا غنى عنها لدراسة الأحداث المتعلقة ببلاد الشام في زمن حياة المؤلف. وقد ألقى الضوء على أحداث حملة الإمبراطور الألماني كنراد الثالث، وحملة الإمبراطور فردريك برباروسا وابنه فردريك دوق سوبيا وأحداث القوات الألمانية التي أرسلها الإمبراطور الألماني هنري السادس، وحملة الإمبراطور فردريك الثاني.

وقد انفرد ابن الجوزي دون غيره من المصادر الإسلامية المعاصرة بالإشارة إلى قيام قادة الصليبيين في الحملة الصليبية الثانية بتوزيع الأموال على قواتهم بعد اتخاذ قرار مهاجمة مدينة دمشق، وقيام الصليبيين بجمع الأتبان والغلال وإحراقها، وإن كان لم يذكر السبب في ذلك، وتوزيع القوات الصليبية حول دمشق وعددها.

أما أبو شامة، فهو عبد الرحمن بن إسماعيل، ولد بدمشق عام ٥٥٩هـ ١١٠٣م، وتلقى العلم على يد علماء أجلاء أمثال السخاوي، والعز بن عبد السلام، وقد سمي أبو شامة، لوجود شامة كبيرة على حاجبه الأيسر، ويؤرخ على الطريقة الحولية، ويبدأ السنة بالأحداث ذات الأثر الكبير، ثم ينهي السنة بذكر الذين حجوا وماتوا من الأعيان، وكثيرًا ما كان يتحدث عن الكوارث الطبيعية مثل الزلازل، وسقوط الأمطار، والمجاعات، ومن مؤلفاته في التاريخ: "كتاب الروضتين في أخبار الدولتين"، وقد توفي في سنة ٦٦٥هـ (١٢٦٧م)، وتألف كتابه إلى حد كبير من الاقتباسات المستمدة من ابن القلانسي وابن شداد،

والقاضي الفاضل، والعماد الأصفهاني. وقد أفاد البحث في إشارته إلى أحداث الحملات الصليبية الألمانية في آسيا الصغرى وبلاد الشام.

وهناك مصدر آخرُ يعتبرُ من أهم المصادر وهو كتاب "مفرج الكروب في أخبار بني أيوب" لمؤلفه جمال الدين محمد بن سالم بن واصل الذي ولد سنة ٦٠٤هـ (١٢٠٧م)، وعمل قاضيًا لحماة، وتوفي سنة ٦٩٧هـ (١٢٩٨م) وطنه الأصلي حماة، ولكنه طاف في بلدان الشرق الأدنى الكبرى، وأقام في القاهرة سنوات طويلة في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب، وهو ينقل عن ابن الأثير، وابن شداد، والعماد الأصفهاني، ويتحدث ابن واصل عن الأحداث تفصيليًّا وهذه ميزة تحسب له، وكان دائم السمع للروايات الشفهية، حيث نجده يقول "سمعت عن والدي"، والواقع أن كتاب "مفرج الكروب" يعتبر العمدة والمرجع لمعظم المؤرخين المسلمين الذين عاشوا بعد القرن السابع الهجري وكتبوا في العصر الأيوبي، أمثال أبي الفداء، والذهبي، والمقريزي وابن تغري بردي، وغيرهم وقد أفاد البحث في الفترة التي تناولتها الدراسة.

ومن المصادر الأخرى الذي أفاد منها الباحث في إلقاء الضوء على أحداث الحملات الألمانية في بلاد الشام كتاب "نهاية الأدب في فنون الأدب" لمؤلفه النويري، جـ ٢٨، تحقيق د. محمد محمد أمين ود. محمد حلمي محمد أحمد جـ ٢٩، تحقيق د. محمد ضياء الدين الريس، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة، (القاهرة، ١٩٩٢م) كما رجعت أيضًا إلى أبي الفدا في كتابه "المختصر في أخبار البشر، جـ ٣، م٢، (بيروت، ب.ت)، أما الذهبي فقد اعتمدت على كتابه "دول الإسلام" جـ ١، جـ ٢، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، (القاهرة، ١٩٧٤م) واستفدت أيضًا من كتاب "تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي" جـ٢، بيروت،

١٩٧٠م)، ومن "البداية والنهاية" لابن كثير، جـ ١٢، جـ١٣، (بيروت ١٩٨١م - ١٩٨٢م)، وابن الفرات في كتابه "تاريخ ابن الفرات" جـ٢، م٤، تحقيق حسن محمد الشماع، (العراق، ١٩٦٩م). وثمة مصدر آخر أفاد البحث وهو كتاب "العبر وديوان المبتدأ والخبر" لمؤلفه ابن خلدون، جـ٥، القسمين الأول والرابع(القاهرة، ١٢٨٤هـ) وهناك مرجع آخر يعتبر من أهم المراجع وهو كتاب "السلوك لمعرفة دول الملوك" جـ١، ق١، لمؤلفه المقريزي، تحقيق مصطفى زيادة، (القاهرة، ١٩٣٤م).

هذا فضلاً عن عدد آخر من المراجع العربية الحديثة والمعربة التي أصبحت تسد فجوة كبيرة في تاريخ أوربا العصور الوسطى عامة والحروب الصليبية خاصة. وأهم هذه المراجع على سبيل المثال، مؤلفات الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور "أوربا العصور الوسطى، جزءان" و"الحركة الصليبية، جزءان" و"قبرس والحروب الصليبية" والتي أفادت البحث في إشارتها إلى أوضاع ألمانيا السياسية، والنزاع بين البابوية والإمبراطورية قبيل بدء الحروب الصليبية، وهي الإشارة إلى أحداث الألمان في بلاد الشام، كما رجعت إلى كتاب "نور الدين محمود" سيرة مجاهد صادق" لمؤلفه الدكتور حسين مؤنس، وكتاب "الشرق الأوسط والحروب الصليبية" جـ١، لمؤلفه الدكتور السيد الباز العريني. وأفادني أيضًا كتاب الدكتور إسحق تاوضروس عبيد وهو تحت عنوان "روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قنسطنطين (٨٦٩-١٢٠٤م) "وكتاب "العصور الوسطى الأوربية" للدكتور عبد القادر أحمد اليوسف.

وثمة كتب أخرى أفادت البحث هي: كتاب "الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد" وكتاب "العادل الأيوبي" لمؤلفه الدكتور محمود محمد على الحويري،

وكتاب "السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومننوس (١١٤٣ – ١١٨٠م "لمؤلفه الدكتور محمود سعيد عمران.

أما أنتوني بردج فقد استفدت من كتابه "الحروب الصليبية" ترجمة أحمد غسان سبانو ونبيل الجيروي، وهناك كتب أخرى أفادت البحث في كل فصوله هي: كتاب "التاريخ الوسيط، قصة حضارة البداية والنهاية" لمؤلفه نورمان ف – كانتور، جـ ١، ترجمة الدكتور قاسم عبده قاسم، وكتاب "عماد الدين زنكي" للدكتور عماد الدين خليل، وكتاب "شمس الله على الغرب" للدكتورة سيجريد هونكة ترجمة الدكتور فؤاد حسنين علي.

والجدير بالذكر أن أهمية هذا الكتاب تكمن في الحديث فقط عن بعض أحداث حملة الأمبراطور فردريك الثاني، وكتاب "الزنديق الأعظم، قصة حياة الإمبراطور فردريك الثاني" لمؤلفه جوزيف جاي ديس، ترجمة أحمد نجيب هاشم، وأفادني هذا المرجع في تغطية بعض أعمال الإمبراطور فردريك في ألمانيا وصقلية والنزاع بين فردريك والبابوية.

أما عن المصادر الأوربية فقد اعتمدت في دراستي على المؤرخ وليم الصوري في كتابه:

William of Tyre: A History of Deeds Done beyond the sea.

والكتاب مدون باللغة اللاتينية ومنشور في مجموعة الحروب الصليبية" مجموعة المؤرخين الغربيين".R.H.C.H.Occ وقام الدكتور حسن حبشي بترجمة جزأين من الجزء الأول من الطبعة الإنجليزية بعنوان "الحروب الصليبية" (القاهرة، ١٩٩١، ١٩٩٢).

وقد اختلف المؤرخون في سنة مولد وليم الصوري، فمنهم من يرى أنه ولد سنة ١١٢٧م وعلى رأس هؤلاء المؤرخ الإنجليزي "بيوري" ومنهم من يرى أنه ولد سنة ١١٣٠م، ولكنهم لم يجزموا بذلك؛ لأنهم حين يشيرون إلى سنة مولده يقولون "حوالي سنة ١١٣٠م". وإذا كان المؤرخون يجهلون سنة مولده فإنهم يجهلون أيضًا أصل أسرته، مما جعل بعض المؤرخين المحدثين يقولون إنه كان من أسرة من عامة الناس في القدس، وقد أدى ذلك إلى التضارب في أصله، فهناك من يعتبره إيطاليًّا، وهناك من يعتبره إنجليزيًّا، وهناك من يعتبره ألمانيًّا وآخرون يعتبرونه فرنسيًّا.

ولكن وسط تضارب هذه الآراء يمكن القول إن وليم الصوري ولد في بيت المقدس حوالي سنة ١١٣٠م (٥٢٤هـ)، وهو ينتمي لأسرة فرنسية شاركت في الحملة الصليبية الأولى، وقد عاش وليم الصوري فترة شبابه في الشرق الإسلامي، وأتقن اللغة العربية واليونانية والفرنسية، وقضى شطرًا كبيرًا من حياته طالبًا للعلم سواء في مملكة بيت المقدس اللاتينية أو في فرنسا أو إيطاليا، وبعد أن أمضى عشرين سنة في أوربا، عاد إلى الأراضي المقدسة سنة ١١٦٥م (٥٦٠هـ)، وعمل في خدمة عموري الأول، ومشرفًا على ديوان الرسائل في بلاط مملكة بيت المقدس، ثم عين عام ١١٦٧م كبيرًا لشمامسة صور، ومات وليم الصوري سنة ١١٨٤م (٥٨٠هـ) في روما وهو يتطلع في حسرة لأن يكون بطرك بيت المقدس(١).

---

١) وليم الصوري: الحروب الصليبية، ترجمة حسن حبشي، جـ١، (القاهرة، ١٩٩١م)، ص١٠ – ٢٥؛ الباز العريني: مؤرخو الحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٦٢م)، ص ١٠١ – ١٠٣، ١١٠ – ١١٣، ١٤٥ – ١٥٦.

نظير حسان سعداوي: المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين، (القاهرة، ١٩٦٢م) ص٤١ – ٤٢؛ =

ويعتبر كتاب وليم الصوري موسوعة في تاريخ الحروب الصليبية، وتكمن أهميته في أنه يتناول فترة طويلة من تاريخ الصليبيين، امتدت من سنة ١٠٩٤م (٤٨٧هـ) إلى ١١٨٤م (٥٨٠هـ). وقد اعتمد في تدوين كتابه على مؤلفات بعض المؤرخين الصليبيين الذين عاصروا الأحداث مثل فوشيه من شارتر وألبرت دكس وغيرهم، كما اعتمد على روايات شهود العيان والوثائق الملكية ويذكر بعض المؤرخين أن وليم الصوري اعتمد على الأحاديث الشفهية والمكتوبة حتى سنة ١١٢٧م من ذاكرة الرجال والنساء الأكبر منه سناً لتغطية الأحداث السابقة، ومن سنة ١١٢٧ إلى ١١٤٣م اعتمد على الأحاديث الشفهية والأرشيفات، ومن سنة ١١٤٣م من المحتمل أن يكون وليم الصوري قد تجاوز الثلاثة عشرة سنة وأصبح واعيًا لسير الأحداث.

وتبرز أهمية وليم الصوري بالنسبة لموضوع الدراسة في تغطية دور الألمان في الحملة الصليبية الثانية في الجزء الثاني من كتابه الذي اعتمدت عليه، والواقع أن وليم الصوري ألقى الضوء على سقوط مدينة الرها سنة ١١٤٤م (٥٣٩هـ) في أيدي عماد الدين زنكي، وقد تحدث وليم الصوري بصورة عابرة عن خط سير الحملة الألمانية بقيادة كنراد في منطقة البلقان. أما قيمة مؤلفه فتبدأ منذ وصول الإمبراطور الألماني كنراد الثالث إلى القسطنطينية في ١٠ سبتمبر سنة ١١٤٧م (١٢ ربيع ثاني ٥٤٢هـ). وقد أفاض وليم في الحديث عن أحداث الحملة الألمانية في آسيا الصغرى، وتحدث عن هروب المرشدين البيزنطيين وتركهم الجيش الألماني، والجدير بالذكر أن وليم

= عمر كمال توفيق: المؤرخ وليم الصوري، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية م٢١، (١٩٦٧م)، ص١٨١-٢٠٠.

الصوري تحامل جدًا على هؤلاء المرشدين ووصفهم بالخونة، كما روى أن السلاجقة قدموا لهم رشوة لترك الجيش الألماني أو أن هروبهم كان بأمر من مانويل إمبراطور بيزنطة الذي تحامل عليه وليم تحاملاً كبيرًا.

وأفادني وليم الصوري في الحديث عن الاجتماع الصليبيي في عكا في ٢٤ يونيو سنة ١١٤٨م وتوجه الحملة الصليبية إلى دمشق، وقد انفرد وليم بذكر تفاصيل حصار دمشق ودور الجيش الألماني في هذا الحصار، وحاول أن يظهر كنراد الثالث في صورة للبطل الأسطوري، فأضفى عليه هالة من العظمة، وروى الطريقة التي يحارب بها الألمان، إذ كانوا يفضلون الحرب وهم مرتجلين.

وتجدر الإشارة إلى أن وليم الصوري كان يصف المسلمين بالوثنيين تارة وبالأعداء تارة أخرى، ولذلك لابد من توخى الدقة والحذر عند رجوعنا إلى كتابه. وعلى الرغم من كل المآخذ التي تؤخذ عليه، إلا أن كتابه لا غنى عنه للباحث في تاريخ الحروب الصليبية.

وهناك مصدر هام أفدت منه وهو كتاب "أعمال يوحنا ومانويل كومنين"

Deeds of John and Manuel Comnenus.

لمؤلفه يوحنا كيناموس John Kinn amos، وقام بترجمته من اليونانية إلى الإنجليزية تشارلز م. براند، نيويورك ١٩٧٦م، والكتاب منشور باللغة اليونانية ومذيل بترجمة لاتينية في مجموعة C.S.H.B.(Bonn, 1836) بعنوان "مختصر التاريخ" Epitime Historiarum.

والحقيقة أن المعلومات المتوفرة عن يوحنا كيناموس قليلة، فمسقط رأسه غير معروف، ويبدو أنه ولد حوالي ١١٤٣م (٥٣٧هـ)، وهو أحد المؤرخين الذين عاصروا الأسرة الكومنينية، وقد عمل حاجبًا

للإمبراطور مانويل، وكتابه يعتبر ذيلاً على كتاب آنا كومنينا المعروف باسم الكسياد Alexied (أعمال ألكسيوس)، وقد أفرد يوحنا كيناموس كتابه لعهدى يوحنا ومانويل، أي ابتداء من عام ١١١٨ حتى ١١٧٦م، ويُعتبر ما كتبه كيناموس من المصادر الهامة في التاريخ البيزنطي التي تناولت جانبًا من القرن الثاني عشر الميلادي. وكان يوحنا كيناموس معاصرًا لزميله نيكتاس، ويعد من أشد المتحمسين للإمبراطورية البيزنطية التي كان يسميها دائمًا بالرومانية.

وكتاب "أعمال يوحنا ومانويل وكومنين" من أهم المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في التاريخ البيزنطي لفترة مانويل، وما تركه من مادة تمتاز بالدقة والمعرفة، وقد وردت المادة التاريخية حسب ترتيبها الزمني في سرد الوقائع، وينقسم الكتاب إلى سبعة فصول، يهمنا منها الفصل الثاني الذي تضمن الأحداث منذ بداية حكم مانويل وحتى عام ١١٥٢م (٥٤٧هـ)، وقد روى كيناموس في هذا الفصل أحداث الحملة الصليبية الثانية وعلاقة الإمبراطور البيزنطي مانويل بالإمبراطور الألماني كنراد الثالث أثناء عبور الأخير على رأس الجيش الألماني لآسيا الصغرى.

وقد تناول هذا المصدر معالجة أحداث الحملة الصليبية الألمانية منذ تحرك الجيش الألماني من راتسبون "رجنسبورج" في ١٥ مايو سنة ١١٤٧م، مرورًا بأحداث الحملة في منقطة البلقان حتى عبورها إلى آسيا الصغرى. وقد روى كيناموس بعض الأحداث التي تعرض لها الألمان في آسيا الصغرى، وعودة كنراد الثالث من أفيسوس إلى القسطنطينية، ثم مغادرته القسطنطينية إلى بلاد الشام. وتبرز الأهمية الكبيرة لهذا المصدر في ذكر الرسائل المتبادلة بين الإمبراطور البيزنطي مانويل والإمبراطور الألماني كنراد الثالث في البلقان وآسيا الصغرى.

وما يؤخذ على كيناموس تحيزه الواضح للبيزنطيين، وكراهيته للألمان، وقد ظهر ذلك في وصفه للبيزنطيين "بالرومان" أما الألمان فكان دائم الوصف لهم "بالبرابرة"، وكان دائم السخرية من الجيش الألماني، إذ كان يعتبرهم مجموعة من الهمج الذين ليس لديهم دراية بالحروب، وقد برز ذلك في أحد أقواله: "من الآن على البرابرة أن يتعلموا من قوة الرومان". وفي الوقت الذي كان يصف فيه مانويل بلقب "إمبراطور" كان يصف كنراد الثالث بلقب المتعجرف "ولم يلقبه بلقب إمبراطور.

ومن أهم المصادر التي أفدت منها "وثائق متعلقة بالحروب الصليبية" مكملة لتاريخ وليم الصوري من سنة ١١٨٤م إلى سنة ١١٩٧م" التي قام بنشرها مورجان:

Morgan (M.R.): Documents Relatifs Al 'Histoires des Croisades la Continuation de Guillaum de tyr (1184-1197).

وهي منشورة باللغة الفرنسية القديمة من قبل مورجان، ولكنها مجهولة المؤلف وهذه الوثائق أرخت للفترة التي تبدأ من سنة ١١٨٤م – وهي سنة وفاة وليم الصوري– إلى سنة ١١٩٧م، وبهذا فهي شملت فترة من أهم فترات الحروب الصليبية، والمتمثلة في معركة حطين واسترداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، والحملة الصليبية الثالثة التي شارك فيها الإمبراطور الألماني فردريك برباروسا، كذلك شملت جهود الإمبراطور الألماني هنري السادس الصليبية على بلاد الشام. وعلى هذا فلا غنى عنها لدارسي الحروب الصليبية وعلى وجه الأخص دارسي هذه الفترة.

وبرزت أهمية هذه الوثائق بالنسبة للبحث في الفصل الثاني، حيث سردت الأحداث منذ خروج الإمبراطور فردريك بربااروسا

بحملته الصليبية حتى وفاته بما فيها أحداث البلقان وآسيا الصغرى. وقد انفردت الوثائق دون غيرها من المصادر المعاصرة بكيفية وفاة فردريك في نهر السالف في ١٠ يونيو سنة ١١٩٠م. ولكن ما يؤخذ عليها أن مؤلفها جعل السلطان قلج أرسلان الثاني سلطان السلاجقة في قونية هو الذي تقابل مع فردريك في المعركة التي حدثت أمام مدينة قونية، في حين أن الذي تقابل مع فردريك هو قطب الدين ملكشاة ابن السلطان.

ويعتبر تاريخ هرقل Eracles من المصادر الصليبية الهامة لدراسة تاريخ الحروب الصليبية والعلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، والكتاب منشور باللغة الفرنسية القديمة في الجزء الثاني من "مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية المؤرخين الغربيين R.H.C.H.Occ. وهو مكمل لتاريخ وليم الصوري، ولم يُعرف مؤرخه، والكتاب منشور في نسختين الأولى موضوعه في المتن والثانية في الهامش تحت الحواشي، وتتفق النسختان في معظم الأحداث التي تعرض لها كتاب تاريخ هرقل. ولقد قام أحد رجال لويس التاسع ملك فرنسا في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي بترجمة كتاب وليم الصوري إلى الفرنسية القديمة، وأضاف إليه ما عرف باسم "تاريخ هرقل" Estoire de Eracles وقد سماه بهذا الاسم؛ لأن أول كلمة افتتح بها الكتاب هي "الإمبراطور هرقل".

وتناول تاريخ هرقل أحداث فترة طويلة وهامة امتدت خلال السنوات (١١٨٤-١٢٧٧م / ٥٨٠-٦٧٦هـ). وجدير بالذكر أن تاريخ هرقل يعتبر صورة طبق الأصل من الوثائق التي قام مورجان بنشرها، ولم يختلف عنها إلا في بعض السطور، ولذلك تكمن أهميته بالنسبة للبحث في توثيق الحقائق التي جاءت في وثائق مورجان، وقد روى أحداث حملة الإمبراطور فردريك الثاني، واختلف مع المصادر

الإسلامية في بعض نقاط معاهدة يافا التي عقدها فردريك مع السلطان الكامل في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩م (٦٢٦هـ).

كذلك أفدت من مصدر هام هو "حولية الحملة الصليبية الثالثة" (١١٨٩-١١٩٠م) Chronicle, The Third Crusade, 1189 – 1190.

ومؤلفها هو القديس أوتو من بلاسين Otto of. St. Blasien، ويتناول فيها أحداث حملة الإمبراطور فردريك بربار وسا.

وأفدت أيضًا من الوثائق التي جمعها جيمس برنداج J.A.Brundage وعنوانها "حصر لوثائق الحروب الصليبية" The Crusaders ADocumentary Survey.

وإلى جانب المصادر اللاتينية والبيزنطية والفرنسية القديمة، رجعت إلى عدد كبير من المراجع الأجنبية الحديثة التي عالجت الوضع السياسي في ألمانيا قبيل بدء الحروب الصليبية، والتي عالجت تاريخ الحركة الصليبية. ومن أهم هذه المراجع –على سبيل المثال وليس الحصر– كتاب "تاريخ الحروب الصليبية" Histoire des Croisades ومؤلفه ميشو Michaud وهو يقع في أربعة أجزاء، وهو من الكتب الهامة التي تتناول تاريخ الحروب الصليبية في الشرق الأدنى.

ومن المراجع القيمة التي تناولت تاريخ الحروب الصليبية في الشرق الأدنى والتي لا غنى عنها لدارسي الحروب الصليبية كتاب "تاريخ الحروب الصليبية ومملكة فرنسا في بيت المقدس".

Histoire des Croisades et du Royaume France de Jerusalem.

ومؤلفه رينية جروسية R.Grousset، وهو يقع في ثلاثة أجزاء.

وثمة كتاب آخر أفادني في الفصل الثاني هو "صلاح الدين، بطل الإسلام" .

Salah Din, le plus pur Heros Dl' Islam.

ومؤلفه تشامبيدور .Champdor A

وهناك كتب أخرى أفدت منها في دراسة موقف بيزنطة من الأباطرة الألمان عند مرورهم بحملاتهم الصليبية من البلقان منها كتاب "تاريخ الإمبراطورية البيزنطية" Histoire de L'Empire Byzantine ومؤلفه المؤرخ الروسي فازيليف Vasiliev وهو يقع في جزأين.

وعند دراستي لأوضاع ألمانيا السياسية قبيل بدء الحروب الصليبية اعتمدت على عدة كتب ومقالات منها كتاب "العصور الوسطى حتى حرب المائة عام.

Le Moyen Age, Jusqu'a La' querre de Cent Ans.

ومؤلفاه هما ألبرت مالت وجولس إزاك Albert Malet and Jules Isac ومقالات بروك "ألمانيا تحت هنري الرابع وهنري الخامس".

"Germany under Henry IV and Henry V".

و "جوريجوي السابع والنزاع الأول بين الإمبراطورية والبابوية"

"Gregory VII and the First Contest between Empire and The Papacs."

وهذه المقالات منشورة في مجموعة كمبريدج في تاريخ العصور الوسطى، الجزء الخامس Combridge Medieval History, vol., .V.

وثمة كتاب آخر تناول بعض أحداث الفصل الثالث، أفدت منه أيضًا هو "فردريك الثاني ١١٩٤-١٢٥٠م" Frederick the second

1250 – 1194 ومؤلفه كانتروفيتز Kantorowicz وهذا الكتاب أصلاً باللغة الألمانية وقام بترجمته إلى اللغة الإنجليزية لوريمر Lorimer (E.O.).

ومن الكتب التي تناولت اتفاقية يافا بين الإمبراطور فردريك الثاني والسلطان الكامل كتاب "الملك الكامل سلطان مصر وعصره".

Al- Malik Al-Kamil von Egypten und seine zeit.

ومولفة جوتشولك Gottschalk، وهو منشور باللغة الألمانية.

ومن المقالات القيمة التي اعتمدت عليها والتي أفادتني كثيرًا في البحث مقالة "الحملة الصليبية الثانية" "The second Crusade ومؤلفه بري Perry.

ومقالة "الحروب الصليبية لكل من فردريك بربااروسا وهنري السادس" "The Crusades of Frederick Barbarossa and Henry VI" ومؤلفه جوشن Johson (Edager. N).

ومقالة "حملة فردريك الثاني الصليبية"

"The Crusade of Frederick II"

ومؤلفه فان كليف Van Cleve (T.C.).

ومقال "الفرسان التيوتون في الولايات الصليبية"

"The Teutonic Knights In The Crusader States"

ومؤلفه سترنز Sterns

وهذه المقالات منشورة في كتاب "الحروب الصليبية" History of the Crusade الذي حرره ستون، الجزءان الثاني والخامس.

وبعد، فإن هذه أهم مصادر ومراجع البحث وليست كلها، وبصرف النظر عما إذا كان هذا البحث قد أتيت فيه بالجديد من المادة العلمية، فإنه على قدر طاقتي محاولة متواضعة.

تمهيد

الأوضاع السياسية في ألمانيا قبيل الحروب الصليبية

- الحروب الأهلية داخل ألمانيا.
- العلاقات بين البابوية والإمبراطورية.



الأوضاع السياسية في ألمانيا
قبيل الحروب الصليبية

إن الأوضاع السياسية التي سادت في ألمانيا قبيل الحروب الصليبية كان لها أثر كبير عليها، وقد تمثلت هذه الأوضاع في الحرب الأهلية التي نشبت بين الأمراء الألمان والإمبراطور الألماني هنري الرابع (١٠٥٦ - ١١٠٦م) كما شملت أيضًا النزاع بين البابوية والإمبراطورية.

- الحروب الأهلية داخل ألمانيا:

الواقع أن الحرب الأهلية التي نشبت بين الأمراء الألمان والإمبراطور هنري الرابع لم تظهر من فراغ ولكنها نشبت بسبب مجموعة من الأسباب التي تمسك بها كل من الأمراء والإمبراطور، والتي اعتبرها كل منهم حق من حقوقه وأن تنازله عن هذا الحق يعني ضياع هيبته وكرامته.

وجدير بالذكر، أنه لم تكن توجد في أوربا بلاد تسمى ألمانيا، بل كل ما كان يوجد فيها هي القبائل الألمانية[١]، وبدون إمبراطورية الفرنجة، وبصفة خاصة، بدون شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤م) Char Imagne، لم يكن مستطاع أن تكون هناك ألمانيا، وذلك لأنه جعل السكسون والبافاريين الذين حاربهم في الفترة من ٧٧٢ إلى ٨٠٤م على قدم المساواة مع الفرنجة الفاتحين، وبذلك يكون شارلمان قد خلق ألمانيا من العدم وأدخلها إلى حيز الوجود السياسي[٢].

---

١) ول ديورانت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران، جـ ٣م٤، (القاهرة، ١٩٦٥م)، ص٣٢٢.

2) Blockwe II (B.) : Mediaveal Germany 911 – 1250, Essay by German History, Tr., by Geoffrey barraclough, vol. II, (Oxford, 1961)p.69;=

وعند التقسيم الذي حدث في معاهدة فردن Verdun سنة ٨٤٣م، حصل لويس الألماني (٨٤٣ – ٨٧٦م) Lewis The German على الأراضي التي كانت تتحدث الألمانية وهي بافاريا Bavaria سوابيا Swabia وسكسونيا Saxony وثورانجيا Thuringa ومعظم فرانكونيا الشرقية Franconia وهذه الدوقيات التي كانت تشكل ألمانيا، كان يجاورها من الغرب نهر الراين ومن الجنوب جبال الألب، ابتداء من سان جارثاسد Jarthasd إلى منابع نهر دراف Drave في الجنوب الشرقي ومن الشرق جبال بوهيميا، ومن الشمال نهري الألب والسال Saale. وقد سميت المنطقة التي خصصت للويس الألماني فرنكيا الشرقية، ولكنها اتخذت اسم جرمانيا بعد ذلك، ودعاها الفرنسيون ألمانيا، بينما دعاها مواطنوها دتش لاند Dutsh land، أي أرض الألمان[1].

= هـ.أ.ل. فيشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ترجمة محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني، ط٦ (القاهرة، بدون تاريخ)، ص٩٥؛

عفاف صبرة: الإمبراطوريتان البيزنطية والرومانية زمن شارلمان، (القاهرة، ١٩٨٢م)، ص ٥٤ – ٥٧.

(1) Ashour (Said) and Rabie (Hassane in): Fifty Documents in Medieval History, First Edition (Cairo 1971), pp..36-37;

Orton (C.W): The short Cabmbridge Medieval History, Vol. I, second edition (London 1953) p.344;

Malet (Albert) and Isac (Jules): Le Moyen Age Jusque la querre de Cent Ans (Paris, 1927), p.180- Blockwell: op. cit.,p.69;

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ط٨، (مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٨١م)، ص ٢١٤ – ٢١٥؛

ول ديورانت: المرجع السابق، جـ ٣، ٥٤، ص ٣٢٢ – ٣٢٣؛ =

وعلى الرغم من أن السكان الألمان جاءوا من أصل واحد، وتحدثوا اللغة الألمانية، إلا أنهم كانوا منقسمين إلى عدة قبائل لكل منها عاداتها وتقاليدها وتاريخها ومشاكلها وخصائصها الجغرافية الخاصة بها. ولم يكن المستوى الحضاري مرتفعًا بين شعوب تلك القبائل التي كانت تضم طبقة كبيرة من المزارعين أصحاب الأراضي الحرة، وفيما عدا فرانكونيا كان البلد فقيرًا، وكانت المدن قليلة توجد في وادي الراين(١).

والجدير بالذكر، أن لويس الأول الألماني كان حاكمًا سياسيًا من الطراز الأول ففي عهده كانت فرانكيا الشرقية أقوى من فرانكيا الغربية حتى أنه قام بغزو فرانكيا الغربية، ولكن على أثر وفاته في عام ٨٧٦م، قسمت ألمانيا بين أولاده، فأخذ كارلومان Carloman بافاريا، وأخذ لويس الثاني سكسونيا وفرانكونيا، وأخذ شارل السمين سوابيا، ولكن خلال فترة حكمهم لم تنعم ألمانيا بالاستقرار، بسبب الحروب الأهلية، والتعرض لغارات النورمان، وبعد عشر سنوات من الفوضى اختير أرنولف (٨٨٧ – ٨٩٩) Arunlf ابن كارلومان لحكم ألمانيا التي بلغت في عهده أعلى درجة من القوة، إلا أنه على أثر وفاته في ديسمبر عام ٨٩٩م، وتولى ابنه لويس الثالث (٨٩٩ – ٩١١م) البالغ من العمر ست سنوات العرش الألماني، عمت الفوضى

= رأفت عبد الحميد: "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م٢، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٣م)، ص٩٣ – ٩٤؛

إبراهيم أحمد العدوي: المجتمع الأوربي في العصور الوسطى، (مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٨٤م)، ص ١١٧.

(1) Malet and Isac: op.cit.,p.181;

فيشر: المرجع السابق، ص ١٠٢؛

رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص ١٠٠.

جميع أنحاء ألمانيا، كما تعرضت لغارات الماجيار (المجريين) Magyar، وقد أدت هذه الفوضى إلى استقلال الأمراء الألمان عن الحكومة المركزية في ألمانيا كما أن كلا منهم أصر على تلقيب نفسه بلقب دوق، ونظرًا لأن الحكومة المركزية عجزت عن حمايتهم ضد الأخطار الخارجية، فقد وجب عليهم تحمل عبء الدفاع عن أراضيهم، وفي سبيل تكوين قوات خاصة بهم، أقطعوا الأراضي لأتباعهم مقابل قيامهم بالخدمة العسكرية، فانقسمت ألمانيا آنئذ إلى دوقيات بحسب ما كان بها من شعوب متميزة، فكان هناك دوقية سوابيا، وبافاريا، وفرانكونيا، وسكسونيا، وأصبح لكل دوقية من تلك الدوقيات حاكمًا وطنيًا له بلاطه وجيشه، وبذلك أصبح قيام حكومة مركزية أوتوقراطية في ألمانيا أمرًا صعبًا منذ ذلك الوقت[١].

ولكي يحافظ الدوقات الألمان على استقلالهم عن الحكومة المركزية نجد أنهم على أثر وفاة لويس الثالث عام ٩١١م، وانتهاء سلالة البيت الكارولنجي الحاكم في ألمانيا، أعلنوا أنه لابد من انتخاب الملك الذي سيتولى العرش الألماني، وقد شاركهم في ذلك رجال الدين بشرط أن يكون هذا الملك ألمانيا وليس فرنسيا. وهكذا راح الدوقات الألمان يعطون التاج الألماني تارة لدوقات سكسونيا، وتارة أخرى لدوقات فرانكونيا وسوابيا[٢].

---

[1]) Orton: op.cit.,vol. I, pp. 348 – 351, 356;

Malet and Isac: op.cit.,p. 181;

ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٣ م٤، ص ٣٢٣؛

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٨٩ – ٢٩٤.

[2]) Blockwe ll: op.cit., P.69;

ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٣، م٤، ص٣٢٣:

رأفت عبد الحميد: المرجع السابق، ص ٩٠.

والحقيقة أن كل دوقية من الدوقيات الألمانية لم تكن ترتبط بالعائلة الملكية الحاكمة إلا برباط فيدرالي فقط، فقد كانت الدوقيات مستقلة تمامًا في شئونها الداخلية، حيث كان لكل منها قانونها الخاص الذي تحكم به أفراد القبيلة، وجيوشها التي تستعملها في حماية حدودها. ولكن هذه الحقوق الداخلية كانت تزيد أو تنقص تبعًا لشخصية الإمبراطور الحاكم، وطبقًا أيضًا لشخصية وقوة الدوق نفسه. فعلى سبيل المثال، عندما أخضع هنري الأول (٩١٨ – ٩٣٦م) دوق سوابيا بوركهارد Burchard، سلب منه حق تعيين رؤساء الأساقفة في سوابيا، أما أرنولف دوق بافاريا فبرغم خضوعه لهنري فإنه تمسك بحق تعيين الأساقفة، وسك العملة، وقيادة الحملات العسكرية[١].

ومن العوامل التي ساعدت على استقلال الدوقات عن التاج الألماني، وعدم قيام حكومة ألمانية قوية تلزمهم بالخضوع لها، تدخل الأباطرة الألمان في شئون إيطاليا[٢]. وقد بدأ هذا التدخل أوتو الأول Otto I (٩٣٦ – ٩٧٣) عندما استنجدت به أرملة لوثر ملك إيطاليا ضد برنجار الثاني ملك إيطاليا الجديد، فأسرع أوتو الأول إلى غزو لمبارديا سنة ٩٥١م حيث تزوج من تلك الأرملة وأجبر برنجار على الاعتراف بالتبعية له. كما أن البابا حنا الثاني عشر استنجد به أيضًا ضد برنجار الثاني عدة مرات بين سنتي ٩٥٧ و٩٦١م، فدخل أوتو الأول روما سنة ٩٦٢م، وقام البابا بتتويجه إمبراطورًا في فبراير من العام نفسه[٣].

---

1) Blockwe II: Mediaveal Germany, pp. 69-70;
Orton: The short Camb.Med.Hist.,vol. I,p. 430.

2) Lyon (Bryce) and others: History of the western world, second Edition, vol. I, (U.S.A.1974) p.196.

٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٠٠ – ٣٠٣.

والجدير بالذكر، أن أوتو الأول كان المثال لمن جاء بعده من الأباطرة الألمان بخصوص إيطاليا، ومن ثم فإن أباطرة ألمانيا بتدخلهم في شئون إيطاليا حرموا ألمانيا من وحدتها السياسية، ولم يتمكنوا من تكوين حكومة مركزية قوية في ألمانيا من شأنها أن تكون قادرة على إخضاع الدوقات الألمان[١].

ولكن بعض ملوك ألمانيا مثل هنري الثالث (١٠٣٩ – ١٠٥٦) Henry III لم يرضه وضع الدوقات الألمان، فحاول إرساء دعائم ملكية قوية وإقامة حكومة مركزية[٢]، فقام بتشييد القلاع في دوقيتي ثورنجيا وسكسونيا، وملأ تلك القلاع بحاميات من الفرسان التابعين له، وكان هدفه من ذلك ربط دوقية سكسونيا بدوقية فرانكونيا. كما أقام له عاصمة عند قلعة جوسلر Goslar في سكسونيا، وتمكن آنئذ من إخضاع النبلاء السكسون والفلاحين هناك إلى نفوذه، ولكن فرض الملكية الثيوقراطية على الدوقات السكسون كان يمثل بالنسبة لهم سلب حق من حقوقهم، لاسيما إذا علمنا أنهم ما يزالون متمسكين بنظامهم القبلي أكثر من أي شعب ألماني آخر، ولهذا فإنهم كانوا يتحينون الفرصة للتخلص من القيود التي فرضها عليهم هنري الثالث[٣].

---

1) Lyon and others: op. cit., pp.195-196;
Blockwe II: op.cit.,p. 97.

٢) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، عالم المعرفة، العدد ١٤٩ (مطابع السياسة الكويتية، مايو ١٩٩٠م)، ص ٧٤.

3) Blockwe II: op. cit., pp. 69-97;
نورمان –ف– كانتور: التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، جـ٢، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٦م)، ص٣٦١، ص٣٧٣؛
ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٣، م٤، ص٣٢٨.

توفي الإمبراطور هنري الثالث في ٥ أكتوبر سنة ١٠٥٦م، فخلفه على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة ابنه هنري الرابع الذي لم يكن يتجاوز السادسة من عمره، فتم تعيين والدته الإمبراطورة آجنس من بواتو Agnes of Poiton نائبة له، هذا في الوقت الذي كان فيه هنري الرابع تحت حماية البابا فيكتور الثاني (١٠٥٤-١٠٥٧م) Victor II آخر البابوات الألمان. والحقيقة أن وفاة الإمبراطور هنري الثالث كانت كارثة من الكوارث العظمى التي حلت بالإمبراطورية في العصور الوسطى؛ وذلك لأن السياسة الإصلاحية التي قام بها هنري الثالث لتقوية الحكومة المركزية، وإرساء ملكية قوية في ألمانيا، تسببت في بث الرعب في قلوب الدوقات الألمان، ولهذا صمموا وعلى رأسهم السكسون الذين كانوا يتطلعون دائمًا للتحرر إلى انتهاز فرصة موت هنري الثالث، ووجود ابن قاصر على عرش الإمبراطورية تحت وصاية امرأة كي يحدوا من سلطة التاج(١).

على أية حال، انصرفت آجنس لتدبير شئون ألمانيا، فقامت بتعيين دوقات لبافاريا وسوابيا، وكارنثيا Carinthia، كما أنها تمكنت من تهدئة الموقف في اللورين عن طريق الامتيازات الكثيرة التي

---

1) Brook (Z.N.): "Germany under Henry IV and Henry V", in camb. Med. Hist. Vol. V, (New York 1980), p. 112;

Robinson (James Harvey): History of Western Europe, (New York 1903), p. 166;

Blockwe II: Mediaveal Germany, p. 105;

هارتمان وباركلاف: الدولة والإمبراطورية، ترجمة جوزيف نسيم يوسف، طـ٢، (دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٨٩م)، ص٢١٨ حاشية٢؛

كانتور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٦١ - ٣٦٢؛

ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ ٣م٤، ص٣٢٨.

تنازلت عنها لبيت أردن Ardenne، وأيضًا كونتات الفلاندرز. ويبدو أيضًا أنها أجبرت الأمراء الألمان على القسم بعدم تعيين خليفة لابنها في حالة وفاته المبكرة إلا بموافقتها، والغرض من هذا الإجراء هو حماية ابنها، ومحاولة تأمين ممتلكاته، إلا أنها بالنسبة لدوقية سكسونيا لم تقم بتعيين دوق لها[١].

والواقع، أنه لم يكن منتظرًا من آجنس خلال الفترة التي قضتها في مركز نائب الملك أن تسيطر على المشاكل في كل من ألمانيا وإيطاليا، والتي خلقتها وفاة الإمبراطور هنري الثالث. ففي ألمانيا قام الدوقات الذين عينتهم بالاستيلاء على الأراضي التابعة للتاج الألماني، واستقلوا استقلالا تامًا عنها، وعقدوا النية على مقاومة ابنها هنري الرابع. وفي الوقت الذي لم تكن فيه الحكومة المركزية قادرة على تأكيد سلطتها داخل ألمانيا، فإن المدن الواقعة على الحدود رفضت طاعتها أيضًا[٢].

أما في إيطاليا، فالمعروف هو أن الوضع كان هناك خطيرًا؛ ذلك أن سلطة الإمبراطورية كان يقف في وجهها جود فري دوق اللورين الأدنى الذي استغل وفاة الإمبراطور هنري الثالث وعمل على تقوية

---

1) Brook: op. cit., pp. 113 – 114.

Blockwe II: op. cit., pp. 107 – 108;

السيد الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، (دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م)، ص ٥٢.

٢) هارتمان وباركلاف: الدولة والإمبراطورية، ص ٢١٨، حاشية٢؛

رأفت عبد الحميد: "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق" مقال بندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م٣ (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥م)، ص١٨٥، ١٩٧؛

محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا العصور الوسطى، (دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م)، ص٢٠٥.

نفوذه هناك، مستغلا ضعف حكومة الإمبراطورة آجنس، كما أن اعتلاء أخيه فردريك كرسي البابوية باسم البابا ستيفن التاسع (١٠٥٧-١٠٥٩م) Stephen IX كان يمثل أيضًا خطرًا على سلطة الإمبراطورية في إيطاليا؛ لأنه لأول مرة يُجرى انتخاب البابا دون تدخل من قبل الإمبراطور الألماني، وإذا كانت الملكة الوصية على هنري الرابع قد صادقت على هذا الانتخاب، وكذلك انتخاب البابا نيقولا الثاني (١٠٥٩ - ١٠٦٣م) Nicholes II، إلا أنها مالبثت أن اعترضت الحزب البابوي المصلح، واعترفت بكاداليوس Cadelus بابا عام ١٠٦١م، ولكنها كانت آنئذ عاجزة عن مساعدته[1].

ومما تجدر الإشارة إليه ما جرى من اختطاف هنري الرابع على يد أنو Anno رئيس أساقفة كولونيا سنة ١٠٦٢م ووضعه تحت حمايته، والسبب في ذلك هو رغبة أنو ورفاقه في توسيع أملاكهم وثرواتهم؛ وقد ترتب على ذلك تنحي الإمبراطورة الوالدة عن وصايتها على هنري الرابع، كما أن الأمراء الألمان لم يتحركوا بشأن هذه الحادثة. أما أنو فقد ظل لمدة سنتين وصيًا على هنري الرابع، وقد استغل ذلك في إثراء مقاطعته كولونيا وإغداق الأموال والوظائف على أقاربه، وظل آنو وأدلبرت Adalbert رئيس أساقفة برمن يعملان كأوصياء على هنري الرابع الذي تسلم مقاليد الحكم في ٢٩ مارس سنة ١٠٦٥م، ورغم ذلك بقيت السلطة الفعلية في الدولة في يد أدلبرت الذي سيطر على شئون الكنيسة والدولة جميعًا، فاستباح أموال الأديرة الملكية بل قام بتوزيع العديد منها على الأساقفة، وتلقى المنح بسخاء من أملاك الملك في سكسونيا الأمر الذي ترتب عليه إجداب ممتلكات التاج. ورغم ذلك تمكن أدلبرت من الاحتفاظ لهنري بسلطاته على

[1]) Brook: Germany under Henry IV and Henry V, pp. 112 – 114.

الجزء الشمالي من ألمانيا، ولكن أفعال أدلبرت ما لبثت أن أثارت حنق الأمراء عليه، فعقدوا مجمعًا في ترييور Tribur سنة ١٠٦٦م، ووضعوا هنري الرابع أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن يقوم بعزل أدلبرت، وإما أن يترك العرش، فاختار الحل الأول، وبسقوط أدلبرت بدأ حكم هنري الرابع الفعلي لألمانيا(١).

هكذا كانت الأحوال في ألمانيا عندما تسلم هنري الرابع مقاليد الحكم سنة ١٠٦٥م، ضعف تام في قوة وهيبة السلطة المركزية والحكومة المكية. والحقيقة أن آجنس لم تكن هي المسئولة فقط عن هذا، ولكن آنو وأدلبرت لعبا دورًا كبيرًا في هذا التردي الذي وصلت إليه الأحوال في ألمانيا، وبذلك فإن الفترة التي عجز فيها هنري الرابع عن ممارسة نفوذه كانت بمثابة ضربة قوية موجهة إلى الملكية الألمانية(٢).

عندئذ حاول هنري الرابع استعادة هيبة السلطة المركزية والحكومة الملكية في كل من ألمانيا وإيطاليا، فعمل في ألمانيا على استرجاع جميع الأراضي الملكية التي استولى عليها الدوقات الألمان خلال فترة قصيرة، وإخضاع هؤلاء الدوقات لإرادته، وتحطيم قوة السكسون(٣)، ونظرًا لأنه كان قليل الثقة في ولاء أهالي الأجزاء

---

1) Hoyt (Robert S.) and Chodorow (Stanly): Europe in the Middle Ages, Third edition, (New York 1976), p. 274;

Brook: op. cit., pp. 115 – 116;

Blockwe II: op. cit., pp. 108-109.

سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، ج١ ، ص٣٥٠-٣٥١.

٢) هارتمان، باركلاف: الدولة والإمبراطورية، ص ٢٢٨.

3) Palinter (Sidney): "Western Europe in the eve of the Crusade". In setton History of the Crudade Vol. I, (Philadlphia, 1955)p.20.

الشمالية من ألمانيا فقد اختار وزراءه المقربين من مقاطعته السوابية الجنوبية، كما قام ببناء القلاع بكثرة في كل من دوقية سكسونيا وثورنجيا، وملأ تلك القلاع بقواته السوابية. والحقيقة أن الهدف من بناء تلك القلاع هو مساعدة هنري على استرداد أملاك الحكومة التي اغتصبها الأمراء هناك، كما أن ذلك سوف يساعده على إرسال الخدمات لتلك الأملاك، وسوف يعطيه أهمية استراتيجية كبيرة هي عدم تجميع الأمراء السكسون[١].

والجدير بالذكر، أن هنري أقام له عاصمة بدوقية سكسونيا في جوسلر Goslar، إلا أن هذه العاصمة لم يكن الغرض منها إخضاع دوقية سكسونيا، وإقامة حكومة ملكية مركزية قوية فقط، بل الحصول والسيطرة على مناجم الذهب في جوسلر. ويرى البعض أن هنري الرابع بإقامته لتلك العاصمة كان يحاول –مثلما أقامت فرنسا قاعدتها الملكية في جزيرة Ile de France – تكوين جزيرة فرنسية أخرى، ولكنها في قلب ألمانيا، بغرض زيادة رقعة الأراضي التابعة لها[٢].

ولم تلبث هذه السياسة التي انتهجها هنري الرابع في سكسونيا وثورنجيا، أن أثارت غضب الأمراء الألمان في الشمال؛ لأنهم شعروا أن هذه السياسة تمثل تهديدًا لتحررهم، وتعد سلبًا لحقوقهم التي كانوا يمارسونها منذ زمن بعيد، وأدركوا أن هنري يعمل من أجل الاستيلاء على ممتلكاتهم. ومما زاد في شعورهم بالعداء تجاه هنري، الأعمال التعسفية التي قامت بها قواته ضد الفلاحين في سكسونيا، حيث كانوا

---

[1]) Brook: op. cit., p. 128;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥١.

[2]) Blockwe II: Mediaveal Germany, p.110;

رأفت عبد الحميد: "الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب"، ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، م٢، (دار المعارف، القاهرة ١٩٨٣م)، ص١٠٤.

يقومون باستدعاء الفلاحين وإجبارهم على العمل في أراضي التاج بالقوة، ومن ثم فإنه عندما قام مجلس الدايت الذي عقده هنري في جوسلر سنة ١٠٧٠م بعزل أوتو من نوردهيم Otto of Nordheim دوق بافاريا، وقيام هنري الرابع بإعطاء دوقيته إلى الولف السوابي، تحصن أوتو في سكسونيا، وحصل على مساعدات من ماجنوس Magnus بن أوردلف Ordulf دوق سكسونيا، ولكن هنري الرابع هاجمها سنة ١٠٧١م، وأجبرهما على الاستسلام، وقد ساعده في ذلك كثرة جيوشه. وتمكن هنري الرابع من أسر أوتو، أما ماجنوس فقد زج به في السجن في قلعة هارزبورج Harzburg. وكان أن استمر هنري الرابع في بناء القلاع في دوقية سكسونيا بأعداد أكثر من ذي قبل، كما تمكن من الاستيلاء على مدينة لينبورج Luneburg، التي وضع فيها حامية من قبله، وغدت عندئذ سكسونيا تقدم فروض الولاء والطاعة له، وأصبح الوضع آنئذ ينذر بقيام حكومة مركزية قوية يتزعمها هنري الرابع، إلا أن الأخطار كانت لازالت تحيط به، لاسيما من قبل دوقيات الشمال(١).

وبالرغم من انشغال الإمبراطور هنري الرابع بمشاكله في سكسونيا، فقد شعر أن الوقت مناسب لفرض سيادته على بعض الدول الواقعة في شرق ألمانيا، ومن ثم فإنه بناء على دعوته قدم إليه دوقا بولندا وبوهيميا في ميسين Meissen سنة ١٠٧١م، فطلب منهما المحافظة على السلام، غير أن دوق بولندا أخل بهذا الشرط سنة ١٠٧٣م، ومن ثم فإن هنري الرابع أصر على معاقبته، فأصدر أوامره للدوقات الألمان في ٢٢ أغسطس سنة ١٠٧٣م، لتكوين حملة لهذا الغرض، وأتى بنفسه إلى جوسلر للإشراف على الإعداد للحملة(٢).

---

[1]) Brook: op. cit., pp. 128 – 130;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥١.

[2]) Orton: op. cit., p.440; =

ولكن أمراء الشمال انتهزوا هذه الفرصة ودبروا مؤامرة للإطاحة بالإمبراطور هنري الرابع، وقد اشترك في هذه المؤامرة جميع أساقفة ونبلاء الشمال، وقد انضم إليهم الثورنجيون، بسبب بناء القلاع في أراضيهم، وتم الاتفاق على مهاجمة هنري الرابع قبل تجمع القوات المزمع إرسالها إلى بولندا، وكادت المؤامرة أن تنجح، ولكنهم لم يتمكنوا من القبض عليه، بسبب تحصنه في قلعته في هارزبورج، ونظرًا لأنه أدرك عدم قدرته على مقاومتهم، هرب مع أتباعه في ليلة ١٠ أغسطس، وبعد أربعة أيام تخللتها الأخطار، وصل إلى أحد الأديرة في هرسفلد Hersfeld، وقد ترتب على ذلك استرداد هرّمان Herman – عم الدوق ماجنوس– مدينة لينبورج، وأسر قوات هنري التي كانت تقوم بحمايتها، ولكنه ما لبث أن أطلق سراحهم، مقابل قيام هنري الرابع بإطلاق سراح ماجنوس في ١٥ أغسطس سنة ١٠٧٣م، كما أن القلاع التي بناها الأخير في سكسونيا هدمت، وهكذا ضاعت جهود الإمبراطور هنري من أجل تكوين حكومة مركزية وحكم ثيوقراطي قوي في ألمانيا، بل إن الأمراء الألمان أصبح لهم اليد العليا عليه، وليس أدل على ذلك من أنه عندما تكونت جيوش حملة بولندا في ٢٢ أغسطس عام ١٠٧٣م، حاول هنري الرابع توجيهها لحرب السكسون، إلا أن قواد الحملة تمسكوا بمهاجمة بولندا في أكتوبر من نفس العام، فوافق هنري على ذلك وعاد من قرية كابل Kappel قرب هرسفلد إلى مقاطعة الراين وقد أحس أنه فقد السيطرة تمامًا على الأمراء[1].

= Brook: op. cit., p. 130.

[1]) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V" ,pp. 131-132;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥١.

وعندئذ أقدم الإمبراطور هنري الرابع على تسوية خلافاته مع البابوية، ليعطي كل اهتماماته إلى ألمانيا، وبعد أن تم له ذلك(١)، توجه للقاء الأمراء الألمان مرة أخرى في ٢٢ أكتوبر عام ١٠٧٣م، ولكنهم طالبوه أن يوضح لهم سبب مهاجمة سكسونيا؛ ونظرًا لأنه لم يكن يمتلك الإجابة على ذلك، فقد وافقهم على عدم مهاجمتها، وبدأ يشعر أن سلطته باتت اسمية وليست فعلية، وكان أن توجه إلى ورمز Worms، فقابله أسقفها أدلبرت مقابلة حافلة رغم عداوته له. وفي محاولة من الإمبراطور هنري الرابع لاستقطاب سكان مدينة ورمز إلى جانبه، فقد أعفاهم من الضرائب التي كانوا يؤدونها له في ١٨ يناير سنة ١٠٧٤م(٢).

على أية حال، توجه الإمبراطور هنري الرابع بقواته التي كونها من فلاحين مدن الراين لمهاجمة السكسون، ولكنه هزم بسبب ضعف قواته، وقبل الشروط التي أملاها عليه السكسون في مدينة جرستجين Gerstungen في ٢ فبراير سنة ١٠٧٤م والتي تتضمن هدم جميع القلاع التي بناها من قبل في أراضي سكسونيا، وإطلاق سراح جميع الأسرى السكسون، وأن تكون العلاقة بينه وبينهم علاقة تحالف لا علاقة سيادة، وفي حالة المسائل التي تخص دوقيتهم يجب أن يستشيرهم فقط، وكذلك الإبقاء على الكنائس التي بناها في سكسونيا(٣) ولاشك أن هذه الشروط التي أملاها السكسون على هنري تدل على أنهم يحاولون منعه من التدخل في شئونهم الداخلية وأن يتحالفوا معه في شكل اتحاد فيدرالي فقط.

---

[1]) Brook: "Gregory VII and the first contest between Empire and Papacy", in Camb. Med. Hist. vol. V, (London, 1980) pp. 59-61.

[2]) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V", pp. 119- 123, 131-132.

[3]) Ibid., p.132.

والجدير بالذكر، أن اتفاق السكسون مع هنري الرابع كان وبالا عليهم؛ لأن دوقات الجنوب الألماني ممثلين في سوابيا وبافاريا وكارنثيا اعتبروا أن تصالح السكسون مع الإمبراطور هنري الرابع دون استشارتهم خيانه لهم، ومن ثم انحازوا إلى هنري ضد السكسون وتحالفوا معه ضدهم في عيد الفصح سنة ١٠٧٤م، وبهذا يمكن القول إن الإمبراطور هنري الرابع تمكن من تحقيق أعظم آماله، والمتمثلة في فصل الاتحاد بين دوقات الشمال ودوقات الجنوب في ألمانيا، حتى يتمكن من محاربة كل منهم على حدة[١].

وحدثت عندئذ ما أدى إلى نقض الإمبراطور هنري الرابع معاهدة سلامه مع السكسون؛ بسبب قيام فلاحي سكسونيا بهدم بعض المباني الأكليروسية التي كان الإمبراطور هنري الرابع قد بناها، كما أن أيديهم امتدت أيضًا إلى رفاة ابن الإمبراطور هنري الرابع وأخيه اللذين ماتا في مقتبل العمر، فألقوا بها مع الرياح. ورغم أن أمراء السكسون قدموا اعتذارًا عن ذلك لهنري، بل واعتبروا أن ذلك تم من قبل الفلاحين الجهلة، إلا أن هنري نظرًا لأنه أراد أن يتخذ هذه الأعمال ذريعة ليعلن الحرب على السكسون، فقد ألقى بتبعية هذا العمل على الجميع، وأعلن أن السكسون حطموا السلام القائم بينه وبينهم، وبهذا فقد تمكن هنري من إقناع أمراء الجنوب بمشاركته في القيام بحملة ضد سكسونيا في شتاء عام ١٠٧٥م، وعندئذ طالب أمراء السكسون أن يحاكموا بواسطة جميع النبلاء الألمان، ولكن هنري رفض ذلك. ومن ناحية أخرى حاولوا استقطاب دوقات الجنوب إلى جانبهم، غير أن هؤلاء الدوقات رفضوا ذلك بسبب الصلح المنفرد الذي عقده السكسون مع الإمبراطور هنري الرابع سنة ١٠٧٤م بدون مشورتهم[٢].

---

[1]) Luc. cit.,

[2]) Brook: op., p.133.

وعلى وجه السرعة تجمعت قوات الإمبراطور هنري الرابع في بردينجن Bredingen في ٨ يونيو عام ١٠٧٥م وانضمت إليها قوات دوقيات الجنوب، وقد شملت سوابيا، وبافاريا، وكارنثيا، واللورين الأعلى والأدنى وبوهيميا. وفي اليوم التالي تقدمت هذه القوات، واشتبكت مع قوات السكسون في موقعة نهر ونسترت Unstrut، ورغم أن الخسائر كانت فادحة بالنسبة للجانبين، إلا أن النصر كان حليف الإمبراطور هنري الرابع الذي تقدم آنئذ لاحتلال دوقية سكسونيا، ولكن نقص المؤن والإنهاك الذي حل بقواته، أجبره على تسريحها، ولكنه أمرها بالتجمع مرة أخرى في أكتوبر عام ١٠٧٥م لمهاجمة سكسونيا مرة أخرى. وعندما تجمعت هذه القوات في كارنثيا Garintha في ٢٢ أكتوبر من نفس العام، لم تحضر قوات دوقيات سوابيا وبافاريا وكارنثيا، وبرر دوقات هذه الدوقيات عدم حضورهم بسبب الخسائر التي لحقت بقواتهم في موقعة نهر ونسترت في ٨-٩ يونيو[١]، ويرى البعض أن سبب عدم حضور هؤلاء الدوقات يرجع إلى أنهم أدركوا أن الإمبراطور هنري الرابع إذا تمكن من إحراز نصر كامل على السكسون فسوف يستغنى عن الحصول على مساعدتهم[٢]. ويبدو أيضًا أنهم أدركوا أن هدف هنري الرابع ليس إحراز نصر على دوقية سكسونيا فحسب، بل القضاء عليها وضمها إلى نفوذه، وقد خشي حلفاؤه دوقات الجنوب أن يتعرضوا لنفس المصير فيما بعد، ولذلك لم يحضروا لمساعدته.

ولكن رغم عدم اشتراك دوقات الجنوب مع الإمبراطور هنري الرابع في حملة ٢٢ أكتوبر عام ١٠٧٥م، إلا أنه تمكن من إحراز

---

[1]) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V", p.134.

[2]) Brook: History of Europe from 911- 1198, First Published, (London, 1938), p.186.

نصر كبير على السكسون في موقعة ونسترت، ولكن هذا النصر لا يرجع إلى قوة الإمبراطور هنري الرابع، بقدر ما يرجع إلى أن السكسون فقدوا تضامنهم، كما أن الجنود يئسوا من طول المعارك؛ ولهذا لم يكن أمام الأمراء إلا أن سلموا لهنري طالبين العفو منه. ولكن هنري عامل القوات السكسونية وقوادها أحقر معاملة، عندما أمر هذه القوات بمن فيها من النبلاء العظام وكبار الأساقفة، أن يمشوا عراة مجردين من سلاحهم بين صفين من قواته، حتى إذا وصلوا إليه يقدموا له فروض الولاء والطاعة عند قدميه، كما قام بتوزيع قواد الجيش السكسوني على سجون ألمانيا، واضعًا نسبة كبيرة منهم في الجنوب، وقام بتوزيع أراضيهم على مساعديه، أو إضافتها إلى أملاكه، ولكن النتيجة الكبيرة لهذه المعركة هي عودة بناء القلاع مرة ثانية في دوقية سكسونيا[١]. كما أن الإمبراطور هنري الرابع أصبح أقوى حاكم في أوربا، أو على الأقل في مناطق شرق نورماندي[٢]، كما أنه صمم على حكم ألمانيا حكمًا استبداديًا، وإن كان هذا الأسلوب لم يؤد إلى ما كان يطمع فيه من استقرار الأوضاع في ألمانيا، وخاصة في دوقية سكسونيا التي ظلت تتحين الفرصة للثورة ضده[٣].

وقد جاءت السكسون هذه الفرصة؛ بسبب قرار الحرمان الذي أصدره البابا جريجوري السابع[٤] (١٠٧٣ – ١٠٨٥م) Gregory

---

١) Brook: Germany under Henry IV and Henry V", p.134.

كانتور: المرجع السابق، جـ ٢، ص ٣٦٢؛

ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ ٣، م٤، ص٣٢٨؛

محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠٥.

٢) كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص٣٦١.

٣) سعيد عاشور: أوروبا العصور الوسطى، جـ١، ص٣٥١ – ٣٥٢.

٤) يدّعى هلد براند (جريجوري السابع) أنه الابن الوحيد لبونزو Bonizo، وقد ولد في سوفانا Sovana في مقاطعة تسكانيا، ولكن تاريخ ميلاده غير معروف، ويرى البعض أنه=

VII ضد الإمبراطور هنري الرابع في فبراير سنة ١٠٧٦م، فقاموا بثورة ضد الإمبراطور، بقيادة الأسقف بوركهارد وأوتو من نوردهيم، فطردوا الحاميات الملكية من أراضيهم، في الوقت الذي تمكن كبار قادة السكسون الذين كانوا في الأسر من الهرب(١).

ونظرًا لأن دوقات الجنوب كانوا يخشون نزعة الإمبراطور هنري الرابع الاستبدادية، فقد مالوا إلى الاتحاد مع السكسون وعقدوا

=اعتلى كرسي البابوية عن عمر يناهز الثالثة والخمسين، ومعنى ذلك أنه ولد سنة ١٠٢٣م، ويرى البعض الآخر أنه كان على وشك الخمسين عند اعتلائه كرسي البابوية. وكان من بيئة متواضعة جدًا تربى في روما في دير كان عمه رئيسًا له، وكان قصير القامة غامق اللون، بدينا غير وقور، ولكنه كان صاحب عزيمة لا تقهر. تلقى تعليمه في روما في بداية حياته، وخدم البابا جريجوري السادس، والذي يبدو أنه اتخذ اسمه منه، وقد نفي معه سنة ١٠٤٧م إلى ألمانيا، حيث قضيا معًا مدة النفي في الراين، ثم عاد إلى دير كلوني سنة ١٠٤٧م بسبب موت جريجوري السادس. وعندما اعتلى ليو التاسع Leo IX (١٠٤٨ – ١٠٥٥م) كرسي البابوية ذهب معه جريجوري إلى روما، وهناك اشترك في جميع أنشطة البابوية، وقد عينه ليو التاسع شماسًا. وفي عهد البابا نيقولا الثاني (١٠٥٨ – ١٠٦١م) أصبح جريجوري رئيسًا للشمامسة، وشارك في صياغة القرار الذي اتخذه البابا سنة ١٠٥٩م والمتعلق بانتخاب البابا من قبل الكرادلة في روما. وفي عهد البابا إسكندر الثاني (١٠٦١ – ١٠٧٣م) استمر جريجوري في قيادة البابوية إلى أن اعتلى عرشها. انظر:

Brook: "Gregory VII and the First Contest between Empire and The Papacy" , pp. 51 – 55;

Lyon and Others: op. cit., pp. 233 – 234;

Blockwell: op. cit., p.109;

عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، طـ١ (دمشق، ١٩٨٠م)، ص١٠٤.

(١) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V, "p.135;

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٥.

مجمعًا في تريبور Tribur في أكتوبر عام ١٠٧٦م، ودعوا إليه الأمراء السكون، الذين طالبوا بعزل الإمبراطور وتعيين آخر بدلاً منه، وفي النهاية قرروا التزام هنري بإعلان توبته، ووعده بعدم تحدي البابوية، واحترام حقوق الدوقات، كما أعلنوا أنه إذا لم يحصل على الحل خلال عام ويوم من تاريخ حرمانه في ٢٢ فبراير سنة ١٠٧٦م، فسوف يفقد مملكته، على أن يقضي الفترة ما بين أكتوبر سنة ١٠٧٦م وفبراير سنة ١٠٧٧م في أحد الأديرة محرومًا من جميع شعائر الملكية وحقوقها[١].

وعندما حصل الإمبراطور هنري الرابع على الحل من قبل البابا جريجوري السابع في يناير عام ١٠٧٧م، اعتبر الأمراء الألمان أن فرار الإمبراطور هنري الرابع سرًّا إلى كانوسا Canossa خروجًا على العهد الذي أخذه على نفسه تنفيذًا لقرارات تريبور التي قضت بانزوائه في أحد الأديرة حتى يغفر له البابا[٢]؛ ولذلك عقد الأمراء أولا مؤتمرًا في أولم Ulm، وجهوا منه الدعوات لجميع الأمراء الألمان لعقد مؤتمر آخر في فورخهايم Forchheim في فرانكفورت وفي هذا المؤتمر الذي عقد في ١٣ مارس قبلوا اقتراح السكسون الذي يقضي بعزل هنري وانتخاب ملك مضاد، فتم انتخاب رودلف دوق سوابيا إمبراطورًا عليهم. وهنا حرص الأمراء قبل البدء في الإجراءات الخاصة بتتويج ردولف على يد أسقف ماينز على أن يأخذوا عليه موثقًا بألا يطالب بأي حق وراثي لابنائه في العرش، وعدم التدخل في حرية انتخاب الأساقفة، كما أنه قدم وعدًا بالطاعة إلى البابا[٣].

---

1) Hoyt and Chodorow: Europe in the Middle Ages p. 295;
Brook: op. cit., 135-136;

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٥ – ٣٥٦.

٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٧.

3) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V", pp. 137-138;=

والواقع أن الأمراء الألمان لم يحصلوا على أية مزية من انتخاب رودلف السوابي إمبراطورًا، إذ أن شعور العطف على هنري الرابع أخذ يتزايد في سرعة حيث وقف إلى جانبه جميع أساقفة ألمانيا النبلاء والفلاحين، ماعدا سكسونيا التي ناصرت رودلف؛ ولذلك عندما توج رودلف في ٢٦ مارس ١٠٧٧م على يد سجفريد Siegfried رئيس أساقفه ماينز، ثار عليه سكان المدن الألمانية بما فيها مدينة ماينز، الأمر الذي حتم عليه ترك المدينة والذهاب إلى سكسونيا(١).

ولم تكد تصل أخبار انتخاب رودلف إلى هنري الرابع في إيطاليا، حتى أسرع بالعودة إلى ألمانيا، وعند مروره خلال دوقيتي كارنثيا وبافاريا، حصل من أدواقهما على وعد بالوقوف إلى جانبه، أما سوابيا فقد وعده بالوقوف إلى جانبه عدد قليل من نبلائها، وهكذا لم يقف إلى جانبه رودلف من الدوقيات الألمانية سوى سكسونيا وثورنيجيا، أما البابا جريجوري السابع فقد وقف على الحياد في الصراع الدائر حول حكم الإمبراطورية(٢).

وقبل أن يبدأ الإمبراطور هنري الرابع حروبه مع رودلف جهز جيشًا من دوقيتي بافاريا وبوهيميا، استطاع بواسطته الاستيلاء على دوقية سوابيا، ثم عقد مجلس الدايت في مايو عام ١٠٧٧م في أولم، والذي أوقف فيه رسميًا دوقات الجنوب، وقام بتوزيع دوقياتهم على أدواق تابعين له، فأعطي كارنثيا إلى ليوتولد من ابنتين Liutold of Eppentein، أما بافاريا وسوابيا فقد احتفظ بهما لفترة قصيرة، ولكنه بسبب حاجته إلى أدواق أقوياء يقفون إلى جانبه أقلع عن القاعدة

=Hoyt and Chodorow: op. cit., p.297.

1) Brook: op. cit., pp. 138-139;

Brook: History of Europe, p. 188.

2) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V" ,pp. 139 – 140.

القديمة[1]، وأعطى سوابيا إلى فردريك من شتوفن Frederick of Staufen، وزوجه ابنته آجنس Agnes، وبذلك فقد تم تأسيس عائلة هوهنشتاوفن Hohenstaufen[2].

وقد استمرت الحروب الأهلية بين هنري الرابع ورودلف لمدة ثلاث سنوات (١٠٧٧ – ١٠٨٠م) لم تتوقف إلا نادرًا، إلا أن نتائج هذه الحروب لم تكن حاسمة[3]؛ فأولى المعارك التي وقعت بينهما في ملريتشستادت Melrichstadt في فرانكونيا، في ٧ أغسطس سنة ١٠٧٨م، والتي تمكن فيها هنري الرابع من تحقيق الانتصار على رودلف، وإجباره على الإرتداد إلى سكسونيا، إلا أن هذا النصر لم يكن حاسمًا، وعندئذ تعرض هنري الرابع لهزيمة على يد الدوق بيرتولد دوق بافاريا، والولف دوق سوابيا، ويرجع ذلك إلى عدم توافر الخبرة القتالية لدى قواته التي كانت مكونة من الفلاحين الفرنكونيين، وعلى الرغم من هزيمة هنري الرابع، فإنه تحصن في مدينة فارزبورج Wurzburg ليمنع الاتحاد بين دوقيتي بافاريا وسوابيا ورودلف.

---

١) كان أول من اتبع هذه القاعدة أوتو الأول (٩٣٦ – ٩٧٣م)، عندما أخضع دوقات بافاريا واللورين وفرانكونيا لإرادته سنة ٩٣٦م، أعطى بافاريا لأخيه هنري، واللورين وفرانكونيا لأزواج بناته، وأصبح ابنه الأكبر دوق سوابيا وكان الغرض من ذلك هو التحكم في الدوقيات؛ ولهذا آمن بأن دوقات بافاريا واللورين فرانكونيا يجب أن يكونوا غرباء عن دوقياتهم. انظر:

Malet and Isac: Le Moyen Age,
Jusque la querre de Cent Ans, p. 184;

2) Brook: Germany under Henry IV and Henry V, pp. 139-140;
Brook: History of Europe, p. 189.

3) Brook: op. cit., p. 188.

وفي اللقاء الثاني بين هنري الرابع ورودلف، في موقة فلارخهيم Flarchheim في ثورنجيا، في ٢٧ يناير سنة ١٠٨٠م، لم يحرز أحدهما نصرًا حاسمًا على الآخر، ولكن هنري ارتد إلى بافاريا، ولجأ آنئذ إلى طريقة فرق تسد، عندما تمكن من استقطاب الدوق ماجنوس وعمه هيرمان، وهما من سكسونيا، وأيضًا المارجراف إيكبارت من ميسين، وهما من أكبر أنصار رودلف(١).

والجدير بالذكر، أن البابا جريجوري السابع، أعلن عندئذ رأيه صراحة في أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون، فعقد مجمعًا دينيًّا في لنتن بروما في مارس من نفس العام، قرر فيه إعادة توقيع قرار الحرمان علىهنري الرابع وإقصائه عن عرش الإمبراطورية(٢).

واختار الحظ أن يقف إلى جانب الإمبراطور هنري الرابع، ففي المعركة التي نشبت بينه وبين رودلف على ضفاف نهر الستر Elster، في أكتوبر عام ١٠٨٠م، والتي تعد واحدة من أقوى المعارك التي نشبت بينهما، تمكن فيها رودلف من إلحاق الهزيمة بالإمبراطو هنري الرابع، ولكن وفاة رودلف في اليوم التالي للمعركة، عدت نصرا لهنري، وظهرت للجميع على أنها حكم الله، ليس فقط على رودلف ولكن على البابا جريجوري أيضًا، ومع أن هنري كان قادرًا آنئذ على مهاجمة السكسون والانتصار عليهم، فإنه فضل القدوم إلى إيطاليا لتأديب البابا جريجوري السابع، لاسيما أن هنري شعر آنئذ أن وضعه أصبح آمنا في ألمانيا(٣).

---

1) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V", pp. 140-141.

2) Stevenson (Gar 1): Medieaval History, Fourth Edition, (New York, 1967), p. 253.

3) Brook: op. cit., pp. 141-142;

عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٩؛

هكذا، بسبب التنافس بين الإمبراطور هنري الرابع ورودلف على الفوز بالعرش الألماني، فقد خربت ألمانيا، وقد وقع العبء الأكبر على طبقة الفلاحين، لاسيما في سوابيا. كما أن التجار عانوا من جراء الحرب الأهلية أيضًا، فقد توقفت تجارتهم نهائيًا. ونظرًا لمدى المعاناة الشديدة التي كان يعانيها الفلاحون والتجار من جراء هذه الحرب، فقد تطلعوا إلى إحلال السلام في ألمانيا، وإعادة النظام والاستقرار إليها، ومن ثم فقد تطلع الجميع آنئذ إلى انتصار الإمبراطور هنري الرابع(١).

على أية حال، لقد استفاد أعداء هنري الرابع من غيابه في إيطاليا، رغم أنه بقي لبضعة شهور بدون منافس، بسبب الانقسامات الحادة بين الأمراء السكسون حول اختيار خليفة لرودلف. وكان أن وقع اختيارهم في النهاية على هرمان من سالم Herman of Salem كونت لوثارنجيا، ويبدو أن الأمراء السكسون بهذا الاختيار تطلعوا إلى الحصول على المساعدة من دوقية لوثارنجيا؛ إلا أن هرمان شأنه شأن رودلف من قبله، لم تقف إلى جانبه سوى دوقية سكسونيا فقط، ولهذا لم يقم بأي عمل إيجابي ضد الإمبراطور هنري خلال الفترة التي قضاها في الحكم(٢).

وفي يناير سنة ١٠٨٥، جرت محاولة لإحلال السلام بين الإمبراطور هنري الرابع والسكسون، اشترك فيها أوتو أسقف أوستيا Otto bishop of Ostia (وهذا الذي صار البابا أوربان الثاني فيما بعد) ووليم من هيرتشو William of Hirschau، إلا أن هذه

فيشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ١٤٩.

1) Brook: op. cit., p.140.

2) Ibid., pp. 141-142.

سيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٩.

المحاولة لم تثمر عن شيء سوى حرمان الإمبراطور هنري الرابع ومساعديه، بحجة إعاقتهم للسلام(١).

وفي أعقاب ذلك، قام الإمبراطور هنري الرابع في يونيو سنة ١٠٨٥م بزيارة اللورين التي كانت تنعم بالاستقرار عندئذ، فقام بمصادرة الإقليم الذي كانت تمتلكه الكونتيسة ماتيلدا، وقسمه بين جودفري من بويون والأسقف ديتريتش من فردون Dietrich of Verdun، ومن هناك هاجم السكسون في يوليو سنة ١٠٨٥م، حيث تمكن من الانتصار عليهم، ثم قام الإمبراطور هنري الرابع في أعقاب ذلك بتعيين أساقفة في سكسونيا من الموالين له، دون استشارة الأمراء السكسون، الأمر الذي أدى إلى إثارتهم ضده، لاسيما أنهم اعتبروا أن هذا العمل يعد تدخلاً في صميم شئونهم الداخلية. وبسبب ذلك أعلنوا عليه الحرب مرة أخرى، فانضم إليهم الولف بأتباعه السوابيين، وقاموا بحصار مدينة فرزبورج، ونظرًا لأهمية هذه المدينة، فقد أسرع الإمبراطور هنري لنجدتها، ولكنه مني بهزيمة قاسية في المعركة التي دارت بينه وبينهم في بليتشفيلد Pleichfeld في ١١ أغسطس سنة ١٠٨٦م، وقد ترتب على ذلك استيلاء السكسون على مدينة فرزبورج(٢).

ومن حسن حظ الإمبراطور هنري الرابع أن عاد الخلاف مرة ثانية بين الأمراء السكسون، الأمر الذي ترتب عليه إقامة السلام مع الإمبراطور هنري الرابع سنة ١٠٨٧م، ولكن بشرط عدم تدخله في شئونهم الداخلية، وفي مقابل ذلك اعترفوا به إمبراطورًا عليهم(٣).

---

1) Ibid., pp. 142-143.

2) Brook: "Germany under Henry IV and Henry V pp. 143 – 144.

3) Loc. cit.,

والمتأمل في هذا السلام يلاحظ أن الإمبراطور هنري الرابع قبل السلام مع السكسون دون إخضاعهم، وبذلك فإن الحروب التي خاضها ضدهم منذ سنة ١٠٧٠م لم يجن من ورائها شيئًا، وفي النهاية أدرك أنه لا قبل له بحربهم، فقبل عدم التدخل في شئونهم الداخلية، وهذا ما سبق أن تمسكوا به منذ سنة ٨٩٩م.

على أية حال، فإن الوضع في ألمانيا عندئذ لم يكن قد استقر؛ لأن المارجراف ايكبارت من ميسين كان ما يزال عدوًا للإمبراطور هنري الرابع، وقد تمكن من إنزال الهزيمة بالإمبراطور سنة ١٠٨٩م، ولكنه قتل في عام ١٠٩٠م ومن ثم فقد انتهت المعارضة في ألمانيا للإمبراطور هنري الرابع(١).

***

– العلاقات بين البابوية والإمبراطورية:

شهد النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي صراعًا بين البابوية والإمبراطورية حيث حاول كل منهما إثبات وتأكيد حقوقه التاريخية على الطرف الآخر، فقد تمسك الإمبراطور هنري الرابع بحقه في تعيين وعزل رجال الدين بما فيهم البابا نفسه(٢)، كما أنه

---

1) Ibid., p.145.

٢) كان أوتو الأول أول الأباطرة الألمان الذين قاموا بعزل البابا وتعيين بدلاً منه، ذلك عندما عزل للبابا يوحنا الثاني عشر Johen XII سنة ٩٦٣م، وعين ليو الثامن Leo VIII بدلاً منه؛ ومن ثم فقد تمسك بهذا الحق جميع الأباطرة الألمان الذين جاءوا بعده وحتى هنري الثالث ومن بعده ابنه هنري الرابع. انظر:

Blockwell: Mediaveal Germany, p. 104;

Lyon and others: History of the Western world, pp. 195- 197, 233;

إدوار برّوي وآخرون: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر (بيروت، ب.ت)، ص ١٨٥.

تمسك بالسيطرة على الكنيسة؛ لأنها تمده بالمال والإداريين. في حين أن البابا جريجوري السابع كان يسعى لإلغاء هذه الحقوق؛ نظرًا لأنه كان يرى أن البابوية يجب أن تتمتع بالسمو على الإمبراطورية وجميع الأمراء العلمانيين، بل ويجب أن تكون لها السيادة الروحية على العالم كله، كما كان يشعر أنه رئيس الكنيسة الذي يجب أن يديرها بنفسه(١).

على أية حال، اعتلى الكاردينال هلدبراند كرسي البابوية في إبريل سنة ١٠٧٣م تحت اسم البابا جريجوري السابع، ويبدو أن الأساقفة الألمان خشوا بأسه لما عرف عنه من شدة وصرامة، فحرضوا هنري الرابع على إلغاء تعيينه بحجة أنه لم ينتخب بالطريقة الشرعية التي نص عليها مجمع روما الديني سنة ١٠٥٩، ولكن البابا ألكسندر الثاني هو الذي أوصى باختياره خليفة له، مما جعل جموع المصلين عليه ينادون في ٢٢ أبريل بهلدبراند بابا في كنيسة القديس بطرس في روما؛ بسبب الشغب الذي وقع من قبل العامة عندئذ، ولكن هنري لم يطع أساقفة ألمانيا، وأرسل إلى روما مستفسرًا عن الظروف التي أحاطت بالبابا الجديد، فما كان من جريجوري إلا أن أجل بقية المراسيم الخاصة بتوليه المنصب البابوي حتى تتم موافقة هنري الرابع على اختياره(٢).

---

1) Blockwell: op. cit., pp. 99, 104;

Lyon and others: op. cit., p.197, 233;

Brook: op. cit., p.58;

جورج سباين: تطور الفكر السياسي ، ترجمة حسن جلال العروسي، الكتاب الثاني (القاهرة، ب.ت)، ص٣٢٧؛

عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، (صيدا، ١٩٦٧م)، ص ١٥٠.

2) Malet and Isac: Le Moyen Age., p.276;

Stevenson: op. cit., p. 251; =

ونظرًا لأن هنري كان مشغولاً بالثورة الخطيرة التي قامت ضده في سكسونيا سنة ١٠٧٣م فقد اعترف بهذا الانتخاب في يونيو سنة ١٠٧٤م، والحقيقة أن هنري لم يكن أمامه سوى ذلك[١].

وقد اهتم البابا جريجوري السابع في السنوات الأولى من بابويته بإصلاح أمراض الكنيسة المتمثلة في السيمونية[٢] وزواج رجال الدين[٣]، ولكن هذا الإصلاح قوبل باعتراض شديد من قبل أساقفة إيطاليا ولمبارديا، لاسيما الذين تولوا مناصبهم بواسطة هنري الرابع، وحتى الذين لم يعترضوا على الإصلاح، فقد رأوا أنه ليس من المناسب أن يتم هذا الإصلاح على يد البابا جريجوري السابع؛ ولذلك فقد اتهموه أكثر من مرة "بأنه متسلط وحقود"[٤] وعندئذ تطلع البابا

= سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٢.

1) Lyon and others: op. cit., p.234;

Stevenson: op.cit., p. 251.

٢) السمونية Simony: تعني الرشوة وبيع الوظائف الدينية الأكليروسية وشرائها، وقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى سيمون ماجوس Simon Magus الساحر اليهودي الذي حاول شراء هبة الخوارق والإتيان بالمعجزات من القديس بطرس.

وقد أدى بيع الوظائف الدينية إلى وصول موظفين غير مؤهلين إلى الوظائف الكنسية الأمر الذي أدى إلى انحطاطها في القرن العاشر الميلادي. انظر:

Stevenson: op. cit., p. 249;

Malet and Isac: op. cit., p. 275.

٣) زواج الأكليروس: لقد حذرت الكنيسة قديمًا من أنه لا يجوز لقسيس أن يعيش في منزل واحد مع أخته أو أي امرأة أخرى، إلا أن شمامسة الكنيسة كانوا متزوجين من ثاني شماس بها حتى آخر السلم الكهنوتي. انظر:

Stevenson: op. cit., p. 249;

Malet and Isac: op. cit., p. 275.

4) Brook: op. cit., p. 59;

جريجوري السابع إلى الحصول على المساعدة من قبل الإمبراطور هنري الرابع، حتى يتمكن من تنفيذ برنامجه الإصلاحي، وفرض سلطته على هيئة الأكليروس، وآمل أن يساعده الإمبراطور هنري أيضًا في الدفاع عن سلطة البابوية الدنيوية في الجنوب الإيطالي ضد اعتداءات النورمان، وقد حاول البابا جريجوري السابع بشتى الطرق الحصول على مساعدة هنري(١).

وقبل الإمبراطور هنري الرابع إقامة السلام مع البابا جريجوري السابع بسبب وضعه السياسي الخطير في ألمانيا، الذي حتم عليه تطييب خاطر البابا ليتفرغ لمشاكله الداخلية، ومن ثم فقد قرر التخلي عن مساعدة جودفري أسقف ميلان، وأرسل رسالة إلى البابا جريجوري السابع في أغسطس – سبتمبر سنة ١٠٧٣م، اعترف فيها بذنبه في نظره إلى قضية ميلان(٢)، كما وعده بالطاعة في المسائل

Lyon and others: op. cit., p. 235;

يوهان هويزنجا: اضمحلال العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاوير (القاهرة ١٩٧٨)، ص ١٨٩.

[1]) Malet and Isac: op. cit., p. 276.

٢) قضية ميلان هي قضية جود فري، فعندما تُوفي جويدو Guido رئيس أساقفة ميلان، نشب النزاع بين ورثته على كرسي الأسقفية، ولكن جود فري الذي اختاره جيادو قبل أن يموت، اعتلى كرسي الأسقفية عن طريق التنصيب من قبل الإمبراطور هنري الرابع، في حين أن البابا ألكسندر الثاني قام بترشيح أرليمبالد Er lembald لكرسي الأسقفية في مجمع ديني في روما، وطالب هنري الرابع بعدم مساعدة جود فري، إلا أن هنري استمر في مساعدة جود فري، لاسيما أن الوضع السياسي كان مستقرًا في ألمانيا عندئذ؛ ولذلك قام البابا ألكسندر الثاني بإصدار قرار الحرمان في مجمع لنتن Lentan في روما سنة ١٠٧٣م ضد خمسة من كبار أعوان هنري بحجة أنهم هم الذين أشاروا على هنري بتعيين جود فري، ولكن هنري لم يقم بعزلهم، فوقع هو الآخر تحت طائلة قرار الحرمان. انظر: =

الأخلاقية التي ينادي بإصلاحها، وأوضح له رغبته أيضًا في تنسيق التعاون بين القوتين الزمنية والروحية، كما طالبه برفع قرار الحرمان الذي أصدره ضده البابا ألكسندر الثاني عام ١٠٧٣م. وقد تلقف البابا رسالة هنري بسرور كبير، لاسيما أن الرسالة كانت مليئة بالعبارات الرنانة التي تقال للمرة الأولى من قبل أحد الأباطرة، ونسي جريجوري أن استجابة هنري له لم تكن خوفًا منه، ولكن وضعه السياسي هو الذي فرض عليه ذلك، ومن ثم أرسل بعثة إلى ألمانيا سنة ١٠٧٤م مكونة من اثنين من الكرادلة في صحبة الإمبراطورة آجنس والدة هنري، وعندئذ حصل الإمبراطور هنري على الحل من-قرار الحرمان الصادر ضده، وفي مقابل ذلك وافق هنري على فصل خمسة من كبار أعوانه كان البابا ألكسندر الثاني قد اتهمهم بالسيمونية، وأصدر قرار الحرمان ضدهم(١).

وليس أدل على حسن التفاهم بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع في تلك المرحلة من أن الأخير أرسل إلى الأول رسالة يلومه فيها على عدم مساعدته الجدية له في إيطاليا، وطلب من هنري الرابع أن يقوم برعاية الكنيسة الرومانية في حالة غيابه؛ لأنه عزم على قيادة حملة كبيرة ضد الشرق الإسلامي قوامها خمسين ألف مقاتل، لحماية المسيحيين الشرقيين والعمل على عودتهم لحظيرة الكنيسة الكاثوليكية(٢).

= Brook: History of Europe, pp. 181 – 183.

١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٢.

2) Blockwe II: Madiavel Germany, pp. 113 – 114;

Brook: op. cit., pp. 60-62;

جوناثان رايلي سميث: ماهية الحروب الصليبية، ترجمة محمد فتحي الشاعر، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٩١م).

ولكن جريجوري مالبث أن استغل فرصة الاضطرابات التي نشبت في سكسونيا، وأقدم على كسر الوفاق القائم بينه وبين الإمبراطور هنري الرابع، عن طريق إصدار القرار البابوي Dictatus Papae في فبراير سنة ١٠٧٥م. على أن ما يهمنا من هذا القرار، أن الحكام العلمانيين قد حرموا من تنصيب الأساقفة في وظائفهم، وأن البابا فقط هو الذي يتمتع بحق تعيين وعزل الأساقفة ونقلهم من مناصبهم إذا اقتضت الضرورة، كما ادعى البابا أيضًا أن من حقه عزل الأباطرة، ولا يجوز لأحد محاكمته، بل هو الذي يحاكم الخلق أجمعين(١)، فأدت هذه القرارات إلى إزعاج الإمبراطور هنري الرابع بوجه خاص وبقية ملوك أوربا بوجه عام، وأثارت مخاوفهم جميعًا(٢)؛ لأن قرار التنصيب العلماني إذا طبق حرفيًا فسوف يؤدي إلى نتائج سياسية خطيرة؛ لأن جميع الأسقفيات في ألمانيا وشمال إيطاليا كانت تتبعها أراضي واسعة، وهذه الأراضي سوف تفلت من يد الإمبراطور إذا تخلى عن تنصيب أساقفه للأسقفيات التابعة لها تلك الأراضي، كما أن عدم تنصيب الأساقفة كان يمثل بالنسبة للإمبراطور تقسيم دولته(٣)، ومن ثم فإن هذا معناه دمار مؤسسة الحكم

[1]) Malet and Isac: op. cit., p. 276;

Brook: op. cit.,p. 57;

Lyon and others: op. cit., p. 235;

Stevenson: op. cit., p. 252;

Ashour and Rabie: Fifty Documonts in Mediaveal History, pp. 61-63;

جورج سباين: تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ص ٣٢٩ – ٣٣٠،

إسحق عبيد: روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠م)، ص ٤٢ – ٤٤.

٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٣.

[3]) Malet and Isac: Le Moyen Age, p. 279;=

الإمبراطوري، لاسيما أن نظامه الإداري كان يقوم على سيطرته على الكنيسة الألمانية[١]، ولكن هنري لم يحاول أن يتصدى لهذا المرسوم البابوي عند إصداره؛ لأن ظروف ألمانيا السياسية كانت تمنعه من ذلك، كما أنه كان يأمل أن يتوج إمبراطورًا من قبل البابا[٢].

ونظرًا لأن جريجوري أدرك أنه يتعامل مع عادة راسخة الجذور، فوجد أنه من الأفضل له أن يسير بحذر شديد؛ ولهذا بعث سفارة إلى الإمبراطور هنري الرابع، حاملة له نص القرار، وطلب من السفارة إبلاغ هنري أن يعلن صراحة رأيه في هذا القرار، وأن هنري إذا شعر أن حقوقه قد تم الاعتداء عليها، فعليه أن يخبر البابا بذلك، ولكن هنري لم يبد اعتراضًا على هذا القرار، الأمر الذي دفع البابا إلى مدحه سنة ١٠٧٥م، فقد شعر البابا أن هنري موافق على هذا القرار، وعندئذ وصلت إلى جريجوري سفارة من قبل هنري في يونيو سنة ١٠٧٥م، ويبدو أن هذه السفارة كان الغرض منها مناقشة البابا في مسألة تتويج هنري إمبراطورًا بواسطته، فرد عليه البابا بتهنئته بنصره على السكسون[٣]، ولكنه لم يشر إلى مسألة تتويجه.

وشاءت الظروف أن يتبلور النزاع بين جريجوري السابع وهنري الرابع حول شغل بعض الأسقفيات الشاغرة، وبخاصة في شمال إيطاليا[٤]؛ ذلك أنه عندما أرسل أهالي مدينة ميلان إلى هنري

= بريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة قاسم عبده قاسم، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م)، ص٩٣.

١) س. ورن. هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحي الشاعر، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م)، ص ٩٣.

2) Stevenson: op. cit., p. 252.

3) Brook: "Gregory VII and the First Contest between the Empire and the Papacy", pp. 63 – 64.

٤) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٣.

الرابع يطلبون منه تعيين خلف لرئيس أساقفتها أرلمبالد الذي مات مقتولاً بسبب قيامه بعزل بعض رجال الكنيسة الذين أساءوا استعمال وظائفهم، ولكن هنري لم يستجب لهم في الحال، على أمل قيام البابا بتتويجه إمبراطورًا، غير أن هنري قام آنئذ بضم رؤساء الأساقفة الخمسة الذين كان جريجوري قد حرمهم قبل ذلك؛ ونظرًا لأن البابا لم يقم بتتويجه فقد نفذ صبره، وغير موقفه، فأرسل رسالة إلى البابا، شعر أن ورائها شيئًا. كما أرسل سفارة إلى إيطاليا بغرض التحالف مع أساقفه لمبارديا، وفي الوقت نفسه إقامة تحالف مع روبرت جويسكارد (١٠٥٧ – ١٠٨٥م) Robert Guiscard زعيم النورمان في جنوب إيطاليا الذي كان آنئذ محرومًا من قبل البابا، ولكن روبرت جويسكارد رفض التحالف مع الإمبراطور ضد البابا، إذ رأي أن قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده أهون شأنًا من التحالف مع هنري الرابع الذي يسعى لفرض سيطرته على جنوب إيطاليا[١].

والجدير بالذكر أن البابا بدأ يدرك عندئذ أيديولوجية هنري الرابع الحقيقية المتمثلة في التمسك بحقه الذي ورثه عن أسلافه، وأن طاعة هنري له خلال المدة السابقة حدثت بسبب ظروف ألمانيا السياسية آنذاك[٢]. والحقيقة أن هنري أدرك أن نجاحه في فرض رأيه على البابوية أمر تتوقف عليه هيبته في إيطاليا وغير إيطاليا من بلدان الإمبراطورية[٣].

---

1) Brook: op. cit., p. 65;

Brook: History of Europe, p. 184.

2) Blockwe II: op. cit., p. 105;

Brook: History of Europe, p. 184;

محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠٦.

٣) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٤.

تحرك الإمبراطور هنري الرابع بسرعة، وقام بتعيين اثنين من أتباعه في أسقفيتي فرمو Formo وسبوليتو Spoleto في إيطاليا على الرغم من أن هاتين الأسقفيتين تقعان فعلاً داخل منطقة النفوذ البابوي، ثم قام بعد ذلك بتعيين تدالد Tedald أسقفًا جديدًا لميلان[١]؛ ونظرًا لأن جريجوري كان يتمسك من جانبه بنظرية السمو البابوي بحكم أن البابا خليفة المسيح في الأرض ووريث القديس بطرس، كما اعتبر أن نجاحه في فرض رأيه على الإمبراطور أمر تتوقف عليه هيبته ومستقبل البابوية، فضلاً عن نجاح سياسته في الإصلاح الكنسي، وهي السياسة التي شرع فعلاً في تنفيذها[٢] فقد أرسل إلى هنري رسالة شديدة اللهجة، أوضح له فيها أنه باتحاده مع الأساقفة المحرومين أصبح محرومًا مثلهم، ولذلك ينبغي عليه القيام بالتوبة وطلب الحل، وأنذره أنه في حالة عدم خضوعه له، فإنه سوف يوقع عليه قرار الحرمان، وهدده بخلعه من منصبه[٣].

وصلت سفارة جريجوري إلى هنري الرابع في مستهل يناير سنة ١٠٧٦م، وعندما علم بما تحمله من تهديدات البابا له ثارت ثائرته، وعزم على التصدي له خاصة أنه كان آنئذ قد تخلص من ثورة السكسون؛ لهذا عقد مجمعًا في ورمز في ٢٤ يناير من نفس العام، وقد حضره حوالي أربعة وعشرون من الأساقفة، وهؤلاء كان معظمهم سيمونيين ومتزوجين، والبعض منهم كانوا محرومين، ومن

---

1) Brook: "Gregory VII and the First Contest between the Empire and the Papacy", p. 65;

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٤.

٢) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٤.

3) Maket and Isac: op. cit., p. 272;
Stevenson: op. cit., p. 252;
Brook: op. cit., pp. 65 – 66.



ثم فإن هؤلاء الأساقفة ونزولا على رغبة الإمبراطور هنري قرروا عدم ولائهم وطاعتهم للبابا، وأعدوا خطابًا لإرساله له[1] وفي بداية هذا الخطاب أوضحوا للبابا أن انتخابه قد تم بطريقة غير شرعية، ولكنهم سكتوا عن ذلك أملاً في انفراج الموقف، وقالوا: "ولكن مازلت حتى الآن سادرًا في غيك وماضيًا على طريقة بدايتك، كما يتضح من أحوال الكنيسة المحزنة التي تستحق الرثاء، لقد جردت الأساقفة من كل سلطة من أجل تكريس سلطتك أنت، وليس هناك أحد يجد من يعترف به قسيسًا أو أسقفا مالم يحصل على منصبه من نيافتكم لقاء خضوعه المزري لك، من الذي لم يروعه سلوكك المشين عندما انتزعت لنفسك سلطة غير قانونية ومبتدعة تفرضها على الأخوان، إنك تسببت في فضيحة فاضت رائحتها النتنة في كل الكنائس بسبب علاقتك العاطفية الوطيدة بامرأة غريبة عنك، ومن ثم وبناء على ما تقدم، نعلن الآن وللمستقبل أننا نخلع طاعتنا عنك، وهي الطاعة التي لم نعدك بها في حقيقة الأمر، وبما أنك لم تعترف بأحد منا أسقفا كما أعلنت على الملأ، فإنك لا تعتبر البابا في نظر أي منا"[2].

كما أرسل هنري رسالة إلى البابا أوضح له فيها أنه اختير إمبراطورًا من قبل الأمراء[3]، وأنه تحمل غطرسة البابا وتكبره ليس

---

1) Blockwe II: Madiavel Germany, p. 114;

Brook: op. cit., p. 66;

قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية نصوص ووثائق "الحملة الصليبية الأولى (١٠٩٥ – ١٠٩٩)، (القاهرة، ١٩٨٥م)، ص٥٢.

2) Malet and Isac: Le Moyen Age, p. 279;

Brook: op. cit., p. 66;

قاسم عبده قاسم: المرجع السابق، ص ٥٣ – ٥٤.

٣) من المعروف أن هنري تولى الحكم وهو صغير، عندما أجبر والده الأمراء على القسم له ثلاث مرات، وكان عمره أنئذ الرابعة. انظر:

Blockwell: op. cit., p. 109;=

خوفًا منه ولكن احترامًا للوظيفة البابوية[1]، وقال له هنري: "أنت مهما كنت أسرعت في عدم فهم تواضعنا، فاعتقدت أنه خوف منك؛ ولهذا لم تخش أن تثور ضد القوة الملكية التي اتخذتها من الرب، وتجرأت على تهديدي بإبعادي كما لو أني قد قبلت الملكية منك، وكما لو كانت الملكية بين يديك وليست بين يدي الرب، ثم إنك هاجمتني وأنا الرجل المتواضع الذي باركه الرب ليحكم، ووفقاً لتعاليم الآباء، لا يمتلك أحد محاكمتي سوى الرب، ولا يمكن أن أعزل من منصبي إلا لجريمة الخيانة والكفر، أما أنت فعن طريق الخداع حصلت على المال، وعن طريق المال حصلت على الأتباع، وعن طريق الأتباع حققت قوتك، والتي بها وصلت إلى الكرسي البابوي وبقيت فيه، وهذا الكرسي مفروض أن يكون كرسي السلام، ولكن بسبب وجودك فيه طردت السلام منه، ولهذا أقول لك الآن بلسان أساقفتي: اترك هذا الكرسي الذي استوليت عليه، وليكن كرسي القديس بطرس مشغولاً بشخص آخر لا يبحث عن أن يخفي العنف تحت ستار الدين. أنا هنري الملك بنعمة الرب، أقول لك مع كل أساقفتنا انزل، انزل، ولتكن ملعونًا طوال السنين"[2].

= محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ٢٠٥.

1) Ashour and Rabie: op. cit., p. 64;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٧١٤.

2) Ashour and Rabie: op, cit., p. 65;

Malet and Isac: op. cit., p. 279;

Brook: op. cit., p. 66;

Stevenson: op. cit., p. 252;

Lyon and others: op. cit., p. 235.

والمتأمل في خطاب هنري يرى أنه يحاول أن يبين لجريجوري أنه لا يمكن لأحد على الأرض أن يحاكمه، وطالما امتلك هذه الخاصية فله الحق في عزل كل القوى الأرضية من مناصبها حتى ولو كان البابا نفسه.

وعندما وصلت رسالتا هنري الرابع والأساقفة إلى جريجوري السابع قابلهما بشيء من الهدوء، وفي مجمع لنتن الذي كان معقودًا في روما آنئذ، قام أولاً بعزل سجفريد رئيس أساقفه ماينز، وجميع الأساقفة الألمان الذين اشتركوا مع الإمبراطور في الحكم، ولكن في محاولة منه لإبعادهم عن هنري، أعطاهم مهلة حتى مستهل أغسطس سنة ١٠٧٦م، وخلال تلك المدة يمكن أن يعودوا إلى أحضان الكنيسة، شريطة أن يقدموا له فروض الولاء والطاعة، كما أن نفس الحكم شمل الأساقفة اللمبارد الذين تضامنوا مع هنري[١]، ثم شرع بعد ذلك في التعامل مع هنري في خطاب رائع موجه إلى بطرس أمير الحواريين طالبًا منه أن يخلصه من هذا الإمبراطور الشرير، فقال: "أنا نائبك وبفضلك أعطيت سلطة الحل والعقد من الرب في السماء وعلى الأرض، ولهذا فإنني اعتمادًا على هذا الاعتقاد وتلك القوة، ومن أجل شرف الكنيسة ودفاعًا عنها وباسم الرب القوى الآب والابن والروح القدس، وبواسطة سلطانك، أمنع الملك الذي ثار بكبرياء لم يسمع عنه ضد كنيستك من أن يحكم مملكتا ألمانيا وإيطاليا، وإني أحل كل المسيحيين من قسم الولاء الذي أقسموه له، أو سيقسموه له إنني أمنع أي شخص يخدمه كملك"[٢].

---

[1]) Brook: op. cit., p. 66- 67;
Stevenson: op. cit., p. 252.

[2]) Ashour and Rabie: Fifty Documents in Mediavel History, p. 66;
Malet and Isac: Le Moyen Age, p. 280;=

والمتأمل في خطاب البابا يرى نغمة الغطرسة التي تملؤه، وأنه من حقه تعيين وعزل من يريد، حتى ولو كان الإمبراطور نفسه، وبناء على ذلك أصدر قراره الثاني ضد هنري، وهو العزل من حق الحكم، وحل رعيته من الولاء له، والحرمان من المجتمع الكنسي.

وعلى أية حال، عندما تلقى هنري خبر الحكم البابوي، حاول عقد مجمع في ورمز أو ميتز Metz، ولكن دعواته لم تلق استجابة من قبل الأمراء والأساقفة الألمان، وتحول الأمراء ضده، لاسيما أنهم كانوا ينتهزون أي فرصة لإضعاف قوته[1]؛ ولذلك اعتبروا قرار الحرمان ضد هنري ترخيصًا لهم بالثورة من البابا، ومن ثم فقد وجهوا الدعوة إلى البابا للحضور إلى أوجسبرج ليحاكم هنري، وأعلنوا استعدادهم للقيام بالإطاحة بالإمبراطور في حالة إدانته، فقبل جريجوري دعوة الأمراء؛ لأنها سوف تحقق له أمانيه، وتظهر للعالم مدى العلاقة بين السلطتين الروحية والزمنية، وأيهما لها السيادة على الأخرى وسوف يمارس سلطته بالحل والعقد ممارسة فعلية[٢]، ومن ثم فقد تحرك جريجوري صوب ألمانيا في ديسمبر سنة ١٠٧٦م، ولكنه مكث في لمبارديا ينتظر قدوم الحرس الذي سوف يصحبه إلى ألمانيا، والذي وعده به الأمراء الألمان، إلا أن هذا الحرس لم يصل، ولم تلبث الأخبار أن وصلت إليه بوصول هنري لإيطاليا، وحتى لا يعرض

=Brook: "Gregory VII and the First Contest between the Empire and the Papacy", p. 67;

قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية نصوص ووثائق، ص٥٤.

1) Brook: op. cit., p. 68;

Malet and Isac: op. cit., p. 280.

2) Lyon and others: op. cit., p. 235.

سعيد عاشور: أوربا الوسطى، جـ١، ص ٣٥٦.

البابا نفسه لعداوة اللمبارديين، احتمى في قلعة كانوسا التابعة لحليفته ماتيلدا أميرة تسكانيا[١].

والواقع أن هنري وجد آنئذ أن الانتصار الذي حققه على السكسون سنة ١٠٧٦م قد ضاع، وأنه أصبح معزولاً، وأن وضع ألمانيا السياسي أصبح أشد خطرًا مما كان عليه سنة ١٠٧٣م؛ ولذلك صمم على منع حدوث اجتماع بين البابا والأمراء الألمان في أوجسبرج في فبراير سنة ١٠٧٧م؛ لأن هذا اللقاء لو تم فإنه سوف يؤدي إلى مظاهرة عدائية ضده، الأمر الذي سيترتب عليه إضعاف مركزه أكثر، وسوف يتشدد البابا أكثر في موقفه[٢]؛ ومن ثم في الأيام الأخيرة من ديسمبر سنة ١٠٧٦م خرج هنري لمقابلة البابا، وقد تمكن من الهروب من المراقبة التي كانت مفروضة عليه من قبل الأمراء الألمان، فعبر جبال الألب عن طريق ممر سنيس Mont Cenis، وقد وصل إلى سهول لمبارديا في صحبة زوجته وابنه الصغير، وعدد قليل من أتباعه، ومن هناك واصل تقدمه حتى وصل إلى قلعة كانوسا، وظل هنري واقفًا أمام أبواب هذه القلعة لمدة ثلاثة أيام حافي القدمين، ومرتديًا ملابس الصوف الرثة التي كان يرتديها المذنبون، ولم يكن يرتدي شارات الملك، إنها حقًا كما قال البعض لحظات قليلة في التاريخ، تلك التي يقف فيها الحاكم الزمني أمام البابا، ليطلب منه الحل والغفران من ذنوبه، إنها قمة التراجيديا، والجد الذي يختلط بالهزل[٣].

---

1) Brook: op. cit., p. 69;
Lyon and others: op. cit., p. 235;
Stevenson: op. cit., p. 253.

2) Stevenson: Mediavel History, p. 253;
سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٦.

3) Maket and Isac: Le Moyen Age, p. 280;=

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي جعلت البابا يترك هنري واقفًا لمدة ثلاثة أيام على الجليد أمام أبواب القلعة، فيرى البعض أن البابا هو الذي جعل هنري يقف هذه المدة؛ حتى يتدبر أمر هذا الخضوع، لاسيما أن هنري خضع له سنة ١٠٧٣م، ثم عاد ونقض هذا الخضوع، ومن ثم لم يعد جريجوري يثق فيه، كما أن البابا كان يدرك أنه إذا منح هنري الحل، فسوف تتحطم آماله في ترأس المجمع المزمع عقده في ألمانيا، كما أن الأمراء الألمان سوف يبتعدون عن التحالف معه[١]. في حين يرى البعض الآخر أن هنري كان في حاجة إلى الغفران البابوي لكي يحتفظ بعرشه، وهذا ما كان جريجوري يدركه، ولذلك لم يكن جريجوري على استعداد أن يمنحه هذا الغفران في الوقت الذي أصبح فيه هنري فاقدًا لسلطته، وفي الوقت الذي كان فيه جريجوري في طريقه إلى ألمانيا ليترأس الاجتماع المزمع عقده في أوجسبرج في فبراير سنة ١٠٧٧م لانتخاب حاكم ألماني آخر من شأنه أن يقدم فروض الولاء والطاعة للبابوية[٢].

ولكن جريجوري مالبث أن تعطف ومنح هنري الحل في يناير سنة ١٠٧٧م؛ وذلك لأن تقاليد الكنيسة وقانونها كانت تمنع أي قسيس نائب للمسيح على الأرض أن يرفض توبة مخطئ[٣]. كما أن هيو Hugh رئيس دير كلوني والكونتيسة ماتيلدا تدخلا لصالح هنري[٤]،

=Stevenson: op. cit., p. 253;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٦.

1) Brook: op. cit., p. 69 – 70.

2) Stevenson: Mediavel History, p. 253.

٣) كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٦٦.

4) Malet and Isac: op. cit., p. 280;=

وكان يمكن للملوك والأباطرة في شتى أنحاء أوربا أن يتضامنوا مع هنري، لاسيما إن إذلاله من البابا لم يعجبهم[١]، ولكن الحل الذي حصل عليه هنري كان حلاً مشروطًا، فقد تعهد هنري بالسير سيرا حسنًا في المستقبل، وأقسم على الإنجيل أن يتتبع تعليمات البابا، وعدم قيامه بعرقلة قدوم جريجوري إلى ألمانيا لترأس اجتماع الأمراء، وأقسم هنري بالخضوع لحكم محكمة مشكلة من الأمراء الألمان وبعدم إعلان نفسه إمبراطورًا قبل صدور الحكم[٢].

وهكذا استطاع هنري الرابع أن يكتسب غفران البابا ويطالب بولاء رعاياه ولكن بعد أن دفع ثمنًا باهظًا كلفه كل ما يمتلك من كرامة وهيبة. فها هو حاكم الإمبراطورية العظيم يذل نفسه للبابوية ويعترف بحقها في حرمانه من رعاية الكنيسة وعزله من وظيفته. وها هو خليفة قيصر وشارلمان يرتضي على نفسه أن يقف موقف الحكم بينه وبين شعبه، إن شاء أمرهم بالخروج عن طاعته وإن شاء أمرهم بالامتثال له[٣].

وتضاربت الآراء حول من كسب ومن خسر في كانوسا، إذ يرى البعض أن كانوسا تعتبر نصرًا سياسيًا لهنري؛ لأنها أجهضت مشروع مقابلة جريجوري للأمراء الألمان، ولذلك اكتسب الوقت ليعيد بناء نفسه مرة ثانية، ويسحق المتمردين، لاسيما أنه كان يدرك أن حصوله

=Brook: "Gregory VII and the First Contest between Empire and the Papacy", p. 69-70.

١) كانتور: المرجع السابق، جـ٢، ص٣٦٦.

2) Brook: op. cit., p. 70;

Malet and Isac: op. cit., p. 280;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص٣٥٦.

٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٥٧.

على الحل سوف يضعف جبهة المعارضة ضده في ألمانيا[١]. في حين يرى البعض الآخر أنه إذا كانت كانوسا قد أنقذت عرش هنري الرابع إلا أنها لم تساعده على إعادة الحكومة المركزية القوية التي كانت في عهد والده، كما أنها أفقدته مكانته تمامًا؛ لأن خضوعه للبابوية على ذلك الوجه المزري لم يفده شيئًا في استرضاء أعدائه وخصومه الخارجين عليه في ألمانيا، بل إن أنصاره من اللمبارديين في شمال إيطاليا لم تعجبهم طريقة خضوعه للبابا فنادوا بخلعه وإحلال ابنه محله[٢]. أما بالنسبة للبابا، فيرى البعض أن كانوسا عدت نصرًا هائلاً للكنيسة على الدولة؛ لأن البابوية تمكنت من تحقيق السمو على الدولة، واستطاعت البابوية أن تسترد مكانتها التي فقدتها منذ أمد بعيد، كما أنها أكدت مزاعم جريجوري حول حق البابوية في محاكمة وعزل أكبر الحكام في أوربا، ومن ثم فإن تلك الحادثة أصبحت سندًا لورثة جريجوري في تبرير مزاعم البابوية في الحل والربط[٣].

---

1) Ashour and Rabie: op. cit., p. 68;
Stevenson: op. cit., p. 253;

كانتور: التاريخ الوسيط، جـ ٢، ص ٣٦٧:
بيريل سمالي: المؤرخون في العصور الوسطى، ص ٩٥؛
عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، ص ١٥٤.

٢) هلستر: أوربا في العصور الوسطى، ص ١٨٥؛
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٧.

3) Lyon and others: History of the Western World, p. 236;
Stevenson: Mediavel History, 253;

كانتور: المرجع السابق، جـ٢، ص٣٦٨؛
سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٣٥٧؛
إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٤٦.

والجدير بالذكر أنه وسط تعدد هذه الآراء يمكن القول أن كلاهما كسب وخسر في آن واحد؛ فكانوسا مكنت هنري من استعادة عرشه حتى سنة ١١٠٦م، ولكنها كانت وصمة عار في جبينه؛ لأنه أول إمبراطور ألماني يخر ساجدًا تحت أقدام البابا. وبالنسبة لجريجوري كان أول من طبق نظرية السمو البابوي تطبيقًا فعليًا، ولكن كانوسا دلت على أن طموحات جريجوري دنيوية، الأمر الذي أثار عليه العالم المسيحي.

وأدرك البابا أن قيامه برفع قرار الحرمان عن هنري الرابع سوف يعتبره الأمراء الألمان خيانة للعهد الذي قطعه معهم بالحضور إلى ألمانيا، ولذلك أرسل لهم رسالة مرفقة باليمين الذي أداه هنري في كانوسا، وفي تلك الرسالة أوضح لهم أن تأخره عن الحضور إلى ألمانيا يرجع إلى تأخر وصول الحرس الذي عهدوا بإرساله إليه، كما أكد للأمراء حضوره إلى ألمانيا في القريب العاجل ليتدبر معهم شئون ألمانيا وشئون الكنيسة، ولكن الأمراء شعروا باستياء عام من تصرفات البابا، وأشاروا صراحة إلى أنه لم يحافظ على وعده لهم[١]، هذا في الوقت الذي اعتبر أمراء ألمانيا فرار الملك سرًا خروجًا عن العهد الذي أخذه على نفسه بالحصول على الحل في ألمانيا[٢]؛ ولذلك عقد الأمراء مؤتمرًا في فورخهايم في ١٣ مارس سنة ١٠٧٧م، حضره مندوبان بابويان ليعتمدا قرار الانتخاب الجديد، وفي هذا المؤتمر تم انتخاب رودلف السوابي في ١٥ مارس من نفس العام ملكًا لألمانيا[٣]،

---

1) Malet and Isac: Le Moyen Age, p. 280;

Brook: op. cit., pp. 70 – 71;

قاسم عبده قاسم: الحروب الصليبية، نصوص ووثائق، ص ٥٦.

٢) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ٢، ص٣٥٧.

3) Blockwell: Mediavel Germany, p. 114;

Brook: op. cit., p. 71.

ولكن جريجوري رفض اعتماد انتخاب رودلف وقبل وجود إمبراطورين على العرش الألماني، وادعى لنفسه حق اختيار أحدهما إمبراطورًا، ولكن هذا الاختيار ينبغي أن يتأخر بعض الوقت حتى يتبين البابا من سوف يظل من الإمبراطورين على ولائه للبابوية، وأن اختيار أحدهما سوف يتم في مؤتمر عام في ألمانيا[١].

ونشبت الحرب الأهلية في ألمانيا من جديد بين هنري الرابع ورودلف السوابي، واختار البابا أن يقف على الحياد في المراحل الأولى لهذه الحرب، وتوافدت عليه السفارات من قبل الإمبراطورين، كل منهما يطالبه بالوقوف إلى جانبه، ولكن مراوغة جريجوري أدت إلى استياء عام لدى هنري، لهذا ففي مجمع لنتن المعقود في روما سنة ١٠٨٠م، طالبته سفارة هنري بسرعة حرمان رودلف، فاعتبر البابا أن ذلك أمر من هنري، ونظر إليه بارتياب، لاسيما أن سفراء رودلف في هذا المجمع وجهوا سلسلة من الاتهامات ضد هنري؛ لكي يبرهنوا للبابا أن هنري ليس عادلاً، وعندئذ كان رودلف قد حقق انتصارًا على هنري في موقعة فلارخهايم، فأعلن البابا رأيه صراحة في أنه يؤيد رودلف وأنصاره من السكسون، ولذلك قرر في مجمع لنتن في مارس سنة ١٠٨٠م قرر إعادة توقيع قرار الحرمان على هنري وإقصاءه عن عرش الإمبراطورية[٢]، وقد أوضح أن "هنري جلب على نفسه الحرمان .لعرقلته انعقاد المؤتمر المتفق عليه في ألمانيا، ولأنه ربط نفسه بسلسلة من الحرمانات، وتسبب لجمع كبير من المسيحيين في الفناء، وللكنائس أن تكون مخربة، وجلب الخراب على كل مملكة

---

[1]) Brook: op. cit., pp. 71- 72.

[2]) Lyon and others: op. cit., p. 236;

Brook: History of Europe, p. 191.

ألمانيا بسبب تكبره، وعدم طاعته، وكذبه، أما رودلف فقد انحاز إليه البابا "بسبب خضوعه، وطاعته وأمانته"(١).

والمتأمل في أسباب حرمان الإمبراطور هنري من منصبه واختيار رودلف إمبراطورًا بدلاً منه، يرى أن البابا أراد إمبراطورًا يقدم له فروض الولاء والطاعة، حتى يتمكن من تحقيق الزعامة على أوربا الغربية.

حاول جريجوري تبرئة نفسه من قرار الحرمان الذي أصدره ضد هنري وعزله فأرسل رسالة إلى هرمان أسقف ميتز Herman of Metz، أكد فيها على وجوب إذعان السلطة العلمانية إلى السلطة الروحية، ويبدو أن بعض الآراء طالبته آنئذ بالاتفاق مع هنري ولكنه رفض، ونادي بأنه قبل أن تحل بداية العام التالي (١٠٨١م). سيكون هنري الرابع قد فقد عرشه وحياته جميعًا(٢).

ومن حسن حظ هنري أن وقف الشعب الألماني وأنصار عدة من لمبارديا خلفه، إذ رأوا أن جريجوري بإقدامه على عزل هنري قد تجاوز سلطاته، وعندئذ اجتمع الأساقفة في ماينز سنة ١٠٨٠م وعزلوا جريجوري من منصبه، وعقد مجمع آخر في بركسن Brixen في ٢٥ يونيو من نفس العام حضرة هنري الرابع وعدد كبير من الأساقفة اللمبارد، حيث وافقوا على قرار مجمع ماينز، وانتخبوا جيوبرت رئيس أساقفة رافنا بدلاً من البابا جريجوري السابع، وقد امتاز هذا البابا الجديد الذي اتخذ اسم كلمنت الثالث - بالخبرة الطويلة والكفاية

---

1) Brook: "Germany VII and the first Contest between the Empire and the Papacy", p.74.

2) Brook: History of Europe. P.192;

Brook: "Gregory VII and the First Contest between the Empire and the Papacy", pp74- 75.

العظيمة – فأسرع عقب انتهاء مؤتمر بركسن إلى رافنا ليدير دفة الأمور من هناك ضد جريجوري[١].

والواقع أن جريجوري بدأ يشعر بخطورة الموقف، وعدم أهمية الأسلحة الروحية في مساعدته لتحقيق السمو على الإمبراطورية، ومن ثم فقد أقدم على التحالف مع النورمان في الجنوب الإيطالي، أملاً في مساعدته على الاحتفاظ بعرشه، فاجتمع بروبرت جويسكارد زعيم النورمان في سبرانو Ceprano في يونيو سنة ١٠٨٠م. وهنا نلاحظ أن ترحيب روبرت جويسكارد بالتحالف مع جريجوري يرجع إلى مطامعه في الإمبراطورية البيزنطية، وقد ترتب على ذلك قيام تحالف بين ألمانيا وبيزنطة[٢].

وقد وقع عندئذ مالم يكن جريجوري يضعه في حسبانه، إذ مات رودلف في اليوم التالي لموقعة نهر ألستر[٣]، الأمر الذي ترتب عليه قدوم هنري لإيطاليا في مارس ١٠٨١م لمواجهة خصمه اللدود جريجوري السابع، فهاجم إيطاليا سنتي ١٠٨١م و ١٠٨٢م، وتمكن من إنزال هزيمة ساحقة بقوات الكونتيسة ماتيلدا حليفة جريجوري عند فولتا Volta قرب مانتوا، ثم استولى هنري على مدينة لونين Leonine في يونيو سنة ١٠٨٣م، وقد جرت مفاوضات آنئذ لاحتواء الموقف بين هنري وجريجوري، ولكن هذه المفاوضات باءت بالفشل، بسبب تعنت جريجوري الذي أعلن أنه لن يتفاوض مع إمبراطور

---

[1]) Brook: op. cit., p. 74 – 75;

سعيد عاشور: أوربا الوسطى، جـ١، ص ٣٥٨ – ٣٥٩.

[2]) Anna Comnena: The Alexiad, Tr. El izabeth A.S. Dawes, (London, 1967). pp. 91- 93, 95, 100, 115- 119;

Stevenson: op. cit., p.253.

[3]) Brook: op. cit., pp. 76 - 77.

محروم. غير أن هنري تمكن من الاستيلاء على مدينة روما في ٢١ مارس سنة ١٠٨٤م بعد أن رشا حراس أبوابها، ثم عقد مجمعًا دينيًا في روما قرر فيه عزل جريجوري السابع وحرمانه من الكنيسة، واعتلاء كلمنت الثالث كرسي البابوية وأعقب ذلك تتويج هنري الرابع إمبراطورًا في كنيسة القديس بطرس(١).

وبقي جريجوري متحصنًا في قلعة سانت أنجيلو Saint Angels في الوقت الذي استحث فيه روبرت جويسكارد على القدوم لروما لإنقاذه، فزحف روبرت جويسكارد من سالرنو إلى روما بجيش قوامه ستة آلاف من الخيالة وثلاثون ألفًا من المشاة، ولم يكن تقدم روبرت جويسكارد إلى روما حبًا في إنقاذ جريجوري ولكن خوفًا من ازدياد نفوذ الإمبراطور الألماني هنري الرابع والإمبراطور البيزنطي في إيطاليا، مما يهدد مصالح النورمان ومطامعهم في إيطاليا(٢).

والجدير بالذكر، أن هنري عاد لألمانيا قبل دخول روبرت جويسكارد روما ويبدو أن ذلك يرجع إلى عدم امتلاكه القوة التي تمكنه من الوقوف في وجه النورمان كما أن الوضع السياسي في ألمانيا كان يستدعي وجوده هناك، فأسرع أهالي روما إلى إغلاق أبواب مدينتهم في وجه النورمان خوفًا منهم، ولكن روبرت جويسكارد

---

1) Stevenson: Mediavel History, p. 253;
Brook: op. cit., p. 78 – 79;
Lyon and others: History of the Western world, p. 236;
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٥٩ – ٣٦٠.

2) Anna Comnena: op. cit., p.121;
إدوارد جيبون: اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ٣، ترجمة لويس إسكندر، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩)، ص ١٧٤؛
سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٦٠.

تمكن من دخول المدينة بالقوة في مايو سنة ١٠٨٤م، ثم قامت قواته بأعمال النهب والسلب وإحراق كل ما يقابلهم، وبيع الآلاف من أهالي روما في أسواق الرقيق(١)، وعند عودة النورمان اصطحبوا معهم جريجوري السابع بسبب ازدياد السخط ضده من قبل أهالي روما لما فعله حلفاؤه النورمان، وطلب جريجوري من روبرت جويسكارد أن يبقيه في قلعة مونت كاسينو Mont Cassino، ولكن روبرت رفض، وأسرع به إلى بنفنتو Benvento ومنها إلى سالرنو، وهناك عقد جريجوري آخر مجمع ديني في حياته كرر فيه حرمان الإمبراطور هنري الرابع ومساعديه، ووجه آخر خطاب إلى العالم يعلن فيه برّاءته واستئناف حكمه للعالم المسيحي، ولكنه لم يقو على تحمل مرارة الفشل، فمات في سالرنو في ٢٥ يونيو سنة ١٠٨٥م، وكانت آخر كلماته: "أحببت العدل، وكرهت الظلم، ولهذا أموت في المنفى"(٢).

وقد ظل كرسي البابوية شاغرًا لمدة عام في أعقاب وفاة جريجوري السابع، ولكن مساعديه من الكرادلة وحدوا صفوفهم واختاروا دسيدريوس Desiderius رئيس دير مونت كاسينو بابا تحت لقب فيكتور الثالث في نهاية مارس سنة ١٠٨٧م، ولم يتمكن الأخير من دخول روما إلا في ٩ مايو سنة ١٠٨٧م، ولكنه لم يمكث فيها طويلاً بسبب كراهية الشعب الروماني له؛ لأنه كان صديقًا لجريجوري السابع، فغادر روما إلى مونت كاسينو، حيث مات في ١٦ سبتمبر سنة ١٠٨٧م، وكل ما عمله خلال بابويته قيامه بعقد المجمع

---

1) Anna Comnena: The Alexiad, p 121;
Stevenson: op. cit., p. 253.

2) Malet and Isac, :Le Moyen Age, p. 280;
Brook: op. cit.,p. 80;

سعيد عاشور: أوربا الوسطى، جـ١، ص ٣٦١.

الديني في بنفنتو في أغسطس سنة ١٠٨٧م، حيث أصدر فيه قرارات تتعلق بعدم قيام العلمانيين بتعيين رجال الدين، كما أصدر قرار الحرمان ضد البابا كلمنت الثالث(١).

وبعد وفاة فيكتور الثالث ظل الكرسي البابوي شاغرًا لمدة ستة أشهر، حتى تمكن الكرادلة من اختيار الكاردينال أوتو أسقف أوستيا بابا تحت لقب أوربان الثاني(٢) (١٠٨٨ – ١٠٩٩م) Urban II في ٢١ مارس سنة ١٠٨٨م، وكان أوربان الثاني يشبه جريجوري السابع في تحمسه للإصلاح الكنسي، وسيادة البابوية على الإمبراطورية، وتحررها من تحكم العلمانيين، ولذلك أرسل في اليوم التالي لاختياره رسالة إلى الهيئة الأكليروسية في ألمانيا يخبرها بعزمه على اتباع خطوات سلفه جريجوري السابع المتعلقة بإصلاح الكنيسة، ثم كرر إصدار القوانين التي تحرم على أي من رجال الدين استلام أي وظيفة أكليروسية من أحد العلمانيين(٣). بيد أن أوربان الثاني امتاز عن البابا

---

1) Brook: "Gregory VII and the First Contest between the Empire and Papacy", pp. 86-87.

٢) فرنسي الأصل، من تشامبجن Champagne جنوب فرنسا، ينتمي إلى عائلة نبيلة، ولد حوالي ١٠٤٢م بالقرب من ريمس Rheims، وتلقى تعليمه في كتدرائية ريمس وترقى بسرعة في درجات الأكليروس، ولكنه ترك الهيئة الأكليروسية ومارس حياة الرهبنة في دير كلوني Cluny، وقد عين رئيسًا لهذا الدير سنة ١٠٧٦م، ثم قدم إلى روما سنة ١٠٧٨م وكان أحد المقربين إلى البابا جريجوري السابع، وقد أهلته صفاته أن يحوز ثقة جريجوري السابع، فأرسله في عدة سفارات إحداها كانت لألمانيا وعينه كاردينالاً لأوستيا، ويقال إن جريجوري وهو على فراش الموت أوصى الكرادلة باختياره خلفًا له، انظر:

Chalandon (Ferdinand): Histoire de la Premiere Croisade, (Paris, 1925);

Stevenson: op. cit., p. 256.

3) Chalandon: op. cit., pp. 13 -14;

Brook: op. cit., p. 88.

جريجوري السابع بالاعتدال، فعندما كان يقوم علماني بتنصيب أي من رجال الدين، لم يحاول أوربان أن يتصدى له[1].

والواقع أن أوربان لم يستطع الإقامة في روما طويلاً، فقد طرد منها سنة ١٠٨٩م بسبب الخراب والدمار الذي أحدثه النورمان الذين استدعاهم صديقه وسلفه في روما فاتجه إلى جنوب إيطاليا حيث قضى السنوات الأولى من بابويته تحت حماية روجر الأول النورماني (١٠٨٥ - ١١١١م) Roger I، وكان أهم ما قام به أوربان الثاني خلال تلك الفترة العمل على توحيد حركة المقاومة ضد الإمبراطور هنري الرابع في كل من إيطاليا وألمانيا، ففي إيطاليا تمكن من استقطاب الأساقفة اللمبارد الذين كانوا سندًا لهنري الرابع في صراعه مع البابوية، فوجه بذلك لطمة قوية إلى الإمبراطور، كما تمكن من عقد زواج سياسي سنة ١٠٨٩م بين الأميرة ماتيلدا حليفة البابوية وأحد أبناء الأمير ولف الخامس دوق بافاريا أقوى المنافسين لهنري الرابع[2]، ولكن استقطاب دوق بافاريا إلى حلف البابوية لم يمنع الإمبراطور هنري الرابع من القدوم لإيطاليا سنة ١٠٩٠م، والاستيلاء على كل أراضي الكونتيسة ماتيلدا خلال سنتي ١٠٩١ و ١٠٩٢م، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على قلعة كانوسا نظرًا لمناعتها[3]، فبدأت البابوية تشعر أن الحلف العسكري لم يؤد ما كان مطلوبًا منه؛ ولذلك عملت على تأليب كونراد على الثورة على والده هنري الرابع

---

١) فوشيه دي شارتر: تاريخ الحملة إلى القدس، ترجمة زياد جميل العسلي، ط١، (دار الشرق، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م)، ص ٣١.

2) Brook: op. cit., p. 91;

Chalandon: op. cit., p. 15;

سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٦١.

٣) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٦٢.

سنة ١٠٩٣م، وانحاز الكثير من مدن الشمال الإيطالي إلى كونراد في ثورته ضد والده، وتم تتويج كونراد ملكًا على إيطاليا سنة ١٠٩٣م[1]، وهكذا تمكن البابا أوربان الثاني من ضرب الإمبراطور هنري الرابع في أعز المقربين إليه[2].

والجدير بالذكر، أن أوربان تمكن من العودة إلى روما سنة ١٠٩٣م بسبب الأحداث السابقة، كما تمكن من تسلم اللتيران Lateran عن طريق الرشوة من القائم عليه من قبل البابا كلمنت الثالث سنة ١٠٩٤م، ولهذا لم تبق سوى قلعة سانت أنجيلوا في أيدي أنصار البابا كلمنت الثالث[3]، ولكن يبدو أن أوربان الثاني كان ما يزال يشعر بالضعف أمام الإمبراطور هنري الرابع، ولذلك راح يجوب البلاد ويعقد المجامع الكنسية لتقوية جانب الكنيسة[4]، فتوجه أولاً إلى تسكانيا حيث قضى الشتاء هناك، ثم دخل شمال إيطاليا، وفي مارس سنة ١٠٩٥م عقد مجمع بياكنزا وأمكن استقطاب الإمبراطورة براكسيدس Praxadis زوجة الإمبراطور هنري الرابع إلى هذا المجمع. ويرى البعض أن الإمبراطورة لم تخش أن تكشف النقاب عن الأسرار الخاصة لحياتها الزوجية باتهاماتها الإمبراطور هنري الرابع بإجبارها على البغاء مع كل محبيه، حتى مع ابنها كنراد، وقد أكد كنراد هذه الاتهامات، الأمر الذي ترتب عليه تحول الكثير من الأساقفة من جانب هنري إلى جانب البابا أوربان الثاني[5]، ثم غادر أوربان

---

1) Brook: "Gregory VII and the First Contest between Empire and the Papacy", p. 91;

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ١، ص ٣٦٢.

2) Chalandon: op. cit., p. 15.

3) Brook: op. cit., p. 91.

4) Brook: op. cit., p.91.

5) Chalandon: op. cit., p. 16.

بياكانزا فمر بكريمونا Cremona، ودخل فرنسا في يوليو سنة ١٠٩٥م، وكان أن أعلن الحروب الصيليبية ضد المسلمين في مجمع كليرمونت سنة ١٠٥٩م، وبذلك حقق للبابوية نصرًا عظيمًا، وجعل منها الزعيمة الفعلية للعالم المسيحي في صراعه الطويل ضد المسلمين[١].

ولقد اتخذت البابوية من الحروب الصليبية وسيلة لعزل الأباطرة في الغرب وخلعهم عن زعامة العالم المسيحي[٢]، فقد أدرك البابا أوربان الثاني أن الحروب الصليبية في الخارج سوف تمكنه من السيطرة على أوربا من الداخل، وسوف تؤدي إلى ازدياد نفوذ البابوية[٣]، وهذا ما تحقق بالفعل؛ لأن الحروب الصليبية أضعفت سلطة الإمبراطور هنري الرابع، وأحرجت موقفه أمام العالم المسيحي لاسيما أن هنري يدعي أنه إمبراطور مقدس، فكيف إذن يكون مقدسًا ويستمد سلطته من الرب ولا يدافع عن قبر المسيح؛ ولذلك فإن أوربان أصبح هو الزعيم الحقيقي لأوربا[٤]، ونجح في إخراج البابوية من نزاعها مع الإمبراطورية بنجاح حفظ ماء وجهها واستقطب أوربا كلها وراءه في مواجهة الإمبراطورية[٥].

۞۞۞

---

١) سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٦٢.

٢) باركر: الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، ط ٤، (بيروت، ب.ت)، ص ٥-٦ ، ٩، ١٤٩؛

قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ٦٧، ٨٢ – ٨٣.

3) Stevenson: op. cit., p. 257.

٤) قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي، (القاهرة، ١٩٧٩م)، ص ٤٩.

٥) كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٣٦٩؛

قاسم عبده قاسم: رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية، ص ٦٧، ٨٢ – ٨٣.

الفصل الأول

"دور الألمان في الحملة الصليبية الثانية في بلاد الشام:

- وصول خبر سقوط الرها للغرب الأوربي ودعوة البابا إيوجين الثالث لحملة صليبية.
- الدعوة للحملة الصليبية في ألمانيا واستعداد كنراد الثالث لها.
- رحيل كنراد الثالث بالحملة الصليبية والموقف في الأراضي البيزنطية.
- موقف الألمان في آسيا الصغرى وعودة كنراد الثالث إلى القسطنطينية.
- توجُّه كنراد الثالث من بيزنطه إلى بلاد الشام والأحداث التي شارك فيها الألمان هناك حتى عودة كنراد لألمانيا.



سبقت الإشارة إلى أوضاع ألمانيا السياسية التي لعبت دورًا كبيرًا في عدم مشاركتها في الحملة الصليبية الأولى، ولكن المشاركة الفعلية لألمانيا في الحروب الصليبية بدأت في الحملة الصليبية الثانية عندما استولى عماد الدين زنكي على مدينة الرها في ٢٨ ديسمبر سنة ١١٤٤م (٢٦ جمادي الآخرة سنة ٥٣٩هـ)[1].

والواقع، أن استرداد عماد الدين زنكي لمدينة الرها أدى إلى إنقاذ سكان الجزيرة من غارات الصليبيين "التي وصلت إلى أدانيها وأقاصيها وبلغت آمد ونصبين ورأس العين والرقة، فأصبحوا بعد ذلك

---

١) بدأ الدور الحاسم في حياة المدن الصليبية في بلاد الشام منذ تولية عماد الدين زنكي ولاية الموصل والجزيرة في سنة ١١٢٧م (٥٢١هـ) من قبل السلطان السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاة، ولأن زنكي كان مدركًا لمدى التفكك الإسلامي الذي لولاه ما تمكن الصليبيون من الاستقرار في بلاد الشام وأعالي الفرات، فقد قام أولاً بتوحيد الصف الإسلامي تحت رايته، والذي من أجله خاص حروبًا كثيرة مع قواد الإمارات الإسلامية، ولم يغفل زنكي عن مهاجمة ممتلكات الصليبيين من وقت لآخر؛ ونظرًا لأنه كان مؤمنًا بضرورة استئصال شأفة الصليبيين من الأراضي الإسلامية، فقد بدأ باسترداد مدينة الرها نظرًا لقربها منه، ولكنه قتل أثناء حصاره لقلعة جعبر سنة ١١٤٦م (٥٤١هـ). انظر: ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، (مكتبة الآباء اليسوعيين، بيروت ١٩٠٨م)، ص ٢٣٧ – ٢٩٦؛

ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ ١١، (بيروت، ١٩٧٨م)، ص ١٩ – ٩٨؛
أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، (دار الجليل، بيروت، بدون)، ص ٣٠– ٤٢؛ ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١، تحقيق جمال الدين الشيال، (مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)، ص ٧٢ – ١١٢؛ ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، (دار الكتاب اللبناني، ١٩٦٨م)، ص ٣٣٢ – ٣٤٠؛

William of Tyre: A History of Deeds Done Beyond the Sea, Tr. By Emily Atwater Babcok and A.C.Krey, vol., II, (New York, 1943), pp. 140- 163.

آمنين على أرواحهم وأموالهم[١]. كما أن استردادها أدى إلى إنهاء حالة التهديد الدائم لخطوط المواصلات الإسلامية التي تربط بين الموصل في شرق مدينة الرها وبين حلب في غربها من ناحية، وبين بلاد فارس وسلاجقة آسيا الصغرى من ناحية ثانية[٢]. وقد أدى استرداد مدينة الرها إلى ربط خطوط المواصلات بين الموصل وحلب، فكان لذلك أثر كبير في تقوية وحدة الجبهة الإسلامية[٣].

كما أن استردادها، أعطى المسلمين دفعة قوية وأملاً جديدًا في إمكانية استرداد بقية الأراضي الإسلامية من يد الصليبيين بعد ما لمسوا مدى ضعفهم "فقد صارت عقود الفرنج من ذلك تتفسخ وأمورها تنتسخ ومعاقلها تفرع وعقائلها تفترع"[٤].

ويرى البعض، أنه منذ استرداد المسلمين لمدينة الرها تغير الوضع تمامًا في منطقة الشرق الأدنى بين المسلمين والصليبيين، إذ بدأ صعود القوة الإسلامية، والذي وصل ذروته في استرداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) [٥].

والجدير بالذكر، أن استرداد عماد الدين زنكي لمدينة الرها كان بمثابة كارثة حلت بالصليبيين "فعندما انتشر خبر حصار عماد الدين زنكي لها فزعت القلوب البعيدة والقريبة"، ولكن هذا الفزع ما لبث أن

---

١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ٩٨؛

أبو شامة: المصدر السابق، جـ١، ص ٣٧.

٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ط٤، (الأنجلو المصرية ١٩٨٦)، ص ٤٧٢؛

عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي، ط١، (دار العلمية، بيروت، ١٩٧١)، ص ١٤٩.

٣) حسن حبشي: الحرب الصليبية الأولى، ط٢، (دار الفكر العربي ١٩٥٨)، ص ٨.

٤) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، ص ٤٥.

5) Siven (Emnanuel): *L' Islam et la Croisade" ideologie et Propaganda* dans les reaction Musulmanis aux Croisades", (Paris, N.D.)p. 43.

تحول إلى فرح لدى الصليبيين، عندما استولى عليها جوسلين الثاني في أعقاب مقتل زنكي "وبمقدار ما حزن الصليبيون على المدينة لوقوعها في أيدى المسلمين، فقد فرحوا عندئذ لحصولها على الحرية"، ولكن عندما استعادها نور الدين محمود بن زنكي في نوفمبر سنة ١١٤٦م، عم الصليبيين الحزن والأسى لدرجة أنهم "تبادلوا العزاء فيها"[١].

ولم يأت حزن الصليبيين على ضياع مدينة الرها من فراغ؛ لأن هذه المدينة بسبب موقعها الجغرافي تمثل الحصن المتقدم للصليبيين في أعالي الشام، ولذلك كانت مهمتها تلقي الضربة الأولى للتقدم الإسلامي[٢]، ومن ثم فإن سقوطها أدى إلى وضع بقية المدن الصليبية في خطر جسيم، لاسيما إمارة إنطاكية التي ظهر واضحًا أن المسلمين باتوا يهددونها بعد زوال خطر القوات الصليبية في الرها[٣]. كما أن استرداد إمارة الرها كان خطرًا على مملكة بيت المقدس، التي غدت مهددة بالسقوط، فأصيب سكانها بفزع شديد، لدرجة أنهم ربطوا آنئذ بين بعض الظواهر الطبيعية التي ظهرت في السماء مثل النجم ذو

---

1) Willam of Tyre: op. cit., vol. II. pp. 142 – 159, 161.

2) Vasiliev (A.A.): Histoire de L' Empire Byzantine, Tom. II, (Paris, 1932), p. 58;

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤٠؛

الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٣٠.

3) Balzani (UGO): "Italy, 1125 – 1152", in Camb. Med. Hist., vol. V, (London, 1980), p. 58;

يوشع براور: عالم الصليبيين، ترجمة قاسم عبده قاسم ومحمد خليفة حسن، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١)، ص٦٩؛

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨١ – ١٨٢.

الذنب وبين سقوط الرها، حيث اعتبروها تمثل المستقبل المظلم للمدينة(١).

ويشير البعض إلى أن هيو أسقف جبلة عندما كان يروي قصة سقوط الرها أمام البابا إيوجين الثالث (١١٤٥ – ١١٥٣) Eugenus III كان يذرف الدموع، إذ رأى أن استرداد المسلمين لمدينة الرها، ترتب عليه انفصال الصليبيين في المناطق المسيحية في وسط آسيا عن المناطق الغنية خارج بلاد الشام(٢) وفقدان السيطرة على حركة المرور الاعتيادية بين البلدان الإسلامية، الأمر الذي أدى إلى ضياع الدخل الذي كان الصليبيون يحصلون عليه من المسافرين مثل التجار والحجاج والبدو وغيرهم(٣).

وقد استفادت بيزنطة من استرداد عماد الدين زنكي للرها؛ لأن استردادها عرَّض إمارة إنطاكية للخطر الإسلامي، ولذلك فإن أميرها ريموند من بواتييه عندما شعر أنه لن يتمكن من الوقوف في وجه المد الإسلامي، سارع إلى القسطنطينية في سنة ١١٤٥م، وركع تحت أقدام الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣ – ١١٨٠م) Manuel I Comnenus، وقدم له فروض الولاء والطاعة مقابل الدفاع عنه، كما قام بزيارة قبر الإمبراطور البيزنطي السابق يوحنا

---

1) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 162;

Franzius (Enno) History of Byzantie Empire, (New York, 1967), p. 324.

٢)عادل إسماعيل هلال: الغزو المغولي لأوربا وموقف الغرب الأوربي تجاهه (رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م)، ص ٦.

٣) ر. سي. سميل: الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم، ط١، (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢م)، ص ٢٥.

الثاني كومنينوس (١١١٨ – ١١٤٣م) [١]. وبهذا كما قال جروسية[٢] Grousset: "إنه من المؤكد أن بيزنطة قد استفادت من كارثة الصليبيين في الجزيرة؛ وذلك لأن هذه الكارثة جلبت الاعتراف الحقيقي لها على إمارة إنطاكية".

وقد أثار نبأ سقوط الرها في أيدي المسلمين دويا هائلاً في غرب أوربا، فقد أحدث موجة عارمة من السخط، ونظر إليه على أنه كارثة كبرى[٣]، ذلك أن أوربا الغربية كانت تعتبر الإمارات الصليبية في الشرق الأدنى قاعدة حربية لها على ساحل البحر الأبيض المتوسط لقتال المسلمين، هذا في الوقت الذي كانت فيه هناك قاعدة أخرى لهم في أسبانيا[٤]. ونظرًا لأن الرها كانت أول إمارة صليبية تقام في الشرق الإسلامي، فقد اعتبر الغرب الأوربي استردادها فاتحة للمسلمين للاستيلاء على بقية المدن الصليبية[٥]. وينبغي ألا ننسى المكانة الدينية التي كانت تتمتع بها مدينة الرها، فقد كانت تقارب وضع مدينة بيت المقدس[٦]، وهذا ما يؤكده أبو شامة إذ يقول: "إن تلك المدينة من أشرف المدن عند النصارى".

---

1) Lammens (H.S.J.) la Syria, Tom. I, (Beyrouth, 1921), p. 222;
Franzius: op. cit., p. 323.

2) Grousset (R.): Histoire des Croisades, Tom. 2. (Paris 1936) p. 226.

3) Grousset: op. cit., Tom 2.p.225;
Smail (R.C.): The Crusaders in Syria and the Holy land, (London, 1973), p. 20.

4) Runciman (S.) A History of the Crusades, vol. II, (Camb. 1954), pp. 248 – 249.

٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٨٥.

6) William of Tyre: op. cit., vol. II. p. 144;=

- وصول خبر سقوط الرها للغرب الأوربي ودعوة البابا إيوجين الثالث لحملة صليبية:

انتشر خبر استرداد المسلمين لإمارة الرها في الغرب الأوربي أولا في صورة إشاعات[1]، ولكن هذه الإشاعات ما لبثت أن أكدها الحجاج والمسافرون القادمون للغرب الأوربي من فلسطين، والذين أذاعوا في بداية صيف سنة ١١٤٥م أخبار استرداد المسلمين لإمارة الرها في ديسمبر سنة ١١٤٤م [2]، كما أن هيو أسقف جبلة وصل أيضًا إلى الغرب الأوربي في نوفمبر سنة ١١٤٥م، فأخبر البابا وملوك غرب أوربا باسترداد المسلمين للرها، وراح يطلب منهم النجدة، ولم يتفق المؤرخون حول مصدر إرسال هيو للغرب الأوربي إذ يرى البعض أن مليسند Melisande ملكة مملكة بيت المقدس هي التي أرسلته[3]، في حين يرى البعض الآخر أن ريموند من بواتييه أمير إنطاكية هو الذي بعث به إلى الغرب، بسبب وقوع أراضيه في طريق المسلمين بعد الرها مباشرة، في الوقت الذي لم يكن يمتلك فيه القوة الكافية لردع القوات الإسلامية[4].

=فيشر: أوربا العصور الوسطى، ص ١٨٨؛

هسي: العالم البيونطي، ترجمة رأفت عبد الحميد، (القاهرة، ١٩٨٢) ص ١٤٥ - ١٤٦، حاشية ١٥.

1) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 163;
Duggan (A.): The Story of the Crusades 1097 – 1291, first published, (London, 1963), p. 107.

2) Perry (Virginia G.): The second Crusade" in setton: History of the Crusade, tom. II, (philadlaphia 1955), p. 466;
قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ٥٤.

3) Runciman: op. cit., vol. II, p. 247;
Duggan: op. cit., p. 107.

4) Perry: op. cit., p. 466, 503;=

والواقع أن إمارة إنطاكية كانت آنئذ معرضة للخطر من قبل المسلمين، ولهذا يمكن الاتفاق مع الرأي القائل أن أمير إنطاكية هو الذي بعث هيو أسقف جبلة لطلب النجدة من الغرب الأوربي.

وقد وصل خبر سقوط مدينة الرها في يد المسلمين إلى البابا أيوجين الثالث أيضًا من قبل الأساقفة الأرمن الذين وصلوا إليه بعد استرداد المسلمين للرها بفترة وجيزة، لاستشارته في إمكان قيام اتحاد بين الكنائس الرومانية والأرمينية، ويبدو أن هيو أسقف جبلة كان يصاحبهم في الرحلة إلى البابا(١).

والجدير بالذكر، أنه عندما وصل هيو أسقف جبلة إلى البابا إيوجين الثالث في فيتربو Viterbo جنوب إيطاليا، راح يروي له وهو يبكي مصدر الخطر الذي أصبح يحيق بالكنيسة فيما وراء البحار بعد الاستيلاء على الرها، ومما رواه أيضًا أسطورة الكاهن يوحنا أو البريسترجون Prester John (٢) مما يدل على مدى ما سببته سقوط

=باكر: الحروب الصليبية، ص ٧٣.

1) Brehier (Louis): Les Croisades, (Peris, 1988), p. 104;
Perry: op. cit., p. 466.

2) Brundage (James A.): The Crusades ADocuments survey, second printing, (The Marquette Uni., 1976), pp. 82 – 83.

روى أسقف جبلة للبابا "أنه منذ سنين كثيرة مضت أن ملكًا يدعى يوحنا الذي يعيش في الشرق الأقصى فيما وراء فارس وأرمينيا مع كل شعبه، يعتنقون المسيحية على المذهب النسطوري، وأنه، (أي هذا الملك) شن حربًا ضد ملكي فارس وميديا، ودمر إكباتانا Ekbatana عاصمة مملكتهم، وعندما تقابل معه الملكان المذكوران بجيوشهما وجيش الآشوريين فإن المعركة استمرت ثلاثة أيام؛ لأن كل فريق آثر الموت على الهروب من ميدان القتال.

وأخيرًا فإن الكاهن يوحنا – كما كان يسمى في بعض الحالات – أجبر قوات الفرس على الفرار وخرج منتصرًا من هذه المعركة، وبعد ذلك، حرر يوحنا قواته لمساعدة=

مدينة الرها من خوف ورعب الصليبيين في بلاد الشام؛ ولذلك أراد هيو أن يحمس البابا ليدعو الغرب لمساعدة الإمارات المسيحية في الشرق، ويبدو أن هيو كان يرغب في أن يعبر الألب لمقابلة كنراد الثالث (١١٣٩ – ١١٥٢م) Conrad III إمبراطور ألمانيا، ولويس السابع (١١٣٧ – ١١٨٠م) Louis VII ملك فرنسا لطلب المساعدة منهما[1]، ولكن المصادر المتاحة لنا لم تتناول ذهابه إلى ألمانيا أو فرنسا.

على أية حال، يتضح لنا أن استرداد المسلمين لإمارة الرها، خلق وضعًا خطيرًا للصليبيين في بلاد الشام، وبعدما كانت هناك إمارات أربع أصبحت ثلاثًا فقط، وانحصرت على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وأصبح من السهل على المسلمين الاتحاد معًا والتقدم لاقتلاع باقي الإمارات الصليبية دون خوف من أي هجوم صليبيي يأتيهم من الخلف، وهذا ما توقعه أمراء الإمارات اللاتينية ولذلك راحوا يطلبون المساعدة تارة من بيزنطة، وتارة أخرى من الغرب الأوربي، وهذا يبين لنا مدى العمل الذي قام به عماد الدين زنكي، والذي أكمله ابنه نور الدين محمود، هذا العمل الذي كان فاتحة خير على المسلمين وكان الطريق إلى بيت المقدس.

=كنيسة بيت المقدس، ولكنه عندما وصل إلى نهر دجلة لم يتمكن من عبوره بقواته، فتراجع ناحية الشمال؛ لأنه علم أن النهر متجمد بسبب برد الشتاء، وانتظر هناك عدة سنوات ليعبر النهر بعد ذوبان الثلج، وعندما لم يحدث ذلك، عاد من حيث أتى، لموت العديد من قواته، بسبب المناخ الذي لم يعتادوا عليه" ويبدو أن زعيم قبائل الكرايت المغولية وانج خان Wang- Khan الذي كان قد اعتنق المسيحية هو القس يوحنا. انظر:

Brundage: op. cit., pp. 82 – 83;

محمود الحويري: العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول، ط١، (القاهرة، ١٩٨٦)، ص ٨.

[1]) Perry: "The secon Crusade", p. 466.

مهما كانت الطريقة التي وصل بها خبر سقوط الرها إلى الغرب الأوربي، فإن البابا إيوجين الثالث تحرك ونادى بحملة صليبية جديدة، بإصداره المنشور البابوي من فترالا الواقعة على بعد عدة أميال من فيتربو بجنوب إيطاليا[١] في ١ ديسمبر سنة ١١٤٥م. ووجه البابا التحية في بداية هذا المنشور إلى لويس السابع ملك فرنسا وإلى الأمراء الفرنسيين، ثم راح يذكرهم بدعوة البابا أوربان الثاني للدفاع عن الأرض المقدسة وهي "الدعوة التي وجدت استجابة من الفرسان الفرنسيين والإيطاليين الذين اشتعلوا حماسًا، وحملوا السلاح وخلصوا مدينة بيت المقدس بدمائهم، وحفظوا القبر المقدس"[٢].

وبعد أن ذكّرهم بأمجاد الآباء والأعمال البطولية التي قاموا بها، طرق لهم نبأ سقوط مدينة الرها، واعتبر أن ذلك بسبب الذنوب التي ارتكبها الصليبيون، وقال: "ظلت (مدينة الرها) المخلصة للمسيحية عندما كانت الشعوب الوثنية (المسلمين) تستعبد الشرق، والآن لحق الخراب والدمار بآثارها المقدسة، وقتل أهلها بما فيهم أسقف المدينة نفسه، كما أن العديد من المدن المسيحية كان لها نفس المصير، وأصبح الخطر الأعظم يهدد كنيسة الرب"[٣]، ثم طالب البابا ملك فرنسا والأمراء أن يتحلوا بالشجاعة والقوة، وأن يهبوا للدفاع عن كنيسة الشرق التي تركها لهم أسلافهم، وقال "أوقفوا غزوات الجاحدين (المسلمين) الذين يتمتعون بالنصر الذي حققوه عليكم، وانتزعوا من أيدي الكفرة الآلاف من الأسرى المسيحيين الذين يعيشون في الجحيم،

---

[1]) Brundage: op. cit., p. 85.

[2]) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. I, (Paris, 1849), p. 361;
Brun dage: op. cit., p. 86;
Perry: op. cit., p. 466.

[3]) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 361.

إذا فعلتم ذلك فإن قداسة الاسم المسيحي سوف تنمو في الجيل الحالي، وهيبتكم التي تنتشر في العالم سوف تتلألأ من جديد"(١).

وفي محاولة من البابا إيوجين الثالث لحثهم على الخروج بالحملة، أوضح لهم أن المزايا التي منحها البابا أوربان الثاني لمقاتلي الحملة الصليبية الأولى سوف يمنحها لهم فقد قال: "أمرنا أن النساء والأطفال وممتلكات المحاربين سوف توضع تحت تصرف الكنيسة والأساقفة والمطارنة والأحبار، وأمرنا أيضًا من خلال سلطتنا البابوية أن أولئك الذين يحملون الصليب سوف يتم تحررهم من جميع القوانين التي تتعلق بأموالهم حتى عودتهم أو موتهم، كما أن الذين توجد عليهم ديون لن يدفعوا عليها فوائد، والذين عليهم ربا سوف تتحمله عنهم البابوية، وسوف يتم توفير المال لهم عن طريق رهن ممتلكاتهم، وسوف تغفر الخطايا وستعطى الحياة الأولية لأولئك الذين قاموا وأنهوا ذلك الحج المقدس والذين سوف يموتون في خدمة يسوع المسيح"(٢).

وهنا نلاحظ أن البابا إيوجين الثالث لم يدع ألمانيا للقيام بحرب صليبية بعد سقوط الرها؛ لأنه كان يتطلع آنئذ إلى مساعدة كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا في إعادته إلى كرسي البابوية؛ لأنه كان عندئذ مطرودًا في فيتربو بسبب ثورة الشعب الروماني ضده بزعامة جوردان بيرلوني Jordan Pierleoni في سنة ١١٤٥م؛ ولذلك أرسل إلى كنراد الثالث يطلب منه القدوم لإيطاليا لإعادته إلى كرسي البابوية، ولكن كنراد الثالث كان مشغولاً بشئونه الداخلية؛ ولذلك لم

---

1) Loc. Cit., ;

Perry: op. cit., p. 467.

2) Michaud: Histoire des Croisades. Tom. I, p. 361;

- ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ترجمة إلياس شاهين، (دار التقدم، موسكو ١٩٨٦)، ص ١٧٢.

يعط ردًا نهائيًا على البابا، ولم تؤثر فيه دعوات القديس برنادر، التي طلب فيها منه القدوم إلى روما للدفاع عن الكنيسة ضد الشعب الروماني(١).

أما بالنسبة لجهود البابا إيوجين الثالث في الدعوى للحملة الصليبية فقد استمرت، عندما أصدر البولا (النشرة البابوية) مرة ثانية(٢)، كما أرسل إلى مانويل الأول كومنينوس الإمبراطور البيزنطي يخبره بالحملة، وأوضح له البابا هدف الحملة الصليبية، فرد عليه مانويل الأول في أغسطس ١١٤٦م، يخبره بأنه على استعداد لاستقبال الحملة الصليبية في أراضيه استقبالاً حسنا، ولكن في مقابل قيام قواد الحملة بأداء يمين الولاء والطاعة له؛ ولذلك طلب مانويل الأول كومنينوس من البابا أن يعلم قواد الحملة بذلك، ويحاول إقناعهم، ثم يكتب إليه حول ما تم في هذا الشأن(٣). وبذلك نجد أن مانويل الأول تمسك بما تمسك به جده ألكسيوس الأول في الحملة الصليبية الأولى من ضرورة قيام قواد الحملة بتأدية يمين الولاء والطاعة له. وقد حث البابا جميع شعوب أوربا للاشتراك في الحملة؛ ولذلك أرسل رجال الدين الأتقياء، والفصحاء لإعلام الأمراء والناس والقبائل والألسنة بمدى المعاناة التي يعانيها إخوانهم في الشرق وحثهم على الذهاب إلى هناك للثأر لتلك الأخطار المرعبة التي تحيط بهم، ومن بين أولئك الرسل كان برنارد رئيس دير كليرفو (١٠٩١ – ١١٥٤م) Bernard of Clairvaux(٤)، الذي أوكل له البابا مهمة الدعوة للحملة الصليبية في أوربا(١).

---

1) Balzani: Italy, 1125 – 1152, pp. 370- 373.

٢)محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد مانويل الأول، ١١٤٣ – ١١٨٠م، (دار المعارف، ١٩٨٥م)، ص ١٣٧.

3) Perry: op. cit., p. 469.

4) William of Tyre: A History of Deads Done Beyond the Sea, Vol. II, p. 163; =

- الدعوة للحملة الصليبية في ألمانيا واستعداد كنراد الثالث لها:

لم يتوان القديس برنارد عن القيام بواجبه كداعية للحملة الصليبية، فقدم أولاً إلى فرنسا، وقام بالدعوة فيها للاشتراك في الحملة الصليبية، حيث مكث هناك خلال الفترة من مارس ١١٤٦م إلى أكتوبر من نفس العام، كما أرسل رالف Ralph أحد رهبان دير كليرفو لألمانيا ليدعو شعوبها للانضمام للحملة، وكان أن وصل رالف إلى ألمانيا في أغسطس سنة ١١٤٦م، وطاف مدن كولوينا، ومايتز،

= ولد القديس برنادر في فونتيني قرب إجون سيشليون في سنة ١٠٩١م، ويقال إن والدته في أثناء حملها به رأت في المنام أن في بطنها كلبًا ينبح، وعندما أخبرت بذلك أحد العرافين أخبرها أنها ستلد قديسًا فصيحًا ينتسب إلى عائلة فرنسية نبيلة من كاتيلون، أصبح ناسكًا في الثالثة والعشرين من عمره، ثم تولى رئاسة دير كليرفو الذي تأسس سنة ١١١٥م، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، وظل رئيسًا له حتى وفاته سنة ١١٥٥م، وأسهم في وضع قاعدة الفرسان الداوية سنة ١١٢٨م، وقد قاد المسيحية في الغرب الأوربي من سنة ١١٢٥م إلى ١١٥٣م، وخلال هذه المدة كانت شخصيته تفوق شخصية البابوات والملوك أنفسهم، ويعد من أكبر وأعظم علماء الكلام في عصره كان أستاذًا للبابا يوجين الثالث. انظر:

William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 164;

Archer (T.A.) The Crusade, (London, 1894), p.208;

Munro (D.C.) and Sellery (G.C.) Medieval Cilvilization Selected studies from European Authors", (New York, 1920), pp. 406- 431;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، ترجمة مكسيموس مظلوم، جـ٢، (أورشليم، ١٨٦٥م)، ص ٢٦-٣٠؛

على الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، (القاهرة، ١٩٧٧)، ص ١٢٠- ١٢٢ حاشية ٢.

[1]) Parry: op. cit., p. 468;

Mayer (H.E.): The Crusades, Tr. From Germany, by John Gillinghom, (Oxford, 1972), p. 98.

وورمز، وشبير Speyer، داعيًا أهل تلك المدن للاشتراك في الحملة الصليبية، وكان يطبع شريط أحمر في شكل صليب على صدر كل من يريد أن يتبعه إلى فلسطين. وقد وجدت دعوة رالف صدى قويًا لدى الألمان، ولكن رالف طالب الألمان بالانتقام من اليهود، فأقدموا على ذبحهم قبل أن ينخرطوا في سلك الحملة[١].

ويشير يوشع براور[٢] إلى أن اليهود بدلاً من قبول التعميد الإجباري الذي كان يفرض عليهم، كان الرجال يقطعون رقاب زوجاتهم وأطفالهم وهم يرتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ثم ينتحرون.

وقد نظر رالف إلى اليهود على أنهم "الأعداء الحقيقيين للصليب ومسيحه "كما أن بطرس الموقر Peter the Venerable مقدم دير كلوني كتب للويس السابع عندما تغاضى عن مساهمة يهود فرنسا في حملته الصليبية قائلاً له: "إن الذين تستوجب عليهم الجباية في هذه المناسبة هم اليهود الملاعين؛ لأن المال الذي جمعوه كان نتاج الربا الكبير والمكاسب الغير مشروعة، كما أنهم هم الذين اضطهدوا المسيح وصلبوه وأراقوا دمه، ثم لامه على إعفائهم من الضريبة، وأوضح له أنه لا يطالب بقتلهم، وإنما بجباية الضريبة منهم تكفيرًا عن جرمهم ضد المسيح والمسيحية[٣].

---

[1]) Lane Pool (A.): "Germany, 1125 – 1152", in Camb. Med. Hist., vol. V, (London, 1980), p.353;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 501.

٢) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٤٧.

[3]) Michaud: op. cit., Tom. I. p. 501;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨٣ – ١٨٤.

وتلقى القديس برنارد وهو في الفلاندرز رسالة من رئيس أساقفة ماينز يشكو فيها من أفعال رالف، وطلب منه القدوم بسرعة إلى بلاد الراين، ولكن برنارد بدلاً من الذهاب لألمانيا أرسل عدة من الرسائل إلى الشعب الألماني يطلب منهم الابتعاد عن رالف، وعدم إهانة اليهود، وفي هذه الرسائل مدح سكان شبير وكولونيا على حماسهم من أجل الرب، ولكنه أوعز إليهم أن هذا الحماس يجب أن يوجه ضد المسلمين وليس اليهود، وحث الألمان أيضًا على عدم الانضمام إلى خطباء الحملة الغير معتمدين من البابا ومنه، وطالبهم بترك حروبهم الأهلية والاشتراك في العمل الذي يعود عليهم بمكافآت روحية(1).

ولكن رسائل القديس برنارد المرسلة إلى ألمانيا لم تأت بنتيجة حاسمة في إيقاف مذابح اليهود والاشتراك في الحملة الصليبية، فذهب برنارد لألمانيا في آخر أكتوبر سنة ١١٤٦م ليوقف الحماس الذي أشعلوه ضد اليهود، ولرغبته أيضًا في استمالة كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا لحمل الصليب والانضمام مع لويس السابع ملك فرنسا في القيام بالحملة الصليبية(2).

وقد تمكن برنارد من مقابلة رالف في ماينز في مستهل نوفمبر سنة ١١٤٦، وأمره بالتوقف عن إبادة اليهود، والعودة إلى دير كليرفو، ثم وصل برنارد إلى فرانكفورت في نهاية نوفمبر سنة

---

1) Runciman: A History of the Crusades, vol. II, pp. 254- 255;
Perry: "The second Crusade", p. 473.

2) Perry: op. cit., p. 473;
Brehier: Les Croisades, p. 105;
Duggan: The story of the Crusades, p. 109;
Lane pool: op. cit., p. 353;
Balzani: op. cit., p. 374.

١١٤٦م، لتسوية الخلاف القائم بين ألبيرو من تريبه Albero of Trier وهنري من نامور Henry of Namur ودعوتهما للمشاركة في الحملة الصليبية. ولكن بسبب رغبة برنارد في ضم كنراد الثالث للمشروع الصليبي، ولمعرفته أن كنراد الثالث هو القادر فقط على قيادة الجيش الألماني، قابله وطلب منه الاشتراك في الحملة، ولكن رغم فصاحة برنارد وبلاغته فإنه لم يتمكن من إقناعه بذلك[١] ووافق كنراد الثالث على مقابلة برنارد مرة أخرى في شبير في ليلة عيد الميلاد[٢].

والواقع أن ظروف ألمانيا الداخلية جعلت كنراد الثالث يتردّد – في البداية– في الاشتراك في الحملة الصليبية، رغم أنه سبق له أن توجه إلى فلسطين، ولكنه عندما علم بوفاة الإمبراطور هنري الخامس (١١٠٦ – ١١٢٥م) Henry V عاد لألمانيا لتولي عرشها، فوجده عندئذ قد شغل بواسطة لوثير الثالث السكسوني (١١٢٥ – ١١٣٨م) Lother III في ١٣ سبتمبر سنة ١١٢٥م فأدى ذلك إلى نشوب الحرب الأهلية داخل ألمانيا بين كنراد الثالث ولوثير الثالث، إلى أن تمكن القديس برنارد من إعادة الوفاق بينهما في سنة ١١٣١م [٣] ولكن هذا الوفاق لم يستمر طويلاً بسبب وفاة لوثير الثالث السكسوني في ٤ ديسمبر سنة ١١٣٧م، واختيار كنراد الثالث السوابي إمبراطورًا

---

1) Lane Pool: "Germany, 1125 – 1152", p. 353, 363;

Perry: op. cit., p. 473;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ٢، ص ٣٨.

2) Mayer: The Crusades, p. 101.

3) lane Pool: op. cit., pp. 336 – 342;

Archer: The Crusade , P. 210;

فيشر: أوربا العصور الوسطى، ص ١٩٥ – ١٩٧.

لألمانيا في ٧ مارس سنة ١١٣٨م، والمعروف أن لوثير السكسوني قبل وفاته كان قد أوصى هنري المتكبر Hanry The Proud دوق بافاريا وزوج ابنته ريتشانز Richenz بعرش ألمانيا، ولم يكن عندئذ في ألمانيا من يضاهي هنري المتكبر في القوة والثروة، الأمر الذي دفع الأمراء الألمان لاختيار كنراد الثالث، فأدى ذلك إلى نشوب الحرب الأهلية في ألمانيا من جديد بين كنراد الثالث وهنري المتكبر، غير أن كنراد الثالث السوابي رغم امتلاكه السلطة لم يتمكن من الاستيلاء على دوقيتي بافاريا وسكسونيا، ولم يكن ذلك بسبب قوة هنري المتكبر، بل بسبب وقوف السكان في سكسونيا وبافاريا وراء هنري المتكبر وكرههم لكنراد الثالث السكسوني(١).

ومن حسن حظ كنراد الثالث وفاة خصمه هنري المتكبر في سنة ١١٤٠م، في الوقت الذي كان يحشد فيه قواته في كدلينبورج Quedlinburg لملاقاة كنراد الثالث، فورثه ابنه هنري الأسد في سكسونيا وبافاريا، تحت وصاية والدته ريتشانز وأخته جرترود Gertrude، وعندئذ حاول كنراد الثالث إنهاء النزاع بينه وبين دوقيتي سكسونيا وبافاريا، عقد مجلس الدايت في ورمز في سنة ١١٤٠م، وعقده مرة أخرى في فرانكفورت في أبريل من نفس العام، واستدعى إلى المجلسين الأمراء السكسون، ولكنهم رفضوا الحضور، الأمر الذي دفع كنراد الثالث إلى مواجهة ولف السادس Welf VI عم هنري الأسد في بافاريا، واستولى على ونزبرج Weinsberg في ٢١ ديسمبر سنة ١١٤٠م، ومن ثم فإن هذا النصر أجبر العديد من الأمراء السكسون على القدوم إلى كنراد الثالث وتقديم فروض الولاء والطاعة

---

1) Lane Pool: op. cit., pp. 345- 346;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٧٠؛

فيشر: المرجع السابق، ص ١٩٧.

له[١]، كما أن وفاة الإمبراطورة ريتشانز في ١٠ يونيو سنة ١١٤١م، وقيام جرترود بالوصاية علي أخيها هنري الأسد، أدى إلى تخفيف حدة النزاع بين دوقية سكسونيا وكنراد الثالث فعقد الأخير عندئذ مجلس الدايت في فرانكفورت في مايو سنة ١١٤٢م، والذي فيه سلم هنري الأسد دوقية سكسونيا، وقام بتعيين هنري جاسومرجوت Henry Jasomirgott دوقًا لبافاريا، بيد أن ولف السادس رفض التنازل عن دوقية بافاريا، فنشبت الحرب الأهلية من جديد.

ويعلق أوتو الفريزي قائلاً: "لقد فشلت جهود السلام في ارضاء أي من أولئك أصحاب المصالح[٢] ومن ثم، فإنه عندما وجهت الدعوى لكنراد الثالث للاشتراك في الحملة الصليبية كان الوضع في ألمانيا غير مستقر بالدرجة التي تمكنه من تركها[٣]، ولهذا كان لابد له أن يرفض تلك الدعوة.

كما أن كنراد الثالث تردد في البداية أيضًا الاشتراك في الحملة الصليبية؛ لأنه رأى أن العلاقات مع القسطنطينية سوف تتأثر باشتراكه في هذا المشروع الصليبي، وربما تتحول إلى عداء، بعد أن ساد السلام بينهما واتحدا ضد روجر الثاني (١١٢٧ – ١١٥٤م) Roger II ملك صقلية[٤].

---

1) Lane Pool: op. cit., pp. 347- 349;

محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

2) Lane Pool: op. cit., p. 349;

فيشر: أوربا العصور الوسطى، ص ١٩٧.

3) Balzani: "Italy, 1125 – 1152", p. 374;

Runciman: op. cit., vol. II, p. 255;

Archer: op. cit., p. 210.

4) Runciman: op. cit., vol. II, p. 255;

والجدير بالذكر أن ازدياد قوة روجر الثاني، لم يكن مرغوبًا فيها من قبل ألمانيا وبيزنطة ولذلك فإن الإمبراطور البيزنطي يوحنا الثاني والإمبراطور الألماني لوثير اتفقا على التصدي لأطماع روجر الثاني في إيطاليا وكسر شوكته هناك(١).

وبعد وفاة لوثير الثالث ملك ألمانيا، أرسل يوحنا الثاني سفارة إلى كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا في سنة ١١٤٠م، يطلب منه تجديد المعاهدة التي أبرمها معه سلفه لوثير، ويطلب منه أيضًا يد أميرة من البيت الحاكم الألماني لابنه مانويل، فرحب كنراد بذلك، وأرسل سفارة من قبله لتواصل التفاوض مع يوحنا الثاني، ولتعرض عليه يد العروس المطلوبة وهي برتا سالزباخ شقيقة زوجة كنراد الثالث، وفي سنة ١١٤٢م وصلت سفارة من قبل يوحنا الثاني تعرض على كنراد الثالث مهاجمة روجر الثاني ملك صقلية، وكان هدف هذه السفارة أيضًا مرافقة الأميرة الألمانية في رحلتها إلى القسطنطينية(٢). غير أن وفاة يوحنا الثاني سنة ١١٤٣م أدت إلى توقف المفاوضات، ولكنها ما لبثت أن استؤنفت مرة أخرى حول موضوع زواج مانويل من برتاسا لزباخ، وكان كنراد الثالث متفائلاً جدًّا من وراء هذا الزواج، لذلك كتب في إحدى رسائله إلى مانويل يقول: "إن هذا الزواج يجب أن يكون عربونًا لحلف أبدي وصداقة دائمة"، وأنه، أي (كنراد) سوف يصادق أصدقاءه ويعادي أعداءه، وفي حالة وجود خطر يتهدد

Balzani: op. cit., p. 374.

1) Vasiliev: Histoire de L' Empire Byzantine, Tom. II, p. 53;
Ostrgorosky: History of the Byzantine state, Tr. From the Germany by Jean Hussay, printed six, (Great Britine, 1986), pp. 397 – 381.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 174;
إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٧٠.

الإمبراطورية البيزنطية، فإنه سيمد يد المساعدة، ليس فقط بإرساله فرقًا للنجدة، ولكن إذا تأزم الموقف فإنه سوف يأتي بنفسه ومعه كل قوات الإمبراطورية الألمانية، ووعده بإرسال ثلاثة آلاف فارس من رجاله لخدمة بيزنطة(١).

وهكذا فإن زواج مانويل الأول من برتاسا لزباخ التي اتخذت في القسطنطينية اسم إيرين Irene سنة ١١٤٦م، أعطى مانويل الأمل في التخلص من الخطر الذي كان يسببه له روجر الثاني ملك صقلية، كما أن روجر نفسه أدرك أنه أصبح غير قادر على مهاجمة بيزنطة(٢).

ومن أسباب رفض كنراد الثالث في البداية الاشتراك في الحملة الصليبية أنه لم يكن قد توج إمبراطورًا، وكان قد وعد البابا أيوجين الثالث بالمساعدة ضد أهالي روما وروجر الثاني ملك صقلية في مقابل تتويجه إمبراطورًا(٣).

أما القديس برنارد عندما وجد نفسه غير قادر على استمالة الإمبراطور كنراد للاشتراك في الحملة الصليبية، فقد قرر العودة إلى دير كليوفو، وكتب إلى الأساقفة الألمان يطلب منهم دعوة شعوبهم للاشتراك في الحملة الصليبية، ولكن بعض الأساقفة أقنعوه بمواصلة دعوته في كل ألمانيا، لاسيما أن كنراد الثالث لم يمانع في تجنيد قوات تشارك في الحملة من أراضيه، فعدل برنارد عن العودة، وغادر فرانكفورت متجها صوب الجنوب الألماني، وداعيًا للحملة في جميع

---

1) Vasiliev: op. cit., Tom, II. P. 65;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨٠ – ١٨١.

2) William of Tyre: op. cit., Vol. II, p. 174;

Vailiev: op. cit., Tom. II, p. 56;

هسي: العالم البيزنطي، ص ١٨٨.

3) Balzani: op. cit., p. 374.

مدن الراين، مثل فريبورج Freiburg، وبازل Basle، وشافهاوزن Scheffusen، وكونستانس، وغيرها من المدن الألمانية[١].

وكان برنارد يخاطب الألمان بلغة لا يعرفونها، فتم ترجمتها إلى اللغة الألمانية، ورغم عدم معرفة الألمان باللغة التي كان يتحدث بها برنارد، فإنهم تابعوه أينما ذهب لسماعه؛ لاقتناعهم بقداسته وقداسة خطبه، ولأنه –على حد زعمهم– كان يعيد السمع إلى الصم، والبصر إلى المكفوفين ويشفي الأبرص والأعرج، حتى قيل إنه أحدث ستاً وثلاثين معجزة في يوم واحد.

لقد كانت الجموع الغفيرة من الشعب الألماني التي تستمع إليه تصيح قائلة: "أنقذنا أيها اليسوع المسيح، هبوا إلى نجدتنا أيها القديسون. كما أن كل شيء لمسه برنارد كان ينظر إليه على أنه مقدس[٢].

لقد ترك الرعاة والمزارعون حقولهم وتبعوا القديس برنارد أينما ذهب، وعندما كان يصل إلى المدن كانت جميع الأعمال تتوقف فيها، ويعلق على ذلك أوتو الفريزي قائلاً: إنه لشيء جدير بالاحترام أن نجد اللصوص وقطاع الطرق يهرعون طالبين المغفرة، ويقسمون بأنهم سوف يضحون من أجل المسيح، لقد أحاط ببرنارد جمهور غفير لدرجة أن أحد رهبان كليرفو وصديق برنارد لم يتمكن من الوصول

---

[1]) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. I, p. 370;
Ruciman: op. cit., vol. II, p. 255;
Perry: op. cit., p. 473.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 370;
Archer: op. cit., p. 210;
Perry: op. cit., p. 474;

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٤٨.

إلى المكان الذي كان يقيم فيه برنارد، وكان لزامًا عليه أن ينتظر تسع ساعات من الصباح وحتى المساء" [١].

هكذا نجد أن العامة من الشعب الألماني دبت فيهم الحرب المقدسة رغم أنهم كانوا يعيشون في وسط الحرب الأهلية، وبدأت الروح الصليبية تسرى فيهم مثل النار في الهشيم من أجل إنقاذ الأراضي المقدسة من المسلمين، ولم يأت هذا من فراغ بل إن خطب القديس برنارد النارية ألهبت حماسهم من الراين وحتى الدانوب.

وإذا كانت استجابة العامة من الشعب الألماني تعود في جانب كبير منها إلى فصاحة القديس برنارد وبلاغته، فإنها تعود أيضًا-إلى ظروف ألمانيا نفسها؛ لأن الحرب الأهلية التي استمرت حتى انعقاد مجلس الدايت في شبير في ٢٤ : ٢٧ ديسمبر سنة ١١٤٦م للدعوة للحملة الصليبية الثانية خربت الأراضي الألمانية الغنية حول الموزيل Moselle، وجعلت ألمانيا تعاني معاناة شديدة من الدمار والخراب. كما حدثت عندئذ مجاعة شديدة في ألمانيا بصورة لم يسمع عنها من قبل، فأدى ذلك إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعًا جنونيًا لم يسبقه مثيل، وأصبح العثور على الطعام في ألمانيا صعبًا، فاعتمدت حياة العامة على غذاء الجذور والأعشاب، كما أن العديد من الشعب الألماني ماتوا جوعًا[٢]؛ ولذلك عندما وصلتهم أخبار سقوط الرها فإن الحزن الذي كان يسيطر عليهم قد تبدد[٣]؛ لأنهم اعتقدوا أن الرحيل في الحملة الصليبية سوف يوفر لهم العيش الطيب في فلسطين[٤].

---

1) Michaud: Histoire des Croisade, Tom. I, pp. 369 – 370.

2) Lane Pool: "Germany, 1125 – 1152, pp. 351 – 353;
Runciman: op. cit., Vol. II, p. 256.

3) lane Pool: op. cit., p. 353.

4) Runciman: op. cit., p. 256.

وغادر برنارد مدينة كونستانس إلى بافاريا، وهناك تمكن بواسطة نفوذه، وبمساعدة الكونت كنراد من زارنجين Conrad of Zahringen من إقناع ولف السادس دوق بافاريا بالاشتراك في الحملة الصليبية[1]. ومما لا شك فيه أن برنارد شعر بالسعادة لإقناع ولف السادس بالاشتراك في الحملة الصليبية، وبذلك يكون برنارد قد ساهم في وضع حد للحرب الأهلية القائمة بين ولف السادس وكنراد الثالث.

وقد توجه برنارد من بافاريا إلى شبير، حيث تمكن هناك من مقابلة الإمبراطور كنراد الثالث في مجلس الدايت المعقود في ٢٤ ديسمبر سنة ١١٤٦م، ويبدو أنه أخبره باستجابة ولف السادس بالاشتراك في الحملة الصليبية، ولذلك أخبره كنراد الثالث بأنه يجب أن يستشير النبلاء الألمان في أمر الذهاب في الحملة الصليبية، في الوقت الذي تعلل فيه كنراد بالقلاقل الداخلية أيضًا. ولكن برنارد عندما وجد أن هناك ليونة في موقف كنراد الثالث، عاد إليه في السابع والعشرين يدعوه مرة ثالثة للاشتراك في الحملة الصليبية، وشدد في دعوته وأعلمه أن البابوية هي التي نصبته ملكًا، وأنه إذا قام بهذا العمل فإن البابا والكنيسة سوف يحتفظان له بهذا الجميل وقال له: "ومثلما أنت ستدافع عن عرش الرب، فإن الرب سوف يدافع عنك، وسوف يعتني بشعبك، وسوف تكلل فترة حكمك بالحب من الرب".

وفي ذروة هذا الكلام ودغدغة الحواس وأمام الحاضرين في مجلس الدايت، قطع برنارد كلامه فجأة، ونظر إلى كنراد الثالث نظرة جعلته في موضع المتهم والمسيح يحاكمه قائلاً: "يا لك من رجل، ما الذي يجب عليَّ أن أفعله لك، ولم أفعله". ثم عدد له برنارد ما قدمه له

---

[1]) Perry: "The second Crusade", p. 474.

المسيح من الحكم والثروة والحكمة والشجاعة والقوة الجسمانية، فاندفع كنراد قائمًا في حركة غير شعورية، وانهمرت الدموع من عينيه، وصاح قائلاً: "أنا أعرف ما أدين به إلى يسوع المسيح، وأقسم أنني سأنفذ إرادته"(١) فقام برنارد على الفور بتسليم كنراد الثالث الصلبان كرمز للاشتراك في الحرب مع علم وضع على المذبح، وقد سمي برنارد استجابة كنراد الثالث "معجزة المعجزات" The Miracle of Miracles؛ لأنه كان فاقد الأمل في استجابته. أما الأمراء فعندما سمعوا فصاحة برنارد خروا ساجدين، وقرروا حمل الصليب، وكان من بينهم فردريك دوق سوابيا ابن عم كنراد الثالث، وأقسموا أنهم سوف يحاربون بصدق من أجل يسوع المسيح(٢).

والواقع أن مجلس الدايت في شبير اقتصر على مناقشة أمور الحملة الصليبية، ولم يتعرض لأوضاع ألمانيا ومحاولة إرساء دعائم السلام فيها، والتي كان معقودًا من أجلها، ولذلك وجهت الدعوة إلى الأمراء الألمان لعقد اجتماع آخر في مدينة راتسبون (رجنسبورج)، وفي هذا الاجتماع تلي خطاب القديس برنارد إلى الأوفياء، والذي جاء فيه: "إخواني إني أكلفكم بأمر من السيد المسيح وجب عليكم تنفيذه، إن

[1]) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 367;
Crousset: op. cit., Tom. 2,p. 226;
Mayer: op. cit., p. 101;
Archer: op. cit., p.211;
Perry: op. cit.,p. 474.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 367;
Brehier: op. cit., p. 105;
Mayer: op. cit., p. 101;
Archer: op. cit., p. 211;
Perry: op. cit., p. 474.

الخونة (المسلمين) سوف ينقضون على مدينة الرب، وأنتم أيها الشجعان خدام الصليب المقدس ماذا تفعلون؟ هل ستسلمون مقدساتكم إلى الكلاب (المسلمين)، والجواهر الثمينة إلى الخنازير؟ هل ستتركون الكفار (المسلمين) يحتكرون الأماكن المقدسة التي حصل عليها آباؤكم بحد السيف؟ وإذا كنتم أنتم تهتمون بجمع خزائن العالم فهل ستتنازلون عن الخزائن المقدسة، قوموا بأخذ الصليب، وسوف نغفر لكم جميع خطاياكم[١].

وهكذا بلغت الدعوة للحملة الصليبية الثانية ذروتها في ألمانيا، سواء أكانت موجهة إلى العامة أو إلى كنراد الثالث نفسه أو إلى الأمراء الألمان.

وقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت كنراد الثالث إلى الموافقة على الاشتراك في الحملة الصليبية، إذ يرى البعض أن إلحاح برنارد والخطب النارية التي لم يكن لها سابقة من نوعها هي التي دفعت كنراد الثالث على الموافقة[٢]، في حين يرى البعض الآخر أن كنراد وافق على الاشتراك في الحملة الصليبية، عندما وصلته الأخبار بحمل العديد من الأمراء الألمان الأقوياء الصليب، والذين كان من ضمنهم عدوه ولف السادس دوق بافاريا[٣]، كما أن البعض يرى

---

1) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 164;
Michaud: Histoire des Croisades, Tom. I, pp. 363 – 369.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 164;
Ostrogorosky: op. cit., p. 381;
Zoe Oldenbourg: The Crusade, Tr. By Anna Carter, (New York, 1965), p. 324;
Brehier: Les Croisade, p. 105.

3) Lane Pool : “Germany, 1125 – 1152”, p.353;

أيضًا أن كنراد اشترك في الحملة الصليبية؛ لأنه كانت له مصلحة مباشرة في حماية مواطنيه في بلاد الشام، والتطلع أيضًا لتوسع نفوذه. كما أن كنراد صاحب الآمال العريضة الموروثة في أوربا لم يشأ أن يترك لويس السابع وحده يتمتع بشرف الاشتراك في الحملة الصليبية، وقيادة الأوربيين إلى بيت المقدس، ولذلك اشترك كنراد الثالث في الحملة الصليبية لأنه كان يريد أن يتبع خطى شارلمان الذي قام بالحج إلى بيت المقدس(١).

ويشير أحد المؤرخين إلى أن كنراد اشترك في الحملة الصليبية ليعوض فشله مع الأمراء والبابوية، لاسيما أن البابا أنوسنت الثاني (١١٣٠ – ١١٤٣م) Innocent II قرر في سنة ١١٣٩م منح البابوية السلطة العليا على رجال الدين الألمان(٢).

والجدير بالذكر، أن البابا لم يتلق خبر اشتراك كنراد الثالث في الحملة الصليبية بسرور، ولم يشجع كنراد على القيام بها؛ لأن كنراد الثالث قرر الاشتراك في الحملة دون استشارته، وهذا ما شكا منه البابا نفسه؛ لأنه كان في حاجة إلى مساعدة كنراد الثالث ضد الثوار والنورمان في إيطاليا(٣). كما أن البابا كان متخوفًا من القيادة الثنائية للحملة الصليبية، والتي تؤدي دومًا إلى الفشل(٤)، ولكن نظرًا لأن

زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص١٧٧.

1) Zoe Oldenbourg: op. cit., p. 324;

زابوروف: المرجع السابق، ص ١٧٧.

٢) محمود سعيد عمران: معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى، ص ٢٠٨ – ٢٠٩.

3) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 379;

perry: op. cit., p. 475;

Balzani: op. cit., p. 374 – 375.

٤) أنتوني بردج: المرجع السابق، ص ١٤٨ – ١٤٩.

البابا لم يكن قادرًا على منع كنراد الثالث من الاشتراك في الحملة الصليبية، كتب إليه يطلب منه أن يوطد أركان حكومته في ألمانيا أثناء غيابه عنها[١].

وقد بدأ كنراد الثالث في وضع الترتيبات اللازمة للحملة، فأرسل سفارة إلى لويس السابع ملك فرنسا قابلته في شالون سيرمارن Chalons – Sur – Marne في ٢ فبراير سنة ١١٤٧م، وحضر هذه المقابلة القديس برنارد، وسفراء من قبل الولف السادس، فناقشت سفراء كنراد مع لويس السابع موعد رحيل الجيوش، وأوضحوا له رغبة كنراد الثالث في اتخاذ الطريق البري عبر هنغاريا وشبه جزيرة البلقان، بسبب العداء القائم بينه وبين روجر الثاني ملك صقلية[٢]، ولكن هذه المقترحات نوقشت مرة ثانية في مؤتمر إيتامب Etampes المعقود في فرنسا في ١٦ فبراير سنة ١١٤٧م، حيث تمت الموافقة على الاقتراح الألماني باتخاذ الحملة الصليبية الطريق البري، بدلاً من طريق أبوليا عبر صقلية، رغم وعود روجر الثاني ملك صقلية بالاشتراك هو أو ابنه في الحملة، وتقديم المؤن والسفن، ولكن هذه الوعود لم تكن مُقدمة لوجه الله والحملة، بل بغرض تحويل هذه الحملة إلى القسطنطينية؛ والدليل على ذلك هو أن سفراء روجر الذين حضروا المؤتمر، عندما فشلوا في إقناع لويس السابع بسير الحملة عبر أراضيهم، رحلوا دون الحديث عن المؤن أو السفن أو الاشتراك في الحملة[٣].

---

1) Perry: op. cit., p. 477;

رايلي سميث: ماهية الحروب الصليبية، ص ٤٢.

2) Vasiliev: Histoire de L' Empire Byzantine, Tom. II, p. 60;
Perry: "The second Croisade", p. 477.

3) Grousset: Histoire des Croisades, Tom.2, pp.226 – 227;=

كما عقد كنراد الثالث مؤتمرًا في فرانكفورت في الفترة من ١٣ إلى ١٦ مارس سنة ١١٤٧م، لوضع الترتيبات الداخلية في ألمانيا أثناء غيابه في الحملة الصليبية[١]، فقام بانتخاب ابنه هنري البالغ العاشرة من العمر ملكًا لألمانيا، وقام بتتويجه على أكس لاشابل Aix – La – Chapelle في نهاية مارس من نفس العام، وعين كنراد رئيس أساقفة ماينز وصيًّا على هنري، أما المسائل الأخرى في ألمانيا فقد أوكلت إلى ويبالد Wibald رئيس دير ستابلو Stablo، وفي هذا المؤتمر تقرر اتخاذ طريق هنغاريا، وتحديد منتصف مايو سنة ١١٤٧م موعدًا لرحيل الجيش الألماني، وتم الاتفاق أيضا مع سفراء لويس السابع الذين حضروا المؤتمر، على أن يتم اللقاء بين القوات الألمانية والفرنسية في القسطنطينية[٢].

وبعد وضع هذه الترتيبات، ولمحاولة طمأنة البابا على أحوال ألمانيا قبل مغادرة كنراد لها، أرسل الأخير إلى البابا سفارة مكونة من أساقفة من ورمز وهافلبرج وويبالد رئيس دير ستابلوا فقابلته في ديجون بفرنسا في ٣٠ مارس سنة ١١٤٧م، ويبدو أنها أطلعته على القرارات التي اتخذت في مؤتمر فرانكفورت، ووجهت إليه الدعوة من قبل كنراد الثالث للحضور إلى ألمانيا لمقابلته ومعالجة المسائل

=Brehier: op. cit., p. 106;

Perry: op. cit., p. 477;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٨٥؛

باركر: الحروب الصليبية، ص٤٩.

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 165;

Perry: op. cit., p. 478.

[2]) Lane Pool: "Germany, 1125 – 1152", p. 353;

Maryer: The Crusades, p. 102.

الألمانية وترتيبات الحملة الصليبية بنفسه، ولكن البابا رفض هذه الدعوة[١]، وقام بتعيين ثيودين أسقف بورتو ممثلا له في جيش كنراد الثالث لمرافقته في الأراضي البيزنطية وفلسطين[٢].

ومن ضمن الاستعدادات التي كان يجريها كنراد، إرساله سفارة إلى القسطنطينية؛ لإبلاغ مانويل الأول بأخبار الحملة الألمانية، والنوايا السليمة لملكهم ولتطلب منه المرور عبر أراضيه، فرحب مانويل بهذه السفارة، "وأثنى على حماس الصليبيين الألمان، وأعلن عن مودته إلى ملكهم كنراد"، كما أرسل مانويل سفارة من قبله إلى كنراد الثالث، فقابلته في مدينة شبير، وقد وعد كنراد هذه السفارة بأنه سوف يرحل مباشرة إلى فلسطين[٣].

والواقع، أن مانويل لم يكن لديه علم "باشتراك كنراد الثالث في الحملة الصليبية؛ بدليل أنه عندما أرسل سفارته الثانية إلى البابا بخصوص تلك الحملة[٤] لم يذكر فيها اسم كنراد الثالث، ولهذا عندما علم مانويل باشتراك كنراد الثالث في الحملة الصليبيّة، أصيب بخيبة أمل شديدة؛ لأنه أدرك أن غياب كنراد الثالث في الشرق أثناء قيامه بالحملة، سوف يطمّع روجر الثاني ملك صقلية في مهاجمة الأراضي البيزنطية[٥]، كما أن مانويل أدرك أنه سيكون من الصعب عليه طلب

---

1) Perry: "The second Crusade ", p. 479;
Balzani: "Italy, 1125 – 1152", p. 375.

2) Perry: op. cit., p. 480;
زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٧٨.

3) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. I, p. 379;
Runciman: op. cit., Vol. II, p. 259.

4) Perry: op. cit., p. 480;
إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨٦.

5) Hussay (Jean M.): "Byzantine and the Crusades 1081 – 1204", in setton: History of the Crusade vol. II, p 135;=

يمين الولاء والطاعة من كنراد الثالث؛ لأن الأخير كان يحمل لقب إمبراطور مثله، ولن يتمكن أيضًا من السيطرة على الجيش الألماني أثناء مروره من الأراضي البيزنطية.

وقد أدرك مانويل أيضًا أن كنراد إذا تمكن من الاستيلاء على أراضي سلجوقية في آسيا الصغرى، فلن يكون بمقدوره مطالبة كنراد برد هذه الأرض إلى بيزنطة؛ ولذلك نظر مانويل إلى الحملة الألمانية على أنها سوف تؤدي إلى إنهاء الوجود البيزنطي في آسيا الصغرى[1]، كما خاف مانويل من قيام كنراد الثالث بالاستيلاء على القسطنطينية أثناء مروره من الأراضي البيزنطية، وتوحيد عرش ألمانيا وبيزنطة تحت سيادته[2].

- رحيل كنراد الثالث بالحملة الصليبية والموقف في الأراضي البيزنطية:

توافدت القوات الألمانية على مدينة راتسبون، التي حددت مكانًا لتجمعها، ووصل إلى هناك كنراد الثالث[3]، وقد بلغ تعداد هذه القوات حوالي سبعين ألفًا[4] والتي كان من ضمنها ملكان هما: فلاديسلاف

=Ostrogorosky: History of the Byzantine state, p. 381;
Franzius: op. cit., p. 324;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٨٨.

1) Grousset: op. cit., vol.2, pp. 230 – 231.

2) Duggan: The story of the Crusades, p. 111.

3) Michaud: op. cit., Tom. 1, p. 376;
Grousset: op. cit., Tom. 2. p. 227;
Mayer: op. cit., p. 103;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ٢، ص ٣٨ – ٣٩.

4) William of Tyre: op. cit., vol, II, p. 167;
Brehier: Les Croisades, p. 105; =

Vladislav ملك بوهيميا (النمسا) وبوليسلاف الرابع Bolaslave IV ملك بولندا، والأسقف أوتو الفريزي (الأخ غير الشقيق لكنراد الثالث)، وفردريك دوق سوابيا ابن عم كنراد الثالث، وهنري دوق أستوريا Austira والولف السادس دوق بافاريا، وهرمان مارجراف بادن Baden، وهنري أسقف تول Toul ، واستيفن أسقف ميتز Metz، والماركيز وليم من مونتفرات، وعدد آخر من اللوردات الكبار من الإمبراطورية[١]، ولم يكن الجيش الألماني يتكون من الفرسان فقط، بل ضم الآلاف من المشاة والنساء الفارسات اللاتي أطلق عليهن "سيدات بأرجل من ذهب"[٢]؛ ونظرًا لأن كنراد الثالث قد تجاوز الخمسين من عمره وأصبح معتل الصحة، فقد عهد بقيادة الجيش إلى فردريك دوق سوابيا[٣].

وفي منتصف مايو سنة ١١٤٧م، بدأ كنراد الثالث حملته الصليبية على الطريق البري إلى القسطنطينية، قبل رحيل الجيش

= اختلف المؤرخون في تعداد هذه القوات، فمنهم من جعلها حوالي المليون، ومنهم من قدرها بحوالي تسعمائة ألف، وهناك ثالث جعلهم عشرين ألفًا. انظر:

Kinnamos (John): Deeds of John and Manuel Comnenus, Tr. By Charles M. Brand. (New York, 1976), p. 60;

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، ٥١؛

Runciman: op. cit., vol. II, p. 259.

1) Runciman: op. cit., vol. II, p. 259;

Zoi oldenbourg : The Crusade, p. 326.

2) William of Tyre: AHistory of Deeds Done Beyond The Sea, vol. II, p. 167;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ٢، ص ٣٩.

3) Runciman: op. cit., vol. II, p. 260;

حسين مؤنس: نور الدين محمود، ط٢، (الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٩٨٤).

الفرنسي، الذي تبعهم بعد ذلك في ١٥ يونيو من نفس العام(١)، واختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت كنراد الثالث ولويس السابع إلى الاتفاق على سير القوات منفصلة، فيشير البعض إلى أنه يبدو أنٍ كل منهما شعر بقدرته على خوض المعركة مع المسلمين منفصلاً عن الآخر. كما أنهما وجدا أن انفصال قواتهما من شأنه أن ييسر لهما الحصول على المؤن في الطريق بالقدر الذي يكفي كلاً منهما، وخاف كلاهما من نشوب المنازعات بين جيوشهما في الطريق(٢). ويرى دوجان(٣) أن السبب في ذلك يرجع إلى أن كلاً من القائدين شعر أنه لن يكون في استطاعته فرض أوامره على الآخر، أو على جيشه؛ ولهذا وجد أنه من الأفضل أن يسير كل منهما منفصلاً عن الآخر.

وعلى أية حال، فقد عبرت القوات الألمانية نهر الدانوب من ميناء راتسبون وتقدمت داخل دوقية أستوريا، حتى وصلت إلى الأراضي الهنغارية (المجرية) (٤) وبعد مفاوضات مع جيزا Geza ملك هنغاريا، سمح لكنراد وقواته بالمرور من أراضيه، وقضت القوات الألمانية حوالي شهر في عبور الأراضي الهنغارية من منتصف يونيو سنة ١١٤٧م وحتى ٢٠ يوليو من نفس العام، ولم تتعرض تلك القوات لأية مضايقات من قبل الهنغاريين، وفي ٢٠ يوليو وصلت هذه القوات إلى برانيتس Branits على الحدود البلغارية، حيث يبدأ الطريق القديم إلى القسطنطينية(٥).

---

[1]) Kinnamous: op. cit., p. 60;

Grousset: Histoire des Croisades Tom. 2, p. 272.

[2]) William of Tyre: AHistory of Deeds Done Beyond the Sea, vol. II, p. 165;

Kinnamous: op. cit., p. 60.

[3]) The Story of The Crusades, pp. 109 – 110.

[4]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 165.

[5]) Grousset: op. cit., Tom. 2.p. 227:=

والجدير بالذكر، أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول كومنين عندما علم أن القوات الألمانية أوشكت أن تعبر هنغاريا، أرسل إليهم سفارة مكونة من ديمتريوس ماكريمبوليتس، وألكسندر من جرافينا، لاستقصاء غرض تلك الحملة والتفاوض مع قوادها حول عبور الأراضي البيزنطية، ولهذا عندما التقت هذه السفارة مع كنراد الثالث، أخبرته أنه إذا كان يضمر في نفسه الدخول في حرب ضد بيزنطة، فإنه سوف يهزم، ثم طالبته السفارة بتقديم رهائن إلى الإمبراطور مانويل، لضمان عدم قيام القوات الألمانية بأي أذى ضد السكان البيزنطيين، كما طالبته وقواده، بأن يؤدوا جميعًا القسم للإمبراطور البيزنطي بعدم القيام بأي أعمال عدوانية أثناء مرورهم من الأراضي البيزنطية، وأخبرت السفارة كنراد أنه إذا استجاب لهذه الشروط وحافظ عليها "فسوف يمر خلال أراضي الإمبراطور العظيم كصديق لبيزنطة كلها، وسوف يتمتع بكرم الضيافة".

وبعد أن تشاور كنراد الثالث مع قواده حول هذه الشروط، أعلن القواد أمام السفراء أنهم لم يأتوا للدخول في حرب مع بيزنطة، ولكنهم جاءوا من أجل فلسطين فقط، ثم أدوا جميعًا -بما فيهم الإمبراطور كنراد الثالث- اليمين بعدم الاعتداء على السكان البيزنطيين، وبعد ذلك عاد السفراء إلى القسطنطينية[١].

ويشير كيناموس إلى أن مانويل أرسل مساعدات للقوات الألمانية لعبور الدانوب عند برانيتس، ولكنه لم يبين نوع هذه المساعدات، ويشير أيضًا إلى أنه أرسل عددًا كبيرًا من الموظفين ليقوموا بإحصاء عدد الجيش الألماني فذكروا أن عددهم بلغ تسعمائة ألف[٢].

=Perry: “The second Croisade”, p. 484.

1) Kinnamous: Deeds of Jhon and Manuel Commenus, pp. 58 – 59; Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 231.

2) Kinnamous: op. cit., p. 60

وقد سارت القوات الألمانية، ويتقدمها مُرشدون بيزنطيون إلى مقاطعات بلغاريا مؤيسيا Mosia وداكيا Dacia[1]، وفي نيش عاصمة داكيا قدم لهم ميخائيل براناس Michael Branes حاكم إقليم بلغاريا المؤن اللازمة بناء على أمر الإمبراطور، ومن نيش تقدمت القوات الألمانية حتى وصلت صوفيا، وعندئذ قابلهم رجلان من الأرستقراطيين، فرحبوا بهم نيابة عن مانويل، وقدموا لهم الخدمات اللازمة[2]. وحتى مدينة صوفيا لم تحدث أية تجاوزات من قبل القوات الألمانية، ويبدو أن السبب في ذلك يرجع إلى طبيعة التضاريس التي كان الجيش الألماني يسير فيها، حيث أن المنقطة من نهر الدانوب على الحدود الهنغارية حتى صوفيا كانت عبارة عن منطقة جبليَة، ولكن ما إن غادر الألمان صوفيا ودخلوا المناطق السهلية الغنية حول مدينة فيلبوبولس Philippopolis، حتى بدءوا في نهب وسلب الأسواق، وقتل كل من يعارضهم[3]، فطلب ميخائيل جتاليوس Michel Jtalisus رئيس أساقفة المدينة من كنراد الثالث أن يتدخل لمنع هذه الأعمال الوحشية ضد التجار والسكان، فرد عليه قائلاً: "إن هذه الأعمال لا تمت بصلة إلى الشرفاء، ولكنها من فعل العامة الجهلة"[4]. ويشير بعض المؤرخين إلى أن كنراد الثالث لم يكن يمتلك السلطة التي تمنع جيشه من القيام بأعمال النهب والسلب داخل الأراضي البيزنطية[5].

---

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 165;
Duggan: op. cit., p. 111.

[2]) Kinnamous: op. cit., p. 60.

[3]) Kinnamous: op. cit., p. 60;
Michaud: Histoire des Croisades. Tom. I, p. 381;

[4]) Kinnamous: op. cit., p. 61;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 231.

[5]) Duggan: op. cit., p. 112.

وقام أهل مدينة فيلبوبولس بإغلاق أبواب مدينتهم في وجه الألمان، إذ كانوا يضعون لهم بعض النقود في سلال وإنزالها إليهم من أعلى الأبراج، وحدث عندئذ ما أدى إلى تعكير صفو العلاقات أكثر بين الألمان والبيزنطيين، عندما قتل الألمان أحد الحواة لكونه أخرج ثعبانًا من جيبه، وأعلن الألمان أن البيزنطيين يحاولون قتلهم بالسم، ثم قاموا بقتل عدد من حراس المدينة الذين جاءوا لحفظ الأمن، لاعتقادهم أنهم قدموا للانتقام منهم، وفي مقابل ذلك قام البيزنطيون بقتل عدد من الألمان، فأقدم الألمان على إشعال الحرائق في كل ما يقابلهم خارج أسوار المدينة[١].

وعندما علم مانويل بهذه الحوادث وموقف كنراد منها، أرسل قائده بروسوتش Prosouts – وهو تركي الأصل – على الفور بقوات بيزنطية، ويبدو أن هذه القوات قابلت الجيش الألماني على مقربة من أدريانويل (أدرنة)، ثم تابعت القوات البيزنطية سيرها خلف القوات الألمانية، ولكن عندما وجد بروسوتش أن الألمان لم يتوقفوا عن أعمل السلب والنهب، قام بمهاجمتهم، وكان أن التهب الموقف، ففي الوقت الذي كان فيه كنراد يتقدم لأدريانويل، عجز أحد أقاربه عن متابعة الجيش بسبب مرضه، ولذلك مكث في أحد الأديرة، إلا أن بعضًا من فرق المشاة البيزنطية وبسبب كراهيتهم للألمان، قاموا بقتله وسرقوا أمواله وأشعلوا فيه النار، فترتب على ذلك ارتداد فردريك دوق سوابيا بعد مسيرة يومين وأشعل النار في الدير[٢]، وقتل عددًا من البيزنطيين،

---

[1]) Brundage: The Crusades Documents, pp. 108 – 109;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 382;
Pernoud (R..): The crusades, Tr. By Enid Mcleod, (London, 1962), p. 130.

[2]) Kinnamous: Deeds of Jhon and Manuel Comnenus, p. 61;=

وراح يفتش عن الأموال المفقودة[١]، الأمر الذي دعا بروسوتش إلى القيام بمطاردة فردريك دوق سوابيا وأحدث في القوات الألمانية مذبحة كبيرة، ويرى البعض أن فردريك دوق سوابيا، يعد المسئول عما حدث للجيش الألماني[٢].

ونتيجة لما حدث بدأ مانويل يشعر بالقلق خوفًا أن يهاجم الجيش الألماني القسطنطينية عند وصوله إليها[٣]؛ ونظرًا لأنه أراد أن يتحاشى ذلك فقد أرسل أندرونيقوس Andronicus إلى كنراد كي يذكره بالأيمان التي أقسمها سابقًا والمتعلقة بعدم الاعتداء على البيزنطيين، وأخذ يوبخه على نقض هذه الأيمان، وأوضح أن ما حدث كان مجرد مناوشات ولم تكن حربًا كبيرة، كما طلب مانويل من كنراد عبور الدردنيل من سيستوس إلى آسيا الصغرى، في الوقت الذي أوضح له أنه سوف يعتبر قدومه إلى القسطنطينية عملاً عدوانيًّا، ولكن كنراد لم يوافق على ذلك وأصر على التقدم إلى القسطنطينية وعبور مضيق البوسفور[٤]، علمًا بأن الطريق الذي أشار به مانويل على كنراد هو الطريق السوي والأكثر أمانا لمن يسلكه؛ بسبب وقوعه تحت رقابة البيزنطيين الأمر الذي سوف يترتب عليه وصول الجيش الألماني إلى قيلقية وإنطاكية دون صعوبة تذكر، على عكس طريق القسطنطينية الذي يؤدي إلى صحاري الأناضول السلجوقية[٥].

=Grusset: op. cit., Tom. 2, p. 231.

1) Perry: "The second Crusade", p. 486.

2) Kinnamous: op. cit., p. 61;

3) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 381;

Grousset: op. cit., Tom. 2. p. 23.

4) Kinnamous: op. cit., p. 62;

Franzious: op. cit., p. 324.

5) Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 231;=

ويرى جروسيه[١] أن الألمان جعلوا مرورهم عبر البسفور مسألة كرامة، وأنهم لن يأخذوا أوامر من أحد بخصوص الطريق الذي يجب أن يسلكوه.

ويبدو أيضًا أن كنراد أصر على القدوم للقسطنطينية بسبب اتفاقه على مقابلة لويس السابع هناك، أو لعدم سير جيوش الحملة الصليبية الأولى في الطريق الذي أشار به مانويل[٢].

وجاء رفض كنراد الثالث لمطلب مانويل بمثابة لطمة قوية لعلاقات الصداقة التي كانت قائمة بينهما؛ وخوفًا من مهاجمة كنراد للقسطنطينية أشرف مانويل بنفسه على تحصينها وأصلح أسوارها، وقام بتوزيع الفرق التي كانت تحرسها من قبل، حيث عسكر بعضها أمام أسوار المدينة، وأخذ البعض الآخر أماكنه في داخلها خلف الأبواب[٣]؛ ذلك أن مانويل لم يجهل الخطر الذي سببه صليبيو الحملة الأولى للعاصمة في الوقت الذي رأي أن علاقات الصداقة التي تربطه بكنراد وقتئذ أصبح لا يثق فيها تمامًا[٤].

وقد حاول مانويل تسوية وضعه مع السلطان السلجوقي مسعود الأول (١١٣٢ – ١١٥٢م) في آسيا الصغرى؛ حتى يصبح متفرغًا تمامًا للألمان، فالمعروف أن مانويل تمكن سنة ١١٤٦م من إحراز بعض الانتصارات على مسعود الأول، فقد تمكن من الاستيلاء على مدينة إسكي شهر وأشعل النار فيها، ثم تقدم تجاه قونية وهزم السلاجقة في شرقها وخرب ضواحيها واستباح مقبرة المسلمين

=Perry: op. cit., p. 485.

1) Histoire des Croisades, Tom. 2, p. 231.

2) Perry: op. cit., p. 485.

3) Kinnamous: op. cit., p. 62.

4) Vasiliev: Histoire de L'Empire Btzantine, Tom. 11 p. 59.

المجاورة. ولكن مانويل مالبث أن تراجع عن حصارها، خوفًا من التعرض لهجوم مفاجئ من قبل السلطان مسعود الذي تحصن آنذاك في صحراء سالي Sale، ولم يصل مانويل إلى المناطق البيزنطية إلا بعد فقدانه بعض قواته(١).

وإذا كان مانويل قد تراجع عن حصار مدينة قونية بسبب الإمدادات التي وصلت إلى السلطان مسعود السلجوقي، فإن قدوم جيوش الحملة الصليبية الثانية كان يمثل تهديدًا لكل من مانويل والسلطان مسعود، مما أجبرهما على التصالح معًا(٢)، إذ حرص مانويل على أن تكون جميع فرقه العسكرية جاهزة تحت يدّه عند وصول الجيوش الصليبية إلى القسطنطينية(٣)، رغم أن هذه الجيوش كانت أقل من جيوش الحملة الصليبية الأولى، وإن كانت منظمة أكثر منها، وهكذا كان مانويل يخاف الصليبيين أكثر مما يخاف الأتراك السلاجقة(٤)، كما أن السلطان مسعود عندما وصلته أخبار تلك الحملة عرض الصلح على مانويل؛ كي يتفرغ لملاقاتها(٥) وهذا الصلح الذي قبله مانويل لم يكن موجه ضد الألمان، ولكنه كان يهدف لاستقرار الوضع على الحدود الشرقية لبيزنطة مع السلاجقة(٦).

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 230 – 233;
Vasiliev: op. cit., Tom. II, p. 56.

2) Vasiliev: op. cit., Tom. 11, p. 56;
زبيدة عطا: الترك في آسيا الوسطى، (القاهرة، بدون تاريخ)، ص ٩٠.

3) Duggan: The Story of the Crusades, p. 111.

4) Zoe Oldenbourg: The Crusade, p. 324.

5) Wiliam Of Tyer: op. cit., vol. I,p. 166.

6) Hussay: "Byzant ium and the Crusades, 1081 – 1204". p.13.

وعلى أية حال، تقدمت الجيوش الألمانية صوب القسطنطينية، بعد أن رفض كنراد عبور الدردنيل، ولكنها لم تتوقف عن النهب والسلب، فأرسل مانويل قائداه باسل وبروسوتش على رأس قوات بينزنطية، لانتظار الألمان في المنطقة المسماة لنجوي Longoi؛ ليصدوا الألمان إذا حاولوا النهب والسلب مرة أخرى، فأرسل القواد من هناك تقريرًا مفصلاً لمانويل عن حالة الجيش الألماني، وطلبوا منه إخبارهم بمهاجمة هذا الجيش أو عدم مهاجمته، ولكن مانويل رفض مهاجمة الجيش الألماني، طالما أنهم مايزالون متمسكين بالذهاب إلى فلسطين ولم يتمادوا أكثر في العنف(١).

وعندما وصلت الجيوش الألمانية إلى المنطقة السهلية المعروفة باسم شيروباك، أقامت معسكرًا هناك، في شمال غرب سلفرية، لتوافر الكلأ والمراعي لخيولهم، ولكن نهري ملاس Melas ، وأتيراس Athyras اللذين يمران في تلك المنطقة ما لبثا أن فاضا بالمياه بسبب هطول السيول من الجبال المجاورة، وتدفقت المياه على المنطقة السهلية التي يعسكر فيها الجيس الألماني، فأغرقت معظم هذه المنطقة، وحملت قسمًا كبيرًا من الجيش الألماني بخيامه وخيله وألقت به في البحر، في الوقت الذي كان يحتفل فيه الجيش بعيد العذراء في ٨ سبتمبر سنة ١١٤٧م، ولم تنج إلا خيمة فردريك دوق سوابيا، وراح الصليبيون الألمان يحتمون فيها من السيول(٢).

ولما سمع مانويل بأنباء هذه الكارثة، اشتد عليه الحزن، وأرسل عددًا من كبار رجاله لتعزية كنراد في هذه الكارثة، وطالبه بالقدوم إلى

---

[1]) Kinnamous: Deeds of Jhon and Manuel Comnenus, pp. 62 – 63;
Vasiliev: op. cit., Tom. II, p. 56.

[2]) Kinnamous: op. cit., pp. 63-64.
Michaud: op. cit., Tom. I, pp. 380-381.

القسطنطينية؛ لمناقشة وتخطيط المسائل الأهم من ذلك، ولكن كنراد كان ما يزال مستمرًا في كبريائه ولهذا رفض القدوم إلى القسطنطينية، وطلب أن يقابله مانويل عندما يقترب منها، ولكن مانويل عندما وجد أن دعوته لم تأت بنتيجة أهمل كنراد تمامًا(١)، وعندما وجد كنراد أن الإمبراطور لم يحفل به، تقدم بقواته حتى وصل إلى القسطنطينية في ١٠ سبتمبر سنة ١١٤٧م، فعسكر أمام أسوارها، بالقرب من فيلوباتيون Philopation، ومن هناك شاهد أسوار المدينة وأبراجها المرتفعة، وشاهد الخندق العميق الذي كان يحيط بها، والجيوش المرابطة داخل وخارج أسوارها، ومن ثم فقد أذهلته هذه التحصينات، وأدرك سبب بقاء هذه المدينة منيعة حتى الآن؛ ولذلك قام بعبور قنطرة القرن الذهبي، وعسكر أمام ضاحية بكرديون Pikridion؛ ولذلك لسهولة العبور من هناك لآسيا الصغرى(٢).

ويشير وليم الصوري(٣) إلى أن كنراد الثالث قوبل بحفاوة من قبل مانويل، وتمتع بأيام قليلة من الراحة، بعد حصوله على المؤن اللازمة لإنعاش قواته من عناء السفر الطويل. إلا أن المؤرخ البيزنطي كيناموس(٤) لم يشر إلى ذلك، وذكر أن كنراد عندما وصل

---

1) Kinnanous: op. cit., p.63;
perry: "The second Crusade". pp. 485 – 486.

2) Kinnamous: op. cit., pp. 63 – 64;
Michaud: op. cit., Tom, I, pp. 380 – 381;
Mayer: op. cit., p. 103;
Perry: op. cit., p. 486.

3) A History of Deeds Done Beyond the Sea, vol. II, p. 166.

4) Deeds of Jhon and Manuel Comnenus, p. 64;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 383.

إلى قرية بكرديون أرسل خطابًا إلى مانويل، أوضح له فيه بتهكم" أن الإمبراطور البيزنطي الذي يعد أحد الأذكياء لا يجب أن ينظر لما حدث من تلفيات في أراضي بيزنطة بل يجب أن ينظر إلى المتسبب فيما حدث، وهم الدهماء من الجيش، وهي تلفيات ليست ذات قيمة لاسيما أنها لم تكن بإيعاز منا".

وفي نهاية الخطاب أوضح كنراد لمانويل "أن الجيش الذي يترك حدود بلده ويدخل أراضي أجنبية يكون دائمًا تائها"[١]. فرد عليه مانويل برسالة أوضح له فيها أن الجيش الغريب يجب أن يحافظ على الأراضي التي يمر منها، وأنه هو أيضًا لا يستطيع أن يكبح جماح العامة من شعبه" وطالما سمح للدهماء من كل جانب أن يفعلوا ما يحلوا لهم فإن الغرباء سوف يعانون أكثر"[٢]. وهكذا نجد أن مانويل كان يحاول أن يلقي هو الآخر بتبعية ما حدث من قواته على العامة من الشعب.

على أية حال، في الوقت الذي كانت تجري فيه حرب الخطابات بين كنراد ومانويل، وقعت معركة شرسة بين الألمان والبيزنطيين، راح ضحيتها الآلاف من الألمان، ورغم ذلك كان كنراد مصرًّا على تكبره[٣]؛ ويبدو أن مانويل حاول أن يجنب كنراد المزيد من الخسائر، فأرسل إليه خطابًا أوضح له فيه "أن جيشًا صغيرًا جدًّا من البيزنطيين اشتبك مع أعداد غفيرة جدًّا من الألمان وكان أقوى منهم"[٤]. وهكذا نجد أنه في الوقت الذي كان يسخر فيه مانويل من الجيش الألماني،

---

[1]) Kinnamous: op. cit., p. 64.

[2]) Ibid., p. 65.

[3]) Kinnamous: op. cit., p. 65;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ١٩١.

[4]) Ibid., p. 66.

راح يذكر كنراد أن الجيش الألماني لم يتعرض حتى الآن لهجوم قوى من قبل الجيش البيزنطي كله. ولكن كنراد لم يهتم بذلك، وراح يتوعد ويهدد بأنه سوف يأتي في العام المقبل لحصار القسطنطينية بالعديد من الآلاف، فغضب مانويل من هذه التهديدات، وأرسل إلى كنراد رسالة هاجمه فيها بأسوأ الكلمات والصفات، فأوضح له قائلاً: "إن الجيوش لا تقاس بأعدادها، ولكن بإعدادها وتجاربها ومهاراتها". وبين له كيف تلقت الأعداد الضخمة من جيشه الهزائم على يد السكان البيزنطيين الذين كان يرافقهم قوات بسيطة من الجيش النظامي، وأخبره أنه "يقود أسرابًا مختلفة ليسوا محاربين، ولكنهم أسراب من الغنم، والتي قد تعاني من قفزة أسد واحد عليها، وأنت (كنراد) ألا تعلم أنك تشبه العصفور الدوري تحت قوتنا! وإذا نحن أردنا إتباع القوة، فسوف تهلك على الفور وعليك أن تتأمل ذلك! إن أجداد هؤلاء الذين امتلكوا هذا القطر تجاوزوا الأرض من أولها إلى آخرها بالقوة وأصبحوا أسيادًا لكم، ولكل جنس آخر تحت الشمس"، ثم ألمح مانويل إلى كنراد بأنه يجب عليه أن ينسى الجلوس على عرش الإمبراطورية البيزنطية، ويعود من حيث أتى[١]، وبذلك التهب الموقف بين كنراد ومانويل وأوشك على الانفجار.

ولم تلبث العلاقات بين مانويل وكنراد أن تحسنت، وبدأت المفاوضات بين الطرفين؛ لأن برتاسالزباخ أخت زوجة كنراد وزوجة مانويل والتي عرفت في القسطنطينية باسم إيرين وضعت يدها فيها[٢]، هذا في الوقت الذي اتبع فيه مانويل طريقًا آخر لإذلال كنراد، عن

---

[1]) Kinnamous: op. cit., pp. 66 – 67;
Michaud: op. cit., Tom. I,p. 382;
Perry: "The Second Crusade" , p. 486.

[2]) Perry: op. cit., p. 486.

طريق رشوة بعض أمراء الجيش الألماني ليتخلوا عن طاعته، الأمر الذي جعل كنراد لا يتمادى في عجرفته(١). وقرر عبور البسفور، ولمَّا كان يعلم أن البيزنطيين لديهم خبرة بدروب آسيا الصغرى ومسالكها، التي تمكنه أن يصل بسلام لبلاد الشام، فقط طلب من مانويل أن يزوده بالمرشدين الذين تتوافر لديهم معرفة البلاد، فاستجاب له مانويل، وأمده أيضًا ببعض المؤن اللازمة والهدايا القيمة. وبناء على ذلك عبر كنراد الثالث وقواته البسفور في نهاية سبتمبر سنة ١١٤٧م، دون مقابلة مانويل(٢). والجدير بالذكر، أن مانويل مارس كل الضغوط على كنراد ليجبره على عبور البسفور؛ حتى لا يجتمع مع القوات الفرنسية القادمة في الطريق، فيشكل ذلك خطورة على الإمبراطورية، لكثرة الجيشين معًا(٣)، ويبدو أن مانويل أيضًا خاف من هجوم مفاجئ على القسطنطينية من قبل الألمان، ولذلك حاول أن يسوى الوضع بينه وبين كنراد الثالث(٤).

والجدير بالذكر، أن كنراد الثالث لم ينتظر لويس السابع أمام أسوار القسطنطينية، حسب الاتفاق الذي تم بينها، وقد اختلف المؤرخون في أسباب ذلك، إذ يرى البعض أن عداوة الألمان تجاه الفرنسيين هي التي منعت كنراد من انتظارهم أمام القسطنطينية،

---

[1]) Kinnamous: op. cit., p. 67.

[2]) Ibid., p. 67;

William, of Tyre: op. cit., vol. II, p. 167 – 168;

Mayer: The Crusades, p. 103;

Brehier: :Les Croisades, p. 106.

[3]) Vasiliev: op. cit., pp. 60 – 61;

Perry: op. cit., p. 486.

[4]) Grousset: op. cit., Tom. 2,p. 232.

ويرى أصحاب هذا الرأي أنه لو انتظر كنراد لويس أمام أسوار القسطنطينية لأدى ذلك إلى نجاح الحملة[1] في حين يشير البعض الآخر أن ضغوط مانويل وتهديده لكنراد هي التي منعت الأخير من انتظار لويس أمام القسطنطينية، كما أن كنراد وجد أن قواته قادرة على سحق القوات السلجوقية في آسيا الصغرى، والتقدم لنجدة الرها[2].

- موقف الألمان من آسيا الصغرى، وعودة كنراد الثالث إلى القسطنطينية:

بعد أن عبر كنراد البسفور تقدم بقواته حتى وصل إلى خلقدونية، وهناك وصلته سفارة من قبل مانويل يعرض التحالف معه، عن طريق إرسال كنراد فرقة ألمانية تخدم في الجيش البيزنطي، لاستخدامها ضد روجر الثاني الذي كان آنئذ يهاجم الأراضي البيزنطية في الأدرياتيكي، في مقابل مساعدة القوات البيزنطية الموجودة في آسيا الصغرى له، كما قدم له مانويل بعض الإمدادات وبعض الخيول، ونصحه بأن يتخذ الطريق الساحلي الغربي لآسيا الصغرى، ثم الطريق الساحلي الجنوبي حتى يصل إلى أضاليا، وطلب منه مانويل أيضًا إعادة كافة الصليبيين الذين يفتقرون إلى المقدرة الحربية إلى أوطانهم، حتى لا يتسببوا في إرباك صفوف الحملة، ولا يكونوا عبئًا عليها في الحصول على وسائل المعيشة، ولكن كنراد رفض التحالف مع مانويل، كما أنه لم ينفذ بقية النصائح.

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 277;

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٠.

2) Brehier: Les Croisades, p. 106;

Perry: op. cit., p. 486;

باركر: الحروب الصليبية، ص ٧٦.

والواقع أن كنراد لو قبل عرض مانويل لكان ذلك أجدى له، لاسيما أن رفضه ترتب عليه اعتراف مانويل بالصلح الذي عرضه عليه السلطان مسعود الأول سنة ١١٤٦م، وبذلك حرم كنراد نفسه من أية مساعدة بيزنطية بعد ذلك(١).

على أية حال، بعدما رفض كنراد نصائح الإمبراطور مانويل، تقدم بقواته من خلقدونية حتى وصل إلى نيقية التي كانت عندئذ تقع ضمن أملاك مانويل الأول(٢). وهناك فكر كنراد في نصائح مانويل فوجدها ذات تأثير بالغٍ ولهذا قسم جيشه إلى قسمين، الأول بلغ تعداده حوالي أربعة عشر ألفا، وضم المشاة الغير محاربين من نساء وشيوخ وأطفال، وقد تولى قيادته أوتو الفريزي، والكونت برنارد من كارنثيا، واتخذ هذا القسم الطريق الساحلي إلى أضاليا، رغم التذمر الذي حدث بينهم بسبب ذلك(٣). أما القسم الثاني فهو القسم المسلح، الذي سار به كنراد في ١٥ أكتوبر سنة ١١٤٧م على الطريق الذي يخترق قلب آسيا الصغرى، إذ رأي أنه أقصر الطرق إلى بلاد الشام. ولم يأخذ كنراد معه مؤناً من نيقية إلا ما يكفي لتموين الجيش لمدة ثمانية أيام

---

[1]) Kinnamous: op. cit., p. 68;
Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 233 – 234;
Vasiliev: op. cit., Tom, 11, p. 61;
Perry: op. cit., p. 456;
Brehier: op. cit., p. 105;
محمود سعيد عمران: المرجع السابق، ص ١٤٤.

[2]) William of Tyre: A History of Deeds Done Beyond the Sea, vol. II, pp. 166- 167.

[3]) Brundage: The Crusades A Documents, p. 112;
Mayer: op. cit., p. 103;
Perry: op. cit., p. 495.

فقط، ظنًا منه أنه سوف يصل إلى قونية بسرعة في حين أن المسافة من نيقية إلى قونية تستغرق حوالي عشرين يومًا[١]، ومن ثم فإن المؤن لم تكف الجيش الألماني إلا لمدة ثمانية أيام فقط، وقد شكي الألمان من أن البيزنطيين يخلطون لهم الدقيق بالجير، مما أضر بصحة الجيش الألماني، كما أن البيزنطيين لجأوا إلى تزييف العملة التي كانوا يستخدمونها في البيع فقط، ولا يستخدمونها في الشراء[٢].

وعندما اقترب الجيش الألماني من الحدود التركية البيزنطية في ٢٣ أكتوبر سنة ١١٤٧م، بدأت المؤن تقل، وبدأ الضجر يظهر على وجه الألمان، وبعد مسيرة يومين داخل الحدود السلجوقية، وفي ٢٥ أكتوبر من نفس العام، استدعى كنراد الثالث المرشدين البيزنطيين وسألهم عن ميعاد وصول الجيش إلى قونية، وأنهم لم يصلوا في الميعاد الذي حددوه من قبل، فأكد له المرشدون أن الجيش سوف يصل إلى قونية بعد ثلاثة أيام، ولكنهم ما لبثوا أن هربوا أثناء الليل[٣].

ويشير وليم الصوري[٤] إلى أن المرشدين كانوا خونة بدلا من أن يكونوا أوفياء للجيش الألماني، وأنهم هم الذين قادوهم داخل الأراضي السلجوقية، وهم الذين أخبروهم أيضًا بقصر الطريق إلى قونية، وأنه يمتد داخل أراضي يسيطر عليها البيزنطيون، ويشير أيضًا إلى أن الإمبراطور البيزنطي مانويل الأول من المحتمل أنه الذي أشار على

---

1) Kinnamous: op. cit., p. 6;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 234;
Perry: op. cit., pp. 495 – 496.

2) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 382.

3) William of Tyre: op. cit., vol. II, p.168;
Grousset: op. cit., vol. 2, pp. 234 – 235.

4) A History of Deeds Done Beyond the sea. vol. II, p. 168.

المرشدين بالهروب، أو أن السلاجقة قدموا لهم رشوة في سبيل الهروب وترك الجيش الألماني. والواقع أن وليم الصوري كان متحاملاً على المرشدين البيزنطيين وعلى مانويل الأول، إذ نسى أن مانويل نصح كنراد باتخاذ الطريق الساحلي الغربي لآسيا الصغرى، ثم الطريق الساحلي الجنوبي حتى يصل إلى أضاليا، وهذه الطرق تمتد داخل الأراضي البيزنطية، ولو كان مانويل يريد وضع الألمان في مأزق لما أشار على كنراد باتخاذ الطرق الساحلية. أما إذا كان المرشدون قد هربوا، فمن المحتمل أنهم شعروا بالخوف، وأحسوا أن الألمان سوف يفتكون بهم، لاسيما بعد نفاذ المؤن التي يعد كنراد الثالث هو المسئول عنها تمامًا وبالتالي هو المسئول عن نكبة الجيش في آسيا الصغرى.

ولما اكتشف كنراد هروب المرشدين، عقد مجلسًا وتشاور فيه مع قواده حول كيفية الخروج من هذا المأزق، فأشار عليه بعضهم بالعودة، وأشار البعض الآخر بمواصلة الزحف، وكان الجيش الألماني آنئذ في صحراء قاحلة، وقد نفذ منه الماء والطعام وعلف الخيول، وإلى جانب هذه الصعوبات علم الألمان أن الجيش السلجوقي مرابط على مقربة منهم، ولكنهم لم يتوقعوا أن يقوم السلاجقة بمهاجمتهم، إلا أن السلاجقة ما لبثوا أن انقضوا عليهم، وأمطروهم بوابل من السهام "التي لا تحصى ولا تعد والتي سقطت على الخيول الألمانية وراكبيها كما لو كانت جهنم "فأدت إلى إصابة وموت العديد من الجيش الألماني. ورغم ذلك تمكن الألمان من توحيد صفوفهم، وقاموا بمهاجمة القوات التركية، وحاولوا تطويقها[1]، ولكن السلاجقة

---

1) William of Tyre: A History of Deeds Don Beyond the sea, vol. II, pp. 170;

Grousset: op. cit., Tom, 2, p. 235.

استخدموا آنئذ تكتيكاتهم الحربية المعروفة وهي الكر والفر(١)، وقد ساعدهم على ذلك سرعة خيولهم، وخفة فرسانهم المسلحين بأسلحة خفيفة، بينما كان الألمان مُثقلين بما عليهم من خوذ وزرديات، أضف إلى ذلك ضعف خيولهم التي أنهكها الجوع؛ ولهذا بعد أن تعب الألمان من مطاردة الأتراك، وبعدوا عن معسكرهم، كر عليهم الأتراك، وشددوا الهجوم "كما لو كانوا يحاصرون مدينة" فذبحوا منهم الآلاف لدرجة أنه لم يبق من تلك القوات سوى العُشْر فقط، كما أن كنراد نفسه قد أصيب برمحين رغم أنه كان في وسط قواته التي لم تتمكن من الدفاع عنه(٢)، ورغم ذلك تمكن كنراد بصعوبة بالغة من العودة إلى نيقية في ٢ نوفمبر سنة ١١٤٧م تصحبه قلة بسيطة من جيشه، تاركين خلفهم مالا يعد ولا يحصى من الذهب والفضة والثياب والخيول والأسلحة، فاستولى الأتراك عليها وقد ملأت تلك الغنائم البلاد التركية، لدرجة أن قيمة النقود في ملطية أصبحت مثل قيمة الرصاص، وقد وصلت هذه الغنائم حتى فارس(٣).

أما القوات التي قادها أوتو الفريزي عبر الطريق الساحلي إلى أضاليا، فقد هاجمهم الأتراك أيضًا في لوديقا في فبراير سنة ١١٤٨م،

---

1) Kinnamous: op. cit., p. 68;

و. س. سميث ماهية الحروب الصليبية، ص ٧٨.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 171 – 172;

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٧؛

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ١، ص ٥١ – ٥٢؛

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 389;

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 338.

3) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 172;

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 336.

وذبحوا منهم الآلاف، وهزموهم هزيمة نكراء، ولم ينج منهم سوى القليل ومعهم أوتو نفسه، وهؤلاء اتخذوا الطريق الساحلي الجنوبي إلى أضاليا، وإن كان العديد منهم مات بسبب الجوع والعطش[١].

وفي تلك الأثناء انتشرت إشاعة في أواسط الجيش الفرنسي الذي كان يعسكر أمام أسوار القسطنطينية تشير إلى أن الألمان ذبحوا حوالي أربعة عشر ألفًا من الأتراك، واحتلوا قونية، فأسرع الفرنسيون في عبور البسفور أملاً في مشاركة الألمان الغنيمة، ولكنهم ما لبثوا أن عرفوا بكارثة الألمان[٢]، فنسبوا هذه الكارثة نتيجة لخيانة البيزنطيين، إلا أن كنراد الثالث نفسه في خطابه إلى ويبالد من كورفي لم يوجه أي اتهام إلى البيزنطيين، ولم يعتبر أن الهزيمة التي لحقت بقواته كانت بتدبير منهم، ولكنه اعتبر نفسه المسئول عن الكارثة؛ "لأنه اعتمد على قوته وأن هذه الكارثة تعود إلى ذنوب وخطايا قواته، فإن الله – كما قال – عادل ونحن المذنبون"[٣]. وهذا في الواقع فصل الخطاب في الاتهامات التي وجهت لبيزنطة وخيانتها للحملة الصليبية الثانية[٤].

على أية حال، بعد فترة وجيزة وصل فردريك دوق سوابيا إلى معسكر لويس السابع المقام على شاطئ بحيرة نيقية، فأخبر لويس عن

---

1) Michaud: op. cit., Tom. I, p. 389;
Mayer: op. cit., p 104;
أنتوني بردج: المرجع السابق، ص ١٥١.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 169;
Mayer: op. cit., p. 104;
Perry: "The second Crusade", p. 495.

3) Perry: op. cit., p. 496;
سعيد عمران: المرجع السابق، ص ١٤٦.

4) Vasiliev: op. cit., p. 60.

هذه الكارثة، وطالبه بالقدوم لمقابلة كنراد، فوافق لويس، ويقال إنه بكى عندما سمع بخبر هذه الكارثة.

وفي معسكر كنراد وبعد اللقاء الحار وسط الدموع وقبلات المودة، أقسم العاهلان على إتمام رحلتهما حتى النهاية، كما اتفقا على ضم قواتهما معًا ومتابعة التقدم عبر الطريق الساحلي الذي يمر بفيلادلفيا، وترك الطريق الذي سلكه كنراد، ولكن في الوقت الذي كان يتفاوض فيه كنراد ولويس، عاد عدد كبيرة من الألمان والفرنسيين إلى القسطنطينية، بسبب الحاجة إلى الأموال، ووعورة الطريق[1].

ونظرًا لأن الجيش الألماني قد خسر معداته وأمواله، فقد قدم لهم الفرنسيون النقود والمعدات، وانتظروهم في لوباديوم Lopadium حتى يتمكنوا من توفير المؤن، ولكنهم فشلوا في ذلك؛ بسبب ندرة الأسواق، وتخطف الأتراك لهم[2].

ورغم ذلك تمكن الألمان من إعادة تنظيم أنفسهم ولحقوا بالجيش الفرنسي، وسارت القوات الفرنسية تتبعها القوات الألمانية، فوصل الجيشان أولاً إلى أسيرون Esseron قرب باليكشير Balikesir، ثم تقدموا من هناك عبر الطريق الساحلي القريب من البحر حتى وصلوا إلى أدراميتي Adramytte، ومن هناك اخترقت الجيوش جبال يوليد Eolide وأيونية، وعن طريق برجامس وسميرنا (أزمير) وصلوا إلى

---

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 173;
Kinnamous: op. cit., p. 70;
Grousset: op. cit., Tom. 2. p. 239.
Perry: op. cit., p. 497.

[2]) Perry: op. cit., p. 497;
Zon Oldenbourg: The Crusade, p. 326.

أفيسوس Ephesus حوالي منتصف ديسمبر سنة ١١٤٧م[1]، وكان الفرنسيون خلال تقدمهم يسخرون من الألمان بسبب تأخرهم عن متابعتهم، وقد استخدموا في ذلك لقبهم القديم وهو "تحركوا أيها الألمان" وفي أفيسوس أوصى كنراد قواته بمواصلة الرحلة إلى بلاد الشام عبر الطريق البري في حين عاد هو إلى القسطنطينية[2].

والواقع أن كنراد لم يستطع تحمل سخرية الفرنسيين وهو الذي كان منذ فترة قصيرة يهدد الإمبراطور البيزنطي، فأصر على العودة، ولهذا كتب إلى مانويل يخبره بذلك؛ ونظرًا لأن الأخير كان ميالاً لفصل الجيشين، فقد رحب بقدومه إلى القسطنطينية، لاسيما أنه لم يعد هناك خوف من كنراد وجيشه[3]، وعاد كنراد أيضًا من أفيسوس؛ لأنه سار خلف الجيش الفرنسي ولذلك لم يكن راضيًا عن رؤية نفسه تابعًا لملك فرنسا من جهة وبسبب قلة قواته وإصابته بالمرض في أفيسوس من جهة أخرى[4].

وأيًا كانت الأسباب فقد عاد كنراد إلى القسطنطينية، وقضى هناك شتاء سنة ١١٤٧ - ١١٤٨م وسط حفاوة بالغة من مانويل، الذي

---

1) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 173 – 174;
Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 239 – 240.

2) Kinnamous: Deeds of Jhon and Manuel Commenus, pp. 70;
William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 174.

3) Kinnamous: op. cit., PP. 70 – 71;
Prerry: op. cit., p. 498.

4) Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 240;
Perry: op. cit., p. 498;
Franzius: op. cit., p. 325;
مكسيوس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ٢، ص ٥٠.

أغدق عليه الهدايا وقام بمعالجته، ولعل ذلك يرجع إلى تطلع مانويل إلى تقوية اتفاقيته القديمة مع كنراد ضد روجر الثاني ملك صقلية[1].

أما لويس السابع فبعد عودة كنراد، تقدم من أفيسوس وسط هجمات الأتراك، إلى أن تمكن من الوصول إلى أضاليا، وبعد ذلك لم يستطع التقدم خطوة واحدة على الطريق البري خوفًا من السلاجقة، فأخذ الطريق البحري حيث تمكن من الوصول إلى ميناء سان سيمون الإنطاكي في ١٩ مارس سنة ١١٤٨م (٢٥ شوال ٥٤٢هـ) في حين أن بقية القوات من المشاة الألمان والفرنسيين عانوا معاناة شديدة من هجمات السلاجقة عليهم في أضاليا، وخلال تقدمهم إلى إنطاكية، ويقال إن تعداد هذه القنوات عندما وصلت لإنطاكية كان حوالي ثمانية آلاف[2].

- توجُّه كنراد من بيزنطة إلى بلاد الشام والأحداث التي شارك فيها الألمان هناك حتى عودة كنراد لألمانيا:

وكان أن غادر كنراد الثالث القسطنطينية في مستهل مارس سنة ١١٤٨م على السفن البيزنطية التي أعدت خصيصًا له، وبعد أن أغدق عليه مانويل الهدايا الثمينة. وقد وصل كنراد الثالث إلى ميناء عكا في ١١ إبريل من نفس العام، ومن هناك رحل إلى بيت المقدس، حيث

---

1) Kinnamous: op. cit., p. 71;
William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 174 – 181;
Perry: op. cit., p. 498;
رنسيمان: الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق، جاويد، (القاهرة، ١٩٦١م)، ص٢٨٧.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 174 – 179;
Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 240 – 245;
Campbell (G.A.): The Crusade (London, 1955), pp 223 – 224, 244.

استقبله خارجها فوشيه أنجوليم (١١٤٧ - ١١٥٧م) fulcher Angolim بطريرك المدينة، ومعه الأكليروس وطائفة من كبار رجال مملكة بيت المقدس الصليبية استقبالاً كبيرًا، واصطحبوه وسط التراتيل الدينية حتى دخل المدينة[١] وهناك قام كنراد بتأدية الصلاة وزيارة الأماكن المقدسة[٢] ثم استقر في نزل هيئة فرسان الداوية[٣]، ويبدو أن بعض الألمان بعد أن قاموا بالحج عادوا لألمانيا[٤].

---

[1]) Kinnamous: op. cit., p. 71;

William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 181;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 399.

[2]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 183;

ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٧؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨، ق ١، (حيدر أباد، ١٩٥١)، ص ١٩٧؛

أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢.

[3]) Perry: op. cit., p. 505;

تأسست منظمة الفرسان الداوية سنة١١١٨م على يد هيودي باين Hugh de Pyens وجود فروي دي سنت أومير، وكلفهم بطريك بيت المقدس بحفظ المسالم والدروب العامة، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج، وظل فرسان الداوية لمدة تسع سنوات بعد التأسيس يلبسون الملابس المدنية كبقية الناس، وفي مجمع تروي في فرنسا سنة ١١٢٧م أمر البابا هونوريوس الثاني بوضع قواعد لمنظمة فرسان الداوية، التي تسمى أيضًا فرسان المعبد Templers . انظر:

وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة، ١٩٩٢)، ص ٣٤٥ - ٣٤٦؛

جوزيف نسيم يوسف: العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى، طـ ٢، (القاهرة، ١٩٦٧م) ، ص١٤٥، حاشية ٤.

٤) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٩٧؛

أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢.

وفي الوقت الذي كان فيه كنراد في بيت المقدس، كان لويس مقيمًا في إنطاكية لدى أميرها ريموند من بواتييه، الذي استقبله استقبالاً حسناً، ولكن هذا الاستقبال لم يكن حبًّا في لويس بقدر ما كان محاولة من قبل ريموند لاستمالته للقيام بحملة ضد نور الدين محمود في حلب وقيسارية، إلا أن لويس رفض هذا المشروع، وأعلن أنه جاء فقط ليحج إلى كنيسة القيامة، والدفاع عن بيت المقدس.

والواقع أن هذه المحاولة من قبل ريموند كانت محاولة فطنة؛ لأن الإمارات الصليبية الشمالية هي التي كانت معرضة للخطر من قبل نور الدين محمود، أما إمارة بيت المقدس فلم يكن عليها خطر من الجنوب؛ لأن مصر الفاطمية كانت في حالة تدهور مستمر، كما أن الحملة الصليبية كانت قادمة في الأصل لتخليص الرها من أيدي المسلمين[١].

ولم يكن ريموند أمير إنطاكية هو الذي تطلع فقط للحصول على المساعدة من قبل لويس السابع، بل تطلع إليها أيضًا كل من جوسلين الثاني أمير إمارة الرها، وريموند الثاني كونت طرابلس، ومليسند Melisend ملكة مملكة بيت المقدس، ولهذا أرسلت الملكة وابنها الملك بلدوين الثالث (١١٤٤ – ١١٦٢م) Baldwin III بطريرك بيت المقدس ليدعو لويس لزيادة المدينة؛ خوفا من أن يمكث في إنطاكية أو طرابلس، فقبل لويس الدعوة وغادر إنطاكية[٢]، وهكذا نرى أن مسألة

---

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 179, 181 – 182;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 397;

Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 245 – 284;

Stevenson (W.B.): The Crusade, (Cambridge, 1968), p. 159.

[2])William of Tyre: op. cit., vol. II, p.182;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 399;=

استرداد الرها من أيدي المسلمين قد أغفلت تمامًا، وتطلع أمراء الإمارات الصليبية في بلاد الشام إلى مساعدة الحملة الصليبية الثانية.

ولم يتوقف لويس السابع في طرابلس، بل وصل مباشرة إلى بيت المقدس في ٢٣ يونيو سنة ١١٤٨م، فأدى وصوله إلى إثارة حماس سكان المدينة وإحياء آمالهم، وهناك قام لويس بأداء الصلاة وزار الأماكن المقدسة، ويقال إن كنراد ولويس بكيا عندما تقابلا؛ بسبب الكوارث التي حلت بهما[١]، ووصل أيضًا إلى بيت المقدس أوتو الفريزي ومعه بعض القوات الألمانية التي نجت من الموت في ٤ إبريل سنة ١١٤٨م[٢].

ونظرًا لأن ملكة بيت المقدس وملكها قصدا عندئذ توسيع حدود مملكتهما على حساب المسلمين في دمشق، فقد وجهت الدعوة إلى لويس السابع وكنراد الثالث لعقد اجتماع في عكا؛ لمناقشة الأمور التي يجب اتخاذها والجهة التي سوف تأخذها الحملة، فلبى الملكان النداء، وعقد هذا الاجتماع في دار القضاء في عكا، في ٢٤ يونيو سنة ١١٤٨م، وقد حضره من الجانب الألماني كنراد الثالث، وأوتو الفريزي، وستيفن أسقف متز، وهنري دوق أستوريا أخو كنراد الثالث، والولف السادس دوق بافاريا، وفردريك دوق سوابيا، وهرمان كونت فيرونا، وبرتولد من بافاريا، ووليم مارجراف مونتفرات أخو كنراد الثالث وجاي كونت بلاندراس وملكا بولندا وبوهيميا، ولم تمثل إنطاكية ولا طرابلس في هذا الاجتماع؛ لأنه لم توجه إلى أمرائهما

= Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 251.

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 179, 182 – 183;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 399.

[2]) Perry: "The second Crusade ",p. 504;
Mayer: The Crudade , p. 105.

الدعوة للحضور[1]. وكما يقول ميشو[2] فإن ذلك أنذر بنتائج مؤسفة بسبب الخلاف بين صليبيي الشرق.

أما بالنسبة للمناقشات التي دارت داخل أروقة دار القضاء في عكا، فلم يقدم لنا وليم الصوري إلا النزر البسيط منها، إذ قال "طبقًا للمناقشات اختلفت الآراء وتنوعت المسائل التي عرضت في هذا المؤتمر، وكان هناك جدال ضد مشروع توسيع حدود مملكة بيت المقدس، وذلك بالاستيلاء على دمشق بين المؤيدين لهذا المشروع والمعارضين له، غير أن الجميع وافقوا في النهاية على مشروع الاستيلاء على دمشق"[3].

ويشير البعض إلى أن قرار غزو دمشق اتخذ بواسطة كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا وبلدوين الثالث ملك مملكة بيت المقدس، أما لويس السابع فلم يشاركها في هذا القرار، ورغم ذلك اضطر إلى الموافقة عليه[4]. ويبدو أن البعض نادوا في هذا المؤتمر بضرورة توجيه الحملة ضد نور الدين، أو القيام بنجدة إمارة الرها[5]، وهذا ما

---

1) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 183 – 185;
Crousset: op. cit., Tom. 2, pp. 254 – 255;
Mayer: op. cit., p. 106.

2) Histoire des Croisades, Tom. I, p. 400.

3) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 186;
ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨؛
كارل بروكمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ٢، ترجمة نبيه أمين فارس، منير البعلبكي، (بيروت، ١٩٦١م)، ص ٢٢١.

4) Smail (R.C.): Crusade and settlement, (Colleg Cardiff, 1985), pp. 99 – 100.

5) Perry: op. cit., p. 507.

أكده ميشو[١] إذ قال: "ولم يذكر اسم جوسلين الثاني" البائس" إلا نادرًا في اجتماع الملوك والأمراء والبارونات". وهكذا يتضح لنا أن ملكة بيت المقدس وملكها وباروناته انفردوا بكنراد الثالث ولويس السابع، وأقنعوهما على توجيه الحملة ضد دمشق، رغم أن حاكمها الفعلي معين الدين آنر كان حليفًا قويًا لمملكة بيت المقدس الصليبية.

والواقع، أن قرار مهاجمة دمشق لم يؤخذ بطريقة عشوائية[٢]، بل كان مدروسًا دراسة متقنة؛ لأن دمشق كانت مدينة استراتيجية على الطريق بين بغداد والقاهرة، ومن ثم فإن استيلاء الصليبيين عليها معناه قطع خطوط المواصلات بينهما[٣]، الأمر الذي يؤدي إلى عدم حدوث وحدة بين البلدان الإسلامية. كما أن مدينة دمشق كانت تتمتع بأهمية تجارية كبيرة، وثروة طائلة ومن ثم فإن الاستيلاء عليها يتيح الحصول على غنائم وفيرة[٤]؛ كما أن الاستيلاء على مدينة دمشق سوف يؤدي إلى ضم الولايات الخصبة التابعة لها، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى تقوية الصليبيين، وتحكمهم في قلب بلاد الشام، الأمر الذي سيؤدي إلى الفصل بين المسلمين في الشمال ومملكة بيت المقدس في الجنوب، وبهذا يمكن لمملكة بيت المقدس أن تعيش في سلام[٥]. ويرى البعض أن الكوارث التي حلت بالجيش الصليبي جعلته غير قادر على

---

1)Histoire des Croisades, Tom. I,p. 400.

2) Smail: The Crusade in Syria and the Holy land, p. 20.

3) Michaud: op. cit., Tom I,p.400.

4)Brundage : The Crusades A Document, p. 115;
Duggan: The Story of the Crusades, p. 118.

5) Duggan: op. cit., p. 118;
Saunders: (J.J.) A History of Medieval Is lam (London) 1965), p. 162.

استرداد مدينة الرها، في الوقت الذي غدت فيه الرها مدينة مخربة وليس لها قيمة كبرى[1].

وعلى الرغم من ذلك لم يلق قرار من النقد والتجريح أكثر مما لقي توجيه الهجوم ضد دمشق؛ على أن الذين نقدوه لم ينقدوه لشيء؛ بل لأن مملكة بيت المقدس لم تكن في حاجة إلى المساعدة، في حين أن الإمارات الصليبية الشمالية هي التي كانت معرضة لخطر نور الدين، كما أن الحملة الصليبية الثانية لم تقم من الغرب الأوربي إلا بغرض الاستيلاء على الرها، في حين أن علاقات دمشق بمملكة بيت المقدس كانت علاقات طيبة، وكان آنر حاكم دمشق الفعلي الحليف الوحيد للصليبيين الذي يمكن أن يساعدهم على إعاقة نور الدين محمود في توحيد الجبهة الإسلامية، أما محاولة الاستيلاء على دمشق كان من شأنها أن تؤدي إلى ارتمائها في أحضان نور الدين مما سوف يترتب عليه أوخم العواقب لباقي الإمارات الصليبية في بلاد الشام[2]. والجدير بالذكر، أن هذه الآراء لم تقال إلا بسبب الفشل في الاستيلاء على دمشق – كما سنرى – ولو نجح الصليبيون في الاستيلاء عليها لنال قرار مهاجمتها من المدح أكثر مما ناله غيره.

ويبدو أن الصليبيين قد تكتموا تمامًا خبر غزو دمشق، ولم يظهروا أنهم يريدونها تظاهروا بأنهم يريدون غيرها، وراحوا يستعدون لذلك، فقاموا بتوزيع الأموال على الجيش، "وكان مقدار ما

---

1) Brechier: Les Croisade, p. 107;
Perry: op. cit., p. 505.

2) Grousset: Histoire des Croisades, Tom, 2, pp. 252 – 255;
Perry: op. cit., p. 507;

باركر: الحروب الصليبية، ص ٤٧٦؛

يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٧١.

فرقوه سبعمائة ألف دينار"[1]. ويبدو أن هذه الأموال هي التي حاول كنراد الثالث عن طريقها استقطاب صليبيي لشبونة الذين كانوا قد وصلوا عندئذ إلى بلاد الشام[2].

وعندما علم معين الدين آنر صاحب السلطة الفعلية في دمشق بقرار مهاجمة مدينته، "شرع في التأهب والاستعداد لحربهم، ودفع شرهم، وتحصين ما يخشى من الجهات، وترتيب الرجال في المسالك والمنافذ، وقطع مجاري الميرة إلى منازلهم، وطم الآبار، وعفى المناهل"[3]. ونظرًا لأنه أدرك عدم مقدرته على مجابهة جيوش الصليبيين، فقد طلب المساعدة من سيف الدين غازي أمير الموصل، ودعاه "لنصرة المسلمين وكف العدو عنهم" وأخبره بقوة الجيش الصليبيي واستصرخه قائلاً: "أدركنا"[4]. وهكذا نتبين مدى وقع خبر غزو دمشق على آنر، وبالتأكيد كان يشعر بالمرارة وهو يتخذ قرار الاستغاثة بأبناء زنكي؛ لأنه كان عدوا لهم.

على أية حال، تجمعت القوات الصليبية الألمانية والفرنسية وقوات مملكة بيت المقدس وقوات هيئتي الداوية والإسبتارية[5]

---

١) ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨، ق١، ص ١٩٧؛
الذهبي: دول الإسلام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم، جـ٢، (القاهرة، ١٩٧٤م)، ص ٥٨.

2) Perry: op. cit., p. 505;
Mayer: op. cit., p. 105.

٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣٠؛
Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 261 – 265.

٥) منظمة فرسان الإسبتارية Hosptallers هي منظمة رهبانية عسكرية دينية، يرجع أصلها إلى عام ١٠٤٨م ، أو ١٠٧٠م عندما قام بعض التجار من أمالفي Amalfi بتأسيس=

وشرعت في المسير تجاه دمشق في ١٥ يوليو سنة ١١٤٨م[١] يتقدمهم فوشيه بطريك بيت المقدس حاملاً الصليب المقدس، مما ألهب حماسهم وزادهم إصرارًا على أخذ دمشق، وقد بلغ تعداد هذه القوات حوالي خمسين ألف مقاتل[٢] وسارت هذه الجيوش حتى وصلت إلى مدينة طبرية، ثم تقدمت من هناك عبر الطريق الساحلي؛ نظرًا لقصره حتى وصلت إلى بانياس، فتوقفت هناك، حيث عقد قوادها مجلسًا مع الأمراء الصليبيين المقيمين في بلاد الشام الذين لديهم خبرة بموضع مدينة دمشق والأقطار المجاورة لها وظروف بيئتها، وبعد التشاور قرر قادة الحملة الصليبية أن أفضل طريقة للاستيلاء على مدينة دمشق هي الاستيلاء أولاً على جميع الحدائق[٣] التي تحيط بالجزء الأكبر

=مستشفى في بيت المقدس من أجل إيواء الحجاج اللاتين، وفي سنة ١١١٣م اعترف بابا روما بهيئة فرسان الإسبتارية. وفي سنة ١١٢٠م أصر ريموند من بوي والعاملون معه على تسمية أنفسهم فرسان مستشفى سان جون (القديس يوحنا). انظر:

King (E.J.) The Knights Hospitallers in the Holy Land, (London, 1931), p. I;

يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ١٨٨ - ١٨٩.

[1])William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 186.

٢) اختلف المؤرخون في تعداد هذه القوات حيث قدرهم البعض بحوالي ستة آلاف فارس، وستين ألف راجل "وقيل إنهم كانوا مائة ألف راجل وعشرة آلاف فارس. انظر: ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ٨ ق١، ص ١٩٧، في حين يقول آخر إن عددهم كان سبعين ألفًا. ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢، ص ١٢٣، وقد قدرهم ثالث بحوالي ستين ألفًا. انظر الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ٥٨.

٣) تقع هذه الحدائق، والتي تسمى الغوطة في الجهات الجنوبية والغربية والشمالية لمدينة دمشق، وتعد من أكبر الموانع الطبيعية الحامية للمدينة؛ لأنها زرعت متقاربة من بعضها البعض، وبذلك أصبحت كما لو كانت سياجًا تمامًا، كما أن الطرق التي كانت تقطعها كانت ضيقة جدًا، لا يمر منها سوى رجلين معًا، وقد امتدت من ناحية الشمال بطول خمسة=

منها، لأن ذلك سوف يحرم المدينة من دفاعاتها الطبيعية الأساسية، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، أن الاستيلاء على هذه الحدائق سوف يوفر للصليبيين الفاكهة والمياه والكلأ، وبذلك يضمنون تموين رجالهم وخيولهم[١].

على أية حال، تقدمت القوات الصليبية من بانياس فعبرت جبل لبنان المعروف بجبل جرمون، ثم دخلت إلى المنطقة السهلية التي تسمى سهل وادي العجم الممتد إلى الجنوب الغربي من دمشق، حيث عسكرت هذه القوات على ارتفاع منازل العساكر المعروفة بقرية داريّا[٢] بالقرب من الكسوة[٣]، وكان ذلك في ٢٣ يوليو سنة ١١٤٨م (٦ ربيع الأول ٥٤٣هـ)، وفي قرية داريا ومنعًا لحدوث نزاع بين القوات الصليبية، قرر قواد الحملة توزيع قواتهم في وضع استعداد للقتال، وتم تحديد وضع الفرق العسكرية، فجاء في المقدمة بلدوين الثالث على رأس قوات المملكة وقوات منظمتي الداوية والإسبتارية، ثم جاء ملك فرنسا خلفه مباشرة على رأس قواته، أما كنراد الثالث فجاء بقواته في المؤخرة، واتفق الملوك الثلاثة على أنه إذا احتاج

=أميال أو أكثر ناحية لبنان وهي عبارة عن غابة شبه مظلمة تمامًا، وقد أقيم عليها سياج من الطوب منعًا لدخول أحد إليها. انظر:

William of Tyre: op. cit., vol. 11, pp. 187 – 188;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 400.

[1])William of Tyre: op. cit., vol. 11, pp. 186 – 188.

٢) داريّا: قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة. انظر:

ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، (بيروت، بدون تاريخ)، ص ٤٣١.

٣) الكسوة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر؛ وقد سميت بذلك لأن غسان قتلت بها رسل الروم لمّا أتوا إليهم لأخذ الجزية منهم واقتسمت كسوتهم. انظر: ياقوت الحموي: المصدر السابق، جـ٤، (بيروت، ١٩٥٧م)، ص ٤٦١.

الملك بلدوين الثالث أو لويس السابع أي مساعدة، يقوم كنراد بتقديمها لأي منهما، ويقوم أيضًا بصد أي هجوم تتعرض له القوات الصليبية من الخلف، وعندما تم الترتيب على هذا الأساس تقدمت القوات الصليبية صوب مدينة دمشق من الحدائق[1] واثقة تمامًا في قدراتها على احتلال دمشق[2].

والجدير بالذكر، أن الماء كان مقطوعًا عن قرية داريّا، فقصد الصليبيون ناحية المزّة[3]، وتقدم بلدوين الثالث بقواته داخل الحدائق من الجهة الجنوبية الغربية لمدينة دمشق، ولكن هذا التقدم لم يكن سهلاً بسبب ضيق الطرق داخل هذه الحدائق، التي لا تستطيع استيعاب قوات بلدوين التي كانت في حاجة إلى مكان رحب تسير فيه، ولذلك فإن هذه الطرق كانت عائقًا لهم على التقدم، كما أن هذه القوات تعرضت لوابل من السهام من قبل الحراس المختبئين خلف الأسوار وفي الأبراج المقامة على جوانب هذه الطرق، ولذلك أصدر بلدوين الأوامر لقواته بتدمير هذه الحوائط التي اختبأ خلفها رماة السهام من المسلمين، وبهذا تمكن الصليبيون من الاستيلاء على الجزء الغربي من الحدائق بين قرية داريّا والمزّة، رغم المقاومة العنيفة التي واجهوها من الدمشقيين الذين خرجوا من دمشق داخل تلك الحدائق لإيقاف تقدم الصليبيين[4].

---

1) William of Tyre: op. cit., vol. 11, pp. 187 – 188;
Michaud: op. cit., Tom, I, p. 400.

2) Grauset: op. cit., Tom. 2, p. 255.

٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٠؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٢٩؛=

وعند قرية المزّة، يذكر ابن القلانسي[1]: "فخيموا (الصليبيون) عليها لقربها من الماء، وزحفوا إليه بخيلهم ورجالهم ووقف المسلمون بإزائهم في يوم السبت ٢٣ يوليو ١١٤٨م (٦ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ)، ونشبت الحرب بين الفريقين، واجتمع عليهم من الأجناد والأتراك والقتال وأحداث البلد والمطوعة والغذاة الجم الغفير، واشتجر القتال بينهم، واستظهر الكفار (الصليبيون) على المسلمين بكثرة الأعداد والعدد، وغلبوا على الماء".

أما وليم الصوري[2] فيذكر أن الدمشقيين عندما أدركوا أنه من الصعب منع القوات الصليبية من التقدم داخل الحدائق، حاولوا الدفاع عن مدينة دمشق فقط، وذلك عن طريق منع الصليبيين من التقدم ناحية نهر بردي حتى لا يعبروا منه ولا يحصلوا أيضًا على الماء، فتحصن الدماشقة على ضفة النهر فترددت القوات الصليبية عن الهجوم على القوات الدمشقية بسبب كثرتها، ولكن حاجة الصليبيين إلى الماء دفعتهم إلى بدء الهجوم، ووقعت معارك طاحنة بين الجيشين، أملاً من

= أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢؛

William of Tyre: AHistory of Deeds Done Beyond the Sea, vol. II, pp. 188 – 189;

Michaud: op. cit., Tom, p. 401;

Grousset: op. cit., Tom, 2, p. 257.

١) ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٠.

وقد بلغ تعداد القوات الإسلامية التي كانت مع أنر حوالي مائة ألف راجل عدا الفرسان، ويقال إنها بلغت مائة وثلاثين ألفا. انظر:

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ١٩٧؛

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٢٢٣.

2) A History of Deeds Done Beyond the Sea, vol. II, p. 189;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 400.

الصليبيين في الوصول إلى نهر بردي، ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمة القوات الإسلامية.

وهنا بدأ دور القوات الألمانية، ورغم أنه كان دورًا بسيطًا إلا أنه كان مهمًا، حيث أن كنراد الثالث عندما وجد أن القوات الصليبية عاجزة عن التقدم، استفسر عن ذلك، فأخبروه أن المسلمين يسيطرون على مجرى نهري بردي ويدافعون عنه دفاعًا قويًّا، وأن قوات الملك بلدوين الثالث وقوات لويس السابع لم تتمكن من هزيمتهم؛ ومن ثم أثارت هذه الأخبار كنراد الثالث، فتقدم بقواته مخترقًا الجيش الفرنسي وجيش مملكة بيت المقدس، وعندما أصبحت قواته وجهًا لوجه مع قوات دمشق، ترجلت من على خيولها وأصبحوا مقاتلين مشاة والتحموا مع قوات دمشق في قتال عنيف، وتمكن الدمشقيون في البداية من صد الدفاع الألماني الكاسح، ومن ثم لم يكن أمامهم إلا ترك النهر والهروب إلى المدينة[1].

وفي ذلك يقول ابن القلانسي[2]: "واستظهر (كنراد الثالث) على المسلمين بكثرة الأعداد والعدة وغلبوا على الماء".

وبعد أن احتل كنراد نهر بردي الذي يمر بجوار مدينة دمشق مباشرة على بعد نصف فرسخ منها، تقدم بقواته حتى نزل بالميدان الأخضر "فقربوا (الألمان) من البلد وحصلوا منه بمكان لم يتمكن أحد من العساكر قديمًا ولا حديثًا منه"[3]، وعندئذ احتل كنراد المكان الذي

---

1)William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 189;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 402.

٢) ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٠.

٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٠؛
ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٢٩؛
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ١٩٧؛=

يسمى الربوة الواقع بجوار مدينة دمشق ونهر بردي مباشرة[١].
والجدير بالذكر، أن ابن الجوزي[٢] ينفرد عن غيره من المؤرخين في توزيع القوات الصليبية حول مدينة دمشق، إذ يقول: "فنزل ملك الألمان في الميدان الأخضر في ستة آلاف فارس وثلاثين ألف راجل، ونزل ملك فرنسا على الناحية الشمالية في ستة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، ونزل "أمراء بيت المقدس على الناحية الشرقية في مائة ألف راجل، واجتهد المسلمون في إحصائهم فلم يقدروا".

وخلال المعارك التي دارت بين المسلمين والصليبيين قتل من المسلمين في اليوم الأول لنشوب الحرب حوالي مائتين، وقتل من الصليبيين " خلق لا يحصون"[٣]، وكان من ضمن قتلى المسلمين الإمام يوسف الفندلاوي المالكي الذي قتل في مكان يسمى النيرب قرب الربوة؛ بسبب تصميمه على الوقوف في وجه الجيش الألماني على نهر بردي، وقتل أيضًا عبد الرحمن الحلحول الزاهد[٤].

= أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢.

١) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ١٩٧؛

Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 259 – 260.

٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص ١٩٧.

٣) الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ٥٨؛

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٢٢٣.

٤) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨؛

أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، (بور سعيد، بدون تاريخ)، ص ٩٤؛

ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ق ١، (منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر)، ص ٣٣٨؛

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 406.

وقد أشاد وليم الصوري[١] بشجاعة كنراد في اليوم الأول للقتال، فيذكر أن كنراد أمر بذبح جميع الفرسان المسلمين الذين وقعوا في الأسر حتى يكونوا عبرة لغيرهم مما أدى إلى بث" الرعب في قلوب الدمشقيين الذين شاهدوا ذلك، والذين نقلت إليهم".

والواقع أن استيلاء كنراد الثالث على الربوة الواقعة على جانب نهر بردي يعد عملاً رائعًا من جانب القوات الألمانية؛ لأنه من هذا المكان كانت تنقسم مياه نهر بردي إلى سبع قنوات تغذي مدينة دمشق، ومن ثم فإن الاستيلاء عليها معناه التحكم في مياه المدينة، ومن ناحية ثانية كان ذلك مهمًا للصليبيين؛ لأنه سوف يوفر لهم الماء، كما أن مدينة دمشق نفسها لم يبق لها حماية طبيعية من الناحية الغربية، ولذلك إذا شن الصليبيون عليها هجومًا فلا شك أنها ستسقط في أيديهم[٢]، وقد أدى ذلك إلى زيادة الرعب لدى أهالي دمشق "ولحق الناس من الارتياع لهول ما شاهدوه، والروع بما عاينوه، مما ضعفت به القلوب، وحرجت معه الصدور"[٣]، وتوقع أهالي دمشق أن استيلاء كنراد الثالث على مدينة دمشق أصبح وشيكًا، لاسيما بعد أن فشلوا في صد الهجوم الألماني على نهر بردي[٤]؛ ولهذا عقدوا مجلسًا تشاوروا فيه

---

[1])William of Tyre: op. cit., vol. 11, p. 190;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 403.

[2])William of Tyre: op. cit., vol. 11, p. 190;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 260.

٣)ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٨؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١١٢.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣٠؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٣؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١١٢؛ =

حول وسائل الدفاع عن المدينة، وبسبب يأسهم فكروا في إقامة المتاريس وسد الشوارع من الجهة الغربية التي ترابط عليها القوات الألمانية، حتى تساعدهم على الهروب بزوجاتهم وابنائهم، في الوقت الذي يكون فيه الجيش الصليبيي مشغولاً برفعها.

والجدير بالذكر، أن أهل دمشق (لمَّا ضاق بهم الحال أخرجوا الصدقات، واجتمع الناس في الجامع، الرجال والنساء والصبيان، ونشروا مصحف عثمان، وحثوا الرمال على رؤوسهم، وبكوا وتضرعوا) [١].

وفي مساء اليوم الأول من بدء القتال قام الجيش الصليبيي بتطهير الحدائق، "وشرعوا في قطع الأشجار والتحصن بها"[٢]، ثم توقف القتال بحلول الظلام وكان فرصة لمعين الدين آنر والمدافعين عن مدينة دمشق لالتقاط أنفاسهم وتنظيم صفوفهم، ولهذا في اليوم التالي ٢٤ يوليو (٧ ربيع الأول) وجهت لهم القوات الدمشقية هجومًا، وقد بدأت تمسك بزمام الأمور، فكبدوا الجيش الصليبيي خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، ولم تكن القوات الصليبية قادرة على مهاجمة القوات الدمشقية، فاستكان الصليبيون حتى تتهيأ لهم الفرصة للهجوم، إلى أن مالت الشمس للغروب، وأقبل الليل، وطلبت النفوس الراحة، وعاد كل منهم إلى مكانه، وبات الجند بإزائهم، وأهل البلد على أسوارها للحرس والاحتياط، وهم يشاهدون أعداءهم بالقرب منهم"[٣].

= William of Tyre: op. cit., vol. 11, p. 190.

١) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ١٩٨؛

الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ٥٨ – ٥٩؛

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 403.

٢) أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢؛

Lammens: La Syrie, Tom I, p. 222.

٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٩؛ =

وفي اليوم الثالث من بدء القتال، ٢٥ يوليو سنة ١١٤٨م (٨ ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ) بدأت كفة القوات الدمشقية في الرجحان على القوات الصليبية، ولم يكن ذلك بسبب قوتهم فقط، بل بسبب الإمدادات التي وصلت إليهم في ذلك اليوم من قبل الأكراد وتركمان الأطراف على أثر استنجاد آنر بهم، وقد بلغ تعدادهم حوالي عشرين ألفًا، كما قدمت إلى دمشق قوات من رماة السهام من البقاع، مما أدي إلى رفع الروح المعنوية للدمشقيين، فشن آنر هجومًا بقواته على الصليبيين خارج أسوار مدينة دمشق، وأمطروهم بوابل من السهام وعجزت القوات الصليبية عن مواجهة الهجوم الدمشقي، وتخندقت وراء سياج مبني من الأشجار(١).

وهكذا أصبح شبح الهزيمة يسيطر تمامًا على الجيوش الصليبية، لدرجة أنهم أصبحوا الآن في وضع الدفاع. ومما يؤكد ذلك أنه عندما هاجمت القوات الدمشقية الصليبيين وحاولت تطويقهم في اليوم الرابع في ٢٦ يوليو (٩ ربيع الأول) لم يخرج الصليبيون من الخنادق، ولم يظهر إلا النفر اليسير من الخيل فارتاب قواد الجيش الإسلامي وأدركوا أن في الأمر شيء، ويبدو أن الصليبيين بدءوا يفكرون في مخرج من الموقف الذي تردوا فيه، لاسيما بعد مهاجمة أهالي دمشق

= أبو شامة: الروضتين في دول أخبار الدولتين، جـ١، ص٥٢؛

Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 2, p. 260;

Perry: op. cit., p. 509.

١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٩؛

عماد الدين خليل: الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ – ٨١٢هـ/ ١٠٧٢ – ١٤٠٩م)، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٢٩٥؛

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 405;

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 261.

لهم في الحدائق على هيئة حرب عصابات، وانثنى أهالي دمشق يقتلون من ظفروا به، ويحضرون رؤوسهم لطلب الجوائز عنها، وحصل من رؤوسهم العدد الكثير"(١).

وفي غضون ذلك وصلت قوات سيف الدين غازي أمير الموصل ونور الدين محمود أمير حلب في اليوم الخامس ٢٧ يوليو سنة ١١٤٨م (١٠ ربيع الأول ٥٤٣هـ)، وعسكرت في حمص.

ومن هناك أرسل غازي إلى معين الدين آنر قائلاً: "قد حضرت بجند عام، ولم أترك لبلادي من يحمل السلاح فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست لي دمشق ولا لي بها نائب لم يسلم منا أحد، وأخذت الفرنج دمشق وغيرها، فإن أحببت أن أقاتلهم فيسلم البلد إلى من أثق به، وأن أحلف لك إن كانت النصرة لنا عليهم أنني لا أدخل إلى دمشق وأرجع إلى بلادي"(٢). ونظرًا لأن آنر كان يعرف جيدًا مدى العداوة التي كانت بينه وبين البيت الزنكي، بسبب تحالفه مع الصليبيين، فقد أدرك أنه إذا سلم مدينة دمشق إلى أحد رجال غازي، فإن الأخير لن يردها إليه مرة ثانية حتى ولو حلف

---

١) ابن القلانسي: المصدر السابق، ص ٢٩٩؛

أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٢؛

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 405.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣٠؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ١٩٨؛

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ب.ت)، ص ٢٠؛

الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ٥٨؛

ابن الوردي: تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، جـ٢، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، (دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٠)، ط١، ص ٧٥؛

محمد كرد علي: خطط الشام، جـ٢، (مكتبة النوري، دمشق ١٩٨٣)، ط٣، ص ٢٠.

له[١]، وبذلك يمكن أن تفقد الأسرة البورية في دمشق استقلالها[٢]، ومن ثم لم يكن أمام آنر إلا أن يماطل في رده على سيف الدين غازي[٣]، أملاً في الوصول إلى حل مع الصليبيين، دون الاستعانة بسيف الدين غازي.

وكان أن أرسل معين الدين آنر إلى صليبيي بلاد الشام يقول لهم: "بأي عقل تساعدون هؤلاء (صليبيي الغرب) علينا، وأنتم تعلمون أنهم إن ملكوا دمشق أخذوا ما بأيديكم من البلاد الساحلية. وأوضح لهم إذا وجد نفسه عاجزًا عن الدفاع عن مدينة دمشق ضد الجيوش الصليبية فسوف يسلمها إلى سيف الدين غازي، وعندئذ لا يبق لكم (لصليبيي الشرق) معه مقام في الشام"؛ وبسبب خوف صليبيي الشرق من وجود سيف الدين غازي في دمشق "أجابوه (آنر) إلى التخلي عن ملك الألمان"[٤]، ولم يكتف آنر بمراسلة صليبيي الشرق، ولكنه راسل صليبيي الغرب أيضًا، حيث أخبرهم بقدوم سيف الدين غازي بقواته التي لا تحصى ولا تعد، والتي إذا دخلت في معركة معهم سوف تقضي على جيوشهم قضاءً تامًّا، ولهذا طلب منهم رفع الحصار عن مدينة دمشق، وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه[٥].

---

١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٩٤؛

Perry: "The second Crusade", p. 509.

2) Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 265.

٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ١٩٨؛

Grousset: op. cit., Tom., 2, p. 265.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣٠؛

أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٣؛

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 404.

٥) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣٠؛ =

وهكذا راح معين الدين آنر يهدد صليبيي الشرق من صليبيي الغرب، كما هددهم أيضًا بسيف الدين غازي، وفي نفس الوقت هدد صليبيي الغرب بسيف الدين غازي، ومن ثم كان لابد لهذه التهديدات أن تثمر عن نتيجة؛ لاسيما إذا علمنا أن سيف الدين غازي هو الآخر، راح يراسل الصليبيين، ويتوعدهم بأنه سوف يقضي عليهم "إن لم يرحلوا عن البلد"(١)؛ ومن ثم فإن تزامن تهديدات آنر مع تهديدات سيف الدين غازي كان لابد لها أن تضعف الروح المعنوية لدى الصليبيين تمامًا، وعلى وجه الأخص صليبيي الشرق نظرًا لإقامتهم الدائمة في بلاد الشام، وبهذا يمكن القول إن هذه التهديدات كانت من أهم العوامل التي أدت إلى فشل الحصار الصليبيي لمدينة دمشق.

ومن حسن حظ المسلمين ما حدث عندئذ من خلاف داخل المعسكر الصليبيي على مدينة دمشق قبل احتلالها، إذ كان كنراد الثالث ولويس السابع وملك مملكة بيت المقدس يرون أن مدينة دمشق عند الاستيلاء عليها سوف تسلم إلى ثيري كونت الفلاندرز، في حين كان صليبيو الشرق يرون أن المدينة يجب أن تسلم إلى جاي أمير بيروت، ومن ثم فإن هذا الخلاف كان مدعاة لصليبيي الشرق لإفشال حصار مدينة دمشق، طالما أنهم سوف يخرجون من هذه الجولة من المعارك بدون إقطاعات، أي صفر اليدين(٢)؛ ومما أكثر في فت عضد الصليبيين قتل حوالي عشرة آلاف من قواتهم في اليوم الرابع للقتال(٣).

=ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١١٣.

١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١١، ص ١٣٠.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 191;
Michaud : op. cit., Tom. I, p. 404;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 262.

٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٢٢٤؛ =

ونظرًا لأن صليبيي الشرق صمموا على العمل على إفشال حصار مدينة دمشق فإن وسيلتهم إلى ذلك تمثلت في السعي لنقل الحصار الصليبيي إلى الجهة الشرقية من المدينة، وفي محاولة منهم "لإخفاء ذنبهم" أشاروا على قواد الجيش أن الجانب الشرقي من المدينة لا توجد به حماية "طبيعية" مثل الحدائق الموجودة في الناحية الغربية، كما أن الجهة الشرقية لا توجد بها أنهار تعوق تقدمهم، علاوة على أن الحوائط في الجهة الشرقية ليست عالية، أو قوية؛ لأنها بنيت من الطوب اللبن، ولهذا فإنها سوف تنهار عند أول هجوم عليها، كما أنه لن تكون هناك حاجة إلى استخدام الآلات والعدد الكثيرة المستخدمة في الجانب الغربي، وهذا من شأنه أن يخفف مجهود الجيش، وأخبروهم أيضًا أن الجيش في الجهة الغربية لم تعد لديه القدرة على الدفاع عن نفسه بسبب الحصار المفروض عليه من قبل القوات الدمشقية[١]، فاستجاب قواد الجيش لهم، ونقلوا معسكرهم في ٢٧ يوليو ١١٤٨م (١٠ ربيع أول ٥٤٣هـ) وأقاموه في قبالة المدينة من الجهة الجنوبية الشرقية أمام باب كيسان وباب شرقي (توما)، ولكنهم ما لبثوا أن اكتشفوا أن الحصول على الماء من الجهة الشرقية أصبح صعب المنال، كما أنهم أصبحوا بعيدين جدًا عن أشجار الفاكهة، هذا في الوقت الذي كان فيه الطعام الذي حملوه معهم أصبح على وشك النفاذ، كما أن المسلمين في الضياع المجاورة لهم قاموا بجمع القمح، واكتشف قواد الجيش أيضًا أن الجهة الشرقية محصنة بقوة بالأسوار العالية والأبراج التي يصعب اقتحامها، كما أن الجيش أصبح معرضًا

= Michaud: op. cit., p. 406.

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, p. 191;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 404;

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 262.

لتهديدات سيف الدين غازي ونور الدين محمود من الخلف، وعندئذ أدركوا أنهم تعرضوا للخيانة من قبل صليبيي بلاد الشام، فقرروا رفع الحصار عن مدينة دمشق والعودة، لاسيما أنهم أدركوا أن عودتهم إلى الجهة الغربية أصبحت مستحيلة بسبب احتلال الدماشقة لها وإقامة الاستحكامات القوية فيها، ولذلك إذا فكروا في العودة إلى الجهة الغربية فعليهم أن يخوضوا نفس المعارك التي خاضوها في المرة الأولى، وإذا قرروا مهاجمة دمشق من الناحية الشرقية فإن ذلك يحتاج إلى عدة أيام، في حين أن الطعام قد نفد منهم(١)، ومن ثم لم يكن أمامهم إلا رفع الحصار عن مدينة دمشق والعودة إلى بيت المقدس.

ويُشير وليم الصوري(٢) إلى أن نقل المعسكر من الجهة الغربية إلى الجهة الشرقية لمدينة دمشق كان خيانة من قبل أمراء صليبيي بلاد الشام، لاسيما عندما علموا أن الملوك الثلاثة اتفقوا مع ثيري كونت الفلاندرز على إعطائه مدينة دمشق بعد احتلالها، ولهذا فقد بذلوا جميع الحيل لإفشال الاستيلاء على المدينة حتى لا تذهب إلى ثيري، في حين أنهم هم الذين يتحملون العناء الشديد في بلاد الشام، ولكن وليم الصوري لم ينسب هذه الخيانة إلى أسماء معينة. كما أشار إلى أن بعض الأشخاص حكوا له أن ريموند أمير إنطاكية بذل جميع الحيل لإفشال حصار دمشق، ومن ذلك أنه استمال بعض الأمراء

---

[1]) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 191-192;
Michaud : op. cit., Tom. I, p. 405;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 263;
Perry: op. cit., p. 510.

[2]) William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 193-194;
Michaud : op. cit., Tom. I, pp. 403 - 406;
Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 264.

الصليبيين كي يعملوا على نقل المعسكر إلى الجهة الشرقية من مدينة دمشق، وأن السبب الذي دفعه إلى ذلك هو رحيل لويس السابع من عنده وعدم مساعدته في حملته ضد نور الدين محمود. ويشير أيضًا إلى أن الدمشقيين قدموا رشوة لبعض الأمراء الصليبيين ليسعوا في نقل المعسكر الصليبيي، وأن الأموال التي قدمت كرشوة وجدت زائفة. وهناك من يقدر هذه الأموال بحوالي مائتي ألف دينار، وقد قدمت إلى الملك بلدوين الثالث نفسه، ومائة ألف قدمت إلى البارون إليناند صاحب طبرية Elinand de Tibriade أحد أكثر البارونات نفوذًا في فلسطين(١)، كما أن تهمة نقل المعسكر الصليبيي وإفشال حصار دمشق نسب أيضًا إلى هيئتي الإسبتارية والداوية(٢).

والواقع أننا إذا سلمنا بصحة العوامل السابقة، فإنه يبقى هناك عامل آخر لعب دورًا كبيرًا في سعي بارونات مملكة بيت المقدس لنقل حصار مدينة دمشق، وقد تمثل هذا العامل في المأزق الصعب الذي غدا فيه معين الدين آنر، والذي رأي فيه بارونات المملكة أن حليفهم آنر أمامه طريق واحد للخروج من هذا المأزق وهو تسليم مدينة دمشق إلى سيف الدين غازي إذا لم يرفع الصليبيون الحصار عنها، ولهذا فإن بارونات مملكة بيت المقدس وجدوا أن إفشال حصار المدينة معناه عدم وقوعها في يد أبناء زنكي؛ لأنه لو حدث وسقطت هذه المدينة في أيديهم، فإن ذلك سوف يشكل عليهم خطرًا جسيمًا.

ومن ناحية ثانية وجد بارونات مملكة بيت المقدس أن إفشال حصار مدينة دمشق، سوف يساعدهم على إعادة تحالفهم مرة ثانية مع آنر للوقوف في وجه أبناء زنكي، وقد ظهر لهم إمكانية تحقيق ذلك

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 263.

2) William of Tyre: op. cit., vol. II, not.pp. 194- 195;
Michaud: op. cit., Tom. I, p. 406.

بالوعد الذي قطعه آنر على نفسه لتسليمهم بانياس في حالة فشل الحصار[١]، وهكذا فإن صليبيي بلاد الشام اجتمعوا بملك الألمان وحسنوا له الرحيل، وخوفوه من صاحب الموصل أن يملك دمشق فرحل عن البلد"[٢].

وعلى أية حال، رفع كنراد الثالث ولويس السابع الحصار عن مدينة دمشق وعادوا إلى مملكة بيت المقدس في فجر الأربعاء الموافق ٢٨ يوليو سنة ١١٤٨م (١١ ربيع الأول ٥٤٣هـ) وكانت عودتهم على نفس الطريق الذي جاءوا منه لغزو مدينة دمشق، إلا أن هذه العودة لم تكن سهلة بسبب الحرارة القاسية التي ترتفع في هذا الوقت بالذات من السنة، كما أن المسلمين طاردوهم، وقاموا بقتل كل من يصل إلى أيديهم بحيث قتلوا في أعقابهم من الرجال والخيول والدواب العدد الكثير، ووجد في آثار منازلهم وطرقاتهم من دفائن قتالهم وفاخر خيولهم مالا عد له ولا حصر يلحقه، بحيث له أرائح من جيفهم تكاد تصرع الطيور في الجو"[٣].

ولكن رغم ذلك فإن الأمل كان ما يزال يراود أمراء مملكة بيت المقدس في الحصول على المساعدة من كنراد الثالث ولويس التاسع لتحقيق بعض المكاسب، ولهذا فإنه بعد عودة فلول جيوشهما إلى

---

١) ابن الأثير: الكامل، جـ١١، ص ١٣١؛
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ١٩٨؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص ٥٣؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص ١١٣.

٢) ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص ١٩٨؛
ابن خلدون: كتاب العبر، جـ٥، ق١، ص ٣٣٩.

٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٩٩ – ٣٠٠؛
أبو شامة: الروضتين، جـ١، ص٥٣.

المملكة وجهت إليها الدعوة لحضور مؤتمر عام سوف يُعقد بشأن وضع الخطط للقيام بعمل آخر من شأنه أن يساعدهما على رد إعتبارهما أمام الأجيال المعاصرة والقادمة، وفي هذا المؤتمر تم الاتفاق على الاستيلاء على مدينة عسقلان التي كانت آنئذ تابعة لمصر الفاطمية.

وقد أوضح أمراء المملكة لكنراد الثالث ولويس السابع أن الاستيلاء على تلك المدينة لن يكون صعبًا؛ لأنها لا تبعد كثيرًا عن بيت المقدس، ومن ثم فإن الذهاب إليها لن يستغرق وقتًا طويلاً، كما أن المؤن سوف تكون متوفرة وأن احتلالها لن يستغرق مدة طويلة. ورغم المعاناة التي كان يعانيها كل من كنراد الثالث ولويس السابع، إلا أنهما وافقا على غزو عسقلان، وفي اليوم الذي حدد لموعد زحف القوات على عسقلان ذهب كنراد للموضع الذي ستغادر منه الحملة، فلم يجد بقية القوات الصليبية، ويبدو أنه انتظر لمدة تسعة أيام دون قدوم قوات المملكة، فاعتبر هذا العمل خيانة أخرى تضاف إلى الخيانة الأولى، ولم يستطع البقاء في بلاد الشام أكثر من هذا، فغادرها في ٨ سبتمبر سنة ١١٤٨م (٢٤ ربيع الثاني ٥٤٣هـ)[١].

ومهما يكن من أمر، فقد فشلت الحملة الصليبية الثانية، ولم تحقق الهدف الذي خرجت من أجله من أوربا، وهو الاستيلاء على الرها من المسلمين[٢]، كما أنها فشلت في احتلال مدينة دمشق.

---

1) William of Tyre: AHistory of Deeds Dons Beyond the Sea, vol. II, pp. 192 – 195;
Grousset: op. cit., Tom. 2, pp. 266 – 267;
Brehier: op. cit., p. 107.

2) Throop (Palmer A.) Criticism of the Grusade "a study of public opinion and Crusade Propaganda", second adition, (Philadelaphia, 1975), p. 75;=

والجدير بالذكر، أن عدم استيلاء الصليبيين على الرها بعد استرداد المسلمين لها، أو الاستيلاء على دمشق أو توجيه الحملة الصليبية ناحية حلب أو قيسارية، معناه أن المرحلة الأولى من حركة الإفاقة الإسلامية والتي بدأت منذ تولي عماد الدين زنكي حاكم حلب سنة ١١٢٧م وحتى استرداد الرها سنة ١١٤٤م، قد ختمت بنجاح، كما أن فشل الحملة ساعد على استمرار صعود حركة الإفاقة الإسلامية على يد نور الدين محمود الذي استولى على كل ما تمتلكه إمارة إنطاكية شرقي نهر العاص، بل وصل إلى أبواب إنطاكية، وجرت بينه وبين أهلها مراسلات، إلا أنه تركها وذهب إلى أفامية[١].

ومن نتائج الحملة أيضًا، أنها وطدت ثقة المسلمين في أنفسهم وأدركوا آنئذ أن تمزقهم هو مكمن ضعفهم، أما اتحادهم فهو مكمن قوتهم، وأن الصليبيين أضعف بكثير مما كانوا يتصورون، فها هم وأمام أعينهم وبسبب اتحادهم تهزم على أيديهم جيوش أكبر ملوك أوربا، بما في ذلك جيش مملكة بيت المقدس نفسه، فبدأت منذ ذلك الوقت دفة الأمور العسكرية تتحول في بلاد الشام لصالح المسلمين الذين بدءوا العمل من أجل استئصال شأفة باقي الإمارات الصليبية من بلاد الشام[٢]، لاسيما وأنهم "غدوا منذئذ لا يحسبون حسابًا لهذه القوة، وازدادوا جرأة عليها"[١].

= Vasiliev: op. cit., Tom. II, p. 62;

Parkes (J.): A History of palstine form 135 A.D. to Modern Times, (London, 1949);

هسي: العالم البيزنطي، ص ١٩١.

١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٠٤ – ٣٠٥؛

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٩.

٢) الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٧٦؛ =

كما أن الدمشقيين أقدموا على التحالف مع نور الدين محمود بسبب الخوف من الهجوم الذي شنه عليهم الصليبيون، وفي الوقت نفسه أملت مصالحة آنر للصليبيين على نور الدين محمود التفكير في الاستيلاء على دمشق، والذي تم في إبريل سنة ١١٥٤م (١٠ صفر سنة ٥٤٩هـ) [٢]، فأدى ذلك إلى ترسيخ أركان الدولة العسكرية التي بدأها والده زنكي، فبدأ بذلك الضغط على الصليبيين من الشمال، مما دفعهم إلى البحث عن جهة أخرى للتوسع في المستقبل، فاتجهوا إلى ناحية الخلافة الفاطمية في مصر الآيلة للسقوط، فأدى ذلك إلى لفت أنظار نور الدين محمود لمصر، وعندما تم ضمها، كان ذلك يعني بداية النهاية لمملكة بيت المقدس الصليبية، وهكذا عجل فشل الحملة الصليبية الثانية باسترداد بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي عندما وجه إلى الصليبيين ضربة قاصمة في موقعة حطين سنة ١١٨٧م (٥٨٣هـ) [٣].

= سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٤٩٦؛

حسين مؤنس: نور الدين محمود، ص ٢٠٠؛

زبيدة عطا: الترك في آسيا الوسطى، ص ٩٤؛

Brundage: op. cit., p. 124;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 407.

١) أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ١٥٦ – ١٥٩.

٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٣٢٣؛

عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى؛ (مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ١٩٦٦م)، ص ١٥٩؛

أنتوني بردج: المرجع السابق، ص ١٥٦، ١٥٩.

٣) باركر: الحروب الصليبية، ص ٥٣؛

عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية وثقافية وصليبية) ترجمة، فيليب صابر سيف، (دار الثقافة المسيحية، القاهرة، ١٩٧٢م) ط١، ص ٦٠؛ =

كما أن لفشل الحملة الصليبية الثانية أثر سيء على صليبيي بلاد الشام، إذ أدى إلى انحطاط وضع الصليبيين في الشرق، وضعف مركزهم، كما أثر على قدوم الصليبيين إليهم من الغرب، بسبب فقدان الثقة فيهم، لدرجة أن الصليبيين الذين كانوا يأتون للحج كانوا يخافون من التعرض للخيانة من صليبيي الشرق، ومن ثم فإن بقاءهم لم يكن يطول في بلاد الشام، فأدى ذلك بطبيعة الحال إلى ميل الإمارات الصليبية في الشرق نحو التدهور السريع(١).



= قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، ص ١٨٨.

[1])William of Tyre: op. cit., vol. II, pp. 193 – 196;

Michaud: op. cit., Tom. I, p. 407;

Grousset: op. cit., Tom. 2, p. 267;

Archer: op. cit., p. 20;

Stevenson: op. cit., p. 163;

Parkes: op. cit., p. 128;

هسي: العالم البيزنطي، ص ٢٠.

الفصل الثاني

دور الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام

في الفترة من ١١٨٧م / ٥٨٣هـ إلى ١١٩٨م / ٥٩٤هـ

- استغاثة كنراد دي مونتفرات بالغرب الأوربي ودور البابوية في الدعوة للحملة الصليبية الثالثة.
- دعوة الإمبراطور فردريك الأول بربروسا للاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة واستعداداته لها.
- التحالف البيزنطي الأيوبي.
- الحملة الصليبية الألمانية في البلقان.
- موقف الحملة الصليبية الألمانية في آسيا الصغرى ووصولها إلى فيلقية.
- وفاة الإمبراطور فردريك وأثره على المسلمين وليو الثاني والقوات الألمانية.
- وصول القوات الألمانية لبلاد الشام ودورها في حصار عكا.
- دور الإمبراطور هنري السادس في الدعوة لحملة صليبية جديدة.
- وصول القسم الأول من القوات الصليبية الألمانية لبلاد الشام.
- وصول القسم الثاني من القوات الألمانية لبلاد الشام.

استغاثة كنراد دي مونتفرات بالغرب الأوربي ودور البابوية في الدعوة للحملة الصليبية الثالثة:

لاشك أن استرداد صلاح الدين الأيوبي لمدينة بيت المقدس في ١٢ أكتوبر سنة ١١٨٧م (٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ) ترتب عليه ردود أفعال عنيفة في الغرب الأوربي الأمر الذي أدى إلى قيام الحملة الصليبية الثالثة، التي شارك فيها الألمان بقيادة الإمبراطور فردريك الأول بربااروسا (١١٥٢ – ١١٩٠) Fredrick I Barbarossa.

والمعروف أن كنراد دي مونتفرات[١] Conrad de Montiferat كان قد وصل إلى مدينة عكا في ١٥ يوليو سنة ١١٨٧م، ولكنه وجدها في أيدي المسلمين، فاتجه إلى مدينة صور التي كانت آنئذ مركز تجمع الصليبيين من المدن التي استولى عليها صلاح الدين، ويذكر أبو شامة[٢] أنه بعد أن استولى صلاح الدين على تبنين وقع في أسره مائة ألف صليبي، ولما أخلى الصليبيون القلعة سيرهم ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور، فصارت صور عُش، غشهم ووكر مكرهم، وملجأ طريدهم، ومخبأ شريدهم".

ونظرًا لعدم وجود قيادة قوية في صور، فقد رحب أهلها بكنراد دي مونتفرات، ونصبوه أميرًا عليهم، وتجمعوا حوله، فراح يقوي تحصينات المدينة[٣]التي غدت مركز مقاومة كبير لصلاح الدين.

---

١) فارس شجاع من أسرة نبيلة معروفة بمحاربتها للمسلمين، اشتهر بين العرب بالمركيس أو المركيش، كان يخدم في البلاط البيزنطي، ولكنه أرغم على مغادرته، فاتجه إلى الأراضي المقدسة، "وكان من أكبر طواغيت الكفر وأغوال شياطينه". انظر:

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جـ٢، ص ٩٠، ١٦٠؛

باركر: الحروب الصليبية، ص ٨٦؛

عبد المنعم ماجد: صلاح الدين الأيوبي (الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م)، ص ١٢١.

٢) أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص ٨٩ – ٩٠.

٣) أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص ٩٠ – ٩١ ، ١١٩؛ =

وفي الوقت الذي كان فيه كنراد دي مونتفرات يتولى قيادة الصليبيين في مدينة صور ضد صلاح الدين الأيوبي، أرسل جوسياس رئيس أساقفة صور على رأس سفارة إلى الغرب الأوربي في أواخر صيف سنة ١١٨٧م، لإبلاغ ملوكه وحكامه بخبر استرجاع صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، ويستنجد بهم وبالبابوية[١].

وفي محاولة منه لإثارة شعوب أوربا، صور القدس في ورقة، وصور فيها صورة كنيسة القيامة التي يحج إليها المسيحيون من الغرب الأوربي، ويعظمون شأنها، وفيها قبر المسيح، وصور على القبر فرسًا عليه فارس مسلم راكب، وطئ قبر المسيح، وقد بال الفرس على القبر"[٢]، فوصل جوسياس أولاً إلى وليم الثاني (١١٦٦ – ١١٨٩م) William II ملك صقلية، وعندما سمع وليم تفاصيل حوادث استرداد بيت المقدس، يقال إنه ارتدى ثوبًا من الخيش والتمس مكانًا اعتزل فيه لمدة أربعة أيام، ثم قام بعد ذلك بإرسال أربع فرق عسكرية، ومائتي فارس، وثلاثمائة للحراسة والعون، وكان لتلك القوات أثر كبير في إعاقة صلاح الدين من الاستيلاء على طرابلس،

= النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٨، تحقيق محمد محمد أمين، محمد حلمي محمد، (القاهرة، ١٩٩٢م)، ص ٤٠٥ – ٤٠٦، ٤١٤؛

روبرت كلاري: فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشي، (القاهرة، ١٩٦٤م)، ص ٧٣ – ٧٥.

1) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, pp. 8-9;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢١.

٢) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، (دار الكتاب العربي، ١٩٦٤)، ص ٢١٤؛

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٦٠؛

باركر: المرجع السابق، ص ٨٦.

ولكن النورمان لم يشاركوا في الحملة الصليبية الثالثة بأكثر من ذلك؛ لوفاة وليم الثاني سنة ١١٨٩[١].

غادر جوسياس بلاط وليم الثاني الصقلي بعد أن زوده بالمساعدات المالية، وأرسل معه بعض المساعدين حتى وصل إلى روما، فقابل البابا أوربان الثالث (١١٨٥ – ١١٨٧م) Uraban III في فيرار Ferrare، وحكى له عن كيفية استرجاع صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس، وصور للبابا الوضع في بلاد الشام على أنه أضحى خرابًا بواسطة المسلمين، فحزن البابا لذلك حزنا شديدًا، ومات في ٢٠ أكتوبر سنة ١١٨٧م[٢]. فخلفه على عرش البابوية البابا جريجوري الثامن (٢٠ أكتوبر ١١٨٧– ١٧ ديسمبر ١١٨٧م) Gregory VIII فبادر بإرسال الخطابات في ٤ نوفمبر سنة ١١٨٧م إلى جميع شعوب أوربا يحثهم على القيام بحملة صليبية للاستيلاء على مملكة بيت المقدس من يد صلاح الدين الأيوبي[٣]، وأوضح لهم في

---

1) Eracles: Histoire de Eracles, in R.H.C., H., Occ., Tom. II, (Paris, 1859)pp. 112-114, 118;

Michaud: Histoire des Croisades, Tom. II, pp. 351- 352;

رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢١.

2) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 111, 115;

Vitry (Jacqus de): The History of Jerusalem in p.p.T.S., Tr., by Stewart M.A., vol., V, (Hanover 1896), p. 106;

Michaud: op. cit., Tom. II, p. 352;

Champdor (A.): Salah Din (Le Plus pur Heros De Islam: (Paris, 1955), p. 201.

3) Loc. Cit.,

Brehier: Les Croisades, p. 118.

بداية هذه الخطابات أن خبر استرداد المسلمين لبيت المقدس سبب له ألمًا شديدًا، وأن ذلك حدث بسبب الانقسامات الداخلية بين الصليبيين في الأراضي المقدسة، وفي خطابه ذكر: "إنه هكذا فجأة هاجمها صلاح الدين الأيوبي بجيش جرار، وإن المعركة قامت وهُزم أتباعنا ووقع الصليب المقدس بين أيدي الأعداء ووقع الملك في الأسر وذبح الأساقفة وأعداد غفيرة من إخوانكم، أما الذين نجوا من الموت فقد استعبدوا، وإن العدو (المسلمين) انتشر في كل المملكة، واستولى على معظم المدن، ماعدا بعضًا منها التي تقاوم الآن، وإن هذه النكبات لم تحدث إلا بغضب من الله بسبب كثرة خطايانا... إننا سنعمل على أن نستعيد هذه الأرض... أظهروا إذن الشجاعة، لا تخافوا من أن تضحوا بممتلكاتكم الأرضية التي لن تدون إلا قليلاً وخذوا بدلاً منها الممتلكات الأبدية الجديرة بكل التضحيات التي يجب أن نعمل لننالها"(١).

وهكذا طلب البابا جريجوري الثامن من شعوب أوربا القيام بحملة صليبية جديدة للاستيلاء على بيت المقدس.

ووعد البابا جميع المشتركين في الحملة بغفران خطاياهم وبالحياة الأبدية التي ستلي ذلك إذا ما ماتوا، وإذا عادوا فليعلموا أنه بواسطة الرب القوي وبسلطة الرسل القديسين بطرس وبولس وبسلطتنا هم معفو عنهم من أي توبة أخرى تفرض عليهم، كما أن ممتلكات الصليبيين وعائلاتهم ستبقى تحت الحماية الخاصة لرؤساء الأساقفة

---

[1]) Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 631 – 632, 653;

Johson (N.E.): "The Crusades of Frederick Barbarsossa and Henry VI' in Setton: History of the Crusades, vol. II, Uni. Of pennsy 1 vania, 1962), p. 89.

والأساقفة والأحبار طول فترة غياب الفارس الصليبيي في الشرق، كما أن الفارس الصليبيي لن يجبر على دفع فوائد عن ديونه إذا كان مديناً بأموال لأحد"[١].

وقد فرض البابا بعض الشروط التي يجب على الصليبيين المشاركين في الحملة إتباعها، فقال: "إن الصليبيين لن يمشوا وهم يلبسون ملابس فاخرة ومعهم كلاب أو عصافير أو أشياء أخرى مشابهة التي لا تظهر سوى الفخامة والمظهرية، ولكن ملابسهم يجب أن تكون بسيطة وسيشهدون بالعكس رجالاً يقومون بالتوبة وليس رجالاً يبحثون عن المجد الباطل". كما أن البابا طالب الأمراء المسيحيين بنبذ الحروب بينهم لمدة سبع سنوات[٢].

وقد حرص البابا على نشر السلام بين البلدان الأوربية، لتكتيل الصليبيين للاشتراك في الحملة الصليبية، فتوجه إلى بيزا لينهي الصراع الدائر بينها وبين جنوة، ولكنه مات في ١٧ ديسمبر سنة ١١٨٧م، ولم يمر على بابويته سوى شهرين، فخلفه في كرسي البابوية البابا كلمنت الثالث (١١٨٧ – ١١٩١) Clement III[٣]، فلم يلبث أن جدد الامتيازات والغفرانات المعطاة بواسطة سلفه لأولئك

---

1) Virty: op. cit., vol. V, p. 106;
Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 635 – 636;
Johson: op. cit., p. 89;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٢.

2) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 363;
Brehier: Les Croisades, p. 118;
الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٨٨٣.

3) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 354;
رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٢.

الذين سوف يذهبون إلى الأراضي المقدسة، كما أمر بإقامة الصلوات في جميع الكنائس لإحلال السلام بين شعوب أوربا، من أجل استعادة بيت المقدس، والجدير بالذكر، أن كلمنت الثالث أوكل مهمة الدعوى للحملة الصليبية إلى الكاردينال هنري من ألبانو Henry of Albano وجوسياس رئيس أساقفة صور، وأمرهما بالذهاب إلى جميع أباطرة وملوك غرب أوربا[١].

والواقع، أن خبر استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس لم يصل إلى الغرب الأوربي عن طريق جوسياس فقط، بل وصل أيضًا عن طريق العديد من المسيحيين الذين أدوا الحج وعادوا إلى بلادهم، وهذا ما أشار إليه بعضُ المؤرخين من أن العديد من الصليبيين الشرقيين سافروا إلى أوربا حيث أتوا ليعلنوا وهو يتأوهون أن مدينة القدس استرجعها صلاح الدين الأيوبي، ويبدو أنه كان من ضمن هؤلاء الصليبيين السفارة التي أرسلها بطريرك إنطاكية، برئاسة أسقف بانياس إلى هنري الثاني (١١٥٤ – ١١٨٩م) Henry II ملك انجلترا، فكتب هنري إلى البطريرك يخبره أن المساعدات سوف تصل إليه في القريب العاجل[٢]، ويبدو أيضًا أن منهم بطريرك بيت المقدس الذي أطلق سراحه صلاح الدينِ، ويشير إلى ذلك ابن الأثير[٣] بقوله: "ثم إن الرهبان والقسوس وخلقًا كثيرًا من مشهوريهم لبسوا السواد

---

[1])Eracles: Histoire de Eracles, Tom. II, p. 115;
champlor: op. cit., pp. 201- 202.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 350;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٣ – ٢٤.

٣) الكامل في التاريخ، جـ١٢، ص ٣٢؛
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٨، ص ٤١٦؛
ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٣٣٤، والذي يذكر أن هؤلاء القسوس والرهبان ركبوا من صور في أربع مراكب.

وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطريرك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعًا". ويقال إن الجنويين كانوا من أوائل الذين أذاعوا خبر استرجاع صلاح الدين لبيت المقدس، حيث نشروا في أوربا نداء بارونات الأرض المقدسة بالدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وأرسلوا سفراء من قبلهم في عامي ١١٨٨، ١١٨٩م إلى فرنسا وإنجلترا لحث ملوكها على القيام بحملة صليبية[1].

وعلي أية حال، بدأت الدعاية للقيام بحملة صليبية جديدة في إيطاليا من قبل مندوبي البابوية وغيرهم من القسوس والرهبان، وفي محاولة منهم لإثارة العامة من الناس صوروا المسيح عليه السلام وجعلوه مع صورة عربي يضربه، وجعلوا الدماء على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم، هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحة وقتله، فعظم ذلك على الفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء"[2].

كما أن الخطباء في جميع الكنائس في غرب أوربا كانوا يتوجهون إلى الله نفسه وكانوا يرددون ابتهالاتهم وصلواتهم قائلين: "يا ربنا القوي إننا نأتي إليك بدموعنا مبتهلين إلى طيبتك لكي تتذكر شعبك وكي تجوز رحمتك على بؤسنا، لا تلق بميراثك إلى الخزي والعار ويااليت ملائكة السلام يحصلون للقدس على ثمار التوبة، إن شعوب غرب أوربا ناموا على الرماد ولبسوا المسوح، وكانوا يفدون حياتهم الخاطئة بالصوم والإذلال".

---

١) هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدني في العصور الوسطى، ترجمة أحمد محمد رضا، مراجعة، عز الدين فودة، (هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م)، جـ١، ص ٣١٨.

٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ١٢، ص ٣٢؛

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ٧٦؛

Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 351- 352.

كما أن الكرادلة عاشوا عيشة الرسل الفقراء، ووعدوا بالذهاب إلى الأرض المقدسة وهم يتسولون، وحرَّموا على أنفسهم ركوب الخيل قبل استرداد القدس، كما وعدوا بالتجوال في العالم المسيحي حاملين الصليب، بل إن البعض من الكرادلة لبس الدروع(١).

ويشير البعض إلى أن كل شخص في غرب أوربا عندما كان يسمع بخبر استرداد صلاح الدين لبيت المقدس، كان يصاب بالدوار، وكأنه ضُرب بمطرقة على رأسه(٢).

والجدير بالذكر، أن سقوط بيت المقدس في أيدي صلاح الدين قد أحدث دويًّا هائلاً؛ لأن بيت المقدس لم تكن مدينة عادية، ولكنها تمثل للغرب الأوربي أعظم مقدساتهم(٣)، كما أن مملكة بيت المقدس في بلاد الشام كانت إحدى المراكز الخارجية للكنيسة اللاتينية والثقافة اللاتينية في الشرق التي أُنشئت على أثر الحرب الصليبية الأولى، على أطراف الشرق الإسلامي الذي يفيض بالثروة، والسلع التجارية المتوفرة، ولذلك فإن فقدان هذه المميزات كان يعني عودة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحملة الصليبية الأولى، والقضاء على أحلام الصليبيين وأطماعهم في الشرق الأدنى(٤).

---

1) Ibid., pp. 351 – 354;

Champdor: Salah Din, pp. 201 – 202;

Brehier: Les Croisades, p. 118.

2) Vitry: The History of Jerusalem, vol. V, p. 106.

٣) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٧٦.

4) Archer: The Crusade, pp. 21 – 22;

الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٨٧٤؛

أحمد عبد الحميد الشامي: العلاقات بين الشرق والغرب، ط١، (دار النهضة العربية، ١٩٨٥)، ص ١٨٤.

- **دعوة الإمبراطور فردريك الأول بربار وسا للاشتراك في الحملة الصليبية الثالثة واستعداداته لها:**

على أية حال، بعد أن تجول جوسياس رئيس أساقفة صور وهنري أسقف ألبانو في إيطاليا، عبر الألب لدعوة ملوك فرنسا وإنجلترا وألمانيا للاشتراك في الحملة الصليبية، ورغم العداء الذي كان قائمًا حينئذ بين فرنسا وإنجلترا إلا أن وصول مندوبي البابا فجأة، أدى إلى اتفاق ملكيهما، وتم اللقاء بينهما في جيزورز Jisors الواقعة بين نورمنديا وفرنسا في ٢١ يناير سنة ١١٨٨م حيث استمعا إلى رسالة البابا كلمنت الثالث، ويقال إنهما تعانقا وهما يبكيان، لما سمعاه عما حدث في بلاد الشام، ثم استلما الصليب من رئيس أساقفة صور، وحذا حذوهما العديد من النبلاء[1].

وقد توجه جوسياس وهنري بعد انتهاء مؤتمر جيزورز إلى ألمانيا لدعوى الإمبراطور فردريك والشعب الألماني للاشتراك في الحملة الصليبية، وكان فردريك آنذاك يرأس مجلس الدايت المعقود في ماينز في ٢٧ مارس سنة ١١٨٨؛ لمناقشة مسائل الحكومة الألمانية، فاستقبل فردريك مندوب البابا بحفاوة بالغة، ويقال إن فردريك رفض أن يرأس المؤتمر عندما حضر مندوبا البابا؛ نظرًا لوجود السيد المسيح فيه، وعندما طالبه مندوبا البابا بحمل الصليب والاشتراك في الحملة الصليبية لاسترداد مدينة بيت المقدس، أبدى استعدادًا منقطع النظير. وعندئذ تحدث جميع أساقفة ألمانيا عن القيام بالحملة الصليبية، ثم قرأ مندوبا البابا على الحاضرين في مجلس الدايت خطابات البابا، وتسلم الإمبراطور فردريك الصليب من أيدي أسقف فرزبورج، ويقال

---

[1]) Champdor: Salah Din, p. 202;
Mayer: The Crusades, p. 137;
Brehier: Les Croisades, p. 118.

إن الإمبراطور كان يبكي من شدة الفرح، وأعلن على الملأ أنه سوف ينتقم لما لحق بالصليبيين من إهانة على حد قوله، وقد حمل الصليب أيضًا ابنه فردريك دوق سوابيا والعديد من النبلاء من مختلف الرُتب والأعمار، حتى بلغ عدد الذين حملوا الصليب في ماينز في هذا اليوم حوالي أربعة عشر ألف رجل، وحدد فردريك موعد رحيل الحملة في مايو سنة ١١٨٩(١).

وبعد أن اطمأن مندوبا البابوية إلى أن الإمبراطور فردريك وابنه وحاشيته سوف يشتركون في الحملة الصليبية، راحوا يجوبون أرجاء ألمانيا، داعين في جميع كنائسها للاشتراك مع الإمبراطور في الحملة الصليبية، وكانوا يتحدثون عن مدى المخاطر التي تعرض لها المسيحيون في الشرق من جراء استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس، والإهانات التي تعرض لها صليب الصلبوت (الصليب المقدس)، وكانوا يصرخون قائلين: "قديمًا ارتجت الأرض لصوت المسامير التي دقت على الصليب، وأظلمت الشمس وتفتت الأحجار وتفتحت القبور، والآن أي قلب لن ينفطر وهو يعلم أن الخشبة المقدسة للفداء داستها أرجل الكفار (المسلمين) (٢).

---

1) Blasien (Otto of St.): The Third Crusade (1189 – 1190, Chroniclein thacher (oliver.J.) and Mcneal (E.H.), (America, 1905), p. 530;
Michaud: op. cit., Tom, II, p 373;
Grousset: op. cit., Tom. 3.p. 10;
Champdor: op. cit., p. 205;
Brehier: op. cit., p.119;
Johson: op. cit., pp. 89 – 90.

2) Blasien: Chronicle, the third Crusade, p. 531;
Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 373- 374.

وقد بدأ الإمبراطور فردريك بربروسا يستعد للقيام بحملته الصليبية، ولكن بسبب ما شاهده من صعوبات وعوائق السفر في البلقان والأناضول أثناء المشاركة في الحملة الصليبية الثانية مع عمه كنراد الثالث، أراد أن يتجنب هذه المتاعب فقام بإعداد الترتيبات اللازمة لحملته قبل أن تغادر ألمانيا حتى يضمن لها أن تمر بسلام إلى بلاد الشام[1]. ومن ضمن هذه الترتيبات إرساله خطابات لأباطرة وملوك وسلاطين البلاد التي سوف تجتاز الحملة أراضيهم يطلب منهم السماح له بعبور أراضيهم، وتقديم المساعدات اللازمة لقواته أثناء عبوره، فأرسل سفارة إلى السلطان قلج أرسلان الثاني (١١٥٦ – ١١٨٨م) سلطان السلاجقة في قونية، قام بها جودفري من فيسنباخ Godfrey of Wiesnbach لترتب معه مرور الجيش الألماني من أراضيه، فرحب قلج أرسلان بالسفارة ترحيبًا حارًّا، ويبدو أن أخبار حملة الإمبراطور فردريك سببت له الرعب، فما كان منه إلا أن أرسل سفارة ضخمة قُدر عددُها بحوالي ألف رجل وخمسمائة فرس، ووعدت هذه السفارة فردريك أنه لن يكون هناك عوائق أثناء عبوره بحملته لآسيا الصغرى، وأن قلج أرسلان سوف يقدم له المؤن اللازمة لجيشه[2]. كما أرسل فردريك بربروسا سفارة برئاسة الكاردينال

---

1) Champdor: Salah Din., p. 205.

2) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 375;

Champdor: op. cit., p. 206;

Brehier: op. cit., p. 121;

Johson: "The Crusades of Frederick Barbarossa and Henry VI", p. 91 .

والواقع، أن العلاقات بين قلج أرسلان والإمبراطور فردريك بربروسا ليست جديدة، بل تعود إلى سنة ١١٧٣م، عندما أرسل فردريك يطلب من قلج أرسلان مهاجمة الأراضي البيزنطية، فرد قلج أرسلان بسفارة محملة الهدايا وطلب من فردريك يد ابنته لابنه. انظر: إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٦٨.

كنراد رئيس أساقفهماينز إلى بيلا الثالث Bella III ملك هنغاريا (المجر)، للتفاوض معه حول مرور قوات الحملة عبر أراضيه، وتقديم المؤن الكافية، فوافق بيلا الثالث على ذلك، وأرسل فردريك أيضًا خطابات إلى ذوبان الكبير Grand Zupan حاكم الصرب، يطلب منه تسهيل مرور قواته خلال أراضيه، وتقديم المؤن الكافية له، فوافق ذوبان على ذلك(١).

كما أن الإمبراطور فردريك أرسل هنري كونت هولندا Henry of Holand إلى صلاح الدين الأيوبي، ليخبره أن الإمبراطورية الألمانية سوف تقوم بحملة صليبية ضده، إذا لم يرد بيت المقدس وصليب الصلبوت الذي وقع في يديه عشية استرداده لبيت المقدس، وإذا لم يفعل ذلك يتحداه فردريك بالحرب في ساحة صوغن (صان الحجر في شرق الدلتا حاليًا) في نوفمبر سنة ١١٨٩(٢).

وفي الرسالة التي بعث بها الإمبراطور فردريك إلى صلاح الدين الأيوبي، طلب منه أن يعيد الأراضي التي استردها؛ لأنها "ليست أراضي إسلامية" ولكنها أراضي إمبراطوريته التي استولى عليها صلاح الدين، إذ قال: "من فردريك إمبراطور الرومان المهيب دائمًا والمنتصر العظيم على الأعداء إلى صلاح الدين قائد المسلمين، بما أنك دنست الأراضي المقدسة التي نمتلكها فإنه من

---

[1]) Champdor: op. cit.. p. 206;
Brehier: op. cit., p. 121;
Johson: op. cit., p. 91.

[2]) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. II, p. 375;
Brehier: op. cit., p. 121;
Johson: op. cit., 91;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٢.

واجبنا الإمبراطوري أن نعاقب هذه الجرأة الإجرامية، وننذرك بأنك إذا لم ترد لنا الأراضي المسيحية فإننا سنجبرك على ذلك بالقوة، وإن تاريخ الإمبراطورية الرومانية وجب أن يعلمك بأن الأثيوبيتين وموريتانيا وفارس وسوريا وبلاد البارثيين وبيت المقدس والسامرة وبلاد الغرب والكلدانيين ومصر، خاضعة لسيطرتنا، وستعلم أنت بنفسك -بعد قليل- بالتجربة ما يمكن أن تفعله نسور الإمبراطور وحملتنا المكونة من عدة أمم... ستجرب غيظ هؤلاء التيوتون (الألمان) الذين اعتادوا على حمل السلاح حتى في وقت السلم، وشباب أستوريا (النمسا) الذي لم يعرف الهروب قط، وأهالي بافاريا وسوابيا الدهاة وأهالي فرانكونيا والسكسون الذين يلعبون بالسيف، وأهالي اللورين الذين لا يعرفون السلام قط، وأهالي جبل الألب الماهرين في قذف الرمح، والمجريين الذين يعرفون كيف يموتون وهم يضحكون، والبولنديين الأكثر توحشًا من حيوانات غاباتهم"[١].

هكذا خاطب الإمبراطور فردريك الأول بربروسا صلاح الدين الأيوبي، على أنه الإمبراطور الروماني ووريث الحقوق التاريخية الرومانية القديمة، ولذلك ينبغي على صلاح الدين أن يرد للإمبراطور بيت المقدس، ثم أظهر فردريك لصلاح الدين الأيوبي الشعوب الخاضعة له، ومدى قوتها والصفات الحربية التي تتصف بها، من أجل أن يفت في عضد صلاح الدين الأيوبي، فيجبره على التسليم.

ولكن صلاح الدين بعد أن قرأ رسالة الإمبراطور فردريك، عامل السفير معاملة طيبة، ورد على الإمبراطور برسالة لا نجد لها ذكر في المصادر الإسلامية المعاصرة، وقد أورد المؤرخون الأوربيون فحوى تلك الرسالة التي جاء فيها: "إلى فردريك ملك الألمان، اعلم أن هذا

---

[1]) Champdor: Salah Din, pp. 206 – 207.

الخطاب لا يمكنه أن يحوى أسماء كل الشعوب التي تكون دولتنا، ولا يوجد بحر ولا عائق يمكنها أن تعوق مسيرتنا، إن هذه الشعوب مستعدة للإسراع تحت راياتنا، ولدينا الآن نفس الجنود الذين فتحنا بهم البلاد، وإذا كنت تدعى أنك ستأتي بهذا الجمع الذي يعلمنا به خطابك وسفيرك، فإننا بدلاً من أن نخشاك سنسير قبالتك والله بعونه سيمنحنا النصر، وسنعبر حينئذ البحر وسندمر مملكتكم؛ لأننا نعلم بأنكم بتكوين هذا الجيش الكبير الذي تتحدثون عنه فإنكم تقفرون من السكان ممالككم ولا تتركون فيها أي مدافع، ولا شيء سيمنعنا من أن نسودها، بعد أن نكون قد سحقناكم في فلسطين مثل جميع الذين تقارعوا معنا، إن المسيحية قد قامت ضدنا مرتين، وأتت لمهاجمتنا في مصر مرة أمام دمياط ومرة أمام الإسكندرية، وإنكم تجهلون ماذا كانت نتائج هذه الحملات، لقد أعطانا الله مصر وممالك دمشق والقدس وحلب وشواطئ بلاد الشام وما بين النهرين، وإذا طلبنا حتى من الخليفة العباسي ببغداد أن يبعث لنا بالجيوش فإنه سيسرع لمساعدتنا في الحرب المقدسة، ولم يبق في فلسطين سوى ثلاث مدن هي صور وطرابلس وإنطاكية التي سنأخذها، وإذا كنت تريد الحرب فستمضي للقائكم وفي ذلك هلاككم، وإذا كنت ترغب في السلام، اطلب من حكام هذه المدن الثلاث أن يفتحوا لنا أبوابها، وبهذا الشرط سنعيد إليكم صليبكم، وسنفرج عن أسراكم وسنسمح لأحد قساوستكم بالقيام في كنيسة القيامة، وسنعيد إليكم أديرتكم، وسنعامل رهبانكم معاملة طيبة، وسنسمح لحجاجكم بزيارة المدينة المقدسة وسنحتفظ معكم بسلام دائم"[١].

---

[1]) Champdor: Salah Din, pp. 207 – 209.

وهكذا يتضح لنا أن صلاح الدين الأيوبي لم يخش تهديد الإمبراطور فردريك، بل رد على رسالته ردًّا منطقيًّا، أوضح له فيه أنه في حالة الحرب سيواجهه بجنوده وعتاده، أما إذا رغب الإمبراطور في السلام، فإن صلاح الدين لا يمانع، ولا شك أنه لم يكن بوسع الإمبراطور -كما جاء في رسالة صلاح الدين - أن يجبر أصحاب صور وطرابلس وإنطاكية أن يسلموها لصلاح الدين؛ لأن أصحاب هذه المدن غير خاضعين لنفوذ الإمبراطور الألماني.

والجدير بالذكر، أن الإمبراطور فردريك برباروسا كان قد أرسل أيضًا سفارة بعد انتهاء مجلس الدايت الذي كان معقودًا في ماينز إلى الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجليوس (١١٨٥ - ١١٩٥م) Isaac II ، للتفاوض معه حول مرور الجيش الألماني خلال الأراضي البيزنطية، مما دفع الأخير إلى إرسال سفارة برئاسة يوحنا دوكاس John Ducas رئيس قضاته إلى الإمبراطور فردريك، فقابلته في نورمبورج وأوضحت له - كما يقول المؤرخ إنسبرت: "إن إسحق منذ علم بقيام حملة صليبية لاسترداد بيت المقدس من يد صلاح الدين الأيوبي، انتابه الشك في أن الإمبراطور فردريك وفيليب أغسطس ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣م) سوف يقودان حملة عدائية داخل أراضيه، ومالم يتمكن فردريك من إزالة هذا الشك ستضطر بيزنطة إلى عدم السماح له بعبور أراضيها البلغارية، وغيرها من الأراضي"، وحتى يزيل فردريك شكوك الإمبراطور البيزنطي، جعل ثلاثة من كبار رجال دولته، وهم جودفري أسقف فورزبورج Godfrey of Wusburg، وفردريك دوق سوابيا، وليوبولد من بابنبرج Leopold of Babenberg دوق أستوريا (النمسا) يقسمون أمام السفارة البيزنطية "بسلامة نية الصليبيين الألمان" وأنهم لن يمسوا الأراضي البيزنطية بسوء، وعندئذ تعهدت السفارة البيزنطية نيابة عن

الإمبراطور وجميع الأمراء البيزنطيين، بأنهم سوف يكونون أصدقاء له ولجميع جيش الرب، وتعهدت السفارة بأن البيزنطيين سوف يقدمون له المرشدين من خلال مروره من الأرضي البيزنطية، فضلاً عن توفير المؤن في الأسواق، وإمداده بالسفن لنقل جيشه إلى آسيا الصغرى، وفي مقابل ذلك تعهد الأمراء الألمان السابقون على أنه إذا حافظ البيزنطيون على هذه الإتفاقية، فإن الألمان سيسلكون مسلكًا طيبًا أثناء المرور من أراضيهم"[١].

غير أن هذه الاتفاقية لم تخمد شكوك البيزنطيين في الألمان؛ بسبب تفاوض الإمبراطور فردريك مع الصربيين والسلاجقة أعداء الإمبراطورية البيزنطية ومن ثم فإن مرور الألمان عبر الأراضي البيزنطية لم يكن مرغوبًا فيه[٢].

أما بالنسبة للتنظيمات الخاصة بتكوين الجيش الألماني فإن الإمبراطور فردريك أمر الأغنياء أن يحملوا معهم مبالغ كبيرة من الأموال، وأمر أن يأخذ كل فرد من الفقراء ثلاث ماركات من الفضة (حوالي ثلاثين دولارًا) لأجل إنفاقهم، وهدد بأن الذين سوف يخرجون في الحملة وليس معهم هذه المبالغ سوف يحرمون من المشاركة.

ويبدو أن الإمبراطور فردريك لم يكن راغبًا في أن يشرك في الحملة رجالاً لا جدوى منهم[٣]، وهذا ما أكده أحد المؤرخين بقوله: "ومن الأسس التي وضعها فردريك لتكوين جيشه أن يشترك الأشداء

---

1) Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 91-92;
Ostrogorosky: History of the Byzantinente State, p. 406;
Hussay: “Byzatium and the Crusades” 1081 – 1204, p. 147.

2) ostrogorosky: op. cit., p. 406.

3) Blasien: op. cit., p. 531;
Michaud: op. cit., Tom. II, p 374;

القادرون فقط على تحمل مشاق السفر الطويل، كما أن فردريك منع النساء من المشاركة في الحملة لمنع إصابة الجيش بالاسترخاء"[١]، وبهذه القيود الصارمة تمكن فردريك من إبعاد المغامرين والمتشردين عن الاشتراك في حملته الصليبية[٢].

وقبل أن يُغادر فردريك ألمانيا عمل على أن يترك الأمور هادئةً فيها، فعرض على هنري الأسد دوق سكسونيا، الذي يعد من أكبر منافسيه في ألمانيا، إما أن يتنازل عن جزء من الأراضي التي يمتلكها، وإما أن يذهب معه في الحملة الصليبية على نفقته الخاصة، وإما أن يقبل النفي لمدة ثلاث سنوات، فقبل هنري الخيار الثالث، وذهب عند صهره هنري الثاني ملك إنجلترا[٣].

ونظرًا لوجود الآلاف من الرجال الذين كانوا أكثر من الأعداد المطلوب اشتراكها في الحملة، فقد سمح للبعض بفداء نذرهم بدفع مبالغ معينة، وبذلك حصلت الحملة على الأموال اللازمة لتمويلها.

والجدير بالذكر، أنه في الوقت الذي كانت تجرى فيه الترتيبات للحملة الصليبية، كانت القوات الألمانية من الفرسان والمشاة تتوافد على راتسبون التي اتُخذت مكانًا لتجمعها[٤].

والواقع، أن فردريك البالغ الرابعة والستين من عُمرِه، أقدم على الاشتراك في الحملة الصليبية أملاً منه في تحقيق مجدٍ له في بلاد الشام؛ نظرًا لأنه لم يستطع أن يحققه في أوربا، ورغبةً في الاستحواذ

---

[1]) champdor: op. cit., p. 206.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 374.

[3]) Lane Pool (S.): "Frederick Barbarossa and Germany", in Camb. Med. Hist., vol. V, (London, 1980), p. 410;

Johson: op. cit., pp. 90 -91.

[4]) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 374.

على المدح من المعاصرين لأجل حملة الصليب من أجل الصليبيين ولإنقاذ الأراضي المقدسة، ومحاولة لإعادة الوفاق بينه وبين البابوية وتوثيق علاقته معها[١].

ويشيرُ بعضُ المؤرخينَ إلى أن فردريك أقدم على الاشتراك في الحملة الصليبية من أجل تقوية وتوسيع أراضي الإمبراطورية الألمانية في الشرق، لاسيما أن البابوية كانت ما تزال تقف عقبة كبيرة أمام هذه التوسعات في الغرب[٢].

في حين يشير البعض الآخر إلى أن السبب في ذلك هو قدوم كنراد من مونتفرات إلى صور وتزعمه بقايا الصليبيين، خاصة أن بيت مونتفرات كان مساندًا له دائمًا، يضاف إلى ذلك أن الإمبراطور فردريك أراد أن يوطد مكانته في ألمانيا[٣]، ومهما تعددت أسباب اشتراك فردريك في الحملة الصليبية فالواقع أنه تطلع إلى أن يجعل من نفسه سيدًا لأوربا قاطبة.

- **التحالف البيزنطي الأيوبي:**

وعلى أية حال، أدى اشتراك فردريك في الحملة الصليبية الثالثة إلى توثيق العلاقات بين الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجليوس وصلاح الدين الأيوبي، وهذا التقارب كانت له أسبابٌ كثيرةٌ، يشترك فيها كلاهما معًا، كالتحالف ضد سلطان قونية الذي يعتبر عدوهما[٤]،

---

1) Johson: op. cit., p. 88;
Champdor: op. cit., p. 205.

2) Champdor: Salah Din, p. 205;
ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ١٩٧ - ١٩٨.

3) Lane Pool: op. cit., p. 407;
الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ٨٦٦.

4) Blasien: Chronicle the Third Crusade, p. 529.

فالمعروف أن البيزنطيين آنذاك كانوا في عداء مع السلطنة السلجوقية في قونية منذ معركة ميريوكيفالون Myriokephalon سنة ١١٧٦ والتي على أثرها تمكن الأتراك السلاجقة من طرد البيزنطيين من المياندر Meandre وسانجريوس Sangarios في آسيا الصغرى، ولهذا فإن قدوم فردريك كان من شأنه أن يقوي هجماتهم على حدود الإمبراطورية، ومن ثم لم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجليوس إلا توثيق علاقته مع صلاح الدين الأيوبي، حتى يشغلهم الأخير عن مهاجمة حدود الإمبراطورية[١]، كما أن تفاوض الإمبراطور فردريك مع حكومات البلقان المعادية لبيزنطة، وتحالفه مع النورمان أعداء البيزنطيين، جعلت الإمبراطور البيزنطي يشعر أن الإمبراطور فردريك سوف يهاجمه ويستولى على عاصمة ملكه[٢]، لاسيما أن فردريك كان يعتبر نفسه إمبراطور الرومان، وقد ظهر ذلك في الخطاب الذي أرسله إلى صلاح الدين الأيوبي[٣]. والواقع، أن إسحق الثاني أنجليوس كان محقًا في تحالفه مع صلاح الدين الأيوبي؛ لأنه وجد نفسه محاصرًا من الشمال من قبل الألمان، وبثورات

---

1) Grousset: Histoire des Croisades. Tom. 3, p. 10;

الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١، ص ١٨٨.

2) Champdor: op. cit., pp. 211, 324;

Mayer: op. cit., p. 137;

Hussay: op. cit., p. 149;

Archer: op. cit., p. 309;

هسي: العالم البيزنطي، ص ٢٠١، حاشية، ٣٤.

3) Champdor: op. cit., p. 206-207;

إسحق عبيد: روما وبيزنطه، ص ٢٨٣؛

رأفت عبد الحميد: "السمو البابوي بين النظرية والتطبيق"، ص ١٩٥.

الصرب والبلغار في الجنوب الشرقي من البلقان، ومن الجنوب بالنورمان، وعلى حدود الإمبراطورية في آسيا الصغرى بالأتراك السلاجقة، لهذا لم يبق له إلا جهة واحدة هي صلاح الدين الأيوبي في بلاد الشام، فأقدم على التحالف معه ضد السلاجقة والألمان.

والمعروف أن الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجليوس كان قد أرسل إلى صلاح الدين الأيوبي يهنئه بالنصر الذي حققه على الصليبيين وباسترجاع بيت المقدس[1]، ثم أعقب سفارته هذه بسفارة أخرى أبرمت مع صلاح الدين معاهدة تحالف، اتفق فيها كل من البيزنطيين والأيوبيين على التصدي في آن واحد للألمان والسلاجقة(٢)، فوعد إسحق صلاح الدين بمنع فردريك برباروسا من العبور من أراضيه إلى فلسطين، وأنه سوف يضع العراقيل في طريقه، وسوف يماطله في المفاوضات قبل السماح له بالحصول على المؤن، وتم الاتفاق على أن يكون هذا التحالفُ سريًّا.

أما صلاح الدين فقد تعهد هو الآخر في هذه المعاهدة بتسليم كنيسة القيامة إلى القساوسة البيزنطيين، والسماح للبيزنطيين بالذهاب إلى الأراضي المقدسة في حرية مطلقة، في مقابل تعهد إسحق بإعطاء المسلمين إحدى الكنائس في بيزنطة والتي يمكن تحويلها إلى مسجد، ومُنح صلاح الدين نوعًا من الحماية على المسلمين في القسطنطينية.

والواقع أن تعهد صلاح الدين الأيوبي برد كنيسة القيامة في بلاد الشام لبيزنطة، لا تزيد عن كونها إرضاء للإمبراطور البيزنطي، حيث أن رد كنيسة القيامة وبعض المعابد الأخرى، كان من شأنه أن يرضي

---

١) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٢٠.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3,p. 11:
Michaud: op. cit., Tom. II. p. 376.

المطالب الأبدية النظرية للدبلوماسية البيزنطية، وفي نفس الوقت كان تبريرًا في نظر الأرثوذكس للتحالف مع أمير الكفار (صلاح الدين)[١].

وعندما تم التوقيع على بنود هذه المعاهدة من قبل الطرفين، أرسل صلاح الدين سفارة رسمية إلى القسطنطينية مكونة من أمير ومؤذن وقاضي وعدد من علماء الدين الذين حملوا معهم العديد من الهدايا إلى إسحق الثاني أنجليوس، فمضى الرسول، وأقام الخطبة، ولقي احترامًا عظيمًا، وإكرامًا زائدًا، وكان قد أنفذ معه في المراكب الخطيب والمنبر وجمعًا من المؤذنين والقراء، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يومًا عظيمًا من أيام الإسلام، ورقي الخطيب المنبر وأقام الدعوة الإسلامية العباسية ثم عاد"[٢].

ويشير تشامبيدور[٣] إلى أنه في الوقت الذي وصل فيه سفراء صلاح الدين إلى قصر الإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، كانت سفارة الإمبراطور فردريك قد وصلت هي الأخرى تطلب من إسحق تسهيل مرور القوات الألمانية.

---

[1]) Blasien: Chronicle, the Third Grusade, p. 52;

Grousset: op. cit., Tom. 3,p. 11;

Champdor: op. cit., p. 212;

Brehier: op. cit., p. 122;

زبيدة عطا: الترك في آسيا الصغرى، ص ١٠٧.

٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٠٥؛

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٣٣٧؛

المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ق١، تحقيق، محمد مصطفي زيادة، (القاهرة، ١٩٣٤)، ص ١٣١؛

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 11;

Champdor: op. cit., p. 212.

[3]) Salah Din, p. 212.

- الحملة الصليبية الألمانية في البلقان:

لم يلبث أن عقد الإمبراطور فردريك مجلس الدايت في رجنسبورج Regensburg في ٢٣ إبريل سنة ١١٨٩م، حيث سلم ابنه هنري السادس Henry VI الشعار الملكي وعهد إليه بحكم الإمبراطورية في غيابه، كما منح أبناءه الآخرين الألقاب الملكية، وحلف جميع الأمراء الألمان على تطبيق السلام في ألمانيا خلال وجود الحملة الصليبية في بلاد الشام(١).

وبعد انتهاء مجلس الدايت أرسل الإمبراطور فردريك سفارة مكونة من هرمان أسقف منستر Herman of Munster والكونت روبرت من ناسو Rupert of Nassau وهنري ديتز Henry of Dietz، وماركوراد Markward رئيس حجاب الإمبراطورية إلى الإمبراطور البيزنطي إسحق أنجليوس، لإخطاره بسير الحملة والإشراف على الاستعدادات المقامة لاستقبالها، وعندما وصلت السفارة إلى بلاط إسحق، طالبته بالموافقة على عبور أراضيه، ولكنه رفض ذلك وزج بالسفارة في السجن(٢).

---

[1]) Plasien: Chronicle, the Third Crusade, p. 531;

العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح، (الدار القومية والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م)، ص ٣٩٢؛

Michad: op. cit., Tom. II, p. 375;

Brehier: op. cit., p. 119.

[2]) Morgan (Margaret R.) Documents Relatifs Al' Histoires des Croisades la Continuation de Guillaum de Tyr 1184 – 1197, (Paris. 1982), p. 93;

Eracles: op. cit., Tom, II, pp. 131 – 132;

Michaud: op. cit., Tom. II, p. 375;

Johson: op. cit., p. 92.

ويعلق إنسبرت[1] على ذلك بقوله: "كان المبعوثون الذين أرسلوا إلى البلاط البيزنطي مثل خراف وسط الذئاب". وأغلب الظن، أن الموقف الذي اتخذه إسحق يرجع إلى المعاهدة التي عقدها مع صلاح الدين الأيوبي، والتي جعلته آنذاك لا يخشى الإمبراطور الأماني.

ومهما يكن من أمر، فبعد الترتيبات التي وضعها الإمبراطور فردريك في دايت رجنسبورج، غادر راتسبون في ١١ مايو سنة ١١٨٩م عبر الطريق البري[2]، اعتقادًا منه أن المفاوضات مع حكام الدول الذين ستمر الحملة خلال أراضيهم ضمنت له السير في سلام، كما أن الطريق البري يمكنه استيعاب الجيش الألماني الضخم، فضلاً عن عدم توفر السفن اللازمة لنقل هذا الجيش[3] واصطحب فردريك معه ابنه فردريك دوق سوابيا، وأساقفة من ليج وفرزبورج وباسيو ورجنسبورج وباسل وميسين وأنسبروك OsnabrukK، ورئيس أساقفة تارنتيس Tarentaise، وأسقف تول، ومن العلمانيين بيرتولد دوق دالماشيا وميران دوق كرواتيا، ومرجراف أستوريا، وكونتات من هولندا، وسوابيا، وبافاريا، وسكسونيا[4]، وحمل فردريك معه الكثير من المؤن والأموال[5]، وبلغ تعداد الجيش الألماني حوالي مائة ألف مقاتل، وكان هذا الجيش في قمة تنظيمه، وسيطر الإمبراطور عليه سيطرةً تامّة[6].

---

1) Edager; op. cit., p. 92.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 10.

3) Johson: ip. Cit., p. 19 – 20.

4) Mayer: The Crusades, pp. 137 – 138.

5) Morgan: op. cit., p. 93.

6) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 10;
Champdor: op. cit., p. 211;=

وفي الوقت الذي كانت تتقدم فيه الحملة على ضفاف الدانوب، استقل فردريك وعدد صغير من النبلاء أحد القوارب وساروا في هذا النهر(١).

ورغم أن فردريك اختار الطريق البري، فإن بعض الدوقات مثل فيليب دوق الفلاندرز، وكنراد وأوتو من بوهيميا، ومورافيا، وجود فري من اللوين الأدنى، وهنري من ليمبورج Limburg، وليوبولد الخامس دوق أستوريا، فضلوا السير إلى بلاد الشام بواسطة الطريق البحري؛ لأنه لا يستغرق زمنًا طويلاً، وخوفًا من التعرض للمخاطر في آسيا الصغرى(٢).

وقد وصلت القوات الألمانية إلى برسبورج بأستوريا دون مضايقات، رغم عدم الترحيب بهم من بعض سكانها، مثل سكان ماثوسين Mauthausen الذين طالبوا فردريك بعوائد مرور، مما دفعه إلى إشعال النار في منازلهم.

وفي برسبورج حدثت بعض التجاوزات من بعض الجند، فقام فردريك بوضع بعض التنظيمات لضبط الجيش، وقد حلف الجميع على إتباع هذه التنظيمات، وعين فردريك بعض القضاة لإجبار الجميع على الالتزام بها، كما أجبر حوالي خمسمائة من النساء وبعض اللصوص على العودة إلى ألمانيا، منعًا من إحداث الفوضى في الجيش(٣).

= Brehier: op. cit., 121.

1) Johson: op. cit., p. 92.

2) Mayer: op. cit., p. 138;
Johson: op. cit., p. 93.

3)Mayer: op. cit., p. 139.
Berhier: op. cit., p. 122.

وخلال توقف الألمان في برسبورج، وصلت سفارة من قبيل بيلا الثالث ملك هنغاريا إلى فردريك للترحيب به، ثم قام بيلا بعد ذلك في صحبة زوجته بمقابلة فردريك مقابلة حافلة بالقرب من جران Gran في ٤ يونيو ١١٨٩م، وخلال هذه المقابلة أهدت زوجة بيلا فردريك خيمة فاخرة، كما أن بيلا استضاف فردريك لمدة يومين، وزوده بالمؤن والبضائع، وثلاثة جمال، وأصدر بيلا أوامره لقواد وأساقفة المدن التي سيمر خلالها فردريك أن يستقبلوه بالحفاوة، كما أن الأديرة قدمت هي الأخرى المساعدات لفردريك، وقدمها له أيضًا الفلاحون في هنغاريا[١].

وهكذا، فإن الأسابيع الخمسة التي قضاها فردريك في عبور هنغاريا كانت حافلة بالمودة، مما أدى إلى انبعاث السرور في قلوب قواته التي تخيلت أن المرور من جميع الأراضي سوف يكون بهذه الحفاوة، وعلق انسبرت على هذا المرور بقوله: "مررنا من أول هنغاريا إلى آخرها في هدوء تام، حقًا الناموس وذبابات الخيل والحشرات والحيات التي تُزعج بخطورة أولئك الذين يقومون برحلة في هنغاريا أثناء الصيف، لم تؤذنا، ولم تؤذ خيولنا، وكنا نادرًا ما نراها"، ولكن الشيء الوحيد الذي ضايق الألمان قيام الهنغاريين برفع الأسعار[٢].

---

[1]) Morgan: op. cit., p. 93;

Blasien: Chronicle, the Third Crusade, p. 532;

Michaud: op. cit., Tom, II, p. 376;

Johson: op. cit., p. 94;

Champdor: op. cit., p. 233.

[2]) Johson: op. cit., p. 94.

وفي ٢٣ يونيو سنة ١١٨٩م عبر فردريك نهر الدانوب عند بلغراد، ثم تقدمت القوات الألمانية حتى وصلت إلى برانيتس على الحدود البيزنطية في ٢ يوليو من نفس العام، ومن هناك نفذت إلى داخل الأراضي البيزنطية، وهنا نلاحظ أن المعاملة الحسنة التي قوبل بها فردريك في هنغاريا قد تبدلت إلى النقيض في بلغاريا، حيث وقف منه الإمبراطور البيزنطي موقفًا عدائيًّا[١]، وظهرت هذه العدواة في عدم ترحيب حاكم مدينة برانيتس البيزنطي بالإمبراطور فردريك، بل وقيامه بتحويل الحملة عن الطريق الرئيسي.

وعندما تركت القوات الألمانية برانيتس وتوغلت داخل الأراضي البلغارية، وجدوا – كما قال فردريك في خطابه لابنه هنري السادس – المضايق قد سُدت بواسطة الأحجار الضخمة وجذوع الأشجار، كما أخبر فردريك ابنه أن إسحق هدد بعدم تبادل النقود مع الألمان، كما أن قطاع الطرق ورماة النبال هاجموا الجيش الألماني أثناء سيره، وتم القبض على عدد منهم، فاعترفوا أنهم أجبروا على ذلك بأمر من حاكم مدينة برانيتس التابع للإمبراطور البيزنطي[٢].

---

[1]) Morgan: op. cit., p. 93;
Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 131;
Gracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 131;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 12;
Champdor: op. cit., p. 376;
Johson: op. cit., p. 94.

[2]) Michaud: Histoire des Croisades, Tom, II, p. 376'
Johson: op. cit., pp. 94 – 98.

والجدير بالذكر، أن إسحق لم يكن آنذاك قادرًا على منع قطاع الطرق من مهاجمة الجيش الألماني؛ لأن الصرب والبلغار كانوا في غضون ذلك في ثورة على بيزنطة التي لا تستطع إخمادها[1].

وعلى أية حال، فقد واصلت القوات الألمانية تقدمها عبر الغابات البلغارية في ١١ يوليو سنة ١١٨٩م، وعندئذ أدرك إسحق صعوبة الوقوف في طريقها فأصدر مرسومًا يقضي بإتاحة الفرصة للقوات الألمانية لشراء مستلزماتها من المؤن وتبادل النقود، كما أرسل سفارة برئاسة رئيس قضاته إلى الإمبراطور فردريك لتوضح له أن إسحق لم يتمكن من مقابلته أو الترحيب به بسبب ذهابه إلى فيلادلفيا، ولتقوم بإرشاد الجيش الألماني داخل الأراضي البيزنطية، فأوضح رئيس قضاة إسحق لفردريك أن الإمبراطور كان مندهشًا بسبب عدم إرسال سفير يعلمه باقتراب الجيش الألماني من الأراضي البيزنطية، حتى يتمكن إسحق من مقابلته وتوفير المؤن اللازمة له من الأسواق، علاوة على ذلك أرسل إسحق سفارة ثانية برئاسة ألكسيوس ابن عمه لانتظار فردريك في صوفيا بدلاً من نيش[2].

وصلت القوات الألمانية إلى نيش في ٢٧ يوليو سنة ١١٨٩م، فاستُقبلت استقبالاً حافلاً من قبل ستيفن نايمانيا، وذوبان الكبير، وقواد الثورة الصربية ضد البيزنطيين، فأحضر هؤلاء القواد لفردريك الخمور والقمح والغنم والبهائم والخنازير وثلاثة وعول (الجدي) أليفة. وعرضوا على فردريك التحالف معه ضد الإمبراطورية البيزنطية، وأن يكونوا أتباعًا له في الأراضي البيزنطية التي غزوها قريبًا، ولكن

---

1) Ibid., p. 97 – 98;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٥.

2) Johson: op. cit., pp. 98 -99.

فردريك رفض التحالف معهم ضد بيزنطة "وأخبرهم أنه تحمل تعب الحج ضد الباغين (المسلمين) في الأراضي المقدسة، وحبًّا في المسيح".

كما أن إيفان آسن Ason وأخيه بطرس فلاتش قائدي ثورة البلغار ضد بيزنطه أرسلا إلى الإمبراطور فردريك في نيش يعرضان عليه التحالف أيضًا ضد إسحق أنجيلوس، ولكن فردريك رفض عرضهما[١].

وفي مدينة نيش قسم فردريك جيشهُ إلى أربعة فرق طبقًا للأجناس المشتركة، فجاء على رأس القسم الأول فردريك دوق سوابيا، وهذا القسم حمل رايتهُ الكونت بيرتولد من نيمبورج Nimburg، أما القسم الثاني فقد تكون من البوهيميين والهنغاريين وكل جنس من تلك الأجناس حمل رايته، وجاء بيرتولد دوق دالماشيا Dalmtia على رأس القسم الثالث وهو الذي حمل رايته، أما القسم الرابع فقد تولى قيادته الإمبراطور فردريك، وحمل رايته الكونت روبرت من ناسو، ثم قسم فردريك هذه الأقسام الأربعة إلى خمسين وحدة عسكرية، وبلغ تعداد الواحدة خمسمائة رجل، وعين لكل وحدة قاضيًا للبت في القضايا المدنية والعسكرية، كما عين فردريك مجلسًا استشاريًّا له مكونًا من ستين رجلاً (خفض إلى ستة عشر رجلاً) كان الهدف منه إسداء النصائح والإرشادات إليه في المسائل العسكرية[٢].

وقد تقدمت الجيوش الألمانية من نيش، ويبدو أنه حدثت بعض الاشتباكات آنذاك بينها وبين القوات البيزنطية، ولكن فرقة الدوق

---

[1]) Johson: op. cit., pp. 99-100.

[2]) Brehier: Les Croisades, p. 121;
Johson: op. cit., pp. 93 – 94.

بيرتولد الألمانية تمكنت من هزيمة تلك القوات[١]، ويؤكد ذلك إسحق نفسه في الخطاب الذي أرسله إلى صلاح الدين الأيوبي بعد عبور فردريك لآسيا الصغرى، إذ يقول: "لقد فقدوا (الألمان) مالاً وخيولاً ورجالاً البعض منهم مات من المرض والبؤس، والبعض الآخر قتلهم جنودي"[٢]. كما تعرض الألمان لمهاجمة قطاع الطرق، ولكنهم ألقوا القبض على أعداد كبيرة منهم، وقاموا بذبح أربعين وعلقوهم على الأشجار بطول الطريق مثل كلاب بخسة أو ذئاب مفترسة وأخذوا بعضهم رهائن، إلا أن البلغار كي ينتقموا من الألمان، كانوا ينبشون قبور موتى الألمان، ويخرجون الجثث، ويعلقونها على الأشجار، واستمر السلب والنهب والقتل في القوات الألمانية حتى وصلت صوفيا في ١٣ أغسطس سنة ١١٨٩م[٣]، فوجدتها خالية تمامًا من المؤن والنقود التي كان إسحق قد وعد بمبادلتها معهم، فاعتبر فردريك أن هذا العمل خيانة من قبل إسحق. وقبل أن يغادر فردريك المدينة تم إخباره بأنه سوف يجد قوات بيزنطية تقوم بحراسة الممرات داخل تراقيا Thrace، وهذه القوات موضوعة من أجل كونتات صربيا وليست موجهة ضده، ثم واصل فردريك سيره عبر الممر البلغاري القديم في ١٦ أغسطس سنة ١١٨٩م، وفي ٢٠ أغسطس عبر الجيش وادي ماريتسا Maritsa وتقدم حتى وصل إلى مدينة فيلبوبولس في ٢٤ أغسطس من نفس العام، فوجدوها خالية تمامًا من المؤن والسكان[٤].

---

1) Johson: op. cit., p. 100.

2) Champdor: Salah Din, p. 236.

3) Blasien: Chroicle, the Third Crusade, p. 532;
Michaud: op. cit., Tom. II, p. 376;
Johson: op. cit., p. 100.

4) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p.12;=

وفي اليوم التالي وصلت لفردريك سفارة من قبل الإمبراطور إسحق، ويبدو أن إسحق خاطب فيها فردريك على أنه ملك الألمان، وليس إمبراطور الرومان، كما طالبه إسحق بعدم مواصلة السير قبل إرسال بعض الرهائن الألمان إلى القسطنطينية، والتنازل له- كأجر للخدمات التي سوف يقدمها له عند عبوره لآسيا الصغرى - عن نصف فتوحاته التي سوف يحققها في بلاد الشام، واعتذر إسحق أيضًا لفردريك عن سجنه للسفراء الألمان، الأمر الذي أدى إلى غضب الإمبراطور فردريك، لاسيما أن بطريرك القسطنطينية أطلق آنذاك على اللاتين لقب كلاب، ووعد بغفران ذنوب من يقوم بقتلهم حتى ولو كان قاتلاً لعشرة من بني جنسه، كما أنه كان ينادي بحرب صليبية بيزنطية ضد الألمان(١).

وحين سمع الإمبراطور فردريك بكل ذلك، اعتبر أن معاهدة نرمبورج لاغية، وأن البيزنطيين يجب أن يعاملوا كما لو كانوا وثنيين؛ لأن أفعالهم أظهرت له أنهم يساعدون صلاح الدين، فأذن لقواته بمهاجمة مدينة فيلبوبولس فقاموا بتخريبها، واحتلوها في ٢٦ أغسطس سنة ١١٨٩م، واستولوا على المناطق المجاورة لها، وقاموا بنهبها، كما احتل فردريك دوق سوابيا مدينة برهويا Berrhoea، وقام

= Champdor: op. cit., p. 234;

Brehier: op. cit., p. 122'

Johson: op. cit., pp. 99-101.

[1]) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 377;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 12;

Champdor: op. cit., 234;

Brehier : Les Croisades, p. 122;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٦.

أيضًا بنهبها، في حين أن المارشال أسقف باسيو استولى على مدينة برانذوفيوس Brandoveus، وهكذا تمكن فردريك من احتلال ثلاث مدن بيزنطية وأكثر من عشر قلاع[1].

وأرسل فردريك رسالة إلى ابنه هنري السادس في ١٦ نوفمبر سنة ١١٨٩م، من مدينة فيلبوبولس، يطلب منه إعداد أسطول في الموانئ الإيطالية، والحصول من البابا على وعد بالدعوة لحملة صليبية ضد بيزنطة كتلك التي دعى إليها ضد صلاح الدين، وقد جاء في تلك الرسالة: "وجدنا أنه من المناسب عدم عبور ذراع القديس جورج (الدردنيل) دون الحصول على رهائن من الإمبراطور، وإخضاع كل بيزنطة لحكمنا، ولهذا نطلب من نبالتكم إرسال سفارة إلى جنوا وبيزا والبندقية وأنكونا Ancona، لتكوين حملة بحرية والالتقاء بنا في القسطنطينية في منتصف مارس سنة ١١٩٠م وذلك لحصارها من البحر، ونقوم نحن بحصارها من البر، وابعث إلى البابا؛ ليرسل بعض الرهبان إلى الأقاليم المتنوعة، ليدعوا بحملة صليبية ضد البيزنطيين أعداء الصليب"؛ ونظرًا لأن حكام الصرب والبلغار كانوا في عداء مع القسطنطينية فقد قدموا إلى الإمبراطور فردريك للتفاوض معه حول مهاجمة القسطنطينية[2].

---

1) Morgan: op. cit., p. 93;
Blasien: op. cit., p. 532;
Grousset: op. cit., Tom. 3,p.p. 12;
Johson: op. cit., pp. 101 – 102.

2) Michaud: Histoire des Croisades, tom. II, p. 377;
Champdor: Salah Din, p. 235;
Johson: op. cit., pp. 96, 102;
Hussay: "Byzatium and the Crusades" , p. 148;=

إما إسحق عندما رأي أن فردريك قد استولى على قسم كبير من أراضيه، وتفاوض مع حكام الصرب والبلغار، زيادة على دعوته إلى القيام بحملة صليبية ضده، قام باستشارة كبار دولته في هذا الأمر، فأشاروا عليه بالإفراج عن السفراء، فأفرج عنهم[١]، في آخر أكتوبر سنة ١١٨٩م، وبعد أن عاد السفراء إلى المعسكر الألماني، أخبروا فردريك في اليوم التالي لوصولهم أن الإمبراطور إسحق استولى على أموالهم، وسخر منهم، كما قام بإهداء خيولهم إلى سفراء صلاح الدين الأيوبي، وأن نيقتاس بطريرك القسطنطينية، أطلق على الصليبيين لقب كلاب في إحدى خطبه، ووعد كل من يتمكن من قتل جماعة من الألمان بالغفران، فأدى ذلك إلى زيادة تصميم فردريك على الانتقام أكثر من بيزنطة[٢].

ومما زاد من تصميم فردريك السفارة التي وصلت إليه آنذاك من قبل إسحق برئاسة رئيس قضاته ومعه رسالة خاطب فيها إسحق الإمبراطور فردريك بملك الألمان وليس إمبراطور الرومان، وطالبه برهائن حتى يسمح له بالمرور، والتزود بالمؤن من الأسواق، والمرور من الدردنيل، وهنا نلاحظ أن هذه المطالب قد ضايقت فردريك، فهب واقفاً، وخاطب سفراء إسحق قائلاً "لماذا يخاطبني الإمبراطور بهذا الأسلوب، وهو الذي لا يستحق اللقب الذي يحمله، في حين أنني فردريك إمبراطور الرومان، وإذا لم يرد ما استولى عليه من سفرائي، ويحييني في رسائله بإمبراطور الرومان، ويقدم لنا المؤن، ويفتح لنا الأسواق، ويسمح لنا بالمرور دون رهائن من

= هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ١، ص ٢٧٣.

1) Morgan: op. cit., p. 93.

2) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 377;
Johson: op. cit., pp. 102 – 103.

البسفور، فعليه منذ الآن ألا يبعث لي بسفارات أو رسائل، وعندئذ سوف أشق طريقي بحد السيف"، هذا في الوقت الذي اتهم فيه الإمبراطور البيزنطي بقيامه بتسميم آبار المياه على طول الأراضي البلغارية، وإن كانت لم تؤثر على الألمان بسبب قوتهم الجسمانية(١).

على أية حال، غادر الإمبراطور فردريك مدينة فيلبوبولس، بعد أن ترك بها حاميةً من رجاله، فاحتلت قواته مدينة أدريانويل في ٢٢ نوفمبر سنة ١١٨٩م، واحتل فردريك دوق سوابيا مدينة ديموتيقا Demotica، وارتكب فيها مذبحة مروعة، حيث ترك الأطفال والنساء، ونبح ألفًا وخمسمائة من الرجال، كما استولى على مدينة كلوس Cluos، وميناس Menas البحرية التي هرب سكانها خوفًا منه، ومدينة أركاديوبوليس Arcadiopalis في حين أن أسقف فرزبورج وكونت سالم وسبنهايم Spdnheim استوليا على مدينتين من مدن الولش، فقتلوا خمسة آلاف رجل في إحدى المدن، وأحرقوا أخرى، أما فرقة كونت ابنبرج فقد خربت المناطق الجنوبية، وعادت محملة بالغنائم.

وعندما أرسل الإمبراطور فردريك الدوق بيرتولد والكونت فلورنت في ٧ ديسمبر لإحضار حامية مدينة فيلبوبولس، قاما بغزو الإقليم المسمى فلاخيا Valchia القريب من سالونيكا وقتلوا العديد من حاميته، وقاموا بنهب مخزن المؤن الموجود فيه(٢).

---

[1]) Johson: op. cit., pp. 102 – 104;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٨٩ – ٢٩٠.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 377;

Champdor: op. cit., p. 235;

Johson: op. cit., pp. 104 – 107;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٩١.

والجدير بالذكر، أن الألمان لم يكونوا قادرين على كبح جماحهم بسبب أفعال البيزنطيين؛ ذلك أن الألمان عندما دخلوا المنطقة المسماة جرادتز Graditz وجدوا في الكنائس صورًا تصور الألمان على أنهم بغال يركبها البيزنطيون، وقد شدوهم من الألجمة، مما أدى إلى غضب الألمان فأشعلوا النار في الكنائس والعديد من الابنية[١].

ويبدو أن الإمبراطور فردريك خاف من قيام معركة بينه وبين الإمبراطور إسحق، فأرسل الدوق برتولد من أدريانويل إلى ستيفن نايمانيا يطلب منه إرسال بعض الكتائب من جيشه لمساعدته، فوافق ستيفن نايمانيا على ذلك لهذا؛ عندما عاد برتولد من بلاطه في ٢١ يناير سنة ١١٩٠م رافقه ذوبان الكبير ليتمم مع فردريك شروط الاتفاق، وحدث آنذاك أن التمس بطرس فلانتش من فردريك أن يتوجه إمبراطورًا على بيزنطة، وفي مقابل ذلك سوف يزوده في بداية شتاء سنة ١١٩٠م بأربعين ألف جندي[٢].

والواقع، أن إسحق لم يكن أمامه سوى شراء السلام من فردريك، فأرسل إليه سفارة في ٢٤ ديسمبر سنة ١١٨٩م للتفاوض معه على أساس اتفاقية نرمبورج، ولكن المفاوضات باءت بالفشل، وعاد سفراء إسحق وهم يهددون بالحرب، ولكن إسحق أرسل سفارة أخرى إلى فردريك في ٢١ يناير سنة ١١٩٠م تعهدت أمام الأخير بتنفيذ شروط معاهدة نرمبورج، وتقديم عدد من النبلاء البيزنطيين كرهائن، ولكن بسبب عدم ثقة فردريك في تعهدات إسحق، أرسل إليه سفارة مكونة من الكونت برتولد من توسكانيا وماركوارد من أنويلر Markward of Anweiler وبعض الأمراء الألمان للتأكد من ذلك، ويبدو أن

---

[1]) Johson: op. cit., p. 107.

[2]) Loc. Cit.,

وعود إسحق هذه المرة كانت جادة، لهذا عادت السفارتان إلى أدريانوبل في ١٤ فبراير سنة ١١٩٠م تحملان شروطًا منها: عدم إلزام إسحق بدفع تعويضات لفردريك؛ وذلك لأن الأخير خرب مقدونيا وتراقيا(١)، وإلزام إسحق بإعداد السفن الكافية لعبور الجيش الألماني من غاليبوي(٢).

كذلك تعهد إسحق ببقاء السفن البيزنطية بين أبيدوس والقسطنطينية راسية على الساحل أثناء عبور الجيش الألماني، وأن تكون المسافة بين الجيش الألماني والبيزنطي بقدر مسيرة أربعة أيام، وأن يسلم إسحق مدينتين من مدنه قرب الساحل في الأراضي البيزنطية وآسيا الصغرى؛ ليستريح فيها الجيش الألماني، وإذا لم يقدم إسحق المؤن الكافية للجيش الألماني، يصبح لفردريك الحق في الحصول عليها من الأسواق، وبالأسعار التي يجري تداولها في الدولة البيزنطية، وأن يصدر إسحق عفوًا شاملاً عن جميع البيزنطيين والأرمن واللاتين الذين قدموا خدمات لفردريك، ويرد الأموال التي استولى عليها من سفارة فردريك، ويطلق إسحق سراح جميع الحجاج اللاتين والتجار الذين أسروا في الطرق البرية أو البحرية منذ أن بدأت العداوة بينها، وضمانًا لتنفيذ الشروط السابقة يقدم إسحق لفردريك ثماني عشرة رهينة من البيت الملكي.

وقد تم التصديق على هذه المعاهدة في كنيسة أيا صوفيا Hahia Sophia من قبل خمسمائة من كبار رجال بيزنطة، ووقع عليها أيضًا

---

1) Johson: "The Crusade of Frederick Barbarossa and Henry VI", p. 107.

2) Michaud: op. cit., Tom, II, p.p.377;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 13;

Hussay: op. cit., p. 148.

أحد البطارقة البيزنطيين، كما حلف عليها خمسمائة من الفرسان الألمان(١).

وفي الوقت الذي عُقدت فيه اتفاقية أدريانوبل كان الشتاء قد حل؛ ونظرًا لشدته في آسيا الصغرى، فقد قرر فردريك قضاءه في أدريانوبل، فوصلت إليه آنذاك سفارة الصرب في ٢١ مارس ١١٩٠، ولكنه رفض مشاركة بطرس فلانتش في مهاجمة القسطنطينية، كما وصلت سفارة من بيزا، قدمت له فروض الولاء والطاعة، وعرضت تقديم السفن اللازمة لحصار القسطنطينية، ولكن فردريك رفض أيضا هذا العرض(٢). ووصلت إلى فردريك سفارة من قلج أرسلان سلطان قونية، جددت معه التعهدات السابقة، ووعدته بالمرور حتى أرمينيا بسلام، إذا أتى مسالمًا(٣)، ويقال إن قطب الدين ملكشاة بن قلج أرسلان أرسل خطابات إلى فردريك في أدريانوبل أكد له فيها إخلاصه وطاعته(٤)، كما أن فردريك وصلته الرهائن البيزنطية في أدريانوبل، وقدرهم بعض المؤرخين بحوالي أربع وعشرين وثمانمائة رهينة(٥).

---

1) Morgan: op. cit., p. 93;
Blasien: op. cit., pp. 532 – 533;
Brehier: Les Croisades, p. 122;
Johson: op. cit., pp. 108 – m109;
إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٩١ – ٢٩٢.

2) Johson: op. cit., p. 109;

3) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 14;

4) Johson: op. cit., p. III.

5) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 378;
Champdor: op. cit., p. 236.

- موقف الحملة الصليبية الألمانية في آسيا الصغرى ووصولها إلى قيلقية:

عند حلول الربيع تقدمت القوات الألمانية من أدريانوبل إلى غاليبولي للعبور إلى الصغرى، ولما كان إسحق يريد عبورها بسرعة، فقد أعد لها ألفاً وخمسمائة سفينة، وستا وعشرين سفينة تقاد بالمجاديف.

وبسبب خوف فردريك من التعرض لهجوم القوات البيزنطية عليه عند عبوره، فقد قسم قواته إلى ثلاث فرق، عبرت الأولى منه في الفترة من ٢٢ إلى ٢٤ مارس سنة ١١٩٠م وكان على رأسها فردريك دوق سوابيا، وعبرت الثانية في الفترة من ٢٤ إلى ٢٧ من نفس الشهر، ثم عبرت أخيرًا فرقة فردريك في ٢٨ من نفس الشهر(١).

والجدير بالذكر، أنه على أثر عبور فردريك الدردنيل، لآسيا الصغرى أرسل إسحق رسالة إلى صلاح الدين الأيوبي، يبرر له فيها سبب السماح لفردريك بالعبور، ويبدو أن ذلك كان بسبب عدم تسرب الشك إلى صلاح الدين بأن إسحق لم يف بوعوده السابقة، وفي بداية هذه الرسالة، أوضح إسحق لصلاح الدين أنه إذا كانت قد وصلته أخبار تشير إلى عبور الألمان عن طيب خاطر إسحق فهي كاذبة، ثم يحاول أن يبين لصلاح الدين مدى ما فعله في الألمان أثناء عبورهم أراضيه، ومدى الضعف الذي حل بهم، ولعل ذلك تبرير منه لعبورهم حيث قال: "وإن كنت تريد أن تعرف الحقيقة، سوف تعلم أن أفراد

---

1) Blasien: op. cit., p. 533;
Michaud: op. cit., Tom. II, p. 378;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 13;
Champdor: op. cit., p. 236;
Johson: op. cit., p. 110;

الحملة الألمانية تألمت هي نفسها من الخسائر أكثر من الخسائر التي أنزلوها بأتباعي، لقد فقدوا مالاً وخيولاً ورجالاً، فالبعض منهم مات من المرض والبؤس، والبعض الآخر قتلهم جنودي، وإن قليلاً منهم نجوا من القوات التي نشرتها في ولاياتي لمضايقتهم ، كما إن الألمان قد ضعفوا لدرجة أنه بات من المستحيل عليهم أن يدخلوا إلى أرضكم، وإذا دخلوها فسيكونون مرهقين لدرجة أنهم لن يقدروا على إيذائكم ولا مساعدة إخوانهم المسيحيين الشرقيين[1].

وقد أكد المؤرخ ابن شداد[2] تلك الرسالة بقوله: "وجاءت كتب صاحب الروم من القسطنطينية يعتذر لصلاح الدين من جهة ملك الألمان وأنه تجاوزه لكثرة جنوده، ولذلك ليبشر السلطان بأن الله سيهلكهم في كل مكان".

وفي ٢٨ مارس سنة ١١٩٠م، تقدمت القوات الألمانية داخل الأراضي البيزنطية في آسيا الصغرى، فاجتازت مدن سبيجاست Spigast (بيفاز)، وبومنينوس Poemenenos بالقرب من مانياس Manyas في ميسيا Mysie وخليارا Khliara (كيركاجاس Kirkagatsh) وثياتيرا Thyatira (أكي شهر) Aghissar، وساردس Sardas، حتى وصلت إلى فيلادلفيا (آلاشهر) Alasheir في ليديا Lydie[3].

---

1) Champdor: op. cit., p. 236;

محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسـلامي (٤٨٩ – ١٢٠٦هـ/ ١٠٩٦ – ١٤٠٤م)، ط٣، (مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٨٦م)، ص ٤٣.

٢) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص ١٩٠؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ٤٠٤،

3) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 378;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 13; =

ويشير البعض إلى أن الألمان كانوا يسيطرون على جميع السكان البيزنطيين خلال تقدمهم؛ لذا لم يتعرضوا لأية مضايقات[1]، ولكن حدثت بعض المناوشات في فيلادلفيا بين الألمان وسكان المدينة، بسبب عدم وجود المؤن، وتحدث سكان المدينة إلى الألمان بلغة متشامخة، فأقدم الألمان على تخريب المدينة، إلا أن الموقف أمكن السيطرة عليه من قبل حاكم المدينة الذي تفاوض مع فردريك، وأوضح له أن فيلادلفيا من أقدم المدن المسيحية التي قاومت وما تزال تقاوم المسلمين، فأمر فردريك قواته بالتوقف عن تخريب المدينة[2]، والسير منها في ٢٢ إبريل سنة ١١٩٠م، ولكن سكانها هاجموا مؤخرة الجيش الألماني، وقد وصل الألمان إلى لوديقا في ٢٧ أبريل من نفس العام، ثم اجتازوا مدينة هيرابوليس Hierapolis بالقرب من دينذلي في فريجيا Phrygia، ودخلوا المنطقة الواقعة غرب سوبلايون Soublaion (هوما) Homa الواقعة في أقصى الحدود البيزنطية منذ كارثة ميريوكيفالون سنة ١١٧٦م، ومن شرق سوبلايون دخلت القوات الألمانية أراضي السلطان السلجوقي قلج أرسلان الثاني[3].

وهنا نلاحظ أن المؤرخين اللاتين والمسلمين قد اختلفوا في موقف قلج أرسلان عندما دخلت الحملة الألمانية أراضية. فقد أشار المؤرخون اللاتين إلى أنه حين شعر السلطان قلج أرسلان أن السلام قد عقد بين الإمبراطور البيزنطي إسحق أنجيلوس والإمبراطور

= رنسيمان: تاريخ الحرب الصليبية، جـ٣، ص ٣٨.

1) Plasien: op. cit., p. 533.

2) Johson: op. cit., p. 110;

رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣ـ ص ٣٨.

3) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 13 – 14;

Johson: op. cit., p. 110.

الألماني فردريك، فقد غضب وصمم على إعاقة مرور فردريك داخل أراضية، فجمع جيشه وقام بتحصين الأراضي والطرق التي سوف يمر منها لمنعه من المرور(١). في حين أن المؤرخين المسلمين أشاروا إلى أن قلج أرسلان ظهر بمظهر المعادي للإمبراطور فردريك في الوقت الذي كان متضامنًا معه، وفي ذلك يقول ابن شداد(٢): "أظهر (قلج أرسلان) شقاقه وهو في الباطن قد أضمر وفاقه".

والمتأمل في موقف قلج أرسلان يرى أنه قام عشية قدوم فرديك بحملته الصليبية بتوزيع ممتلكاته بين أولاده(٣)، وكان "محكومًا عليه من ولده قطب الدين ملكشاة وهو يدبر أمره ويتولاه ويسومه الإكراه"(٤).

وبهذا يتضح أن قلج أرسلان لم يكن يتحكم في تنفيذ وعوده إلى الإمبراطور فردريك، ويؤكد ذلك جروسيه(٥)، إذ يقول: "ولكن قلج أرسلان الذي كان تحت وصاية ابنائه لم يتمكن من منع أكبرهم وهو قطب الدين ملكشاة الثاني من التقدم بجيشه للقاء الألمان، كما أن سلطته لم تكن قوية بالدرجة التي تجعله قادراً على منع القبائل التركمانية من أن تعترض سير القوات الألمانية"، الأمر الذي نستبعد معه خيانة قلج أرسلان للألمان.

---

1) Morgan: op. cit., p. 93;

Blasien: Chronicle, the Third Crusade, P. 533.

٢) النوادر السلطانية، ص ١٩٠؛

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٤.

3) Blasien: op. cit., p. 52.

٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٨٩ – ٣٩٠.

5) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 15.

على أية حال، تقدم الإمبراطور فردريك داخل أراضي قلج أرسلان حسب الاتفاقية المبرمة معه، ولكن ما إن دخلت القوات الألمانية الأراضي التركية في ٢٨ إبريل سنة ١١٩٠م ووصلت إلى منابع المايندر حتى "نهض للقائهم جمع عظيم من التركمان الأوج، وقصدوا منعهم من عبور النهر، وأنه (فردريك) وأعجزهم لكثرة خلقه وعدم وجود مقدم لهم يجمع كلمتهم، فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه"(١)، غير أن الألمان انتصروا عليهم(٢) وقد تمكن فردريك السوابي في هذه المعارك من قتل حوالي مائة وأربعة وسبعين رجلاً من السلاجقة، وفي اليوم التالي لوصولهم إلى المايندر مرت القوات الألمانية بالقرب من سسبوليس Susopolis، ثم دخلوا مضايق جبال، "وسلكوا في الأودية والآجام، ودخل الشتاء، فتراكمت عليهم الثلوج، فاحتاجوا إلى أكل الدواب" وضل الألمان الطريق إلى قونية في ٨ مايو سنة ١١٩٠م، إلى أن نزلت في سهل فيلوميليوم(٣) Philomelium ، فنشبت معركة بينهم وبين الأتراك، أصيب فيها فردريك دوق سوابيا، وجرح عدد كبير من القوات الألمانية، وقتل بعضهم، وفقدوا الكثير من خيولهم، وأموالهم وملابسهم، مما أدى إلى ندرة المؤن معهم، لدرجة أن الألمان المنهكين

---

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٠ – ١٩١؛
ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٤٨؛
أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٤؛
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٨، ق١، ص ٤٢٢.

2) Michaud: op. cit., Tom. II; p. 378;
Brehier: op. cit., p. 123.

٣) فيلوميليوم: هي مدينة Ilquin التركية، وتبعد عن قونية بحوالي ٨ أو ٩ ساعات، انظر:
Michaud: op. cit., Tom. II, p. 379, Noot I.

من الجوع والمرض الذين كانوا على وشك الموت جوعًا، فقفزوا من على خيولهم وناموا على هيئة صليب على الأرض منتظرين الموت، ولم يلبث الأتراك الذين كانوا يطاردونهم أن قضوا عليهم(١).

عسكرت القوات الألمانية أمام مدينة فيلوميليوم في ١٣ مايو سنة ١١٩٠م، فهاجمتهم القوات التركية، إلا أن الهجوم لم يسفر عن شيء، وفي اليوم التالي وقعت معركة بين الألمان والجيش التركي الرئيسي، قتل فيها من الأتراك حوالي ستة آلاف، وفي مساء هذا اليوم حلت المجاعة بالجيش الألماني، فقد نفد منهم الدقيق، وعدموا الماء والمراعي، ويبدو أن الأتراك هاجموهم آنذاك إلا أن الألمان تمكنوا من صدهم، الأمر الذي ترتب عليه نفاد المؤن من الألمان وزيادة شدة المجاعة عليهم، مما دفعهم إلى ذبح خيولهم لسد غائلة جوعهم "وألقوا بعض أقمشتهم، وجمعوا عددًا كثيرًا من زرديات وخوذ وآلات سلاح عجزوا عن حملها، وجعلوها سدرًا واحدًا وأضرموا فيها النار لتتلف ولا ينتفع بها أحد، ولعوز الحطب عندهم، وكان ذلك من البرد الشديد، وكانوا يدفنون من أعلاقهم النفسية وعُدَدِهم الرئيسية ما يعجزون عن نقله، ولا يخفون بثقله ظنًا منهم إذا عادوا أخذوها، فهلكوا، وأخذ المسلمين ما دفنوه". ثم تقدمت القوات الألمانية في صباح اليوم التالي ١٥ مايو من نفس العام، دون أن تعرف طريقها، وكانوا على وشك الموت، وقد شربوا بولهم ودم خيولهم، ومضغوا روث الخيل وأطراف العشب لكي يجدوا فيها قطرة ماء(٢). وفي خطاب بعث به أحد

---

1) Morgan: op. cit., p. 93;

Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 133;

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٨؛

Michaud: op. cit., Tom. II, p. 379;

Johson: op. cit., p. III.

٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩١؛=

القساوسة الذين كانوا برفقة الجيش إلى البابا قال له: "وكنا نجول على غير هدى مثل الخراف الضالة". ويشير ميشو[1] إلى أن فردريك كان معه مرشدون أتراك من لوديقا حتى قونية، وهؤلاء هم الذين أسرتهم قواته في الحروب، وكانوا يتقدمون الجيش، وهم مكبلون بالسلاسل.

ورغم كل هذه الصعوبات، إلا أن الإمبراطور فردريك استطاع بفضل النظام الصارم الذي فرضه على قواته الوصول بالقرب من قونية بدون خسائر كبيرة في ١٧-١٨ مايو سنة ١١٩٠م. وهنا أدرك السلطان قلج أرسلان، أن فردريك سوف يهاجم قونية بسبب ما تعرض له في بلاده من محن، ومن ثم فقد عرض عليه السماح له بالمرور بدون مشاكل بعد ذلك، وتزويده بالمؤن، ودفع ثلاثمائة قطعة من الذهب، ولكن فردريك رفض، وأبلغ سفير قلج بأنه سوف يشق طريقه بالقوة. ويبدو أن القوات الألمانية توجهت إلى قونية، اعتقادًا بخيانة قلج، والذي يقال إنه أمر بجمع المؤن من المناطق المجاورة للمدينة ووضعها داخلها، وترك المناطق المحيطة بها بدون مؤن حتى لا يجد فردريك مؤنًا إذا فكر في حصار قونية[2].

= العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٨٩؛

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥١؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨، ق١، ص ٤,٣؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢ـ ص ٣١٨؛

Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 379 – 381;

Champdor: Salah Din, p. 238;

Johson: op. cit., p. 112.

1) Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 381 – 382.

2) Morgan: op. cit., p. 93;

Blasien: op. cit., p. 534;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 14.=

وكان أن عزم فردريك على مهاجمة مدينة قونية، فقسم جيشه إلى قسمين، أحدهما قاده ابنه فردريك دوق سوابيا والآخر بقيادته، ثم تقدم الجيشان لاحتلال قونية، إلا أن فردريك دوق سوابيا هو الذي تمكن من احتلالها، وأمعن القتل في السكان، أما الإمبراطور فردريك فكان مشتبكًا مع قطب الدين ملكشاة بن قلج أرسلان، الذي حاول منع الإمبراطور من دخول المدينة، ويقال إن تعداد الجيش التركي كان حوالي مائتي ألف فارس، إلا أن فردريك تمكن من هزيمة قطب الدين الذي هرب إلى داخل المدينة، فلحق به فردريك وانضم إلى قوات ابنه، فقامت القوات الألمانية بنهب المدينة وأحرقت أسوارها، فحصلوا منها على مؤن وفيرة، وعبر عن ذلك أحد المؤرخين الذين صاحبوا الحملة بقوله: "إن الجنون الذي كان ساكنًا في أمعائنا هدأ نوعًا ما، بواسطة الغنائم، فلم يكن هناك القمح والشعير فقط، بل كان هناك الذهب والفضة، والمجوهرات والملابس الأرجوانية التي قدرت بأكثر من مائة ألف مارك، وكان هناك فرح كبير بسبب سلب مهر ابنة أخ صلاح الدين الأيوبي في قصر السلطان"[١]، وقد حدث كل ذلك والسلطان قلج أرسلان متحصنًا داخل قلعة المدينة[٢].

= Johson: op. cit., p. 112.

١) هي ابنة العادل أخ صلاح الدين الأيوبي، وكانت متزوجة من قطب الدين ملكشـــاة، وقـد اعتبرها العديد من المؤرخين ابنة صلاح الدين. انظر:

Johson: op. cit., p. 113 (Noot) 34.

2) Morgan: op. cit., p. 93;

Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 133 – 134;

Blasien: Chronicle, The Third Crusade, p. 534;

العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٨٩؛

ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٨؛

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٦؛=

وفي محاولة من قلج أرسلان لتجنيب المدينة أعمال النهب والسلب والقتل، فقد عرض الصلح على الإمبراطور فردريك، فوافق الأخير على ذلك؛ لأنه لم يكن راغبًا في البقاء في قونية، ولهذا خرج قلج أرسلان لمقابلة فردريك[1]، ولكن المؤرخين المسلمين أشاروا إلى أن الألمان "نازلوا قونية، وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له: "إنا لم نصل لأخذ بلادك، وإنما نزلنا لثأر البيت المقدس، وطلبوا الهدنة منه، فهادنهم، وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره"[2]. وأيًّا كان البادئ بطلب الصلح، فقد عقدت بينهما معاهدة، نصت على أن يكون قلج أرسلان تابعًا لفردريك، وأن تنتهي المقاولة التركية للألمان، كما تفتح الأسواق التركية أمام الجيش الألماني، وتم الاتفاق على قيام تعاون بينهما ضد صلاح الدين الأيوبي، وبمعنى آخر تقسم الممتلكات الأيوبية بين قلج أرسلان وفردريك، وأن يسلم قلج أرسلان لفردريك جماعة من الأمراء الأتراك كرهائن، ولحماية الجيش الألماني من لصوص التركمان حتى يصلوا إلى بلاد الأرمن، وقد انتهز قطب الدين هذه الفرصة للتخلص من

= ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٨ – ٣١٩؛

Michaud: op. cit., Tom. II, pp. 380 – 381;

Johson: op. cit., pp. 112 – 113.

وينفرد عبد المنعم ماجد بقوله" إن ملك الألمان دخل قونية عاصمة الأتراك السلاجقة، باتفاقه مع ابن قلج أرسلان الأكبر المسمى قطب الدين ملكشاة" انظر: مؤلفه، صلاح الدين الأيوبي، ص ١٣٤.

1) Blasien: op. cit., p. 534;

Johson: op. cit., p. 113.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٨ – ٤٩؛

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٦؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٨ – ٣١٩.

الأرمان الأتراك المناوئين له في الحكم "فنفذ معهم خمسة وعشرون أميرًا من المقدمين"، وتمت الموافقة على هذه الشروط من كلا الجانبين، وآلت مدينة قونية للسلطان مرة ثانية(١).

لم يمكث فردريك في قونية سوى خمسة أيام، ثم تركها وأقام معسكرة في خارجها في ٢٣ مايو سنة ١١٩٠م، فأرسل له قلج أرسلان المؤن، ويقال إن الألمان اشتروا حوالي ستة آلاف من الخيل والبغال، والخبز واللحم، والسمن والجبن من الأسواق المقامة هناك، ولكن الألمان كانوا يقتلون كل من يعترضهم في أسعار البيع والشراء، وعندما علم قلج بذلك، أرسل إلى فردريك يطلب منه وقف الأعمال التعسفية ضد الأتراك، إلا أن فردريك لم يهتم بذلك فأمر قلج أرسلان بإعداد قواته لمواجهة أعمال العنف الألمانية(٢).

وبعد أن أخذ الجيش الألماني كفايته من المؤن تحرك في ٢٦ مايو سنة ١١٩٠ في اتجاه أرمينيا، واتخذ الطريق إلى لاراندا Laranda

---

1) Morgan: op. cit., p. 93;

Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 134;

العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩٠؛

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٣٩١؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٩؛

Grousset: Histoires des Croisades, Tom. 3, p. 15.

2) Morgan: op. cit., pp. 93 – 95;

Champdor: Salah Din, p. 238;

Johson: op. cit., p. 113;

وتحمل المصادر الأوربية على موقف قلج أرسلان قائلة: "إن تصرف السلطان يمثل تحديًا للألمان، وكانت تلك عادات المسلمين حين يشعرون أن الأمور في صالحهم فيقومون بخرق المعاهدات". انظر:

Eracles: op. cit., Tom. II, p. 135 – 136.

(قرمان) Qaraman في اتجاه الحدود الأرمينية التركية، فعبر الجيش الألماني جبال طوروس، ووصل إلى لاراندا على حدود قليقية في ٣٠ مايو سنة ١١٩٠م[١] ولكن أثناء تقدم الألمان إلى لاراندا حدثت بعض الاشتباكات بينهم وبين الأتراك، اعتبرتها المصادر الأوروبية أنها حدثت من قبل الجيش النظامي التركي[٢].

في حين أن المصادر الإسلامية أشارت إلى أن تلك الاشتباكات كانت من قبل اللصوص بغرض النهب والسلب، الأمر الذي أدى إلى غضب فردريك على الرهائن الأتراك الذين كانوا معه، فهدد بإعدامهم، وقيدهم بعد أن أخذ كل ما كان معهم، ثم كان منهم من خلص بعد ذلك نظير فدية ضخمة، ومنهم من مات في الأسر"[٣]، وهكذا أصبح الألمان بوصولهم إلى لاراندا في منطقة الأمان.

والجدير بالذكر، أن وصول الألمان إلى الأراضي الأرمينية، كان له تأثير كبير على المسلمين وعلى صلاح الدين الأيوبي الذي تأثر لقدوم فردريك ومعه حوالي أربعين ألف رجل، فأعلن صلاح الدين الجهاد في أنحاء العالم الإسلامي، وأنذر أمراء الموصل والجزيرة وكردستان بخطورة الموقف، ثم جمع صلاح الدين كبار رجال دولته وتباحث معهم حول ما يجب اتخاذه حيال الإمبراطور فردريك، فأشار عليه البعض بالخروج لملاقاة فردريك قبل اتصاله بالكيان الصليبي

---

1) Johson: op. cit., p. 113;

2) Morgan: op. cit., p. 95;

Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 135 – 136.

٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٩.

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٦.

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٨.

النويري: نهاية الأرب، جـ٨، ق ١، ص٤٢٣.

في عكا، غير أن صلاح الدين رفض ذلك، وأشار بعدم ملاقاة الألمان إلا بعد اقترابهم من بلاد الشام، واتفق صلاح الدين مع كبار رجال دولته على إرسال بعض القوات إلى البلاد الواقعة في الطريق الذي يمر منه الجيش الألماني" فسير بعض من عنده من العساكر، منها عسكر حلب وجبلة واللاذقية وشيزر وكفر طاب وبارين وبعلبك ومنبج، إلى أعمال حلب ليكونوا في أطراف البلاد يحفظونها من عاديتهم"(١). كما أمر صلاح الدين بهدم أسوار طبرية ويافا وأرسوف وقيسارية وصيدا وجبيل، ونقل من فيها إلى بيروت؛ حتى لا يستفيد منها الألمان خلال تقدمهم(٢). ومما يدل على مدى خوف المسلمين من الألمان تركهم لقلعة بغراس(٣) التي استولى عليها الصلاح الدين بعد استرداده بيت المقدس، ولهذا عندما وجدها فولك من بويون Foulque de Bouillion بن ليو الثاني الأرمني خالية استولى عليها باسم الأخير واحتفظ بها عشرين سنة بعد ذلك(٤). والجدير بالذكر، أن بعض المسلمين فكروا في الهروب من بلاد الشام بسبب اقتراب فردريك بربا

---

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٦ ، ١٩٧.

ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٥٠.

٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٣١.

Morgan: op. cit., p. 98;

Vitry: The History of Jerusalem, vol. V, p. 111.

٣) بغراس: هي قلعة جاستون، وتقع على طريق الثغور شمال شرق إسكندرونة، بينها وبين إنطاكية اثنا عشر ميلاً والإسكندرية نفس المسافة، وتقع على الجبل المطل على حارم.

انظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، نشره رينوو ديسلان، (باريس، ١٨٤٠م)، ص ٢٥٨ – ٢٥٩.

4) Morgan: op. cit., p. 96;

Fedden (R.) and Thomson (J.) Crusader Castles, (London, 1957), p.36.

روسا منها[١]، ولا شك أن اقتراب فردريك من بلاد الشام يعد أعظم خطر يتعرض له المسلمون قبل الغزو المغولي[٢].

والجدير بالذكر، أن أخبار رحيل الألمان من قونية ووصولهم إلى حدود قيلقية، وصلت إلى صلاح الدين، عن طريق قلج أرسلان وابنه قطب الدين اللذين اعتذروا عن عدم قدرتهما على منع فردريك من عبور بلادهما وأنهما اضطرا لذلك"[٣].

- وفاة الإمبراطور فردريك وأثره على المسلمين وليو الثاني والقوات الألمانية:

ومهما يكن من أمر، ففي لاراندا قدم الأمراء الأرمن إلى فردريك ورحبوا به، وشكروه على قدومه لقتال المسلمين، وقدموا له فروض الولاء والطاعة، كما قدمت إليه سفارة من قبل ليو الثاني الأرمني Leon II (١١٨٧ - ١٢١٩) أمير أرمينيا، لتقدم له المساعدات التي يحتاجها، ويرحبوا به كصديق لهم[٤]، ثم تقدمت القوات الألمانية من لاراندا عبر جبال طوروس حتى وصلوا إلى طرسوس[٥] فأقاموا هناك

---

١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص ٥٠.

2) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3,p. 16.

٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٣؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٩؛

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 14.

4) Blasien: Chronicle, the Third Crusade, p. 535;

Michaud: op. cit., Tom. II, p. 383;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 15.

٥) إحدى مدن آسيا الصغرى، وكانت ثغرًا من ناحية بلاد الروم في آسيا الصغرى على ساحل البحر الشامي (الأبيض المتوسط). انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ١٣، ص ٢٨ - ٢٩.

على شواطئ نهر السالف[1] (كاليكادنوس Calycadnus) ليعبروه، فوصل آنذاك ليو الثاني بنفسه ليقابل فردريك، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه، لضيق القنطرة التي كان يعبر عليها الألمان النهر، فأرسل اثنين من رجاله هما: قسطانز Costans وبدوان من كامارديس Baudoyn de Camerdeis لفردريك، ليحولاه إلى طريق آخر غير القنطرة وعندما علم فردريك منهما ذلك خاطبهما قائلاً: "إنه لا يعلم أي طريق غير طريق القنطرة، ويمكن العبور من هناك دون صعوبة؛ لأن النهر هادئ ولا يشكل خطرًا" وعندئذ، اعتلى جواده، فقال له ابنه فردريك دوق سوابيا: "سيدي إننا سنعبر أمامك وسنريكم طريق العبور، الذي يمكنكم المرور منه سالمين، ومروا أمامه، فتبعهم بجواده، وتبعه عدد آخر من الفرسان، وحين صاروا في منتصف النهر، وبسبب المجهود الشاق الذي بذله فردريك، وبرودة النهر، فقد قوته وقدرته على مواصلة السير في النهر، فسقط في وسط الماء، وكان باقي الفرسان يعانون من مشقة الطريق، لذلك لم يكن هناك من يقوى على إغاثته حتى مات في ١٠ يونيه سنة ١١٩٠م[2].

وتذكر بعض المصادر أنه عندما عبرت القوات الألمانية النهر، طلب فردريك موضعًا يعبر منه وحده، "فدخل في مخاضة قوية

---

١) حاليًا جوق صو Goksu قرب سلوقية في ولاية قيلقية بآسيا الصغرى.

انظر: حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، (الزهراء للإعلام العربي، سنة ١٩٨٧م)، ص ٢٦٩.

2) Morgan: op. cit., p. 97;

Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 137;

Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 17;

Newby (P.H.) Saladin in His time (London, 1983)p. 142;

أنتونى بردج: المرجع السابق، ص ١٧.

الجرية فاختطفته سورة الماء إلى شجرة شجت رأسه، فاستخرجوه وهو في آخر رمق فهلك عن قرب. وتشير بعض الروايات إلى أن فردريك أراد أن يرطب جسده بسبب حرارة الصيف فنزل إلى الماء، لمهاراته في السباحة إلا أنه لم يستطع مقاومة التيار فغرق. كما تشير رواية أخرى إلى "أن فردريك أكل خبزًا، ونام ساعة، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، ففعل ذلك وخرج، وكان من أمر الله أنه تحرك عليه مرض عظيم في الماء البارد، فمكث أيامًا قلائل ومات"(١).

ولاشك أن تلك الكارثة المفاجئة أنقذت بلاد الشام من فردريك برباروسا وخلصت صلاح الدين من عدو كان يعمل له ألف حساب؛ وذلك لأنه كان سيقع بين جيوش فردريك القادمة عبر الطريق البري من الشمال، والجيوش الإنجليزية والفرنسية القادمة من الجنوب عبر الطريق البحري، كما أن المسلمين فرحوا فرحًا شديدًا؛ "لأن الله أراح منه (من فردريك) المسلمين والبلاد"(٢)، وهكذا يمكن القول إن خطر الحملة الألمانية زال عن بلاد الشام ولو إلى حد ما(٣).

وفي تلك الأثناء كان ليو الثاني الأرمني في طريقه لمقابلة فردريك فعلم من رسله الذين كان قد أرسلهم إلى فردريك بموته، فرجع ليو الثاني دون أن يقابل ابن الإمبراطور فردريك دوق سوابيا، ولم يلبث الأخير أن استعطفه قائلاً: "إن أبي كان شيخًا كبيرًا، وما قصد هذه

---

[1]) Blasien: op. cit., p. 535;

العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩٠؛

ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص٤٩٠؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣١٩، ٣٢١.

٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢ـ ص ٣١٩؛

ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٢١.

٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢ـ ص ٦٦٨.

الديار إلا لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك، وعانيت المشاق في هذا الطريق، فمن لم يعطني قصدت دياره" الأمر الذي أدى إلى قدوم ليو الثاني إليه[1].

وهنا نلاحظ أن ليو عمل على التودد إلى صلاح الدين الأيوبي، فطلب من بطريرك الأرمن أن يكتب إلى صلاح الدين خطابًا يشرح له فيه حال الألمان، فبين البطريرك في الخطاب "أنهم عدد كثير ولكنهم ضعاف قليلوا الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة، ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم، فعبر منهم جمع عظيم ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحًا إلا النادر، فسألتهم عن ذلك فقالوا: أقمنا بمرج... فقل زادنا وأحطابنا، وأوقدنا معظم عُدَدِنا، ومات منا خلق كثير، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها، وأكلناها، وأوقدنا الرماح والعدد لأعواز الحطب"[2].

والواقع أن وفاة فردريك بربا روسا كانت شديدة الوطأة على قواته؛ لأنه كان الرمز، بل والراعي الذي يقود جيشه، ولهذا عندما مات أصبحوا كقطيع من الأغنام الذي فقد راعيه، فأدى ذلك إلى إضعاف روحهم المعنوية وسيطرة اليأس عليهم، وفتور حماسهم، وانعدام تماسكهم، فمات منهم الكثير من الحزن وتحولت الحملة الألمانية إلى شبه موكب جنائزي، ورثى مؤرخ حولي من كولونيا فردريك قائلاً: "عند هذه النقطة، وعند هذه الأخبار المحزنة، تحطم

---

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٢ - ١٩٦؛

العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩١ - ٣٩٣؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٢١؛

Champdor: Salah Din, pp. 243 – 245.

٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٩٨ - ١٩٩.

Michaud: op. cit., Tom. II, p. 385.

قلمنا، وانتهي سردنا". وترتب على وفاة الإمبراطور فردريك عودة العديد من الأمراء الألمان لأوطانهم من موانئ قليقية[١]. ويشير بعض المؤرخين إلى أن وفاة فردريك لم تكن نكبة على قواته فحسب، بل خسارة للمسيحية كلها؛ لأن نبأ قدوم فردريك على رأس جيش ضخم رفع الروح المعنوية للفرسان الصليبيين الذين كانوا يقاتلون حول عكا، وكان جيشهُ وحده كافيًا للاستيلاء على بيت المقدس من صلاح الدين الأيوبي[٢].

وعلى أية حال، فقد قام دوقات الجيش الألماني بانتخاب فردريك دوق سوابيا قائدًا لهم[٣] بعد وفاة والده، فتمكن من جمع فلول جيش أبيه، وقام بتقسيمه إلى ثلاث فرق، اتخذت إحدى هذه الفرق طريقها بحرًا من طرسوس إلى طرابلس، أما الثانية فقد واصلت سيرها برًا لإنطاكية، في حين أن الثالثة رافقت فردريك دوق سوابيا لإنطاكية[٤].ولكن عددًا من القوات الألمانية لم تكن راغبَة في تولية

---

1) Morgan: op. cit., p. 97;
Michaud: op. cit., Tom. II, p. 384;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 17;
Mayer: The Crusades, pp. 138 – 139.

2) Morgan: op. cit., p. 97;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٠.

٣) يذكر ابن واصل أن الإمبراطور فردريك بربروسا منذ خروجه إلى بلاد الشام قام بتعيين ابنه فردريك دوق سوابيا بدلاً منه في حالة وفاته، انظر: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٢١.

٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩١:
ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٨؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٢٢؛=
= Michaud: op. cit., Tom. II, p. 385;

فردريك دوق سوابيا قائدًا عامًا عليهم، حيث كانوا يميلون إلى أخيه الإمبراطور هنري السادس (١١٩٠ – ١١٩٧م)، ولذلك تركوا الجيش الألماني وعادوا لأوطانهم[١].

– وصول القوات الألمانية لبلاد الشام ودورها في حصار عكا:

وقام فردريك بسلق جسد والده في الخل، وحمل عظامه معه لدفنها في كنيسة القيامة بالقدس، ويبدو أن الإمبراطور نفسه هو الذي كان قد أوصى بذلك[٢].

ثم تقدم الجيش الذي كان يقوده فردريك دوق سوابيا، ومعه رفاة فردريك برباروسا، "والذي كانت شجاعته تساند قواته حتى بعد وفاته" وقد وصلت هذه الفرقة لإنطاكية في ٢١ يونيو سنة ١١٩٠م[٣].

وقد اختلف المؤرخون في وصول فردريك دوق سوابيا لإنطاكية مع هذه الفرقة، فالبعض يذكر أنه مرض مرضًا شديدًا أقام بسببه بموضع يسمى التينات في أرمينيا الصغرى، وأقام معه خمسة وعشرون فارسًا وأربعون داويًا، وعندما شعر ليو الثاني حاكم أرمينيا بضعفهم طمع فيهم، وعزم على الاستيلاء على الأموال التي كانت مع فردريك دوق سوابيا، أما بقية جيشه فقد واصلت السير حتى وصلت لإنطاكية في ٢١ يونيو سنة ١١٩٠م وعندما استرد فردريك عافيته

Johson: op. cit., pp. 114 – 115.

١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٩.

٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩١؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ١، ص ٤٠٣؛

Johson: op. cit., p. 115.

3) Michaud: op. cit., Tom. II, p. 384;

Champdor: op. cit., p. 241;

Johson: op. cit., p. 115.

لحق بهم بعد عدة أيام[1]، في حين يذكر البعض الآخر أنه حُمل مريضًا وذهب في صحبة قواته لإنطاكية[2]، والتي بلغت على حد قول بعض المؤرخين حوالي خمسة آلاف رجل[3].

تقابل فردريك دوق سوابيا في إنطاكية مع بقية القوات الألمانية، والواقع أن قوات الفرقة الأولى الألمانية عندما غادرت طرسوس، ضلت طريقها "وكان معظم رجالها حملة عصى وركاب حمير غير عارفين بطريق ولا متحفظين في سير، والناس يلتقطونهم؛ ولهذا جاءوا إلى قلعة بغراس اعتقادًا منهم أنها مازالت في يد الصليبيين، ففتح لهم والي القلعة الباب، وتسلم منهم الأموال، وتمكنت "عسكر بغراس مع قلته من أخذ مائتي رجل قهرًا ونهبًا، وكتبوا إلى صلاح الدين يُخبرون عنهم بالضعف العظيم والمرض الشديد، وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات، وعندما علمت قوات حلب بذلك، قاموا بمهاجمة القوات الألمانية، فأسر كل واحد من الحلبيين ثلاثة أو أربعة من الألمان، وعادوا بالأسرى إلى حلب وباعوهم في الأسواق، ولم يأمنوا على أنفسهم إلا بعد وصولهم إلى إنطاكية[4].

---

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٨ – ١٩٩؛
العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩٥.

2) Morgan: op. cit., p. 99;
Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 17 – 18.

3) Newby: Saladin in His Time, p. 143.

٤) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩٥ – ٣٩٦؛
ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٩٨ – ١٩٩.
أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٥٦؛
Johson: "The Crusade Frederick Barbarossa and Henry VI, p. 115;
Michaud: op. cit., Tom. II, p. 385.

والجدير بالذكر، أن بوهيموند الثالث أمير إنطاكية استقبل فردريك دوق سوابيا استقبالاً كبيرًا، وعامله معاملة حسنة، وأظهر له المودة والطيبة[١]، ولكن هذا الاستقبال لم يكن حبًا فيه، بل رغبة في الاستيلاء على الأموال التي كانت معه "عندما يموت عنده، ولكن فردريك دوق سوابيا شفي من مرضه واستولى على قلعة إنطاكية من أميرها، كما استولى على خزائن أموال بوهيموند الثالث نفسه، وأجبر بوهيموند على تأدية يمين الولاء والطاعة له[٢]، وخلال وجود فردريك في إنطاكية قام بدفن عظام والده التي حملها معه من طرسوس في احتفال كبير[٣].

وكان أن أصاب مرض الطاعون القوات الألمانية في إنطاكية، مما ترتب عليه وفاة عدد كبير من أكابرهم منهم جود فري أسقف فرزبورج، ومارتن أسقف ميسين Meissen، والمرجواف هرمان من بادن، وبركهارد من ماجد برج، والكونت فلورنت من هولندا، والكونت بوبو من هينبرج Poppo of Heneberg ولكن بعد انتهاء موجة الطاعون هذه، رغب بوهيموند الثالث في توجيه الألمان لمهاجمة مدينة حلب، ولكن فردريك دوق سوابيا رفض ذلك، وفضل السير إلى عكا للمشاركة في حصارها مع باقي الصليبيين، فزين له بوهيموند الرحيل إلى عكا[٤].

---

1) Champdor: op. cit., p. 242.

٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ١٩٩، ٢١٣،
أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص ١٥٦ – ١٦٠،
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٣،
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٢.

3) Morgan: op. cit., p. 98;
Blasien: op. cit., p. 535.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٩،=

وقد غادر فردريك دوق سوابيا إنطاكية بقواته في أواخر أغسطس سنة ١١٩٠م عبر الطريق الساحلي إلى طرابلس، ولكن خلال تقدمه، هاجمته قوات حلب بقيادة الملك الظاهر بن صلاح الدين "وأخذوا منهم خلقا كثيرًا". وبين اللاذقية وجبلة هاجمته أهالي المدينتين، وأسروا من الألمان أعدادًا كبيرة علاوة على ما قتلوه، "ولما ساروا من اللاذقية يريدون جبلة وجدوا في أعقابهم نيفا وستين فرسًا قد عطبت، وانتزع لحمها، ولم يبق فيها إلا العظام من شدة الجوع"[1]. ورغم ذلك وصل فردريك إلى طرابلس في منتصف سبتمبر من نفس العام، فمكث بها بضعة أيام للراحة بسبب ما شاهده في الطريق، وآنذاك وصل إلى صلاح الدين الأيوبي خبر وصول الجيش الألماني إلى طرابلس غير أن ذلك لم يؤثر عليه[2].

والجدير بالذكر، أن فردريك دوق سوابيا أرسل رسالة من مدينة طرابلس إلى الجيش الصليبي المحاصر لمدينة عكا، يخبره بقرب وصوله إليهم، ولكن يبدو أن قدوم القوات الألمانية لم يبعث السرور في قلوب الصليبيين خوفا من تسلم الألمان دفة الأمور في بلاد الشام[3].

= أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٥٦،

ابن خلدون: العبر، جـ٥، ق١، ص ٧٠١،

Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 17 – 18;

Champdor: Salah Din, pp. 241 – 242.

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٤ – ٢١٤،

ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص ٤٩؛

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٩٠،

Johson: op. cit., p. 115.

٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٢٤،

ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢١٥ – ٢١٦.

٣) أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢ـ ص ١٦٠، =

والواقع، أن كنراد من مونتفرات صاحب صور، كان قد وصل لاستقبال فردريك دوق سوابيا في إنطاكية، وهو الذي سار به عبر الطريق الساحلي حتى طرابلس، خوفًا من مهاجمة أهل حلب وحماه له، ولكن رغم ذلك قتل من الألمان أعدادًا كبيرة في الطريق[1].

هذا ويشير بعضُ الباحثين إلى أن كنراد من مونتفرات لم يتوجه إلى إنطاكية لاستقبال فردريك دوق سوابيا، بل كان مشغولاً آنذاك بحصار مدينة عكا ضد المسلمين، وعندما وصل فردريك دوق سوابيا إلى مدينة صور، ترك كنراد حصاره لمدينة عكا، ولحق به في صور[2].

وخشية التعرض لهجمات المسلمين، قرر فردريك دوق سوابيا الوصول لعكا عن طريق البحر، فكان أن استقل المراكب الصليبية التي وصلت إليه، ولكن لم تمض إلا ساعة من النهار حتى قامت عليهم ريح عاصفة، وثار عليهم الموج من كل مكان، وهلك منهم ثلاثة مراكب حمالة وعاد الباقون لمدينة طرابلس بما فيهم فردريك وكنراد دي مونتفرات، حتى سكنت الرياح، ثم أقلعوا مرة ثانية حتى وصلوا

= ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٣٣٦.

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٤؛

أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢ـ ص ١٦٠،

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٤٢ – ٤٣،

ويذكر بعض المؤرخين، أن خصوم كنراد مونتفرات أشاعوا أن صلاح الدين قد منح كنراد ستين ألف دينار كي يجعل فردريك دوق سوابيا يغادر إنطاكية، وذلك لأنه فيها أكثر نفعًا لمصلحة الصليبيين، وخطرًا على المسلمين. انظر:

رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٤٣،

الباز العريني: الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١ـ ص ٨٩٥.

2) Champdor: Salah Din, p. 241.

إلى صور، ومن هناك أرسل فردريك قواته إلىَ عكا، وأقام بصور إلى ليلة ٧ أكتوبر سنة ١١٩٠م (٦ رمضان سنة ٥٨٦هـ)[(١)].

ويشير البعض إلى أن فردريك دوق سوابيا عندما وصل إلى صور كانت قواته عددها حوالي سبعة أو ثمانية آلاف من المشاة وسبعمائة فارس[(٢)]، ولكن من مدينة صور عاد الكونت أدولف من هولشتين Adolf of Holstein لألمانيا[(٣)].

غادر فردريك دوق سوابيا مدينة صور، متجهًا لعكا فوصلها في ٧ أكتوبر سنة ١١٩٠م (٦ رمضان ٥٨٦هـ)[(٤)]، وقد اختلف المؤرخون حول تعداد القوات الألمانية التي وصلت مع فردريك دوق سوابيا لعكا، ففي الوقت الذي يذكر فيه البعض أنها بلغت حوالي ألف فقط[(٥)]، يذكر البعض الآخر أن عددهم تراوح بين ألفين إلى خمسة آلاف[(٦)]. ورغم أن قوات فردريك كان لها تأثير كبير في رفع الروح المعنوية للقوات الصليبية المحاصرة لعكا، إلا أن تلك القوات لم تكن راغبة في قدوم فردريك، بل كانت راغبة في أن يبقى فردريك بربار وسا في ألمانيا ويرسل لهم القوات فقط[(٧)].

---

١) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٩.

Johson: op. cit., p. 115.

2) Champdor: op. cit., p. 241.

3) Johson: op. cit., 115.

4) Johson: op. cit., p, 115.

٥) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٣٩٢،
أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢، ص ١٥٦؛
ابن الوردي: المختصر، جـ٢، ص ١٥٤؛
القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٥، ص ٤٠٣.

٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٢، ص ٣٤١،

Michaud: op. cit., Tom, II, p. 385.

٧) العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٤٤١،=

والجدير بالذكر، أن الألمان لعبوا دورًا في حصار عكا قبل وصول فردريك دوق سوابيا، ولكن هذا الدور لم يكن كبيرًا، مما جعل المصادر التي تتحدث عن الحملة الصليبية الثالثة تصمت عن ذكرهم تمامًا، حيث تشير إلى أنه قبل انتهاء شهر سبتمبر سنة ١١٨٩م وصلت جماعة من القوات الألمانية إلى مدينة صور، وكان على رأسها لويس دوق ثورنجيا، وكان لوصول هذا الدوق دورٌ كبيرٌ في بلاد الشام؛ وذلك لأنه تمكن من إقناع كنراد دي مونتفرات أمير صور أن يلحق بالقوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا، كما أن لويس شارك بقواته الألمانية في الهجوم الذي شنه الصليبيون على مدينة عكا، وعلى خطوط صلاح الدين الأيوبي في ١٤ أكتوبر سنة ١١٨٩م، ولكن لويس ما لبث أن عاد إلى ألمانيا[1]. ويشير بعض المؤرخين إلى أن قوات صليبية غادرت أوربا في مايو سنة ١١٨٩م، متجهة إلى بلاد الشام، وتكونت هذه القوات من الدانيين والفريزيين والألمان الشماليين والفلمنك، وقاد القوات الألمانية والفريزية أوتوكونت جولدرز Guelders وهنرى كونت أتنبرج Atenburg[2] والجدير بالذكر، أن وصول هذه القوات لبلاد الشام غير محدد بتاريخ معين.

= ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٤،

أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ١٦٠؛

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٨، ص ٤٢٥.

1) Champdor: Salah Din, p. 222;

Johson: op. cit., p. 115;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٥٦ – ٥٧.

2) Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, pp. 127 – 128;

Painter (S.) "The Third Crusade Richard the Lion hearted and Philip Augustus", in setton: History of the Crusade, vol., II, pp. 50 – 51.

وللواقع أنه منذ أن وصل دوق سوابيا إلى عكا، كان متحمسًا لقتال المسلمين ويؤكد ذلك ما قاله ابن شداد[1]، من أن دوق سوابيا "أراد أن يظهر لمجيئه أثرًا، فوبخ القوم على طول مقامهم". ولكن الصليبيين الذين جربوا حروب المسلمين، وعرفوا قوتهم، حاولوا منعه عن الإقدام على مهاجمة المسلمين؛ لأن نتائج ذلك سوف تكون وخيمة عليه، إلا أنه تشبث برأيه وقال: "إلام القعود عن القوم، وما بقي النهوض إليهم من اليوم، ولابد من ضرب المصاف معهم، وإني على الخروج إليهم لأدفعهم"[2]. ومن ثم عندما رأى صليبيو بلاد الشام أن دوق سوابيا مصرًا على مهاجمة قوات صلاح الدين، حاولوا توجيهه إلى مهاجمة تل العياضة الذي ترابط عليه طليعة الجيش الأيوبي، فتقدمت القوات الألمانية، وخلفها باقي القوات الصليبية، حتى وصلوا إلى تل العياضة واصطفوا للقتال، ثم دارت معركة عنيفة بينهم وبين طليعة الجيش الأيوبي، انهزمت فيها القوات الألمانية والقوات الصليبية المصاحبة لها، وهربوا جميعًا إلى عكا، فطاردتهم جيوش صلاح الدين حتى حال الليل بين هؤلاء وأولئك وكان أن قرر فردريك دوق سوبيا عدم الدخول في معركة ثانية مع قوات صلاح الدين الأيوبي، وعزم على تحويل جهوده إلى عكا أملاً في الاستيلاء عليها[3].

---

١) النوادر السلطانية، ص ٢٢٠.

٢) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٢٤ – ٤٢٥.

٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٢٥ – ٤٢٦،

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٢٠ – ٢٢١،

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٣٠،

Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 38;

Newby: Saladin in His Time, p. 146.

وبعد الهزيمة التي حاقت بفردريك عكف على صنع بعض الآلات الحربية التي تساعد في الهجوم على القلاع والحصون الإسلامية، ومن هذه الآلات آلة تسمى دبابة[1] "يدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم، وإذا نطحت السور دخلت فيه وهدمته"[2].

ومن الآلات التي ابتكرها الألمان لهدم أسوار مدينة عكا، آلة تسمى "قبو"[3] يدخل فيها الرجال، وتستعمل في تهديم الأسوار لثقلها[4]. وبعد استكمال صنع هذه الآلات، قام فردريك دوق سوابيا بشحنها بالقوات الألمانية، وقوات أخرى من صليبيي بلاد الشام،

---

١) الدبابة: إحدى آلات الحصار التي ابتكرها الألمان، وهي عبارة عن كتلة من الخشب المكسو بصفائح من الحديد، المغطى بجلود منقوعة في الخل لمنع النيران من الاشتعال فيها، وهي مقامة على عجل، تحركه القوات التي تركب داخلها، وفي مقدمتها قطعة هائلة من الحديد يقال لها الكبش، له قرنان في طول رمحين كالعمودين الغليظين، وهذا الكبش تم تغطيته بصفائح الحديد؛ لأنه مصنوع من الخشب، وتم تغطية الخشب بجلود منقوعة في الخل حتى لا تشتعل فيه النيران: انظر:

العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٤٣٢،

ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٢١،

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ ٨، ق١، ص ٤٠٤،

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٨، ص ٤٢٨.

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 38.

٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٢١.

ابن الجوزي: المصدر السابق، جـ٨، ق١، ص٤٠٤.

النويري: نهاية الأرب، جـ٢٨، ص ٤٢٨.

٣) القبو: آلة من الخشب، مغطاة بالجلود المسقاة بالخل، وفي مقدمتها كتلة من الحديد تسمى كبشًا، وهي مدببة تشبه حديد المحراث، وكانت تسمى أيضًا السفود. انظر:

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٢١.

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٣٣٤.

٤) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢ـ ص ٣٣٤.

وزحف على مدينة عكا في ١٤ أكتوبر ١١٩٠م (١٣ رمضان ٥٨٦هـ)، تصاحبه أعدادٌ ضخمّة من القوات الصليبية، وعندما قاربت هذه الآلات أسوار مدينة عكا ورآها سكان المدينة والمدافعون عنها من المسلمين، اعتراهم الخوف، واعتقدوا أن المدينة ساقطة في يد فردريك دوق سوابيا لا محالة[١]، هذا في الوقت الذي تحصن فيه أعداد كثيرة من القوات الصليبية المتحالفة في خندق قبالة المدينة، ونصبوا على أسوارها المنجنيقات، فقام المسلمون بقذف هذه القوات بالمنجنيقات وغيرها من آلات الحصار، وفتحوا أبواب مدينة عكا، وهاجموا القوات الصليبية المتحالفة، فحاصروهم في الخندق، فانهزمت تلك القوات وهربت إلى معسكرها، في حين أن البعض من الصليبيين بقي في الخندق فأعمل فيهم المسلمون السيف، أما الدبابة الألمانية فبعد هروب الصليبيين ألقى عليها المسلمون النار والنفط، حتى تم حرقها وظهرت لها لهبة نحو السماء، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل والشكر لله، وسرت نار الكبش إلى القبو فاحترق هو الآخر، وعلق المسلمون في الكبش الكلابيب الحديدية، فسحبوه وهو يشتعل حتى حصلوه البلد، وكان مُركبًا من آلات هائلة عظيمة، فأُلقي الماء عليه حتى برد حديده بعد أيام "وكان الحديد الموجود على الدبابة يزن حوالي مائة قنطار شامي، "والقنطار الشامي مائة رطل"، وتم قطع رأسه وإرسالها إلى صلاح الدين الأيوبي[٢].

---

١) العماد الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٣٢ – ٤٣٣،
ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢١١ – ٢٢٢،
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٤.

٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٢٢ – ٢٢٤،
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٤.
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٨، ص ٤٢٨.

ومن الآلات التي صنعها فردريك دوق سوابيا وقواته بطسة[1] هائلة وضعوا فيها برجًا بخرطوم، إذا أرادوا قلبه على السور انقلب بالحركات، ويبقي طريقًا يمشى عليه المقاتلة، وعزموا على تقريبه إلى برج الذبان[2] ليأخذوه به؛ وذلك لأن سيطرتهم عليه سوف تمنع دخول الميرة إلى عكا، ومن ثم قاموا بتقريبه من البرج يوم الأربعاء ١٦ أكتوبر سنة ١١٩٠م (١٥ رمضان ٥٨٦هـ)، ولكن القوات المدافعة عن عكا قامت بغتة بضرب هذه البطسة "بقوارير النفط فاحترقت وارتفع لهيبها في البحر، فحزن الألمان لذلك حزنا شديدًا، وغشيته (فردريك) كآبة عظيمة، ووقع خذلان عظيم"[3]. كما أن فردريك دوق سوابيا صنع أيضًا الستائر والسلالم[4].

---

١) البطسة: نوع من المراكب كبير الحجم كثير القلاع، يصل عددها إلى حوالي أربعين شراعًا، وهي أشهر أنواع السفن الصليبية، وكانت تذود بالمنجنيقات والمقاتلة والأسلحة والذخيرة وسائر آلات الحرب فضلاً عن المؤن اللازمة، وتكونت من طبقات متعددة، كل طبقة من هذه الطبقات كانت تسع حوالي ستمائة وخمسين رجلاً. انظر:

سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، (القاهرة، ١٩٦٧)، ص ٣٢١ – ٣٢٢؛

أحمد مختار العبادي والسيد عبد العزيز سالم: تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام (جامعة بيروت، ١٩٧٢م)، ص ١٣٦.

٢) برج الذبّان: برج قائم في وسط البحر، مبني على الصخور، على باب ميناء مدينة عكا، وتوجد به حامية للدفاع عنه، وكان يمثل خطرًا شديدًا على الداخلين للميناء، انظر:

العماد: الفتح القسي، ص ٤٢٧، ٤٢٩؛

ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢١٧.

٣) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢١١ – ٢٢٤؛

ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق١، ص ٤٠٤؛

النويري: المصدر السابق، جـ٢٨، ص ٤٢٨.

٤) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٢، ص ٣٣٤. =

ويبدو أن الهزائم المتوالية التي لاحقت فردريك دوق سوابيا، وقتلت أعدادًا كبيرة من أتباعه، أفقدته روحه المعنوية، لدرجة أنه تخلف عن موقعة رأس الماء[1] التي نشبت بين القوات الصليبية وقوات صلاح الدين في ١٣نوفمبر سنة ١١٩٠م (١١ شوال ٥٨٦هـ)[2]، ويمكن القول إن تخلف فردريك كان راجعًا لقلة قواته من ناحية، ولخوفه من ملاقاة صلاح الدين الأيوبي من ناحية ثانية؛ ولهذا "أقام على عكا يبري ويفري"[3].

على أية حال، فقد مات فردريك دوق سوابيا في ٢٠ يناير سنة ١١٩١م (١٢ ذي الحجة ٥٨٦هـ) فحزنت قواته عليه حزنا شديدًا "واشتعلت له نيران هائلة بحيث لم يبق له خيمة إلا واشتعلت فيها النار... فبقي عسكرهم كله نارًا"[4]، ودُفن في جبانة مستشفى الألمان، وكان ذلك بناءً على طلبه[5]، على أثر وفاته طالبت منظمة الإسبتارية

= والساتر: تتخذ من الجلود واللباد، وتبلل بالخل والشب والنطروب لوقاية الأبراج والدبابات الخشبية من القذائف النفطية. انظر:

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٨، ص ٤٢٨.

١) رأس الماء: ميدان فسيح للحرب في حوران على بعد نحو عشرين ميلاً شمال درعا، انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٣٠.

٢) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٣٥.

٣) العماد الأصفهاني: الفتح القسي، ص ٤٤٥.

٤) ابن شداد: المصدر السابق، ص ٢٤٣ – ٢٤٤؛

العماد الأصفهاني: المصدر السابق، ص ٤٦٠؛

Morgan: Documents Relatifs al' Histoires de Croisades p. 99;

Johson: op. cit., p. 111.

٥) جبانة المستشفى الألماني: تأسست بواسطة نواب من برمن Bermen ولوبيك Lubeck، وقد أصبحت بيت الفرسان التيوتون Teutonic Knights انظر:

Morgan: op. cit., pp. 99 – 100;=

بوضع بقية القوات الألمانية تحت سيادتها ولكن الألمان رفضوا ذلك[١]، ووضعوا أنفسهم تحت قيادة كنراد من مونتفرات أمير صور، بيد أنه عندما وصل ليوبولد دوق النمسا في ربيع سنة ١١٩١م، تولى قيادتهم. وفي تلك الأثناء عادت بعض القوات الألمانية إلى بلادها، فغرقت بهم المراكب التي كانت تقلهم في عرض البحر[٢].

وعلى الرغم من وفاة فردريك دوق سوابيا، وعودة بعض القوات الألمانية فقد شاركت القوات الألمانية الباقية بقيادة ليوبولد دوق النمسا في حصار مدينة عكا إلى أن تم الاستيلاء عليها في ١١ يوليو سنة ١١٩١م، وعندئذ طالب الدوق ليوبولد برفع العلم الألماني على أسوار المدينة، كما فعل الإنجليز والفرنسيون، ويبدو أن ريتشارد قلب الأسد رفض هذا الطلب، فقام ليوبولد باحتلال أحد الحصون في المدينة، ورفع عليه علمه، فأدى ذلك إلى غضب ريتشارد الذي أمر بإنزال العلم الألماني، وألقى به في الوحل في أحد الخنادق أسفل المدينة، ورفع العلم الإنجليزي بدلاً منه، فنتج عن ذلك حدوث مذابح بين الإنجليز والألمان، ولم يلبث ليوبولد أن سيطر على قواته وأضمر في نفسه الانتقام من ريتشارد قلب الأسد[٣]، ويدل على ذلك أنه بعد عودة

= ويشير بعض المؤرخين إلى أن فردريك دوق سوابيا مات متأثرًا بمرض الطاعون ودُفن في جبانة الإسبتارية. انظر:

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٩٣.

1) Johson: op. cit., p. 116.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٥٠؛

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ق ١، ص ٧٠١؛

Johson: op. cit., p. 116.

3) Champdor: Salah Din, pp. 284 – 285, 303;

Johson: op. cit., p. 116;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٠٢، =

ريتشارد من بلاد الشام وعند مروره من أستوريا في ١١ ديسمبر سنة ١١٩٢م، ألقى ليوبولد القبض عليه رغم أنه كان متنكرًا في هيئة الفرسان الداوية وأمر ليوبولد بالزج به في السجن، ثم سلمه بعد ثلاثة شهور إلى هنري السادس إمبراطور ألمانيا الذي أسره لمدة عام، ثم أطلق سراحه سنة ١١٩٤م مقابل فدية كبيرة قدرت بحوالي مائة وخمسين ألف مارك، وأقسم ريتشارد يمين الولاء والطاعة لهنري السادس[١].

وخلاصة القول، أن الألمان ظلوا في بلاد الشام إلى أن سقطت مدينة عكا في ١١ يوليو سنة ١١٩١م، ولاشك أنهم ساعدوا القوات الصليبية – الإنجليزية والفرنسية– في القتال، ولكن بسبب عدم وجود قائد لهم، فقد صمتت المصادر الأوربية والعربية عن ذكر أية حوادث عن الألمان خلال المعارك التي دارت حول عكا قبل سقوطها، ولم تتعرض لهم إلا بعد سقوط المدينة، ومحاولة ليوبولد رفع العلم الألماني إلى جانب الأعلام الإنجليزية والفرنسية.

وإذا كانت هناك نتيجة لحملة الإمبراطور فردريك الأول بربروسا فقد تمثلت في رفع الروح المعنوية للصليبيين المحاصرين لعكا، فاستمروا في حصارهم، خاصة بعد أن انضمت إليهم بقية جيش

= إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٢٩٣.

(1) Vitry: The History of Jerusalem, vol, V, p. 117;

Johson: op. cit., p. 116;

كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٤٠٦؛

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٢٦١، الذي يشير إلى أن ليوبولد باعه لهنري السادس.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٤٢؛

أنتونى بردج: المرجع السابق، ص ٢٢٣.

فردريك بعد وفاته، الأمر الذي جعل مدينة عكا مُهيأة تمامًا للسقوط، كما ينبغي ألا ننسى أن وصول الألمان إلى طرسوس أجبر صلاح الدين على إرسال بعض قواته لملاقاتهم على أبواب حلب، مما كانت له بالغ الأثر في تخفيف حدة الحصار الذي فرضه صلاح الدين على القوات الصليبية المحاصرة للمدينة.

- دور الإمبراطور هنري السادس في الدعوة لحملة صليبية جديدة:

في أعقاب رحيل ريتشارد قلب الأسد إلى بلاد الشام في ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢م، توفي صلاح الدين في ٤ مارس سنة ١١٩٣م (٢٧ صفر سنة ٥٨٩هـ)، فتقاسم أولاده دولته، ولكن رغم ذلك نشبت الحرب الأهلية بينهم في دمشق ومصر التي تدخل فيها عمهم العادل سيف الدين[١]، والتي أعطت الفرصة للصليبيين في بلاد الشام لالتقاط أنفاسهم وتنظيم شئونهم، لاسيما بعد الحرب الطويلة التي دارت بينهم وبين صلاح الدين[٢]، فاستغلوا فرصة هذه الحرب، وأرسلوا إلى الغرب الأوربي، وبالتحديد إلى الإمبراطور الألماني هنري السادس قائلين: "والآن ما كان غلا منه استرخص، فإن المسلمين قد اشتغل بعضهم ببعض ولهو عن كل سنة وفرض"[٣]. فكان لذلك أثر كبير في

---

١) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٣ - ٤١؛

ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، تحقيق حسن محمد الشماع، جـ٢، م٤، (دار الطباعة، العراق، ١٩٦٩م)، ص ١٠٣ - ١٢٦؛

أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦، (القاهرة، ١٩٣٦م)، ط١، ص ١٢٠ - ١٦٣؛

Lammens: La Syrie, Tom. I,p. 229.

2) Vitry: The History of Jerusalem, vol, V, p. 117.

٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ٢، ص ٢٣٣.

الدعوة لحملة صليبية جديدة في غرب أوربا للاستيلاء على مملكة بيت المقدس من خلفاء صلاح الدين الأيوبي، لاسيما وأن صلح الرملة الذي عقده صلاح الدين الأيوبي مع ريتشارد قلب الأسد والذي كان محددًا بثلاث سنوات وثلاثة أشهر سوف ينتهي في ديسمبر سنة ١١٩٥م[١].

فكان أن وجه البابا سلستين الثالث (١١٩١– ١١٩٦م) Celestine III نداءًا لدول غرب أوربا وملوكها، يطلب منهم القيام بحملة صليبية جديدة للاستيلاء على مملكة بيت المقدس من المسلمين، ولكن ملكي إنجلترا وفرنسا لم يلبيا هذا النداء بسبب الحروب التي كانت قائمة بينهما آنذاك[٢]، فأرسل البابا سفارة إلى الإمبراطور الألماني هنري السادس[٣] تذكره بحمل والده الصليب من أجل بيت المقدس، وتطالبه بأن يحمله هو الآخر؛ لأجل استكمال العمل الذي مات من أجله والده، فاستجاب هنري لذلك، وتلقى شارة الصليب في أسبوع الآلام لعام

---

1) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 144;

Brehier: Les Croisades, p. 137;

سعيد عاشور: قبرس والحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٥٧م)، ص ٣٦.

2) Lane Poole (S.): op. cit., p. 217;

محمود محمد الحويري: العادل الأيوبي (دار حواء، القاهرة، ١٩٨٠م) ص ٧٤.

٣) الإمبراطور هنري السادس هو ابن الإمبراطور فردريك الأول بربروسا، وأحد أباطرة أسرة هونشتا وفن الألمانية، تولى عرش الإمبراطورية الألمانية في غداة رحيل والده بالحملة الصليبية سنة ١١٨٩م، وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عامًا، وتوج إمبراطورًا سنة ١١٩١م، ويعتبر من أكبر وأعظم رجال السياسة في عصره، وكان يسمى في إيطاليا "هنريخ الجبار" انظر:

Johson: op. cit., p. 116;

جوزيف جاى ديس: الزنديق الأعظم "قصة حياة الإمبراطور فردريك الثاني ١١٩٤ – ١٢٥٠م، ترجمة أحمد نجيب هاشم، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ب.ت)، ص ٤٧– ٤٨.

١١٩٥م من يد يوحنا أسقف مدينة سوتري Sutri، ثم أعقب ذلك بعقدة مجلس الدايت في مدينة باري بإيطاليا في ٣١ مايو سنة ١١٩٥م، من أجل الدعوة للحملة الصليبية، ومن هذا المجلس وجه خطابًا لقساوسة ألمانيا بشأن الدعوة للحملة الصليبية[1].

وفي بداية هذا الخطاب أخبر قساوسة ألمانيا أنه أخضع مملكة صقلية، ثم أوضح لهم بعد ذلك أنه بسبب الذل الذي تعيشه مملكة بيت المقدس من بربرية الوثنيين (المسلمين) "فإننا أثناء الاحتفال بعيد قيامة سيدنا المسيح قررنا في اجتماع علني عُقِدَ في بارى للاهتمام بطرق إنقاذ أرض الموعد، إرسال -على حسابنا- ألف وخمسمائة جندي ومثلهم من الفرسان الذين سيمكثون في خدمة الحملة في بلاد الشام لمدة سنة ابتداءًا من شهر مارس. ولهذا الغرض فقد وعدنا بإعطاء كل جندي ثلاثين أونسات[2] Ounces (أوقية) من الذهب، وكذلك المؤن اللازمة لمدة عام، كما أن المال سيعطى لهم في كل مكان سوف يمرون منه، أما عن المؤن فإننا سوف نقدمها لهم في مركز تجمعهم. ومن جانبهم فإن الجنود والفرسان والعرفاء سيقسمون يمين الطاعة للقائد الذي سيقع عليه الاختيار، وبأن يبقوا لمدة سنة كاملة في خدمة السيد المسيح، وإذا توفي أحَدٌ منهم فإن ما تبقى من ماله ومئونته سيعطى للذي سيخلفه في الخدمة، وإننا نوصيكم بإلحاح إذًا بأن تقنعوا

---

1) Michaud: Histoires des Croisades, Tom. III, p. 22;

Brehier: op. cit., p. 138;

Johson: op. cit., p. 118;

باركر: الحروب الصليبية، ص ٩٥؛

إسحق عبيد: المرجع السابق، ص ٢٩٩.

٢) الأونس Ounces عبارة عن وحدة وزن ذهبية تساوي ٢٨,٣٥ أو ٣١,١ جرام، انظـر: Dictionary of Almawrid, (Beirut, 1981), p. 641.

كل واحد في أبراشيته بأن يلقن إرادتنا للجنود والرجال المتحمسين لخدمة المسيحية، حتى يستعدوا للرحيل قبل الموعد المحدد"[١].

ولكن المؤرخون اختلفوا حول استجابة الأمراء الألمان لنداء هنري السادس، فقد ذكر البعض أن الأمراء أجابوا عليه بأنهم لن يغادروا ألمانيا إلا بعد حشد قوات ضخمة، إذ كان في رأيهم أن الثلاثة آلاف جندي التي سوف ترسل لاسترداد بيت المقدس من المسلمين غير كافية بالغرض[٢]، في حين أن المؤرخ ميشو[٣] يشير إلى أن هنري السادس قد استطاع أن يجذب إليه الفرسان للاشتراك في الحملة الصليبية.

والجدير بالذكر، أن الإمبراطور هنري السادس بعث رسالة إلى البابا سلستين الثالث في روما، يطلب منه إرسال مبعوثين بابويين لألمانيا ليساهموا في الدعوة للحملة الصليبية، ووعد بأنه سيتحمل نفقات الفرسان الذين يتوجهون إلى الشرق، للاستيلاء على بيت المقدس، وسوف يقوم بإعداد المؤن والسفن التي تكفيهم، وأنه يوافق البابا على طلبه بضرورة الاستيلاء على بيت المقدس[٤] وهكذا نجد أن الإمبراطـــور هنـــري السادس هـــو أول إمبراطور غربي يراسل البابوية ليطلب منها إيفاد دعاة من قبلها للدعوة للقيام بحملة صليبية في ألمانيا.

---

[1]) Morgan: op. cit., pp. 181 – 189;
Michaud: op. cit., Tom. III, p. 619 – 620;
Johson: op. cit., p. 118.

[2]) Morgan: op. cit., p. 181.

[3]) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 49.

[4]) Morgan: op. cit., p. 187;
Brehier: op. cit., p. 138.

ثم راح الإمبراطور هنري السادس يستعد بعد ذلك للحملة الصليبية، فأرسل سفارة إلى الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجليوس، تطالبه بتسهيل مرور القوات الألمانية عبر أراضيه، وتوفير المؤن اللازمة لها، وإرسال أسطول بيزنطي على متنه بعض الفرق العسكرية البيزنطية إلى بلاد الشام للاستيلاء على مملكة بيت المقدس من أيدي المسلمين(١)، كما طالبه بإعادة الأراضي التي استولى عليها وليم الثاني النورماني سنة ١١٨٥م، التي تمتد من دورازو Durrzo إلى سالونيكا، وأن يدفع تعويضات عن الخسائر التي لحقت بحملة والده أثناء مروره من الأراضي البيزنطية، ولكن قبل اكتمال المفاوضات حدث انقلاب داخل البلاط البيزنطي، تم على أثره خُلع الإمبراطور البيزنطي إسحق الثاني أنجيلوس في ١٠ إبريل سنة ١١٩٥م، وسُلمت عيناه من قبل أخيه ألكسيوس الثالث أنجيلوس (١١٩٥ – ١٢٠٣م) Alxius III الذى تولى عرش الإمبراطورية بعده، فاستأنف هنري السادس المفاوضات معه وطالبه بدفع جزية كافية لتمويل القوات الألمانية التي وعد بإرسالها إلى بلاد الشام، وكانت هذه الجزية عبارة عن خمسة آلاف قطعة من الذهب خفضت تقريبًا بعد ذلك إلى ألف وخمسمائة قطعة من الفضة، وبقيت السفارة التي أرسلها ألكسيوس الثالث لتخفيض هذا المبلغ في بالرمو إلى أن وصلت الدفعة الأولى منها إلى الإمبراطور هنري السادس(٢).

---

1) Morgan: Documonts relatifs al; Histoire des Croisades, pp. 181 – 183.

2) Brehier: Les Croisades, p. 138;

باكر: الحروب الصليبية، ص ٩٥.

والجدير بالذكر، أن السفارة الألمانية أبلغت الإمبراطور البيزنطي، في حالة عدم تلبية طلبات الإمبراطور هنري السادس، فإنه سوف يتخذ منه موقفاً عدائيًّا[١].

والواقع، أن الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث في سبيل دفع المبلغ المفروض عليه، اضطر إلى فرض ضريبة على الشعب البيزنطي في العاصمة والأقاليم، والتي سميت بضريبة الألمان German Tax ، وعندما رفض رجال السناتو ورجال الدين وعامة الشعب دفع هذه الضريبة، لجأ ألكسيوس إلى نهب خزائن الكنائس والذهب والفضة والتحف التي حليت بها مقابر الأباطرة السابقين في سبيل شراء السلام مع الألمان بدلاً من محاربتهم[٢].

ثم توجه الإمبراطور هنري السادس إلى ألمانيا في يونيو سنة ١١٩٥م، لحث الأمراء الألمان على سرعة الاشتراك في الحملة الصليبية، ولهذا عقد مجلس الدايت في جيلنهاوزن Gelnhousen قرب مدينة فرانكفورت، لوضع ترتيبات الحملة، وهناك وصلت إليه سفارة من قبل عموري لوزجنان Aimory of Lusignan حاكم قبرص الجديد[٣] تعرض عليه تقديم فروض الولاء والطاعة، وحكم

---

[1])Morgan: op. cit., p. 183.

[2]) Johson: op. cit., p. 119;

Hissay: "Byzantium and the Crusades". P. 149;

عادل زيتون: العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى، (دمشق، ١٩٨٠م)، ص ٢٩٢؛

أسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، (القاهرة، ١٩٨٢م)، ص ٣٠٠.

٣) في أعقاب وفاة جاي لوزجنان حاكم قبرص في أبريل سنة ١١٩٤م، استدعى القبارصة جفري لوزجنان حاكم يافا لحكمها، ولكنه فضل العودة لفرنسا، فاستدعوا بعده أخوه عموري لوزجنان من يافا، فحكمها في الفترة (١١٩٤ – ١١٩٨م). انظر: سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٣ – ٣٤؛=

قبرص كإقطاع تابع له، والالتماس منه أن يتوجه ملكًا على قبرص، فاستجاب هنري له، وبعث إليه بصولجان الملك مع أسقفي برنديزي وتراني، ووعد بقدومه شخصيًا لتتويجه في دايت آخر، كما وصلته سفارة من قبل ليو الثاني الأرمني تطلب منه أيضًا تتويجه ملكًا، وتعلمه مدى التأثير الكبير الذي تركته حملة والده على المسلمين عندما وصلت حدود قيلقية، ويبدو أنه عرض على هنري السادس أن يتحالف معه ضد المسلمين(١).

ونتيجة لخضوع عموري لوزجنان وليو الثاني الأرمني للإمبراطور هنري السادس أصبح للأخير قواعد في الشرق(٢)، الأمر الذي أعطاه دفعة قوية لمواصلة جهوده من أجل الدعوة للحملة الصليبية، فعقد دايت آخر في وورمز في ديسمبر سنة ١١٩٥م، دعى فيه جميع الأمراء الألمان للاشتراك في الحملة الصليبية، بل واعتلى كرسي الكاتدرائية في حضور مندوب البابا، وأعلن أنه سوف يشترك بنفسه في الحملة الصليبية، مما أدى إلى حدوث تأثير كبير في قلوب المستمعين، لاسيما وأن الداعي للحملة الصليبية لم يكن أحد القساوسة، ولكنه إمبراطور ألمانيا، فألهبت دعوته مشاعرهم، وبهذا يكون هنري السادس أول إمبراطور غربي يصعد منبر الكاتدرائية ليقف موقف القساوسة والرهبان، ويدعو لحملة صليبية(٣).

= رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٥٨.

[1]) Brehier: op. cit., p. 139;

Johson: op. cit., pp. 118 – 119;

هايد: تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ٢، ص ٧؛

إسحق عبيد: المرجع السابق، ص ٣٠٠.

٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ٩٤.

[3]) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 24 – 25;=

وعلى أية حال، استجاب عدد كبير من قساوسة ألمانيا وأمرائها لدعوة الإمبراطور، وكان منهم هنري كونت الراين Rhine، وهنري دوق سوابيا، والماركيز أوتو من براندبورج Brandebourg، واللاندجراف هرمان من ثورانجيا، وهنري دوق برابانت وألبرت من هبسبورج Hapsbourg، وأدولف من تشافيينورج Schawebourg وهنري من بابنهيم Pappenheim، ومارشال الإمبراطورية، وفردريك دوق بافاريا، وأبناء الدوق ليوبولد دوق أستوريا، وهنري دوق برانسويك Branswick، وكنراد رئيس أساقفة ماينز، وأساقفة من برمن وتول وبروج ونومبروج وديتز وفرتزبورج[١].

ويُذكر أن غرض بعض هؤلاء من الاستجابة لدعوة الإمبراطور هو كسبُ رضائه، في حين كان هدف البعض الآخر مرضاة الله، وفي أعقاب الدعوة التي وجهها الإمبراطور هنري السادس لأمراء ألمانيا، صعد أشهر القساوسة وأفصحهم تباعًا على كرسي الكاتدرائية، ودعوا لحمل الصليب، فأدى ذلك إلى زيادة عدد المشتركين، ثم انتشرت الدعوة للحملة الصليبية في جميع أنحاء ألمانيا، مما أدى إلى استجابة الآلاف من الرجال للاشتراك في الحملة الصليبية[٢]؛ كما أن هنري عقد مجلس الدايت في فرزبورج في مارس سنة ١١٩٦م لاستكمال استعدادات الحملة[٣].

= Brehier: Les Croisades, p. 139;

Johson: op. cit., p. 119.

(1) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 24 – 26; Noot, 2;

Brehier: op. cit., p. 139;

Johson: op. cit., p. 120;

إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٣٠١ – ٣٠٢.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 27.

3)Johson: op. cit., p. 119.

وقد اختلف المؤرخون في أسباب اهتمام الإمبراطور هنري السادس بالحملة الصليبية؛ ذلك أن وثائق مورجان[1] تذكر أنه كان شديد الحب والاحترام للأماكن المقدسة، ولهذا أراد تخليصها من أيدي المسلمين، في حين يشير البعض الآخر إلى أن الأمبراطور هنري السادس الذي كان أكثر أباطرة القرون الوسطى طموحًا، كان يدور في ذهنه مجد القياصرة، وكان يريد أن يحقق قول الإسكندر: "إن كل ما يمكن أن تشمله رغباتي قد امتلكته". وذلك بسيطرته على العالم المسيحي كله، بما فيه صليبيي بلاد الشام، أو بتعبير آخر السيطرة على البحر الأبيض المتوسط عن طريق الاستيلاء على الإمبراطورية البيزنطية حيث كان الجالس على عرشها شوكة في جنب أباطرة ألمانيا بسبب أطماعه في إيطاليا. وعلى هذا فحملة هنري السادس لم يكن هدفها الاستيلاء فقط على مملكة بيت المقدس من الأيوبيين، ولكن الاستيلاء على القسطنطينية أيضًا[٢].

ويبدو أن الإمبراطور هنري السادس كان راغبًا في إحياء الإمبراطورية الرومانية تحت حكم الهوهنشتاوفن، فكان أول ما فعله أن قام بتزويج أخيه فيليب دوق سوابيا من إيرين Irene ابنة الإمبراطور المخلوع إسحق الثاني أنجيلوس، وأرملة روجر الثاني ملك النورمان السابق في ٢٥ مايو سنة ١١٩٧م، وعندئذ تردد في الغرب الأوربي أن هنري يعمل على وراثة العرش البيزنطي[٣].

---

1)Morgan: op.cit., p. 181;
Michaud: op. cit., Tom. III, p. 22;
Brehier: op. cit., p. 140.

2)Hussay: "Byzantium and the Crusades", p. 149.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 23;
Johson: op. cit., p. 116-119;=

كما أن هنري السادس كان يدرك أن نجاح الحملة الصليبية في الشرق، سوف يؤدي إلى قبول الأمراء الألمان جعل العرش الألماني وراثيًا في أسرته، وقبول تتويج ابنه فردريك الثاني – وأمه كونستانس الصقلية – ملكًا على ألمانيا وإيطاليا؛ وذلك لأن الأمراء الألمان كانوا قد رفضوا من قبل طلبه بشأن هذا الموضوع، كما رفضه البابا أيضًا، رغم أن هنري وعد الأمراء الألمان بجعل إقطاعاتهم وراثية، كذلك وعد البابا بالتنازل للكنيسة عن ممتلكات رجال الدين التي استولى عليها.

والجدير بالذكر، أن التوفيق بين هنري السادس والبابوية من ناحية، وبينه وبين الأمراء من ناحية ثانية، كان من شأنه أن يعزز موقفه ويجعله قويًا، وتزيد من هيبة وكرامة الإمبراطورية في الغرب(١)، ويبدو أن قيامه بالحملة كان تنفيذًا للوعد الذي قطعه عليه أبوه بقيادة حملة صليبية لمهاجمة الأراضي البيزنطية، وبعبارة أخرى كان هدفه تثبيت أقدام الألمان في الشام، ثم شن هجوم على الإمبراطورية البيزنطية.

= Hussay: op. cit., p. 149;

هسي: العالم البيزنطي، ص ٢٠٢ – ٢٠٣؛

باركر: الحروب الصليبية، ص ٩٥؛

إدوارد برري وآخرون: تاريخ الحضارات العام، م٣، ص ٤١٥؛

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٢٣؛

إسحق عبيد: المرجع السابق، ص ٣٩٩ – ٣٠١.

(1) Michaud: op. cit., Tom. III. P. 22;

Johson: op. cit., p. 117;

فيشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

- وصول القسم الأول من القوات الألمانية لبلاد الشام:

على أية حال، عندما أصدر هنري السادس أوامره للقوات الألمانية بالقدوم لإيطاليا، توافدت أعدادٌ كبيرّة من الألمان إلى أبوليا في أعياد ميلاد سنة ١١٩٦م، وقد نظر إليهم سكان الريف الإيطاليون على أنهم ذئاب ألمانية وليسوا جنودًا للمسيح، وقد استقبل هنري السادس هذه القوات استقبالا طيبًا، وأعد لهم المؤن والسفن التي سوف تقلهم إلى بلاد الشام، وأوضح لهم أنه سوف يمدهم بالمال والرجال في فلسطين طالما عملوا على خدمة المسيح[١].

والجدير بالذكر، أنه خلال توافد القوات الألمانية على أبوليا ثار عليهم أهالي إيطاليا، مما دفع الإمبراطور هنري السادس إلى سحق تلك الثورة، حتى قيل أن مملكة صقلية المزدهرة قد تحولت على يد هنري وقواته الألمانية إلى صحراء قاحلة، ومن ثم فإن هذه الثورة أجبرت هنري على عدم الرحيل مع الحملة[٢].

ومما يجدر ذكره، أن طلائع القوات الألمانية التي كان يقودها كنراد رئيس أساقفة ماينز، وأدولف كونت هولشتين أبحرت من موانئ مدينة باري في طريقها إلى بلاد الشام في مارس سنة ١١٩٧م، وتكونت هذه الطلائع من حشد ضخم من العساكر، ولكن في الطريق تخلف مستشار الإمبراطور هنري السادس، وكنراد رئيس أساقفة ماينز، وعدة أمراء في قبرص، حيث قاموا بتتويج عموري دي لوزجنان ملكًا عليها في كاتدرائية نيقوسيا، في حين واصلت القوات الألمانية تقدمها نحو مدينة عكا، فوصلتها في أغسطس سنة ١١٩٧م،

---

[1]) Morgan: op. cit., p. 187;

Brehier: Les Groisades, p. 139;

Johson: op. cit., p. 120.

[2]) Johson: op. cit., p. 120.

وبذلك كانت قوات رئيس أساقفة ماينز أول قوات ألمانية وصلت بلاد الشام[1].

وأقامت هذه القوات معسكرها داخل مدينة عكا، ولكن ذلك أدى إلى مضايقة واضطراب السكان الصليبيين المقيمين في المدينة، لاسيما عندما قام الألمان ببعض أعمال النهب والسلب وشرب الخمر، والتعرض للنساء الفرنجيات، فأمر هنري من شامبيني ملك مملكة بيت المقدس في عكا قواته بالتصدي لعبث الألمان، مما أدى إلى اشتعال الموقف بين الجانبين، ولم ينقذ الموقف سوى خروج الألمان من المدينة وإقامة معسكرهم خارجها[2].

ويعلق المؤرخون على هذا الموقف بقولهم: "إن قدوم الألمان لبلاد الشام لم يكن مرغوبًا فيه من قبل صليبيي بلاد الشام؛ لهذا لم يرحبوا بهم، بل قاموا بطردهم من عكا، وعندئذ وجد الألمان أنفسهم دون أية مساعدة"[3].

وعلى أية حال، قررت القوات الألمانية بدء القتال ضد القوات الأيوبية، ولكن هنري من شامبيني وباروناته لم تكن لديهم رغبة في كسر الهدنة التي عقدت بينهم وبين الملك العادل الأيوبي، إلا بعد أن يكونوا قادرين على الدخول في معركة حربية مع العادل، يملكون فيها

---

1)Michaud: op. cit., Tom. III, p. 29;
Grousset: op. cit., Tom. 3,p. 137;
Johson: op. cit., p. 120;

2) Morgan: op. cit., p. 187;
محمود الحويري: العادل الأيوبي، ص ٧٤.

3)Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 217;
شارل ديل: البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة أحمد عزت عبد الكريم، وتوفيق إسكندر، (القاهرة، ١٩٤٨م)، ص ٥٩.

على الأقل الدفاع عن أنفسهم، ولهذا شرحوا للصليبيين الألمان مدى الأخطار التي يمكن أن يتعرض لها الصليبيون المقيمون ببلاد الشام إذا كسرت هذه الهدنة، وطالبوهم بانتظار القسم الآخر من الجيش الألماني الذي يقوده هنري دوق سكسونيا وهنري دوق برابانت، فأدى ذلك إلى غضب الألمان، لاسيما أنهم كانوا يرون في أنفسهم القدرة على الانتصار على القوات الأيوبية، وسخروا من هنري من شامبيني وباروناته على أساس أنهم لم يعتادوا على تأجيل ساعة المعركة، وأن إمبراطورهم هنري السادس لم يجعلهم يحملون الصليب لكي يظلوا منتظرين في موقف مُخزٍ، مما دفع بارونات صليبيي بلاد الشام إلى الرد عليهم بأنهم لم يتمنوا قدومهم، وأن سياستهم أفضل بكثير من سياسة المحاربين الألمان وأنهم بدون أية نجدة من الخارج قد واجهوا أمدًا طويلاً الأخطار التي تحيط بهم من قبل المسلمين[1].

ولكن الألمان لم يسمعوا لنصائح هنري من شامبيني ملك مملكة بيت المقدس في عكا، وتقدموا لمهاجمة الجليل والاستيلاء على مملكة بيت المقدس من المسلمين، فتمكنوا آنذاك من قتل جماعة من القوات الإسلامية على حدود مملكة بيت المقدس، "وأسروا جماعة"[2]، فأسرع الملك العادل إلى طلب النجدة من الملك العزيز عثمان في مصر، ومن أمراء الجزيرة والموصل، فقدمت إليه، وعسكرت القوات الإسلامية

---

1)Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 29 – 30;

Brehier: op. cit., p. 140;

سعيد عاشور: المرجع السابق، جـــ٢، ص ٧٢٣؛

محمود الحريري: المرجع السابق، ص ٧٤.

٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـــ٣، ص ٧٤؛

Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 30 – 31;

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧٤.

في عين جالوت إلى الجنوب الشرقي من الناصرة[1]، ويُقال إن عدد هذه القوات قد بلغ حوالي سبعين ألف رجل[2]، وعندما علمت القوات الألمانية بهذه القوات، هربوا إلى عكا، ولكن العادل طاردهم بقواته وألقى بهم الهزيمة "برأس الماء بمرج عكا"[3]، ثم تقدم الملك العادل لاحتلال مدينة يافا.

والواقع أن هذه المدينة هي الوحيدة من بين مُدن الساحل، التي أعطى الصليبيون لها أهمية كبيرة للاحتفاظ بها في الحملة الصليبية الثالثة، إذ كانت أقرب المدن البحرية لمدينة بيت المقدس، فإذا ظلت في أيديهم يمكنها أن تساعدهم على الاستيلاء على بيت المقدس، وإذا ما تم للمسلمين الاستيلاء عليها، فإنها سوف تعطيهم ميزة عظيمة للدفاع عن مدينة بيت المقدس، ومن ثم أرسل هنري من شامبيني إلى هنري من بالادين أحد قواد الجيش الألماني يطلب منه الدفاع عن مدينة يافا، ولكنه طلب من الملك أن يرسل لها حاميَة من قبل فرسان مملكة بيت المقدس في عكا، وأن القوات الألمانية سوف تذهب لمساعدتهم، غير أن وصول ملكة المجر آنذاك إلى مدينة صور، وذهاب هنري من بالادين لمقابلتها، أخرت تقديم النجدة لحامية يافا[4].

---

١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٦؛

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ص ٧٢٦؛

المقريزي: السلوك جـ١، ق ١، ص ١٧٠؛

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧٤.

2) Morgan: op. cit., p. 189.

٣) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٣٣؛

Morgan: op. cit., p. 189;

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 31.

4) Morgan: op. cit., pp. 191 – 193;

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 30 – 31.

ويبدو أن هنري من شامبيني ملك مملكة بيت المقدس في عكا كان يفضل أن يرى القبارصة في يافا خيرًا من أن يستولي عليها المسلمون أو تقع في يد الألمان، ولذلك أرسل إلى عموري من لوزجنان ملك قبرص يطلب منه القدوم إلى يافا للدفاع عنها ضد المسلمين، وإذا نجح في حمايتها تصبح تابعة له، فأرسل عموري لوزجنان أحد أتباعه وهو رينالد بارليس Rinald Barlais لهذا الغرض[1]؛ ولكن نظرًا لأهمية المدينة وخوفًا من سقوطها في يد العادل الأيوبي أُجبر هنري من شامبيني على الانضمام للقوات الألمانية للدفاع عنها، وراحت القوات الصليبية تستعد لملاقاة قوات العادل في الوقت الذي بدأت فيه قوات المنظمات الحربية الثلاثة – الداوية والإسبتارية والتيوتون – تتقدم هي الأخرى ناحية العادل، ولكن حدث آنذاك مالم يكن في الحسبان، حيث سقط هنري من شامبيني من شرفة قصره، فمات في ١٠ سبتمبر سنة ١١٩٧م، فترتب على ذلك نشوب خلاف داخل المعسكر الصليبيي حول تعيين خليفة له، ولكن الألمان تمكنوا في النهاية من ترشيح تابعهم عموري من لوزجنان ملك قبرص لعرش مملكة بيت المقدس في عكا[2]، وبذلك نجح الألمان في وضع مملكة بيت المقدس في عكا تحت نفوذهم، ويعد ذلك انتصارًا جديدًا لتثبيت أقدامهم في بلاد الشام[3].

---

١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٧١؛
سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، ص ٣٦.

2) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 31 -32;
Johson: op. cit., p. 121;
Lane Poole: op. cit., p. 217;
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٢٥.

3) Brehier: op. cit., p. 140.

وفي غمرة هذه الأحداث، وبسبب تأخير القوات الصليبية لنجدة يافا، استولى عليها العادل في ٥ سبتمبر سنة ١١٩٧م، "فامتلأت أيدي المسلمين بالسبي والغنائم، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها؛ لأنها فُتحت أولاً في أول الفتوح وثانيًا، وجاء ملك إنجلترا في جموعه فاسترجعها وهذا الفتح في الأيام الناصرية (أيام صلاح الدين)، وفتحت هذا الفتح الثالث على يد الملك العادل"(١).

ويقال إن العادل أسر سبعة آلاف صليبيي(٢) وقتل عددًا منهم، وبهذا تحقق ما كان يخشاه صليبييو بلاد الشام من نقض الهدنة(٣)، ثم قام العادل بهدم استحكامات هذه المدينة، وعاد إلى عين جالوت(٤).

على أية حال، فإن الهزيمة التي لحقت بالألمان في موقعة رأس الماء، واستيلاء العادل على يافا أثرت في وضع الصليبيين في بلاد الشام، فأرسلوا إلى الإمبراطور هنري السادس يخبرونه بذلك، "وقالوا له إن عظام أبيه إلى الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج، وكأنه في الأسر، مُنتظر الإفراج عنه، فإنه لا يُقبر إلا بالبيت المقدس إذا استخلص"(٥).

---

١) ابن واصل: مفرج القروب، جـ٣، ص ٧٥؛

ابن الوردي: المختصر في أخبار البشر، جـ٢، ص ١٦٩؛

Brehier: Les Croisades, p. 140;

Lane Poole: op. cit., p. 117.

٢) المقريزي: السلوك، جـ١ق١، ص ١٧٠.

3) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 31- 32.

٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٧؛

الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٠٣؛

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 32.

٥) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٣٣.

- وصول القسم الثاني من القوات الألمانية لبلاد الشام:

والجدير بالذكر، أن خوف الصليبيين مالبث أن تلاشي عندما وصل القسم الثاني من القوات الألمانية الذي تكون من صليبيي أراضي الراين وسكسونيا وصلوا إلى مسينا في مستهل أغسطس سنة ١١٩٧م بقيادة هنري دوق برانسويك ورئيس أساقفة برمن بحوالي خمس وأربعين سفينة بعد التوقف في النرويج وإنجلترا والبرتغال، وقد انضمت إليهم القوات الألمانية الموجودة في إيطاليا، ومن ثم تحركوا من مسينا إلى عكا في مستهل سبتمبر أو ٦ سبتمبر سنة ١١٩٧م، وقدر المؤرخ أرنولد لوبيك عددهم بحوالي ستين ألف رجل، وقد وصلت هذه القوات إلى عكا في ٢٢ سبتمبر من نفس العام(١)، ويبدو أن هذه القوات كان في صحبتها هنري دوق سكسونيا وهنري دوق برابانت(٢).

وعندما وصلت تلك القوات إلى عكا، تم تعيين هنري كونت بالادين قائدًا عامًّا لجميع القوات الألمانية الموجودة على أرض الشام، وهنري دوق برابانت مستشارًا لها(٣)، ثم تجمعت القوات الألمانية، وانضمت إليها بعض القوات من صليبيي الشام، وبدلاً من الذهاب لملاقاة العادل ، قـــرر الألمان الاستـــيلاء على مدينة بيروت، هذا في الوقت الذي كان يوجد فيه أسطول صليبي محمل بالمؤن والآلات الحربية في البحر بمحاذاة الساحل، لتقديم المؤن للقوات(٤).

---

1) Brehier: op. cit., p. 140;
Johson: op. cit., p. 120.

2)Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 28 – 34.

3) Morgan: Documents Relatifs a 1' Histoires des Croisades, p. 187.

4) Michaud: op. cit., Tom. III. P. 34.

والواقع، أن قرار مهاجمة بيروت لم يكن عشوائيًا، بل يرجع لأهمية تلك المدينة التي كانت عبارة عن إسفين يفصل مملكة بيت المقدس في عكا من إمارة طرابلس، فضلاً عن أنها عززت مركز المسلمين على الساحل، وأصبحت سفنهم تهدد طرق اتصال الصليبيين بأوربا[١]، وكان يوجد بها جميع أسرى الصليبيين الذين أسروا في الحروب الأخيرة مع المسلمين؛ ولهذا فإنه إذا كان للصليبيين أسباب قوية للاستيلاء عليها، فإنه كان لدى المسلمين أسباب أقوى للدفاع عنها[٢]؛ ومن ثم فإن العادل عندما علم أن القوات الصليبية تنوي الاستيلاء على مدينة بيروت، أرسل قواته من عين جالوت إلى مرج عيون لمنازلة تلك القوات، كما أرسل مجموعة من قواته هدموا أسوار مدينة بيروت في ٢٠ أكتوبر سنة ١١٩٧م (٧ ذي الحجة ٥٩٤هـ)، ولكن عندما بدءوا في تخريب قلعتها ودورها منعهم حاكمها عز الدين أسامة "وتكفل بحفظها"[٣]، فحصنها وأقام فيها جماعة للدفاع عنها[٤]، كما أن العادل أمر آنذاك بتخريب صيدا[٥].

وخلال تقدم القوات الصليبية تجاه بيروت تقدم العادل لملاقاتهم، وانضمت إليه قواته التي كانت عائدة من تخريب بيروت، فنشبت المعركة بين العادل والصليبيين بين صور وصيدا في ٢٢ أكتوبر سنة ١١٩٧م (٩ ذي الحجة ٥٩٤هـ)، وحاول الملك العادل فصل القوات

---

١) محمود الحويري: العادل الأيوبي، ص ٧٥.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 34 – 35.

٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٧؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٧١؛
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ، جـ٥، ص ٧٢٦.

٤) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٣، ص ٧١.

٥) ابن خلدون: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص ١٧٠.

الصليبية عن الساحل، ولكن محاولته باءت بالفشل، ورغم أن قواته كانت تهاجم القوات الصليبية بضراوة إلا أن الصليبيين ظلوا متماسكين وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بقوات العادل، وكانت الخسائر جسيمة للجانبين، ويقال إن العادل هرب في ذلك اليوم، كما هربت قواته في اتجاه بيت المقدس ومدينة دمشق[١].

وكان من نتائج تلك المعركة، أن تقدمت القوات الصليبية بطول الساحل فاستولى هنري من بالادين قائد القوات الألمانية على صيدا التي كانت خاليّة تمامًا من السكان[٢]، ثم واصلت القوات الصليبية تقدمها تجاه مدينة بيروت وعندما علم عز الدين أسامه بذلك خرج منها بجماعته وسار بأهله ومال عن وعر الأمر إلى سهله، ويبدو أنه كان قد ترك بها حامية قليلة للدفاع عنها فخافت هذه الحامية من الصليبيين، وهربوا وتركوا قلعة المدينة خالية ليس فيها من يُدافع عنها، وعندما علم الصليبيون بذلك أقبلوا واستولوا عليها في ٢٣ أكتوبر سنة ١١٩٧م، فلعن الناس أسامة لتفريطه فيها، وقال العماد الأصفهاني:

إنَّ بَيْعَ الحصونِ من غير حَرْبٍ ... سُنَّةٌ سنها ببيـــــروتَ سامة
لعن الله كلَ من بـــــاع ذا البيعَ ... وأخزى بخزيهِ من سامَةَ [٣]

[١]) Michaud: op. cit., Tom, III, pp. 45 – 36;
السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإســلامي، (جــروت، ١٩٧٠م)، ص ١٢٦.

[٢])Michaud: op. cit., Tom. III, p. 37;
Brehier: Les Croisades, p. 140.

٣) أبو شامة: الروضتين، جـــ٢، ص ٢٣٣؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـــ٣، ص ٧٤؛
ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـــ٢، م٤، ص ١٣٣؛
Brehier: op. cit., p. 141;
Johson: op. cit., p. 121.

غير أن ميشو[١]، يذكر أن بيروت كان يوجد بها حامية كبيرة للدفاع عنها، وقد أُخذت فجأة فلم تجرؤ على المقاومة، وبعد أن استولى الصليبيون على بيروت اتخذوها قاعدة لهم.

وكان لاستيلاء القوات الصليبية على مدينة بيروت بالغ الأثر؛ وذلك لأنهم استولوا على مؤنٍ وفيرة كانت داخلها، لدرجة أن سفينتين كبيرتين لم تتمكنا من نقل المؤن والعدد والآلات التي كانت بالمدينة، كما عثر فيها على أموال ضخمة تقاسمها الصليبيون، كما أن الصليبيين تمكنوا من إطلاق سراح تسعة آلاف صليبيي كانوا أسرى فيها.

ومن شدة الفرح أرسل بوهيموند الثالث أمير إنطاكية الحمام الزاجل إلى سكان مدينته ليخبرهم بانتصار جنود الرب[٢]، كما أن الاستيلاء على مدينة بيروت أدى إلى إعادة الاتصال بين إمارة طرابلس ومملكة بيت المقدس في عكا[٣]، لاسيما وأن مدينة جبيل كانت قد تنازل عنها أميرُها الكردي إلى ستيفاني ميللي أخت ريتالد سيد صيدا[٤].

وزيادة على ذلك تشجع بوهيموند الثالث أمير إنطاكية على القيام بمحاولة لاسترداد اللاذقية وجبلة في أواخر سنة ١١٩٧م، ولكنه عندما وصل إلى بانياس عن طريق البحر وجد أن الملك الظاهر الأيوبي صاحب حلب قد حصن تلك المدن، ولهذا فشل بوهيموند في تحقيق غرضه، وعاد لإنطاكية[٥]، وقد أصبح الصليبيون في مأمن من

---

1) Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 37 – 38.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 38 – 39.

3) Brehier: op. cit., p. 141.

٤) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٧٧.

٥) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٢٦.

الغارات التي كان يقوم بها عز الدين أسامة عليهم، والتي بسببها طلبوا النجدة من الغرب الأوربي.

ويبدو أن استيلاء القوات الصليبية المتحالفة على مدينة بيروت قد أعطاهم الأمل في الاستيلاء على مدينة بيت المقدس، ولهذا كتب هنري دوق برابانت من مدينة صور في ٢٢ نوفمبر سنة ١١٩٧م إلى رئيس أساقفة كولونيا يخبره بذلك، ويعلمه أنه بعد الاستيلاء عليها سوف يوطنُ فيها قسمًا كبيرًا من الصليبيين الألمان[١]، وعندئذ عرض بعض القادة الصليبيين التوجه بالجيش إلى مدينة بيت المقدس، ولكنهم ما لبثوا أن عدلوا عن ذلك، حيث تراءى لهم أن هذه المدينة قد جرى تحصينها تحصينا جيدًا من قبل المسلمين بعد رحيل ريتشارد قلب الأسد من بلاد الشام، وهذا من شأنه أن يُصعِّبَ من مهمتهم في الاستيلاء عليها، كما أن الشتاء سوف يعوقهم بأمطاره الغزيرة وقد تجبرهم الأمطار على رفع الحصار إذا فرضوه عليها، كذلك كانت المدينة بعيدة عن الساحل، بالإضافة إلى أنها لم تكن تحتوى إلا على آثار دينية، في حين أن المدن الساحلية تحوى داخلها كنوزًا مالية[٢]؛ ولهذا استبدلوا مدينة بيت المقدس، بحصار قلعة تبنين (تورون) [٣] في ٢٨ نوفمبر سنة ١١٩٧م نظرا لما كانت تتمتع به من موقع إستراتيجي

---

1) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 159.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 50 – 51;
Brehier: Les Croisades, p. 141;
Lane Poole: op. cit., p. 217.

٣) قلعة تقع في جبل عامر بين دمشق وصور، تطل على بانياس، بناها هيو Hugue أمير طبرية سنة ١١٠٧م للقضاء على مدينة صور التي كانت آنذاك في يد المسلمين. انظر: الذهبي: دول الإسلام، جـ٢، ص ١٠٤:

Grousset: op. cit., Tom. 3, P. 159.

هام، ذلك أنها تقع على تل مرتفع في قمة جبل هونين، يجعلها تهدد أمن وسلامة مدينة صور، ولهذا كان الاستيلاء على تلك القلعة سوف يعطي مدينة صور فرصة كبيرة للعيش في سلام(١)، كما أن الساحل كله من إنطاكية إلى عسقلان كان في يد الصليبيين ماعدا تلك القلعة التي كانت آنذاك في يد المسلمين، ولهذا كانت حاميتها الإسلامية تقوم في أحيان كثيرة بمهاجمة الأماكن الصليبية المجاورة لها، في الوقت الذي كانت تعوق خطوط المواصلات بين المدن الصليبية الساحلية؛ ولذلك كان الاستيلاء عليها سوف يسهل الاتصال بين تلك المدن من ناحية، ويسهل الاتصال بأوربا من ناحية أخرى(٢)، كما أن الاستيلاء عليها سوف يُصعّب وصول الامدادات للمسلمين في الداخل عن طريق البحر.

وعندما علم العادل الأيوبي أن القوات الصليبية عازمة على محاصرة قلعة تبنين بعث إليها حاميةً للدفاع عنها(٣)، وكان أن زحفت القوات الصليبية على القلعة في ٢٨ نوفمبر سنة ١١٩٧م (مستهل صفر سنة ٥٩٤هـ)، وشددوا عليها الحصار، وقذفوها بآلاتهم الحربية، ولكن سهام الصليبيين وأحجارهم لم تصل للأبراج الموضوعة فوق أسوار القلعة، هذا في الوقت الذي كانت فيه حامية القلعة تقذفهم بوابل من السهام، ولكن رغم ذلك تمكن العمال السكسون الذين كانوا يعملون في مناجم راميسبيرج Rammesberg من إيجاد ثغرة في سور القلعة(٤)، وقد حدث هذا في الوقت الذي كان فيه الملك

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 159-160.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 51-52.

3) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٨؛

ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، جـ٥، ص ٧٢٧.

4) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 53-54;=

العادل معسكرًا بقواته بالقرب منهم[1]. وقد تمكن الصليبيون من هدم بعض أجزاء من سور القلعة[2]من ثلاث جهات، ولاح للفرنج ملكها وطمعوا فيها"[3].

وعندما علم الملك العادل بذلك، أرسل القاضي محيي الدين محمد بن علي إلى الملك العزيز بمصر يطلب منه النجدة لبلاد الشام قائلا: "إن حضرت وإلا فلا يمكن حفظ هذا الثغر، فسار العزيز مجدًا فيمن بقي معه من العساكر"[4].

ولما ضاق الحصار على حامية القلعة أرادوا تسليمها إلى القوات الصليبية فقدم جماعة منهم إلى المعسكر الصليبيي الذي انقسم عندئذ إلى قسمين أحدهما يؤيد استلام المدينة بدون قتال، والآخر يريد أن يتسلمها عن طريق الحرب، الأمر الذي جعل حامية القلعة تنتظر بضعة أيام دون أن يجدوا من يتفقوا معه على شروطهم التي تمثلت في تسليم القلعة مقابل منح الأمان لمن فيها من الرجال والممتلكات.

وجدير بالذكر، أن الألمان هم الذين أرادوا اقتحام القلعة، ولذلك رأوا أنها يجب أن تستسلم بدون شروط مسبقة، أملا منهم في ارتكاب

= Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 160.

١) أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٣٣؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٧٥؛

ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٢، م٤، ص ١٣٤.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٨؛

ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٧٢٧؛

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 54.

٣) ابن الفرات: المصدر السابق، جـ٢، م٤، ص ١٣٦.

٤) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص١٢٨؛

أبو شامة: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٣.

أعمال النهب والسلب، ولكن حامية القلعة رفضت تسليمها بدون شروط مسبقة، ولاشك أن الألمان قد ارتكبوا خطأً جسيمًا عندما رفضوا شروط حامية القلعة؛ لأنهم لو قبلوا هذه الشروط لأمكنهم الاستيلاء على مكان إستراتيجي هام، وفي نفس الوقت سوف يتم إطلاق سراح خمسمائة أسير صليبيي كانوا موجودين في القلعة، كما أن الاستيلاء على قلعة تورون كان سيؤدي إلى سقوط قلعة الشقيف أرنون الواقعة على الجانب الآخر من الليطاني، ولكن الألمان وجدوا أن الاستيلاء على القلعة بقوة السيف وقتل حاميتها سوف يؤدي إلى إثارة الرعب في قلوب جميع المسلمين، مما يفقدهم الحماس والقدرة في الدفاع عن مدينة بيت المقدس وغيرها من المدن التي في حوزتهم، ولذلك استخدم الألمان كافة الوسائل للقضاء على المفاوضات[١].

ورغم عجز القوات الصليبية المحاصرة للقلعة عن دخولها، إلا أن حاميتها جددت عرضها بالاستسلام، مقابل تأمين حياتهم، وتسليم القلعة بما فيها من ممتلكات وغيرها، ولكن كنراد رئيس أساقفة صور أصر على التسليم بدون قيد أو شرط[٢]، ويبدو أن حامية القلعة كانت قد عرضت تقديم بعض الرهائن مما أدى إلى حدوث مرونة في الجانب الألماني، ولكن مستشار القوات الألمانية بدلا من أن يوافق على تسلم القلعة في حينها، أرجأ ذلك إلى صباح اليوم التالي اعتقادًا منه أن القلعة لا يمكن أن تفلت من يده[٣]، بيد أن أرنولد من لوبيك،

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 54-55;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 161.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 161.

3) Vitry: The History of Jerusalem, vol. XI, p. 118;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 161.

ومؤرخين ألمان آخرين ينسبون هذا التأخير إلى مرض المستشار الألماني(1)، ولكن الحقيقة تختلف عن ذلك تمامًا، إذ أوعز الصليبيون المقيمون ببلاد الشام إلى حامية القلعة بعدم تسليمها للألمان، ومما يدل على ذلك قول بن الأثير(2): "فقال لهؤلاء المسلمين بعض الفرنج الذين من ساحل الشام إن سُلم الحصن استأسركم هذا وقتلكم فاحفظوا نفوسكم، فغادروا كأنهم يراجعون من في القلعة ليسلموا، فلما صعدوا إليها أصروا على الامتناع، وقاتلوا قتال من يحمي نفسه، فحموها إلى أن وصل الملك العزيز إلى عسقلان في الربيع".

وهكذا فإن عدم تسليم القلعة يعود لصليبيي بلاد الشام الذين أدركوا أن الألمان سينقضون اتفاقهم مع الحامية ويقومون بقتل أفرادها، هذا في الوقت الذي لم تكن لديهم رغبة تتجاوز احتلال بيروت، ومن ثم لا يريدون إثارة الملك العادل الأيوبي أكثر من ذلك، حتى لا يدخل معهم في معركة كبيرة، و لهذا فإن ارتكاب الألمان أي عمل عدائي ضد حامية القلعة بعد تسليمها من شأنه أن يؤدي إلى اتحاد المسلمين في جهاد لا هوادة فيه، ولهذا سعوا إلى عدم تسليم القلعة للألمان(3).

وبعد أن كانت حامية القلعة تعرض التسليم، فقد سدت الثغرة التي أحدثها الألمان في القلعة بالأخشاب والحجارة "وتحالفوا أن لا ينزلوا ولا يسلموا"(4) واستماتوا في الدفاع عنها.

---

1) Loc. Cit.,

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ١٢٨؛

ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص ٧٢٧.

3) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, pp. 161-162.

٤) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٢، م٤، ص ١٣٦.

والجدير بالذكر، أن صليبيي بلاد الشام رفضوا مشاركة الألمان مهاجمة القلعة مرة أخرى، الأمر الذي أعجزهم عن اقتحامها، بل تحولت المعركة لصالح حاميتها الذين خرجوا منها وهاجموا القوات الألمانية وأسروا بعضها، وقطعوا رؤوسهم وألقوا بها على المعسكر الصليبيي من فوق الأسوار[١].

وفي تلك الأثناء، وصل الملك العزيز الأيوبي بقواته إلى عمه العادل في ٢ فبراير سنة ١١٩٨م، ورغب في مهاجمة الصليبيين، ولكن العادل منعه، كما وصلت إلى العادل قوات حمص بقيادة المجاهد، ووصلت أيضًا قوات بعلبك بقيادة الأمجد[٢]. وقد شجعت هذه الإمدادات العادل على الزحف تجاه الصليبيين الذين ما إن علّموا بذلك حتى قرروا رفع الحصار عن القلعة، ولكنهم كي يخفوا انسحابهم على المسلمين، وأشاعوا في معسكرهم أنهم سيهاجمون القلعة في الغد، فأمضى المعسكر الصليبيي ليلته يستعد لهذا الهجوم، ولكن عندما أصبح الصليبيون علموا أن كنراد من بالادين ومعظم قواته هربوا أثناء الليل إلى صور، وعندما تيقنوا من ذلك انسحبوا من أمام أسوار القلعة[٣].

وإذا كان قدوم النجدة إلى العادل الأيوبي قد أدى إلى رفع الحصار الصليبيي عن قلعة تبنين[٤]، فإن وصول خبر وفاة[١]

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 56-59;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 161.

٢) ابن اواصل: مفرج الكروب، جـ٢، ص ٧٥؛
أبو شامة: الروضتين، جـ٢، ص ٢٣٣.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 59-60.

4) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 162 ;
محمود الحويري: العادل الأيوبي، ص ٧٦.

إمبراطورهم هنري السادس سنة ١١٩٧م كان عاملا مساعدًا أيضا على رفع الحصار عنها؛ لأن الألمان فضلوا العودة إلى ألمانيا للدفاع عن ممتلكاتهم خلال الحرب الأهلية الدائرة هناك على عرش الإمبراطورية، ولهذا قبل نهاية صيف عام ١١٩٧م، كان معظم الأمراء الألمان قد عادوا إلى بلادهم؛ لأن الحرب الأهلية التي نشبت آنذاك في ألمانيا أفقدتهم الأمل في الحصول على أية نجدة من قبل الإمبراطورية الألمانية، الأمر الذي جعلهم يفقدون حماسهم ببلاد الشام[٢].

والجدير بالذكر، أنه إذا كانت وفاة الإمبراطور فردريك الأول بربروسا قد أفقدت قواته روحهم المعنوية سنة ١١٩٠م، فترتب على ذلك عودة كثير من قواته إلى ألمانيا، كذلك فإن وفاة الإمبراطور هنري السادس سنة ١١٩٧م، أفقدت قواته روحهم المعنوية، وترتب عليها عودتهم لألمانيا، وفي كلتا الحالتين كانت الحروب الأهلية في ألمانيا سببًا في العودة، لخوف الدوقات والبارونات الألمان على ممتلكاتهم هناك.

---

١) توفي الإمبراطور هنري السادس (١١٩٠-١١٩٧م) في ٢٨ سبتمبر سنة ١١٩٧م في مسينا على أثر إصابته بمغص حاد مصحوبًا بالدوسنتاريا، ولم يتجاوز الثانية والثلاثين من عمره، فوصلت الأخبار بوفاته عندما كانت القوات الألمانية على بيروت، ولكنها كانت عبارة عن إشاعات. انظر:

Johson: op. cit., p. 120;

جوزيف جاي جيس: الزنديق الأعظم، ص ٥١.

2) Vitry: The History of Jerusalem, vol. XI, p. 118;

Grousset: op. cit. Tom. 3, p. 162;

Brehier: op. cit., p. 141;

Lane Poole: op. cit., p. 217;

Johson: op. cit., p. 121.

ويقول أرنولد لوبيك عن عودة الجيش الصليبيي من تبنين إلى صور "لم يكن هناك شيء قد أعد للانسحاب، ولم تصدر الأوامر بذلك، ولكن كل صليبيي تحرك بسبب الخوف المُحدق به، فالبعض تركوا سلاحهم، والبعض الآخر حملوا ما كان معهم من نفائس وأموال، وتقدموا ناحية صور، وكان المرضى والمصابون يمشون بصعوبة، وانتشرت الفوضى، وكان الجنود يسيرون بغير نظام وهم يحملون أمتعتهم، ولم يعرفوا الطريق الذي سوف يعودون منه، فتاه بعضهم في الجبال ولم يكن يسمع لهم سوى صراخ وتأوهات، وكانت الأمطار تهطل من السماء، فأغرقت الطرق، ولم يخف رُعبهم وفزعهم إلا بوصولهم إلى صور"[1].

والواقع أن جنود الملك العادل لم تتركهم يعودون إلى صور آمنين بل طاردتهم" والتقطوا من ظفروا به منهم فغنم المسلمون شيئاً كثيرًا من عسكرهم"[2].

ولاشك أن أهم نتائج جهود الإمبراطور هنري السادس في بلاد الشام تمثلت في تثبيت أقدام الألمان في بلاد الشام، إذ نجح كنراد رئيس أساقفة ماينز ومستشار الإمبراطور هنري السادس في تولية عموري من لوزجنان ملك قبرص ملكا على مملكة بيت المقدس في عكا، وبذلك وضعت الأرض المقدسة في دائرة نفوذ أسرة الهوهنشتاوفن، وقبل عودة رئيس أساقفة ماينز، قام بتتويج ليو الثاني الأرمني ملكا على أرمينيا، وقد أقسم ليو الثاني يمين الولاء والطاعة

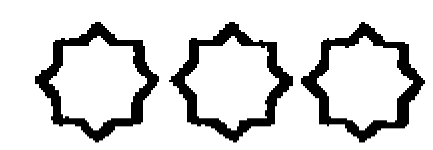
---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 91 ;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 163.

٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٣، ص ٧٦؛
ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، جـ٢، م٤، ص ١٣٦؛
المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، جـ١، ق١، ص ١٧١.

للإمبراطور الألماني[١]. كما كان من أهم نتائج هذه الجهود، قيام النظام العسكري التيوتوني الألماني، كنظام عسكري وليس مدنيًا[٢]، فضلا عن أن الألمان نجحوا في إنقاذ حطام الممتلكات الصليبية في بلاد الشام من الضياع وفي أن يعيدوا بعض الأماكن إلى مملكة بيت المقدس في عكا[٣].

وكان من نتائج هذه الحملة أيضًا إطلاق سراح تسعة آلاف أسير صليبيي كانوا في بيروت، وهذه سابقة فريدة من نوعها في تاريخ الحملات الصليبية، لاسيما أن أولئك الأسرى حملوا السلاح فور إطلاق سراحهم، وبذلك أضافوا قوة جديدة لصليبيي بلاد الشام.



---

١) إسحق عبيد: روما وبيزنطة، ص ٣٠٣-٣٠٤؛
باركر : الحروب الصليبية، ص ٩٥.

٢) باركر: الحروب الصليبية، ص ٩٥؛
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٠.

3) Brehier: Les Croisades, p. 142.

الفصل الثالث
حملة الإمبراطور فردريك الثاني على بلاد الشام
(١٢١٥-١٢٢٩م)

- قسم الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢١٥م على القيام بالحملة الصليبية، وموقف البابوية منه.
- زواج فردريك من إيزابيلا والنتائج المترتبة عليه.
- الاستعدادات للحملة الصليبية.
- استغاثة السلطان الكامل الأيوبي بفردريك الثاني.
- النزاع بين البابا جريجوري التاسع والإمبراطور فردريك الثاني.
- الأعمال التي قامت بها القوات التي أرسلها فردريك إلى بلاد الشام قبيل وصوله.
- وصول فردريك إلى بلاد الشام.
- موقف الأيوبيين من فردريك الثاني بعد وصوله إلى بلاد الشام.
- دخول فردريك مدينة بيت المقدس في ١٧ مارس سنة ١٢٢٩م.
- عودة فردريك إلى عكا.



- قسم الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢١٥م على القيام بالحمله الصليبية، وموقف البابوية منه:

المعروف أن البابوية كانت تعلق أملا كبيرًا على الإمبراطور فردريك الثاني (١٢١٢-١٢٥٠م) Frederick II للقيام بحملة صليبية[1]؛ ذلك لأنه تربى في أحضان الكنيسة، فقد كان البابا أنوسنت الثالث[2] (١١٩٨-١٢١٦م) Innosant III وصيا عليه بعد وفاة والدته كونستانس سنة ١١٩٨م عندما كان طفلا يحكم صقلية، كما أن البابوية وقفت إلى جانبه عندما قام أوتو الرابع Otto IV دوق سكسونيا بغزو صقلية عامي ١٢١٠ و ١٢١١م، الأمر الذي ترتب عليه اعتراف البابا أنوسنت الثالث بفردريك الثاني ملكا على ألمانيا سنة ١٢١٢م بدلا من أوتو الرابع، وفي مقابل ذلك تعهد فردريك بعدم تعيين رجال الدين وموظفي الكنيسة، ويدفع للبابوية جزية سنوية عبارة عن مبلغ من الذهب، وبسبب عدم قدرة فردريك على الدفع قدم

---

1) Grousset: Histoires des Croisades, Tom. 3, p. 272.

٢) هو لوثر من سيجني Lothar of Segni، الذي اتخذ لقب أنوسنت يُنتمي إلى عائلة كونتي Conti إحدى عائلات رومانيا الأرستقراطية، وهم سادة مقاطعة سيجني، ولد تقريبا سنة ١١٦١م، وكان يناهز السابعة والثلاثين عندما اعتلى عرش البابوية، ودرس اللاهوت في باريس والقانون في بولونا، ويعد واحدًا من ألمع رجال اللاهوت والقانون، ويعتبر من أعظم البابوات الذين تولوا المنصب البابوي في العصور الوسطى، فقد اعتبر البابا خليفة الله على الأرض، وأن الحكام والملوك اتباع له. انظر:

هارتمان – باركلاف: الدولة والإمبراطورية، ص ٥٢، ٦٠-٦١؛

نورمان كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٥٣-٥٥٤؛

ج.ج. كولتون: عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم يوسف، ط٢، (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٧م)، ص ٢٧٣، ٣٠٠؛

أسمت غنيم: الحملة الصليبية الرابعة، ص ٥٣.

صكا بالمبلغ بوصفه دينا للبابا عنده، كما تنازل فردريك عن صقلية، وقبل أن يجرد نفسه من لقب إمبراطور ألمانيا وصقلية، والقيام بتتويج ابنه هنري ملكا على صقلية، وتعيين زوجته كونستانس نائبة له، وأقسم فردريك أيضا يمين الولاء والطاعة كتابع للبابا أنوسنت الثالث وخلفائه[1]، وقبل فردريك هذه الشروط مرغما؛ لأنه لم يكن في وضع يؤهله لرفضها آنذاك.

ومما زاد من اطمئنان البابوية على قيام فردريك بالحملة الصليبية قسمه بحمل الصليب في ١٥ يوليو سنة ١٢١٥م، بعد تتويجه إمبراطورًا في مدينة أكس لاشابل (آخن) بألمانيا على يد سجفريد Sigfrid رئيس أساقفة ماينز[2]؛ إذ نزل فردريك إلى قبر شارلمان، وأمام المندوبين البابويين أمسك الصليب وقال: "نحن ملك الرومان، من أجل شرف المسيح ومجده، أقسم أمام الآب والابن والروح القدس بأن أقود حملةً صليبية، لأحرر الأراضي المقدسة في بيت المقدس من العرب"[3].

---

1) Malet and Isac: Le. Moyen Age, p. 297;

Orton: "Germany in the reign of Frederick II", in Camb. Med. Hist., vol. VI, (London, 1980), pp. 83-84;

سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٩٥.

2) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 278;

Orton: op. cit., p. 83 ;

Stevenon: The Crusaders, p. 307;

سعيد عاشور: "الإمبراطور فردريك الثاني والشرق الإسلامي "الجمعية التاريخية، م ١١ (القاهرة، ١٩٦٣م)، ص ١٩٧.

3) Brehier: Les Croisades, p. 179; =

والجدير بالذكر، أن ذلك أدى إلى انزعاج البابا أنوسنت الثالث؛ لأن فردريك حمل الصليب دون أخذ موافقته، ومن ثم حاول أنوسنت تأخير قيام حملة فردريك الصليبية حتى يتم تدبير أمور ألمانيا[1].

والواقع، أن أمل البابوية في قيام فردريك بالحملة الصليبية كان بعيدًا؛ لأن الحرب الصليبية لم تهم فردريك إلا بدرجة متوسطة، وإذا كان فردريك قد حمل الصليب سنة ١٢١٥م، فإن ذلك كان بهدف استقطاب البابوية إلى جانبه في الصراع الدائر على عرش ألمانيا، ويبدو أيضا أنه كانت تسيطر عليه فكرة قيادة العالم المسيحي بأجمعه، ورفع شأن الإمبراطورية في العالم المسيحي[2].

وعلى أية حال، توفى البابا أنوسنت الثالث في مدينة بروجيا Perugia في شمال إيطاليا في ١٦ يوليو، سنة ١٢١٦م بعد مرض قصير، وبعد جهود شاقة بذلها من أجل رفعه شأن البابوية وسيادتها، وقيام الحملة الصليبية، وتولى بعد موته بيومين الكاردينال سنشيو سافللي تحت اسم البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦-١٢٢٧م) Honorius III الذي كان وصيًّا من قبل البابا أنوسنت الثالث على فردريك في بالرمر، وقد حرص هونوريوس على عدم السير على نفس النهج الذي سار عليه سلفه[3]، فيبدو أنه لم يكن راغبا في الدخول في صدامات مع الحكام العلمانيين[1].

= جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٢٥٠.

١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٩١؛
جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٢٥٠.

٢) كانتور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٥٩٤؛
جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص٧؛
ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٢٤٩؛
عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٣.

3) Brehier: op. cit., p. 182; =

والجدير بالذكر، أن هونوريوس الثالث تجاهل تماما قسم الإمبراطور فردريك سنة ١٢١٥م بالقيام بحملة صليبية، وتجاهل دعوة البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦م لقيام هذه الحملة أيضا، وقام بتأجيلها لمدة عامين[٢] ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى قيام فردريك بحمل الصليب بمحض إرادته دون مناقشة البابوية في ذلك[٣].

ولكن الإمبراطور فردريك هو الآخر بعد أن وضع نفسه كجندي للكنيسة لم يقدم على تنفيذ وعده بالقيام بالحملة الصليبية.

ويعلق على ذلك بعض المؤرخين قائلا: "إن نزعة التصوف التي دفعت فردريك الثاني إلى حمل الصليب عند قبر شارلمان الذي كان ينظر إليه على أنه أول الصليبيين يبدو أنها ضعفت وتلاشت بعد قليل"، ولذلك حصل في شهر ديسمبر سنة ١٢١٦م على وعد من البابا هونوريوس الثالث بتأجيل القيام بالحملة الصليبية، وقد برر ذلك بوجود أتو الرابع في ألمانيا وأنه لن يتمكن من مغادرتها طالما بقي أوتو هناك[٤].

= Throop: op. cit., p. 37;

رنسيمان: المرجع السابق، جـ٣، ص ٢٥٩؛

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٢٥٣-٢٥٤.

1) Lamb (H.): The Crusades: The Flame of Islam, (London 1931), p. 240;

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١ ، ص ٣٩٥.

2) Orton: op. cit., p. 83;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٢٥٤.

3) Van Cleve (Thomes C.): "The Crusade of Frederick II", in setton: History of the Crusade, vol. II, (Uni. Of Pennsyl vania, 1962), p. 432.

4) Brehier: Les Croisades, p. 197;

Orton: op. cit., p. 83;=

وفي أثناء الحملة الصليبية الخامسة بقيادة حنا بريين ملك مملكة بيت المقدس في عكا على دمياط (١٢١٨-١٢٢١م) حث البابا هونوريوس الثالث الإمبراطور فردريك على إنجاز وعده، وخاطبه قائلا: "إلى الملك المنتصر الذي يفر الكفار أمامه، إن الشباب والقوة والشهرة والعهد الذي قطعته، والقدوة التي سنها أسلافك، كل هذه الأمور تناشدك أن تنجز مشروعك العظيم". وعندئذ طلب فردريك من البابا هونوريوس الثالث بألا يسمح بأي تباطؤ لأولئك الذين أخذوا على عاتقهم الانضمام لحملته الصليبية، واقترح عليه حرمان المقصرين.

وقد حدد فردريك عيد القديس جوفني ليكون موعدًا يمكن الرحيل فيه إلى بلاد الشام، وطلب من البابا أن يضع الإمبراطورية تحت حمايته أثناء غيابه في الحملة الصليبية فوافق البابا على ذلك بحماس شديد[1]، ولكن ما لبث فردريك أن طلب من البابا هونوريوس في ١٢ يناير سنة ١٢١٩م تأجيل القيام بالحملة الصليبية، وعلل ذلك بعدم تعيينه وصيا على ابنه هنري في صقلية، كما أن هنري دوق سكسونيا مازال محتفظا بالشعارات الإمبراطورية، ويجب إجباره على إرجاعها[2]، فوافق البابا على تأجيل سفره إلى ٢٩ سبتمبر من نفس العام حتى يجهز استعداداته[3].

وفي ١٠ مايو سنة ١٢١٩م أخبر فردريك البابا هونوريوس الثالث برغبته في تتويج ابنه هنري ملكا على ألمانيا وصقلية قبل

= Van Cleve: op. cit., p. 432;
Mayer: op. cit., p. 222.

1) Van Cleve: op. cit., p. 433;
Mayer: op. cit., pp. 222-223.

2) Brehier: op. cit., p. 197.

3) Van Cleve: "The Crusade of Frederick II, p. 433.

رحيله إلى الأرض المقدسة، موضحا له أن السبب في ذلك هو أن صقلية سوف تكون محكومة تماما أثناء غيابه، وكذلك من السهل أن يرث هنري ألمانيا في حالة موته في الحملة الصليبية، ولم يعترض البابا على ذلك، ولهذا في ٦ سبتمبر من نفس العام، طلب فردريك من البابا تأجيل حملته الصليبية إلى ٢١ مارس سنة ١٢٢٠م، حتى يتمكن من تتويج ابنه، فوافق هونوريوس الثالث على ذلك، ولكنه حذر فردريك بأن عدم الوفاء بوعده سوف يجلب عليه الحرمان[١].

وفي ١٦ فبراير سنة ١٢٢٠م أرسل البابا هونوريوس الثالث، كنراد من ميتز Conrad of Metz إلى فردريك الثاني يذكره بالموعد المحدد لرحيله بالحملة الصليبية، غير أن فردريك لم يكن مستعدا للرحيل، فأجاب على البابا في ١٩ فبراير من نفس العام أنه لن يتمكن من الخروج بالحملة الصليبية في موعدها، بسبب أن النبلاء الألمان ليس لديهم استعداد لمشاركته في الحملة، فقبل البابا هذا الاعتذار، ووافق على تأجيل الرحيل بالحملة حتى ١ مايو من نفس العام[٢].

ومن الواضح، أن رحيل الإمبراطور فردريك الثاني بالحملة الصليبية كان يتوقف على تتويج ابنه هنري ملكا على ألمانيا وصقلية، وتتويجه إمبراطورا في روما، ومن ثم فإنه في سبيل تتويج ابنه ملكا فقد قدم الإمبراطور فردريك تنازلات عديدة للأمراء الألمان، ولهذا في مجلس الدايت المعقود في فرانكفورت في أبريل سنة ١٢٢٠م، تم انتخاب ابنه ملكا على ألمانيا وصقلية، كما تم وضع الترتيبات اللازمة

---

1) Loc. Cit.;

Orton : op. cit., p. 84.

2) Van Cleve: op. cit., p. 433;

محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨-١٢٢١م (٦١٥-٦١٨هـ)، القاهرة، ١٩٨٥م)، ص ٣٥٤.

لرحيل الإمبراطور فردريك إلى روما ليتوج هناك إمبراطورا، وليضع مع البابا ترتيبات الرحيل بالحملة، وقد وافق البابا على ذلك في ٢٨ أغسطس سنة ١٢٢٠م، وعندما وصل فردريك وزوجته كونستانس إلى إيطاليا في نهاية أغسطس، قام البابا بتتويجه إمبراطورًا وتتويج زوجته إمبراطورة في كنيسة القديس بطرس في ٢٢ نوفمبر من نفس العام(١)، وفي مقابل ذلك حمل فردريك الصليب من جديد، في الوقت الذي تحدد فيه موعد رحيل الإمبراطور بالحملة الصليبية في أغسطس سنة ١٢٢١م(٢).

والجدير بالذكر، أن فردريك لم يأت إلى إيطاليا إلا بعد أن اطمأن على الوضع في ألمانيا من خلال بعض الإصلاحات التي قام بها هناك، والتي تمثلت في اعترافه الفعلي بسيادة أمراء الإقطاع وحق تصرفهم المطلق في إماراتهم عند غيابه عن ألمانيا، وبذلك أصبحوا أعوانا صادقين له. أما القساوسة فقد وعد بإعطائهم حق سك العملة وفرض المكوث في أراضيهم، وتحصيل ضريبة على الجعة، والتصرف في إقطاعاتهم طبقا لمشيئتهم، والتصرف في ثرواتهم الشخصية طبقا لما يحررونه من وصايا أو مواثيق، كما أنه أرسل

---

1) Brehier: Les Croisades, p. 197;
Van Cleve: op. cit., p. 434;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٨٦؛
نفس المرجع السابق، جـ١، ٣٩٥-٣٩٦.

2) Brehier: Les Croisades, p. 197;
Orton: op. cit., p. 84;
Archer: The Crusade, p. 380;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٢٧١-٢٧٩؛
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٩٥.

هرمان فون سالزا إلى هنري دوق سكسونيا، يطلب منه شعارات الإمبراطورية وتاج شارلمان في مقابل تعيينه نائبا على الإمبراطورية أثناء غيابه، وبتلك الوسيلة تمكن من استخلاص الأوسمة والشعارات منه[1]. وبهذا يمكن القول أن فردريك ظل يماطل في الخروج بالحملة حتى يسوي وضعه في ألمانيا.

وإذا كان الوضع قد استقر في ألمانيا بالنسبة لفردريك الثاني، فإن الوضع في صقلية كان مضطربا، وكان فردريك يعلم جيدا أن ترك صقلية آنذاك، يشكل عليه خطورة لا يمكن تعويضها بإحراز نصر في الخارج، ولهذا قرر إصلاح الوضع في صقلية قبل الخروج بالحملة الصليبية.

والواقع أن المسلمين كانوا قد قاموا بغارة آنذاك على مون ريالي بالقرب من مدينة بالرموا، فأرسل فردريك سفارة إلى ابن عباد أحد كبار قادة العرب والمقيم في جياتو على بعد عشرة أميال من مون ريالي يعرض عليه تسوية الأمور سليما، فوعد ابن عباد السفارة بأنه سوف يحل تلك المشكلة، ولهذا أرسل إليه فردريك سفارة أخرى محملة بالهدايا الثمينة، فأخذها ابن عباد، وقبض على أفراد السفارة

---

١) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٢٦٤-٢٦٥؛

عبد القادر أحمد اليوسف: العصور الوسطى الأوربية، ص ٢٧٢.

والجدير بالذكر، أن فردريك بالرغم من أنه كان معترفًا به ملكًا على كل ألمانيا، إلا أنه كان ما يزال بدون الشعارات الملكية لوظيفته التي كانت موجودة في حوزة هنري شقيق أوتو.

وبحصول فردريك عليها، انتهت مرحلة الصراع الطويلة بين عائلات الولف والهوهنشتاوفن، والتي بدأت منذ القرن الثاني عشر بين هنري المتكبر، وكنراد الثالث. انظر:

Orton: op. cit., pp. 82-83.

وأعدمهم، مما دفع فردريك إلىحصار ابن عباد في جياتو لمدة ثلاثة شهور، وإلقاء القبض عليه وقتله[1]، وعلى أثر ذلك تمكن فردريك من القضاء على ثورة المسلمين هناك وطردهم من حصونهم الجبلية في صقلية إلى أبوليا[2]. هذا وقد كتب فردريك إلى أهالي مدن إيطاليا الشمالية يطلب إليهم حمل الصليب[3].

وفي خلال المقابلة التي تمت بين الإمبراطور فردريك والبابا هونوريوس بناء على طلب الأخير في فيرولي Veroli في ١٥ أبريل سنة ١٢٢٢م[4]، أوضح فردريك للبابا أنه يقوم بقتل عدد من المسلمين في صقلية يفوق عدد المسلمين الذين يقتلهم الصليبيون في الأراضي المقدسة، وأنه لن يطمئن على صقلية طالما بقي المسلمون يهددونها، وتساءل فردريك عما إذا كان قداسة البابا يريد أن يرى تكرارًا لما فعله المسلمون في منتصف القرن التاسع الميلادي حين خربوا – على حد قول فردريك – كنيسة القديس بطرس. وبناء على ذلك أجل البابا والإمبراطور رحيل الحملة، واتفقا على عقد مؤتمر في فيرينتينو Ferontino[5] في مارس سنة ١٢٢٣م، لوضع الترتيبات اللازمة للحملة، وحضر هذا المؤتمر البابا والإمبراطور، وحنا دي بريين ملك مملكة بيت المقدس في عكا، ورؤساء المنظمات الدينية الحربية في

---

١) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٠٨-٣١٣.

2) Van Cleve: op. cit., p. 436.

3) Brehier: Les Croisades, p. 197.

4) Van Cleve: op. cit., p. 438.

وفيرولي مدينة إيطالية تقع على مسافة ٢٦ ميلا شمال غرب مونت كاسينو. انظر:

Setton: History of the Crusade, vol, II. P. 786.

٥) فيرينتينو: مدينة إيطالية تقع على مسافة ستة أميال من أناجني. انظر:

Setton: op. cit., vol, II. P. 769.

بلاد الشام، وتم في هذا المؤتمر تأجيل رحيل فردريك بحملته لمدة سنتين(١).

على أية حال، اختلف المؤرخون حول الأسباب التي دفعت الإمبراطور فردريك إلى مماطلته في الخروج بالحملة الصليبية من سنة ١٢١٧م إلى سنة ١٢٢٥م، فبعض المؤرخين يشير إلى أن المصادر لم تشر إلى سبب المماطلة ولهذا لم يتمكن أحد من فهم سبب إصرار فردريك على خلق الأعذار في عدم الوفاء بقسمه(٢)، في حين يشير البعض الآخر أن سبب المماطلة محاولة فردريك بسط نفوذه على كل إيطاليا بما فيها أملاك البابوية، ومدن الشمال الإيطالي التجارية الغنية، والقضاء على ثورات المسلمين في صقلية كما أن فردريك كان يماطل حتى يتوج ابنه هنري ملكا على صقلية وألمانيا، ويتوج هو إمبراطورا في روما، وبذلك يتمكن فردريك من عدم تقسيم مملكته، والتي كان قد وعد البابا أنوسنت الثالث من قبل بالتنازل عن صقلية لابنه هنري.

وزيادة على ذلك كانت الحملة الصليبية تحتاج إلى تكاليف باهظة لم يكن فردريك قادرا على توفيرها غداة اعتلائه عرش إمبراطورية مزقتها الفوضى في أثناء وصاية طويلة، كما أنه كان ما يزال صبيا؛ ولهذا فإن ظروفه كانت تقف حائلا دون الاستجابة لدعوة البابا أنوسنت الثالث للقيام بحملة صليبية، ومن بعده البابا هونوريوس الثالث(٣).

---

1) Brehier: op. cit., p. 198;

Van Cleve: op. cit., p. 438;

جوزيف جادي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣١٥.

2) Van Cleve: op. cit., p. 433 ;

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٨٨.

٣) كانتور: التاريخ الوسيط، جـ٢، ص ٥٩٤؛=

ويشير أحد المؤرخين إلى أن أحد الأسباب التي جعلت فردريك الثاني يماطل في القيام بحملته الصليبية، هو عدم رغبته في الدخول في حرب ضد المسلمين والإسلام، ولعل ذلك يرجع إلى نشأته في صقلية في كنف الحضارة الإسلامية، وشعوره بالتسامح الديني الذي كان لدى المسلمين، في حين أنه كان معروفا أيضا بالتسامح الديني الشديد في عصر طفح بروح التعصب الديني، وعرف بحبه للمسلمين، بل وللإسلام، في زمن اشتدت كراهية الغرب الأوربي للمسلمين والإسلام(١).

ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن الإمبراطور فردريك كان يماطل في الخروج بالحملة الصليبية حتى يسوي وضعه في ألمانيا كما رأينا سابقا، ثم حاول بعد ذلك أن يسوى وضعه في إيطاليا (صقلية)، وبهذا فإنه كان يتطلع إلى الاطمئنان على أملاكه أولا ومدى سيطرته عليها، ولهذا طالما كان يشعر بمدى ضعف وضعه في تلك الأملاك، فإن خروجه بالحملة الصليبية كان مستحيلا بصرف النظر عن حبه للمسلمين أو كراهيته لهم، فمصلحته كانت تأتي في المقدمة، ولهذا راح يماطل من أجل أملاكه في الغرب والحفاظ عليها، وهذا ما أكده

= رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٢٩١؛

باركر: الحروب الصليبية، ص ١١٠-١١٢؛

فيشر: تاريخ أوربا العصور الوسطى، ص ٢٥١؛

إدوارد جيبون: إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، ترجمة لويس إسكندر، مراجعة وتقديم أحمد نجيب هاشم، جـ٣، (دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ٢١١؛

ول ديورانت: قصة الحضارة، جـ٤، ق ٤، ص ٥٦؛

سعيد عاشور: الإمبراطور فردريك الثاني، ص ١٩٨.

١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٨٧.

المؤرخ ميشو[1] بقوله: "إن الاستيلاء على صقلية وإيطاليا جذب انتباه الإمبراطور الألماني الذي كان يرى أن المحافظة على أملاكه في الغرب وتوسيعها أهم من الاستيلاء على بيت المقدس".

- زواج فردريك من إيزابيلا والنتائج المترتبة عليه:

والجدير بالذكر، أنه بعد عودة حنا من بريين ملك مملكة بيت المقدس من حملته الصليبية الخامسة على مصر إلى بلاد الشام سنة ١٢٢١م مكث سنة واحدة في عكا، ثم قرر الذهاب إلى البابا هونوريوس الثالث، وملوك وأباطرة غرب أوربا ليطلب منهم القيام بحملة صليبية جديدة[2]؛ لأن فشل تلك الحملة جعل الصليبيين في عكا يعيشون في رعب، كما أن مشاركته في الحملة الصليبية الخامسة قد استنفذت أمواله، فضلا عن عدم وجود قوة لديه للدفاع عن باقي حطام المملكة الصليبية في عكا[3]، في الوقت الذي كان يفكر في البحث عن زوج لابنته إيزابيلا (يولندا) الملكة الصغيرة ووريثة مملكة بيت المقدس في عكا، والتي لم تتجاوز الحادية عشرة من عمرها، في حين كان هو في سن السبعين ولهذا كان لابد من تأمين وراثة الحكم[4].

وعندئذ وصلت لحنا دعوة من قبل البابا هونوريوس والإمبراطور فردريك الثاني، بالحضور إلى إيطاليا لمناقشته في أمور الأراضي المقدسة والحملة الصليبية، وبناء على ذلك أعطى حنا من بريين الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس في عكا إلى أودو من

---

1) Histoires des Croisades, Tom. III, pp. 1-2.

2) Grousset: Histoires des Croisades, Tom. 3, p. 271;
Archer: The Crusade, p. 379.

٣) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٦٨.

4) Duggan: op. cit., p. 222;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٠٩.

مونت من بليارد Eude de Montbeliard وأبحر إلى إيطاليا مع جيرولد مندوب البابا، وبطريرك بيت المقدس وجرين من مونتيجو Gurin de Montaigu قائد منظمة الإسبتارية، ووليم كاديل Guillaume Gadel قائد منظمة الداوية، فوصل يوحنا على رأس هذه البعثة إلى برنديزي في نهاية أكتوبر سنة ١٢٢٢م، وقد قابله البابا بترحيب حار، فراح يوحنا يشكو له وللإمبراطور فردريك من تجاوزات بيلاجيوس مندوب البابوية عليه، وعن الأخطاء الخطيرة التي حدثت في دمياط بسببه، وألصق به حنا من بريين كارثة الحملة الصليبية الخامسة، فوعده البابا والإمبراطور بأن هذه التجاوزات لن تحدث مرة أخرى، وأن الحملة الصليبية القادمة سوف توكل قيادتها إليه[1].

وفي تلك الأثناء كان البابا هونوريوس الثالث، وهرمان من سالزا[2] Herman Von Salza الذي كان في روما عند مغادرة حنا من بريين لبلاد الشام، قد فكرا في وسيلة لربط الإمبراطور فردريك الثاني ببلاد الشام، وقد تمثلت هذه الوسيلة في زواجه من ابنة حنا دي بريين الوريثة الشرعية لمملكة بيت المقدس في عكا؛ لأن والدها لم يُعترف به ملكا، بل كان وصيا فقط على ابنته، ولهذا فإن زواج

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 3;
Grousset: op. cit., Tom, 3, p. 271;
Archer: op. cit., p. 379;

مكسيموس مونورند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٦٨.

٢) كان هرمان من سالزا (مدينة ألمانية) رجلا صلب الرأي، متعلمًا تعليمًا بسيطًا، قضى سبع أو ثمان سنوات في الخدمة العسكرية في الشرق الأدنى الأمر الذي جعله ملمًا إلمامًا كافيًا بكل المشاكل التي تواجه الحملة الصليبية، وكان رئيسا لطائفة الفرسان التيوتون. انظـر: جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٢٥٥-٢٥٦.

الإمبراطور فردريك الثاني منها سوف يؤكد له وراثة مملكة بيت المقدس في عكا، وقد يكون ذلك حافزا له على القيام بحملته الصليبية وعدم التمادي في المماطلة أكثر من ذلك[١]. وبدون تفكير قبل فردريك هذا المشروع، لاسيما أنه وجد فيه الحل الوحيد الذي يمكنه من تحقيق أحلام أبيه هنري السادس الرامية إلى ضم الشرق اللاتيني للإمبراطورية الألمانية[٢] فجدد نزوره الصليبية وحدد يوم ٢٤ يونيو سنة ١٢٢٥م موعدا للرحيل بالحملة الصليبية[٣]، ووعد بأنه سوف يدافع عن مملكة بيت المقدس، ووافق على حرمانه إذا لم يف بوعده.

ومن ناحية أخرى فرح حنا من بريين وحاشيته فرحا شديدا بهذا المشروع؛ لأنهم شعروا أنه سوف يضمن لهم نجدة الأراضي المقدسة على يد الإمبراطور الألماني، ولكن رغم ذلك كان حنا متخوفا من أن يُفقده هذا الزواج الوصاية على عرش مملكة بيت المقدس في عكا غير أن هرمان فون سالزا أخبره أن فردريك سمح له أن يحتفظ بهذه الوصاية طيلة حياته، فوافق حنا على هذا الزواج دون تردد[٤].

والجدير بالذكر، أن حنا من بريين عندما غادر روما وتوجه إلى فرنسا لينهي مشروع الزواج إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا، لامه

---

1) Michaud: Histoire des Croisades, Tom, III, p. 3;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 272;
Kantorowicz (E.): Frederick the second, (London, 1931), pp. 138-139;
Stevenson: op. cit., p. 307;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٠٩.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 272.

3) Brehier: op. cit., p. 198;
Van Cleve: op. cit., p. 438.

4) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 355;
Van Cleve: op. cit., p. 442.

الأخير على ذلك، وأخبره أنه كان يجب أن يكون لديه علم بهذا المشروع منذ بدايته[١]، لاسيما أنه هو الذي كان قد اختار حنادي بريين ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية بعد وفاة عموري من لوزجنان في أبريل سنة ١٢٠٥م[٢].

وفي هذا الصدد يرى جروسية[٣] أن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام كانت منذ الحملة الصليبية الأولى مستعمرة فرنسية من حيث الجنس والثقافة، ولذلك فإن زواج آخر وريثة مالكة لها من إمبراطور من أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية سوف يؤدي إلى تحويل تبعية هذه المستعمرة من فرنسا إلى الإمبراطورية الألمانية ومملكة صقلية، كما أن حنا دي بريين سيكون بتزويج ابنته من فردريك آخر ملك فرنسي حقيقي لمملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، ومن ثم فإن زواج إيزابيلا من فردريك كان في نظر فيليب أغسطس بمثابة شهادة وفاة لفرنسا في منطقة الشرق الإسلامي.

على أية حال، أرسل فردريك أسطولا مكونا من أربع عشرة سفينة إلى بلاد الشام لإحضار إيزابيلا، فأبحر هذا الأسطول من برنديزي في أغسطس سنة ١٢٢٥م تحت قيادة قائد البحر الصقلي هنري الملطي Hanry of Malta ومعه القديس يوحنا من عكا المكلف بزواج فردريك من يولندا، وعندما وصل الأسطول إلى عكا قدم هنري الملطي هدايا الإمبراطور لعروسه، ثم عُقد قرانها بعد ذلك في كنيسة الصليب المقدس في عكا على فردريك، وتم تتويجها ملكة على مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا في كاتدرائية صور على يد سيمون موجاستل Simon de Mougastel رئيس أساقفة صور،

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 356.

2) Brehier: op. cit., p. 184.

3) Historires des Croiades, Tom. 3, p. 273.

وبحضور أودومن مونت بليارد الوصي على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا وجوتيه الثالث صاحب قيصرية Gautier III de Ceraree وباليان سيد صيدا Balian de Sidon وجميع رؤساء المنظمات الدينية حيث قدم كل هؤلاء لها فروض الولاء والطاعة(١)، ثم غادرت إيزابيلا بلاد الشام بعد أسبوعين من الأفراح في رفقة رئيس أساقفة صور وعمها باليان سيد صيدا، فوصلت أولا إلى قبرص لزيارة خالتها الملكة آليس، ثم غادرتها إلى برنديزي التي وصلتها في أكتوبر سنة ١٢٢٥م، فاستقبلها فردريك استقبالا عظيما، وكان يرافقه والدها حنا دي بريين، ثم تم الاحتفال بهذا الزواج في كاتدرائية برنديزي في ٩ نوفمبر سنة ١٢٢٥م(٢).

والواقع أن فردريك جدد قسمه بالقيام بالحملة الصليبية بعد إتمام هذا الزواج، وراح يستعد للحملة، لدرجة أن الجميع شعروا أنه جاد هذه المرة في تنفيذ وعده، كما أن الصليبيين المقيمين في بلاد الشام، "كانوا ينتظرون قدومه كمن ينتظر قدوم المسيح"(٣)، لاسيما أنه أصبح آنذاك ملك مملكة بيت المقدس في عكا وبذلك فهو المسئول عنهم(٤).

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 358;
Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 273-274;
Van Cleve: op. cit., p. 442;
Pernoud: The Crusades, p. 225;
جوزيف جادي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٣٨.

2) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 358;
Duggan: op. cit., p. 222;
Smail: The Crusaders in Syria and Holy Land, p. 29

3) Kantoro wicz: Frederick the second, p. 139;
مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ١، ص ٢٧٠.

4) Archer: op. cit., p. 379; =

وقد جدَّ من الأحداث آنذاك ما أدى إلى تعكير صفو العلاقة بين فردريك وصهره حنا دي بريين، ذلك أن الأخير كان يعتقد أنه سوف يظل يمارس سيادته على عرش مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، حتى بعد زواج ابنته في حين أن فردريك رأى أن هذا العرش لابد من أن ينتقل إليه بعد الزواج، وإن كان قد أخفى هذه الحقيقة قبل زواجه[١].

وفي هذا يشير بعض المؤرخين إلى أنه في اليوم الذي تم فيه الاحتفال بالزواج، طلب الإمبراطور فردريك الثاني من الملك حنا من بريين أن يسلمه مملكة بيت المقدس على اعتبار أنه أصبح من الآن فصاعدا الملك الوحيد الشرعي للمملكة، فاحتج على ذلك حنا، وأجاب على فردريك أن هرمان من سالزا، أفهمه أنه سوف يظل ملكا على بيت المقدس طيلة حياته، وأن الإمبراطور هو الذي وعد بذلك، ولكن فردريك أجاب عليه بأن هرمان لم يعلمه بشيء من ذلك[٢].

وبدون أي اعتبار لحنا دي بريين، غادر فردريك برنديزي في اليوم التالي لزواجه دون أن يعلمه بذلك، فلحقه الأول، إلا أن فردريك قابله مقابلة فاترة، وقام بتوبيخه، فما كان من حنا دي بريين إلا أن اتهمه ببعض الأعمال المنافية للأخلاق التي قام بها، والمتمثلة في مزاولة الرذيلة مع زوجة باليان سيد صيدا، ولولا أن القتل جريمة

= Smail: op. cit., p. 25;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٤٨.

1) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 274

Archer: op. cit., p. 379.

2) Estoire de Eracles, Tom. II, p. 359;

Van Cleve: op. cit., p. 442;

Brehier: Les Croisades, p. 199.

كبرى لقتله على هذا العمل، فأدى ذلك إلى غضب فردريك، وطالبه أن يغادر أراضيه فورا، وعندئذ قال له حنا من بريين: "إن تلك الأراضي لا يمكث فيها رجل غير أمين"(١). مما دفع قوات فردريك إلى الاستيلاء على الأموال التي كانت مع حنا من بريين، والتي كان فيليب أغسطس قبل وفاته قد عهد بها إليه للإنفاق منها على بيت المقدس، فغادر حنا صقلية إلى روما لإخبار البابا بذلك، فقام البابا بتعيينه نائبا له في الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية بلقب إمبراطور حتى مات سنة ١٢٣٩م، أما فردريك فقد اتخذ منذئذ لقب ملك القدس في كل مراسلاته(٢).

وفي غضون ذلك، أراد فردريك أن يحكم مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا حكما فعليا، فأجبر البارونات الصليبيين الذين رافقوا حنا من بريين إلى إيطاليا أن يقسموا له يمين الولاء والطاعة، ثم قام بإرسال أسقف أمالفي ومعه ثلاثمائة فارس صقلي إلى عكا لينوب عنه في أخذ الولاء من البارونات المقيمين في الأراضي المقدسة، وفي نفس الوقت أبقى على أودو من مونت بليارد في إدارة مملكة بيت المقدس كنائب عنه، ولم يلبث فردريك أن شعر أن ولاءه له لم يكن كافيا؛ لهذا أرسل إلى عكا نائبا آخر عنه هو توماس الإكويني Tohmas de Aquino كونت أكيرا Acerra الواقعة على مسافة ثمانية أميال شمال مدينة نابلي(٣).

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 3650367.

2) Grausset: op. cit., Tom. 3, p. 276;
Brehier: op. cit., p. 199;
Duggan: op. cit., p. 222;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٤؛
باركر: الحروب الصليبية، ص ١١٢.

3) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 359-360, 364; =

والجدير بالذكر، أن البابا هونوريوس الثالث عندما وجد أن فردريك مهتما ببلاد الشام لهذا الحد، تهلل فرحا؛ لأنه أدرك أن الإمبراطور سوف يقوم أخيرا بحملته الصليبية(١).

- **الاستعدادات للحملة الصليبية:**

والجدير بالذكر، أن الاستعدادات للحملة الصليبية كانت تجري خلال الفترة الواقعة بين سنتي ١٢٢٣ و ١٢٢٥ على قدم وساق، فبعد الاجتماع الذي عقد في فيرانتينو ذهب الملك حنا من بريين للدعوة للحملة الصليبية في دول أوربا، فزار فرنسا وإنجلترا وألمانيا، وفي هذه الدول كان يحث شعوبها على حمل الصليب لإنقاذ إخوانهم في الشرق، واسترجاع مدينة بيت المقدس من المسلمين(٢).أما الإمبراطور فردريك فقد أمر ببناء السفن في جميع الموانئ الصقلية؛ لنقل جيوش الحملة الصليبية إلى بلاد الشام، كما أعد أسطولا حربيا مكونا من مائة سفينة تسع لعشرة آلاف مقاتل، وألفين من الفرسان بخيولهم وأتباعهم، وثلاثة جياد لكل فارس، وقد صمم فردريك هذه السفن بنفسه، حيث كان لكل منها منحدر يفتح من السفينة ويمر من فوقه الفرسان إلى الشاطئ ومعهم كامل أسلحتهم، وعلى أهبة الاستعداد للحرب، كما أنه كون فرقة خاصة من المحاربين المسلمين الذين كانوا آنذاك في الأسر، ودربهم تدريبا خاصا، ولكنه لم يبح بهذا الأمر لأحد(٣).

= Van Cleve: op. cit., pp. 442-444.

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 276.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 3-4;
Throop: op. cit., p. 208;
Van Cleve: op. cit., p. 349.

3) Van Cleve: op. cit., p. 349;
جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣١٩.

ومن أجل توفير الأموال اللازمة للحملة حرَّم فردريك تصدير جميع المواد الغذائية من صقلية، مما أدى إلى هبوط أسعارها، ولهذا فقد اشترى كميات هائلة منها باسم التاج، ثم باعها إلى التجار الأجانب، فحقق بذلك ربحا وفيرا، وقد احتكر فردريك شحن الغلال، إذ منع شحنها إلا على سفن الدولة، وفي محاولة منه لتثبيت أسعار العملة، أصدر عملة فضية أطلق عليها اسم "الإمبراطوري" كما حرَّم تصدير جميع المعادن النفيسة، حتى لا يحدث ارتباكا ماليا(١). كما أرسل فردريك سالزا إلى ألمانيا ليحث اللاندجراف صاحب ثورنجيا، ودوق النمسا وملك المجر، وجميع الأمراء الألمان على الانضمام للحملة الصليبية؛ وكان فردريك ينوي الذهاب بنفسه إلى ألمانيا ولكن جهوده الرامية لإبعاد المسلمين من صقلية إلى أبوليا هي التي منعته من ذلك(٢).

ولكن التقارير وصلته آنذاك من هرمان من سالزا بعدم استجابة الغرب الأوربي، فأرسله فردريك على وجه السرعة إلى البابا هونوريوس الثالث ليخبره بحقيقة الوضع، وفي الخطابات التي بعث بها فردريك إلى البابا، طالبه بعدم إهمال أية وسيلة من شأنها أن تؤدي إلى زيادة عدد جنود يسوع المسيح، ولامه أيضا على تركه صكوك الغفران، وتسليم الدعوة للحملة الصليبية إلى دُعاة من عامة الشعب، وطالبه فردريك بالسعي لإنهاء النزاع بين إنجلترا وفرنسا، حتى يتسنى لملكي هاتين الدولتين وشعوبها الاشتراك في الحملة، كما وعده بأنه

---

١) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٢١-٣٢٢.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 5;
Brehier: Les Croisades, p. 198;
Van Cleve: op. cit., p. 349.

سوف يوفر للصليبيين كل ما يلزم الحملة من مؤن وسفن وأسلحة، وبذلك صار فردريك أكثر حماسا للحملة الصليبية من البابا نفسه[١].

وقد تأثر هونوريوس الثالث بشكوى فردريك، لاسيما فيما يخص التقصير الذي أظهره دعاة الحملة الصليبية، فأرسل الكاردينال كنراد من بورتو Conrad of Porto مبعوثًا له إلى ألمانيا ليحث الأكليروس الألماني على تكثيف جهودهم في الدعوة إلى الحملة الصليبية، ويطلب منهم أن يمثلوا البابا خير تمثيل[٢]، وبعث البابا أيضا إلى فيليب أغسطس ملك فرنسا يطلب منه الاشتراك في الحملة، وأمر دوق برابانت أن يقلع عن اعتذاراته السابقة، وأن يعجل بالرحيل لبلاد الشام، ووعد البابا بدفع خمسة عشرة ألف مارك من الفضة كنراد من مونتفيرات الذي كان على وشك الذهاب لبلاد الشام، غير أن هذه الجهود كانت عديمة الجدوى في فرنسا، ولم تلق استجابة في ألمانيا[٣]؛ نظرا لأن معظم الملوك والأمراء في هذه البلاد كانوا مشغولين بمشاكلهم الخاصة من ناحية، وكانوا يدركون ما تتطلبه الرحلة في الحملة الصليبية إلى الشرق من نفقات باهظة والخوف من الفشل من ناحية أخرى[٤].

وفي غضون ذلك وصلت إلى هونوريوس رسالة من بطريرك الإسكندرية، يخبره فيها أن المسيحيين في مصر ينتظرون قدوم الإمبراطور الألماني إلى ضفاف نهر النيل والأردن، ذلك أن حكام مصر قد قاموا ببعض الأعمال التعسفية ضد المسيحيين في مصر في

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 4-5.
Van Cleve: op. cit., pp. 349-440.

2) Van Cleve: op. cit., p. 440.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 6.

٤) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٣١.

أعقاب فشل الحملة الصليبية الخامسة، من ذلك عدم احتفاظهم بالأسلحة في بيوتهم، وعدم اقتناء الخيل، وعدم حمل الصليب في جنازاتهم، كما أن مائة وخمس عشرة كنيسة من كنائسهم دمرت منذ مجيء الحملة الخامسة، كما أنهم قد أرهقوا بالجزية، وطردوا من ديارهم، ولهذا يطلبون من محاربي الغرب الشجعان نجدتهم، والأهم من ذلك أن بطريرك الإسكندرية كان يتطلع إلى قيام الغرب الأوربي المسيحي بمهاجمة مصر وقتئذ، ولهذا شرح للبابا الخطة التي يمكن عن طريقها احتلال مصر بدون فشل، وقد تمثلت هذه الخطة في دخول قوات فردريك من فرع رشيد على اعتبار أنه أوسع وأعمق من فرع دمياط، وأن ترسي السفن بالقرب من مدينة فوة[١] التي تقع في جزيرة في هذا النهر، واختتم البطريرك رسالته قائلا: "وإذا ما تصرفنا هكذا فسنحصل بمشيئة الله على كل أرض مصر بدون أن تحدث كارثة"[٢].

والجدير بالذكر، أن أنباء استعدادات فردريك للحملة الصليبية وصلت إلى شعوب جورجيا، فكتبت ملكتهم إلى هونوريوس الثالث تخبره أن ابنها وعددًا كبيرًا من أتباعها ينتظرون قدوم فردريك لبلاد الشام، ليهبوا لمساعدته ضد الزنادقة (المسلمين)[٣].

وعلى الرغم من ذلك أدرك فردريك وحنا من بريين ورالف Ralph بطريرك بيت المقدس أن قيام الحملة الصليبية في الموعد

---

١) فوّة: بليدة على شاطئ النيل، من نواحي مصر، قرب رشيد، بينها وبين البحر خمسة أو ستة فراسخ. انظر:

ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٣، ص ٩٢٤.

2) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 6.

محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ١٨٥، حاشية ٣.

هايد : تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، جـ٢، ص ٥٦.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 7-8.

المحدد لها وهو ٢٤ يونيو سنة ١٢٢٥م أمر عسير، بسبب إعلان المدن اللمباردية وقوفها ضد الإمبراطور فردريك، فضلا عن ثورات المسلمين التي ما تزال مستمرة في صقلية، ولهذا يجب عليه إنهاء هذه المشاكل قبل الخروج بالحملة(١)، فأرسل سفارة إلى البابا هونوريوس الثالث مكونة من حنا من بريين ورالف وهرمان من سالزا تطلب منه تأجيل الحملة لمدة سنتين، حتى يتمكن فردريك من الاستعداد الكافي لها، ومن ناحية أخرى تكون الهدنة المعقودة بين الصليبيين والسلطان الكامل الأيوبي سنة ١٢٢١م، والتي كانت مدتها ثمان سنوات، قد انتهت فغضب هونوريوس لذلك، ولكنه لم يتمكن من رفض المهلة التي طلبها منه فردريك فأمر بعقد مجمع في سانّ جرمانو San Germano لمناقشة التفاصيل، وفي هذا المجمع الذي عقد في ٢٥ يوليو سنة ١٢٢٥م، وعد فردريك مندوب البابا (جو جولينو من أوستي الذي أصبح فيما بعد البابا جريجوري التاسع) بالخروج بالحملة الصليبية في ١٥ أغسطس سنة ١٢٢٧م، وخلال هذه المدة يكون قد قضى على ثورات المسلمين في صقلية، فوافق مندوب البابا على ذلك، ولكن مقابل شروط أملاها على فردريك، تمثلت في تعهد فردريك بنقل ألف فارس بسلاحهم إلى بلاد الشام خلال هذين العامين، وأن يُنفق عليهم خلال هذه المدة(٢). وعلاوة على ذلك يقوم فردريك بإعداد

---

1) Van Cleve: op. cit., p. 440;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٢٠.

2) Mayer: The Crusades, p. 223;

Van Cleve: op.cit., p. 440;

ميخائيل زابوروف: الصليبيون في الشرق، ص ٣٠٠.

وسان جرمانو، قرية إيطالية تقع على بعد اثنين وعشرين ميلا شمال غرب مونتفرات.

انظر: =

= Setton: op. cit., vol. II, p. 782.

أسطول مكون من مائة وخمسين سفينة تكون جاهزة لنقل القوات الصليبية في نهاية تلك المدة وأن يدفع لصندوق الحملة مائة ألف أوقية من الذهب، تصادر لصالح الأماكن المقدسة إذا مات أو تخلف عن الخروج بالحملة في الموعد المقرر لها، وإذا خرج بالحملة يرد إليه المبلغ في عكا للإنفاق منه على القوات التي ترافقه، وإذا تخلف عن الرحيل في الموعد المحدد سيقوم البابا بإصدار قرار الحرمان ضده، فوافق فردريك على ذلك(١).

والواقع أن البابا هو الآخر كان في حاجة إلى تأجيل الحملة؛ لأن مدينة روما كانت آنذاك في ثورة عارمة أجبرته على الهروب منها إلى مدينة رايتي Rieti – الواقعة على مسافة أربعين ميلا شمال روما – إنقاذا لحياته، وطلب من فردريك أن يرضي النبلاء ويُهدأ الجماهير(٢). وهكذا عندما يتعرض البابا لخطر يكاد يفقده العرش البابوي، يطلب الدفاع عنه بدلا من الدفاع عن الأراضي المقدسة في الشرق، أي أن حفاظ البابا على منصبه أهم عنده من الحملة الصليبية، الأمر الذي يؤكد لنا أن الحروب الصليبية كان الغرض منها رفعة شأن البابوية، أكثر منها أسبابا أخرى.

وفي محاولة من الإمبراطور فردريك لامتصاص حماس البابا هونوريوس الثالث قام بإرسال ألف فارس إلى بلاد الشام، وبذلك يكون قد نفذ شرطا من شروط سان جرمانو(٣).

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 8-9;

Van Cleve: op. Cit., pp. 440-441;

Kantorowicz: Frederick the second, p. 139;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٣٢.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٥.

٢) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٣١.

٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٦.

وعلى أية حال فقد واصل فردريك استعداداته للحملة الصليبية، فعقد مؤتمرا في كريمونا Cremona سنة ١٢٢٦م، بحجة مناقشة أمور الحملة الصليبية، وإن كان في الحقيقة لمناقشة موقف المدن اللمباردية التي أعادت تجديد الحلف اللمباردي آنذاك ضد الإمبراطور؛ بسبب إعلان فردريك تمسكه بحقوق الإمبراطورية كاملة في السيطرة على المدن اللمباردية، وقد أعلنت هذه المدن بقيادة ميلان عزمها على تحطيم السلام مع فردريك، وتأخير استعدادات الحملة الصليبية، فما كان من أسقف هيلدشيم Hildsheim إلا أن أصدر قرار الحرمان ضدها، وقد حدث هذا في الوقت الذي تمكن فيه فردريك بصعوبة من توسط البابا في النزاع الدائر بينه وبين المدن اللمباردية، فما كان منها إلا أن خضعت لسلطاته، وقبلت تجديد السلام مع فردريك بصفة مؤقتة، فضمن فردريك بذلك حماية مصالحه في إيطاليا أثناء غيابه في الشرق، كما وعدت المدن اللمباردية البابا، بأنها سوف تنضم لفردريك لنجدة الأراضي المقدسة وذلك بإسهامها في الحملة بأربعين ألف محارب خلال مدة سنتين، وعندئذ رَفَعَ عنهم قرار الحرمان[1].

وفي ألمانيا نجح الأسقف كنراد من هيلدشيم، وهرمان من سالزا في التأثير على الألمان للانضمام للحملة الصليبية عن طريق توزيع الذهب وصكوك الغفران التي أصدرها البابا هونوريوس الثالث، فاستجاب اللاندجراف لويس دوق ثورنجيا، وفلرام دوق ليمبورج Walram of Limburg وسبعمائة فارس من ثورنجيا

---

1) Michaud: op. cit., Tom, III, p. 16;

Van Cleve: op. cit., p. 445;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٨٧.

سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ٣٩٦.

وأستوريا (النمسا)، وبالمثل عدد من كولونيا، وورمز، ولوبيك[١]؛ وبسبب صكوك الغفران التي أمر البابا بتوزيعها انضم إلى الحملة الصليبية الآلاف من القتلة والمجرمين الذين أقسموا بأن يكفروا عن خطاياهم بالاشتراك في الحملة الصليبية، وكانت الاستجابة قوية أيضا في إنجلترا ما بين عامي ١٢٢٦ و ١٢٢٧، ولم تكن تلك الاستجابة بسبب فصاحة دعاة الحملة الصليبية، إذ يقال أنه كان قد ظهر آنذاك صليب مضيئًا في السماء ومعه الجروح الخمسة للمخلص (المسيح عليه السلام) مع المسامير والرمح، فأدى ذلك إلى إلهاب حماس الشعب، فأقسم أكثر من أربعين ألف إنجليزي على حمل الصليب لنجدة الأماكن المقدسة[٢].

ولاشك أن البابا تهلل فرحا لما لقيته الدعوة للحملة الصليبية في أوربا الغربية وشعر أن أمنياته سوف تتحقق وأنه سوف يجني ثمار الجهود الشاقة التي بذلها لقيام الحملة الصليبية، فكتب قائلا: "إن الأرض والسماء شاهدتان على أنني راغب من كل قلبي في انتصار المسيحية، ولن أتوانى في عمل أي شيء يؤكد نجاح الحملة المقدسة"[٣]. ولكن البابا مات في ١٩ مارس سنة ١٢٢٧م عن عمر يناهز المائة عام فخلفه على كرسي البابوية البابا جريجوري التاسع[٤]

---

1) Van Cleve: op. cit., p. 444;

Mayer: The Crusades, p. 224;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٥٠.

مكسيموس مونورند: تاريخ الحروب المقدسة، م١، ص ٢٧٠-٢٧١.

2) Michaud: op. cit., Tom, III, pp. 11-14;

Van Cleve: op. cit., p. 444.

3) Michaud: op. cit., Tom, III, p. 4, 16.

٤) هو الكاردينال أوجولين Hugolin كبير أساقفة أوستيا، ويرتبط البابا أنوسنت الثالث بصلة قرابة وطيدة، فهو ابن أخته، وكان يناهز الخامسة والثمانين من عمره عند اعتلائه كرسي البابوية، وكان متعلمًا وذا عزيمة قوية انظر:=

(١٢٢٧-١٢٤١م) Gregory IX الذي اختلف في طباعه عن البابا هونوريوس الثالث في تعامله مع الإمبراطور فردريك الثاني، وتشابه مع سلفه البابا أنوسنت الثالث في تمسكه بالحملة الصليبية وسيادة البابوية؛ ولهذا ففي أول خطاب بعثه إلى الإمبراطور فردريك طالبه بالوفاء بنذره الصليبيي دون تأخير ومماطلة، وإذا لم يف بنذره فإنه سوف يصدر ضده قرار الحرمان[1].

- استغاثة السلطان الكامل الأيوبي بفردريك الثاني:

وفي تلك الأثناء وصلت استغاثة السلطان الكامل محمد الأيوبي إلى الإمبراطور فردريك الثاني يطلب منه القدوم إلى بلاد الشام ليساعده ضد أخيه الملك المعظم صاحب دمشق.

والجدير بالذكر، أنه يمكن التماس العذر للسلطان الكامل في هذه الاستغاثة؛ لأنه كان يواجه آنذاك حلفا عسكريا قويا ضده يتكون من أخيه الملك المعظم عيسى حاكم دمشق، ومظفر الدين كوكبوري بن زين الدين كوجك صاحب إربل، وجلال الدين خوارزم شاه[2].

= Malet and Isac: op. cit., p. 330;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٤٩.

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 289;

Brehier: Les Croisades, p. 199;

Van Cleve: op. cit., p. 445;

Duggan: op. cit., p. 222.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٢١-٤٢٣،

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، تحقيق، حسنين محمد ربيع، مراجعة سعيد عاشور (القاهرة، ١٩٧٢م)، ص ١٣٧-١٤٠؛

ابن الوردي: تتمة المختصر في تاريخ البشر "ويعرف بتاريخ ابن الوردي"، جـ٢، ص١٦٠؛

Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 281-282.

ومما زاد من قلق الكامل تجاه هذا الحلف فشل جهود كل من الأشرف موسى حاكم خلاط[1] والخليفة الظاهر بأمر الله في إثناء الملك المعظم عيسى عن التحالف مع جلال الدين خوارزم شاه الذي كانت أطماعه تهدد الأملاك الأيوبية وخاصة مدينة خلاط التي كان قد هاجمها آنذاك[2].

وعندما وجد السلطان الكامل أن المعظم عيسى مصرا على تحالفه مع جلال الدين خوارزم شاه، "خاف أن يكون اتفاقهما سببا لزوال الدولة الأيوبية، فما كان منه إلا أن بعث الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٦م (٦٢٤هـ) يطلب منه القدوم إلى بلاد الشام "لإشغال سر المعظم عيسى ولئلا يتمكن المعظم عيسى بالاتفاق مع جلال الدين خوارزم شاه وصاحب إربل من قصده (السلطان الكامل) وقصد الملك الأشرف موسى (حاكم خلاط)، ووعده بأن يسلمه القدس وبعض فتوحات صلاح الدين، فتجهز فردريك لقصد الساحل".

---

١) خلاط: بلاد عامرة ذائعة الصيت ذات خيرات يانعة، وهي قصبة أرمينا الوسطى وبها بحيرة تعرف باسمها (بحيرة وان حاليا). انظر:

ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٢، ص ٤٥٨. وهذا الإمارة الأرمينية الصغيرة آلت إلى الأيوبيين بعد زوال أسرة سيف الدين بكتمر سنة ٦٠٤هـ. تولاها الأشرف موسى بعد أخيه الأوحد. انظر:

ابن واصل مفرج الكروب، جـ٣، ص ٢٧٤،

المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ١٩٧، حاشية ٣.

٢) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٥٤-٤٥٥،

أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٤٧،

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ١٧٥-١٧٦، ١٧٩-١٨١، ٢٠٤-٢٠٦،

حافظ أحمد حمدي: الدولة الخوارزمية والمغول، (دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٤٩م)، ص ١٨١.

وعندما علم الملك المعظم عيسى بهذه المراسلات حاول استرضاء الملك الأشرف موسى، ولكن الأخير رفض ذلك وعنفه على أفعاله السابقة التي ارتكبها في حقه[١].

وهكذا نجد أن الأخطار التي باتت تهدد السلطان الكامل الأيوبي من داخل العالم الإسلامي وخارجه، هي التي دفعته إلى الدخول في علاقات مع الإمبراطور فردريك الثاني[٢]، لاسيما أن الكامل شعر أنه لن يتمكن من نجدة الأشرف إذا هاجمه جلال الدين خوارزم شاه بسبب وجود المعظم عيسى صاحب دمشق في طريقه من ناحية، في الوقت الذي لن يتمكن من الوقوف في وجه حلف الملك المعظم من ناحية أخرى[٣].

ويرى ابن واصل[٤] أن الهدف من الاستعانة بالإمبراطور فردريك الثاني كان إجبار الملك المعظم عيسى حاكم دمشق على الدخول في طاعة السلطان الكامل، وهكذا فإن الأطماع وتفضيل المصلحة الخاصة على المصلحة العامة، وعدم تقدير المسئولية دفعت أبناء السلطان العادل الأيوبي إلى التطلع للحصول على المساعدة من

---

١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٠٦-٢٠٧، ٢٣٣-٢٣٤،

المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص ٢٥٨-٢٥٩.

٢) عمر كمال توفيق: الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (الإسكندرية، ١٩٨٦م)، ص ١٥٨؛

Jobrieli (Francesco): Arab Historions of the Crusades (London, 1969), P. 268.

3) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 284.

٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤، ص ٢٠٦؛

محمد العروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، (تونس، ١٩٥٤م)، جـ١، ص ٨٣.

الخارج ضد بعضهم البعض، حتى ولو كان ذلك عن طريق التنازل عن بعض الأراضي الإسلامية بما فيها بيت المقدس لأعدائهم.

وعندما طلب الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ المساعدة من الإمبراطور فردريك الثاني ضد المعظم عيسى حاكم دمشق، لم يعطه فردريك وعدا قاطعا بالمساعدة؛ وذلك لأنه كان آنذاك يستعد للخروج بالحملة الصليبية التي كانت الاستعدادات لها تجري عندئذ على قدم وساق، ولكنه رغم ذلك لم يغلق باب المفاوضات مع السلطان الكامل[١]، ومن ثم أرسل سفارة إلى القاهرة مكونة من توماس الأكويني كونت أكيرا، والأسقف بيرارد البالرمي Berard of Palermo[٢]. وحول هذه السفارة يذكر المقريزي[٣] قائلا: "وفيها (١٢٢٦م/٦٢٤هـ) وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة إلى الملك الكامل، وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك، وسرج من الذهب مرصع بالجوهر الفاخر، فتلقاه الكامل بالإقامات من الإسكندرية إلى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكرامًا زائدًا، وأنزله في دار الوزير صفي الدين بن شكر".

والحقيقة أن المصادر المتاحة لم تفصح عن طبيعة المحادثات التي دارت بين السلطان الكامل الأيوبي وسفراء الإمبراطور فردريك، ومن الواضح أن أولئك السفراء كانوا يتفاوضون معه حول وعوده السابقة للإمبراطور فردريك، ويدل على ذلك ما قاله النويري[٤]:

---

١) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٢٧.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 286;
Van Cleve: op. cit., p. 449.

٣) السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٠.

٤) نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٩، تحقيق ضياء الدين الريس، (القاهرة، ص ١٩٩٢م)، ص ١٣٩.

"وفيها (١٢٢٦م/٦٢٤هـ) قدم رسول الأنبرور (الإمبراطور) إلى الملك الكامل، بطلب الفتوح". وردا على الهدايا التي أرسلها فردريك للكامل أرسل له الأخير هدايا قيمة عبارة عن تحف من الهند واليمن والعراق والشام ومصر والعجم وسرج من ذهب، وجواهر قيمتها عشرة آلاف دينار مصرية[١]، ثم غادرت السفارة مصر وتوجهت إلى دمشق في أكتوبر سنة ١٢٢٧م وطلبت من الملك المعظم صاحب دمشق جميع المناطق التي استرجعها صلاح الدين من الصليبيين، غير أن المعظم عيسى أجاب على السفراء إجابة قاسية إلى حد كبير حيث قال لهم: "قل لصاحبك (الإمبراطور) ما أنا مثل الغير (الملك الكامل) ليس عندي إلا السيف"[٢].

ويبدو أن المعظم عيسى بدأ يشعر بالقلق وشعر أن هناك اتفاقا جادا من قبل السلطان الكامل على تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور فردريك، ولهذا قام بهدم عدة قلاع، وعدة صهاريج في القدس[٣]، وهنا نلاحظ أن السلطان الكامل خاف أن يقوم أخوه المعظم عيسى بإلقاء القبض على أعضاء سفارة فردريك في دمشق، فأرسل إلى الأخير سفارة برئاسة فخر الدين بن شيخ الشيوخ في خريف سنة ١٢٢٧م[٤].

والجدير بالذكر أن المصادر لم تذكر شيئا عن مهمة هذه السفارة، وهكذا نرى أنه في الوقت الذي كان فيه البابا جريجوري التاسع يحث فردريك على الخروج بحملته، كان السلطان الكامل يرسل السفارة الثانية للإمبراطور ويطلب منه القدوم إلى بلاد الشام لمساعدته ضد أخيه المعظم.

---

١) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٠.

٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥١.

النويري: المصدر السابق، جـ٢٩، ص ١٣٩.

٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦١.

4) Van Cleve: "The Crusade of Frederick II" p. 449.

وفي تلك الأثناء كان الصليبيون يتوافدون على ميناء برنديزي الذي خصص لتجمعهم، تمهيدًا لإرسالهم إلى الشرق[١]، وقد جاءت إلى هناك القوات الإنجليزية تحت قيادة الأسقف بطرس من وينشستر Peter of Winchester ووليم من إكستر William of Exeter[٢].

وفي أغسطس سنة ١٢٢٧م قدمت القوات الألمانية بقيادة اللاندجراف لويس دوق ثورنجيا الذي انضم إليه عند عبوره سوابيا وفرانكونيا الآلاف من فرسانها، وانضم إليه أيضا عدد من الفرسان من منطقة الراين، وقد بلغ عدد القوات الألمانية التي تجمعت في برنديزي حوالي ستين ألف مقاتل[٣]، غير أن تلك القوات لم تجد المؤن الكافية لإعاشتها، كما أن حرارة الصيف كانت شديدة عليهم، لاسيما أن هؤلاء القادمين من وراء جبال الألب لم يألفوا هذا الجو، وكان الزحام شديدا، فأدى ذلك إلى انتشار الأمراض في معسكر التجمع الصليبيي، الأمر الذي تسبب في موت الآلاف من الجيش، وكان من ضمنهم الأسقف سيجفريد من أوجسبورج Augsburg، ونتيجة لذلك فَتَرَ حماس الجند، فعاد الكثير منهم إلى بلادهم، ورغم ذلك أبحرت فرقة كبيرة من قوات الإمبراطور فردريك إلى بلاد الشام في منتصف أغسطس سنة ١٢٢٧م تحت قيادة هنري الرابع دوق ليمبورج[٤].

---

1) Michaud: op. cit., Tom, III, p. 16;
Gottschalk (Hans L.): Al-Malik Al-Kamil van Egypt-en und seine zeit (Wiesbaden, 1958), p. 152.

2) Van Cleve: op. cit., p. 445;
Mayer: The Crusades, p. 224.

3) Brehier: Les Croisades, p. 199;
Areher: op. cit., p. 380;
مكسيموس مونروند: المرجع السابق، م١، ص ٢٧١.

4) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 17;
Van Cleve: op. cit., p. 446; =

- النزاع بين البابا جريجوري التاسع والإمبراطور فردريك الثاني:

والجدير بالذكر، أن الإمبراطور فردريك الثاني كان ما يزال يماطل في الخروج بالحملة، وبقيت معه قواته الصقلية، وخمسين سفينة في ميناء برنديزي، بيد أنه بسبب قلقه على الجيش الصليبي الذي أبحر إلى الشرق في منتصف أغسطس من جهة وإلحاح البابا عليه بالقيام بالحملة من جهة أخرى[(١)]، فقد أبحر في النهاية قاصدا الشرق في ٨ سبتمبر سنة ١٢٢٧م، ولم يكد يبتعد عن ميناء برنديزي ببضعة أميال، بعد ثلاثة أيام من الرحيل حتى هبت عاصفة شديدة، في الوقت الذي أصيب فيه هو بالمرض، كما مرض أيضا اللاندجراف دوق ثورنجيا، الأمر الذي دفع الإمبراطور فردريك إلى العودة إلى أوترانتو (مدينة إيطالية)، ومنها توجه إلى بوتشولي قرب نابولي للاستشفاء، وكان أن أرسل فردريك عشرين سفينة محملة بالقوات من سفنه الخمسين تحت قيادة هرمان من سالزا، وجيرولد بطريرك بيت المقدس الجديد[(٢)]، وأمر بتعيين هنري دوق ليمبورج قائدًا عامًّا لتلك القوات عند وصولها إلى بلاد الشام[(٣)].

= رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٧؛

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٥٢.

[1] Michaud: op. cit., Tom. III, p. 18.

[2] Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, pp. 365-366;

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 18;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 289;

Brehier: op. cit., p. 199;

Duggan: op. cit., pp. 222-223.

[3] Van Cleve: op. cit., p. 446.

وبعد أن تحسنت صحة الإمبراطور أرسل سفارة مكونة من أساقفة رجيو Reggio وباري، ورجينالد من سبوليتو Spoleto إلى البابا جريجوري التاسع في أناجني Anagni، لتشرح له الأسباب التي منعت فردريك من مواصلة سيره إلى بلاد الشام، وأدت إلى تأجيل الحملة، ولكن البابا رفض استقبالهم والحديث معهم، ولم يصدق للحظة واحدة أن الإمبراطور فردريك كان مريضا، وظن أنه كان يتمارض كي يتجنب الذهاب إلى الشرق، وقام البابا بعقد مجلس سري للكرادلة قرر فيه حرمان الإمبراطور في ٢٩ سبتمبر سنة ١٢٢٧م، وأجل إعلان قرار الحرمان لمدة ستة أسابيع كاملة[١].

وفي الخطاب الذي ألقاه البابا جريجوري التاسع على مجلس الكرادلة في أناجني والذي أعلن فيه حرمان فردريك يقول: "اعتمد الكرسي البابوي المقدس على رضيع نشأته الكنيسة واحتضنته بخالص رعايتها وحنانها، فقد تلقت الكنيسة الإمبراطور فردريك من رحم أمه، وأرضعته من ثديها، وحملته فوق أكتافها، وكثيرا ما أنقذته الكنيسة ممن حاولوا الاعتداء على حياته، ثم علمته وربته في عناية ومشقة حتى بلغ سن الرجولة، فقلدته الملك، وفضلا عن كل هذه المزايا منحته لقب الإمبراطور أملا في أن تجد فيه عونا يحميها وعصا تتوكأ عليها في كهولتها، فكيف بر بعهده؟! لقد نقض كل وعوده، ونكث بكل عهد، وسخر من الكنيسة، تاركا الأرض المقدسة لغير المؤمنين

---

[1] Eracles: op. cit., Tom. II, p. 366;
Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 18-19 ;
Kantorowicz: op. cit., p. 139;
Duggan: op. cit., p. 223;
Archer: op. cit., p. 380;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٥٤.

(المسلمين)، وجلب العار على نفسه وعلى العالم المسيحي كله بانغماسه في الترف والملاذ المألوفة في مملكته (صقلية) محاولا أن يتستر على خطيئته بانتحال معاذير حمقاء بأنه مريض، ولكي لا نعتبر كلابا خرساء لا تجرؤ على النباح، أو تخشى الانتقام منه، فإننا نعلن أن الإمبراطور محروم من رحمة الكنيسة[1]". وإذا تأملنا فيما قاله البابا جريجوري التاسع نلاحظ أنه كان يريد أن يكون الإمبراطور فردريك الثاني أداة يحركها ضد أعدائه في كل مكان، وما عليه إلا أن يقدم فروض الولاء والطاعة، ولكن فردريك شأنه شأن أسلافه من أباطرة ألمانيا لم يرضخ لأوامر البابوية.

وقد قام البابا جريجوري التاسع خلال الستة أسابيع التي سبقت إعلان قرار الحرمان في كنيسة القديس بطرس في نوفمبر سنة ١٢٢٧م[2]، بسلسلة من حملات التنديد ضد الإمبراطور فردريك الثاني، حيث وجه له فيها العديد من الاتهامات، مثل إلقاء اللوم عليه؛ لأنه عزم على القيام بحملة صليبية دون ترخيص سابق من الكرسي البابوي، كما لامه أيضا على تأجيل القيام بالحملة، وألقى على عاتقه فشل الحملة الصليبية الخامسة على مصر سنة ١٢٢١م (٦١٨هـ)[3] واتهمه البابا بإبقاء الحجاج المسيحيين في حرارة الشمس القائظة، مما أدى لتعرض الجيش للوباء وموت الآلاف منه، واتهمه بعدم إعداد السفن الكافية لنقل الجيش الصليبي لبلاد الشام، وتصنع المرض للعودة إلى الملذات في بوتشولي[4]، واتهمه أيضا بعدم تجنيد القوات الكافية للحملة الصليبية طبقا لما اتفق عليه في اتفاق سان جرمانو، كما

---

١) نفس المرجع السابق، ص ٣٥٥.

٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٧.

٣) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٥٤.

4) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 19.

أنه لم يف بالالتزامات المالية التي كانت مفروضة عليه في تلك الإتفاقية، وفي النهاية اتهمه بدس السم إلى اللاندجراف دوق ثورنجيا[١]، وهكذا حاول البابا أن يبرر أسباب حرمانه لفردريك.

ولكن فردريك من جانبه رد الصاع صاعين إلى البابا جريجوري التاسع فأمر الأساقفة والقساوسة في صقلية بممارسة الطقوس الدينية كالمعتاد، وأعد رسائل تشهير بالبابا أرسلها إلى كل ملوك أوربا، برر فيها عودته إلى بوتشولي وشكا من تصرفات البابا، وطالبهم بالاتحاد معه ضد أفعاله التي تدل على أنه يبحث عن الشهرة والمجد، حيث قال: "إن الكنيسة الرومانية ترسل في كل مكل مندوبين ومعهم سلطة معاقبة وتعليق وحرمان الذين لا يقدمون لها فروض الولاء والطاعة، وهذا ليس بقصد نشر كلمة الرب، ولكن لجمع المال وجني ما لم يغرسوه"[٢].

وأعد الإمبراطور فردريك خطابا ليقرأ أيضا في جميع أسواق الإمبراطورية جاء فيه: "إنه ليؤسفنا أن نقول إن آمالنا قد خدعت، وقد أوشكت كل الأمور على النهاية، وإذا جرؤ عدو على مهاجمتنا فإننا لابد أن نمتشق الحسام، ولكن حين يتصدى لنا نائب المسيح فإن إخلاصنا للقديس بطرس المبارك يجعلنا نتوقف في دهشة، ألا فليسمع الناس جميعا ما تلقيناه من البابا من استفزازات، وإن قداسته لم يعامل السفراء الذين أرسلناهم إليه معاملة كريمة، لقد كانوا على استعداد لشرح كل شيء لقداسته، ولكنه رفض أن يستمع إليهم، كما أنه قبل أن يتيح الفرصة لرسلنا للدفاع أمام مجلس الكرادلة، ولجأ إلى التشاور

---

[1] Van Cleve: op. cit., p. 447.

[2] Michaud: op. cit., Tom, III, pp. 19-20;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٨؛

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب المقدسة، جـ١، ص ٢٧٢-٢٧٣.

سرا مع كل كاردينال على حدة، محذرا كلا منهم بألا يحيد عن قرار الحرمان الذي أعده فعلا، وبذلك أصدر المجلس قراره قبل سماع الدفاع، وإننا حريصون على أن نظهر هذا كله للعالم أجمع؛ لأنه على الرغم من الظلم الواقع علينا فإننا لن نكف عن خدمة المسيح"[١].

وهكذا فإن النزاع بين البابوية والإمبراطورية قد بدأ من جديد[٢]، في حين جاءت الحملة الصليبية في المرتبة الثانية من اهتمام كل من الإمبراطورية والبابوية.

وعندما عاد البابا جريجوري التاسع إلى روما من أناجني، أعلن حرمانه للإمبراطور فردريك في كنيسة القديس بطرس في نوفمبر سنة ١٢٢٧م في حضور حشد كبير من القساوسة والأساقفة[٣].

وفي نوفمبر من نفس العام، أتى إلى روما رسول من قبل الإمبراطور فردريك، بناء على دعوة الإيطاليين، ومجلس الشيوخ الإيطالي، حيث قام هناك بقراءة المرسوم الإمبراطوري الذي شرح فيه أسباب تأخير القيام بالحملة، فدفع ذلك البابا جريجوري التاسع إلى إرسال اثنين من الكرادلة إلى الإمبراطور، ولكنه رفض استقبالها. وفي روما استطاع فردريك أن يجذب إلى صفه حلفاء أقوياء في صراعه مع البابا، مثل أسرة فرانجيبان Frangipani، وعدد آخر من

---

١) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٥٧-٣٥٨.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 20 ;

Brehier: Les Croisades, p. 199;

Throop: op. cit., p. 51;

Mayer: op. cit., p. 225;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩١.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 21;

Duggan: op. cit., p. 224.

الأمراء، الذين قام بشراء أراضيهم ثم أعادها إليهم في صورة إقطاع، كما أن العديد من أصدقائه قاموا بأحداث شغب ضد البابا وطردوه خارج مدينة روما، حيث ذهب أولا إلى فيتربو Viterbo ثم إلى رايتي Rieti(١)، وهكذا كشف كل من البابا والإمبراطور عن أغراضه، وأصبح انتصار كل منهما على الآخر مسألة وقت.

وفي غضون ذلك لم يوقف فردريك استعداداته للحملة الصليبية، ففي مجلس الدايت الذي عقده في مدينة كابوا (مدينة إيطالية) في ديسمبر سنة ١٢٢٧م فرض على كل خمسة صقليين دفع ثمانية أونسات Ounces من الذهب للحملة الصليبية، وكل ثمانية عليهم القيام بتسليح فارس وتجهيزه للإبحار إلى بلاد الشام في مايو سنة ١٢٢٨م، وأرسل فردريك إلى سوابيا مندوبا من قبله أذاع منشورا هناك يطلب فيه من السوابيين التبرع بالأموال للحملة الصليبية التي سوف تخرج في مايو، وأعلن أنه سوف يعقد مجلس الدايت في مدينة رافنا Ravenna ولكنه لم يتمكن من ذلك، بل قام أهالي ميلانو وفيرونا بسد ممرات جبال الألب في وجه الجيوش الإمبراطورية الوافدة من ألمانيا.

والجدير بالذكر أن البابا هدد بحرمان كل القرى والمدن التي ستستقبل فردريك، ولكن الأخير لم يتأثر بذلك، فقد احتفل بالعيد الكبير سنة ١٢٢٨م بابتهاج وسرور(٢).

---

1) Michaud: Histoire des Crisades, Tom, III, p. 22;
Van Cleve: op. cit., p. 450.

2) Van Cleve: op. cit., p. 450;
سعيد عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ١، ص ٣٩٧.
والعيد الكبير هو عيد الفصح لدى المسيحيين وهو يوم الفطر من صومهم الأكبر، ويزعم النصارى أن المسيح عليه السلام قام بعد صلبه والتقى بتلاميذه الأحد عشر في الجليل،=

وعندما عزم الإمبراطور فردريك على خروجه بالحملة، أراد أن يعلن ذلك على الملأ، فأمر بأن يقام له منبر عال في سهل بارلتا Barletta في ربيع سنة ١٢٢٨م، وفي الاجتماع الضخم الذي أقيم هناك، صعد فردريك على هذا المنبر مرتديا الصليب، وأعلن أمام الجميع عن عزمه على التوجه إلى بلاد الشام ثم قرأ على الحاضرين وصيته المتضمنة أنه في أثناء غيابه في بلاد الشام، فإن رجينالد من سبوليتو Reginald of Spoleto سوف ينوب عنه في حكم مملكة صقلية، وفي حالة وفاته في بلاد الشام فإن ابنه هنري ابن كونستانس سوف يرثه، أما ابنه الثاني كنراد ابن إيزابيلا Isabela الذي ولد حديثًا، سوف يرثه في مملكة بيت المقدس، فما كان من النبلاء وأفصالهم إلا أن أقسموا بأنهم سوف يحافظون على تلك الوصية[١].

والجدير بالذكر، أن البابا جريجوري التاسع عندما علم بقرار فردريك بالسفر إلى بلاد الشام، أرسل إليه مندوبين ليطلبا منه عدم القيام بالحملة، ولكن فردريك لم يتنازل عن قصده[٢]، بل كلما اعترض البابا على رحيله كلما أظهر فردريك عدم صبره على الرحيل. والواقع، أن تمسك الإمبراطور فردريك بالذهاب إلى بلاد الشام لم يأت من فراغ، بل بسبب استعانة السلطان الكامل به ضد الأخطار التي واجهته من ناحية أخيه المعظم عيسى حاكم دمشق والخوارزمية الذين هددوا الجبهة الشرقية للدولة الأيوبية[٣]. كما أن الإمبراطور كان يعلم

=ووبخهم على عدم إيمانهم، وقساوة قلوبهم، وأكل معهم وأوصاهم وأقام في الأرض أربعين يوما. انظر: العهد الجديد، متى ٢٨، ص ٤٨-٤٩، مرقس، ١٦، ٨٠؛ قاسم عبده قاسم: أهل الذمة في مصر العصور الوسطى، (القاهرة، ١٩٧٩م) ص ١٢٠.

1) Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 25-26;
Van Cleve: op. cit., pp. 450-451.

2) Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, P. 367.

٣) سعيد عاشور: "الإمبراطور فردريك الثاني"، ص ٢٠٠.

أن حنا من بريين كان على وشك القدوم إلى بلاد الشام من أجل استعادة نفوذه القديم، في الوقت الذي كان البابا ما يزال مستمرًا في التشهير بالإمبراطور وإظهاره على أنه عدوّ للسيد المسيح، ورغبة من الإمبراطور في إفشال مشروع حنا من بريين، وإظهار البابا بمظهر الكاذب للغرب الأوربي، قرر الذهاب إلى الشرق حتى لا يظهر بأنه عدوّ للمسيح[١]. ويرى بعض المؤرخين أن ذهاب فردريك إلى بلاد الشام لم يكن الغرض منه الدفاع عن مملكة بيت المقدس الصليبية، بل القيام بمحاولة الغرض منها توسيع حدود مملكته والحصول على الشهرة[٢]، فضلا عن عدم طاعة أوامر البابوية، فقد رأينا أن الإمبراطور فردريك قد اتخذ قرار الذهاب إلى بلاد الشام سنة ١٢١٥م، بمحض إرادته عند قبر شارلمان، إذ أراد أن يكون هو صاحب قراره، ثم راح يؤجل القيام بالحملة في الوقت الذي كانت فيه البابوية تطلب منه الخروج بحملته، وعندما أصدرت البابوية ضده قرار الحرمان، ثم طالبته بعدم الخروج بالحملة، أصر على الخروج حتى لا يظهر بمظهر المطيع لأوامر البابا.

- الأعمال التي قامت بها القوات التي أرسلها فردريك إلى بلاد الشام قبيل وصوله:

وفي غضون ذلك كانت السفن التي أبحرت في أغسطس سنة ١٢٢٧م من برنديزي قد وصلت إلى بلاد الشام في بداية أكتوبر من نفس العام، تحت قيادة هنري الرابع دوق ليمبورج، كما وصلت أيضا العشرون سفينة التي أرسلها الإمبراطور فردريك بعد إصابته بالمرض وعودته إلى أوترانتو، تحت قيادة هرمان من سالزا، وجيرولد بطريرك بيت المقدس، وقد وصلت هذه القوات أولا إلى ليماسول في

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 25.

٢) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٧٣.

قبرص حيث كان هناك أودو من مونت بليارد وباليان سيد صيدا، وعدد من النبلاء في انتظار الإمبراطور فردريك، وعند سماع خبر تأخيره رافقوا هرمان من سالزا والبطريرك إلى بلاد الشام. وفي نفس الوقت اجتمع في عكا صليبيون فرنسيون وإنجليز تحت قيادة الأسقف وليم من أكستر وبيير من ونشستر[١]، ولكن هذه القوات لم تحاول القيام بأية أعمال عسكرية ضد المسلمين في بلاد الشام بسبب عدم وصول الإمبراطور من جهة، وعدم معرفة هنري دوق ليمبورج ما إذا كان فردريك سوف يقوم بحملته الصليبية أم لا من جهة أخرى[٢]، كما أن أعداد هذه القوات لم تكن كافية إلى الدخول في مواجهة مع القوات الإسلامية، فضلا عن خوفهم من الملك المعظم عيسى صاحب دمشق[٣]. وعندما طال غياب الإمبراطور فردريك بدأ القلق يظهر على القوات الألمانية التي قدمت، بل إن البعض منها قرر العودة إلى أوربا، وكان أن توفي الملك المعظم عيسى وخلفه ابنه الناصر داود على مدينة دمشق، فقرر الصليبيون الوافدون تقوية استحكامات مدينة قيسارية ويافا وبعض الحصون الساحلية[٤].

---

1) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 287;
Van Cleve: op. cit., 447;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٣.

2) Stevenson: op. cit., p. 308.

٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٧٨؛
ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٣٤.

٤) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص ٤٧٨؛
Eracles: op. cit., Tom. II, 365;
Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 237-288.

وعلى أية حال، توجهت القوات الإنجليزية والفرنسية نحو مدينة صيدا، التي كانت أراضيها مقسمة آنذاك إلى نصفين بين الصليبيين والمسلمين التابعين آنذاك إلى الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وكان سورها خرابا بموجب المعاهدة المبرمة بين السلطان العادل الأيوبي والملك حنا دي بريين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا في يوليو سنة ١٢١٠م والتي ظلت سارية المفعول حتى سنة ١٢١٧م فأعادوا بناء تلك الأسوار، وقاموا بطرد المسلمين منها، وامتلكوا المدينة كلها، وساعدهم على القيام بذلك تخريب الحصون القريبة منها مثل تبنين وهونين اللذين خربهما المعظم عيسى سنة ١٢١٩ و ١٢٢٠م، فترتب على ذلك تدعيم نفوذ الصليبيين بالساحل الشامي إلى حد كبير(١)، ثم قام الصليبيون بعد الاستيلاء على صيدا بتشييد حصن كبير مكون من برجين ضخمين يصل بينهما سور على جزيرة صغيرة تقع عند مدخل المدينة من الناحية الشمالية الشرقية للميناء، وهذا الحصن هو المعروف اليوم بقلعة البحر، وشرعوا في تشييده في ١١ نوفمبر سنة ١٢٢٧م وانتهوا منه في ٢ مارس سنة ١٢٢٨م(٢)، وكان رد الفعل الوحيد من قبل المسلمين لقيام الصليبيين

---

١) ابن الأثير: المصدر السابق، جـ١٢، ص ٤٧٨؛

ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٣٥؛

ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٢٢٢؛

السيد عبد العزيز سالم: دراسة في تاريخ مدينة صيدا (جامعة بيروت العربيــة، ١٩٧٠م)، ص ١٢٩؛

Steven: op. cit., p. 309 ;

Gottscholk: op.cit., pp. 152 – 153.

2) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 365.

King (E. J.): The Kinghts Hospitallers in the Holy land (London, 1931), p. 203.

بمهاجمة صيدا قد تم من جانب العزيز عثمان صاحب بانياس الذي نصب كمينا ليلا للصليبيين أمام صور في المنطقة التي يخرجون إليها لرعي مواشيهم، وعندما خرج الصليبيون من صور في الصباح هاجمتها القوات الإسلامية، وتمكنت من قتل وأسر عدد من الصليبيين واستولوا على بعض الماشية كغنائم[1].

وفي تلك الأثناء قام الصليبيون الألمان بإعادة بناء قلعة مونتفورت Montfort (القرين) في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٢٧م، وقد اتخذ هرمان من سالزا هذه القلعة مركزا لمنظمة التيوتون، وأقام فيها الصليبيون الألمان خلال شهر ديسمبر من نفس العام، ثم قاموا في ربيع سنة ١٢٢٨م بإعادة بناء قلعة قيسارية التي كان المعظم قد هدمها. والجدير بالذكر، أنه في أبريل سنة ١٢٢٨م وصلت إلى بلاد الشام قوة ألمانية تعدادها حوالي خمسمائة فارس تحت قيادة المارشال ريكاردو فيلانجيري Ricardo Filanghieri أرسلها الإمبراطور فردريك، ولكن هذه القوة الصليبية التي كان يُعتقد أنها مقدمة لجيش الإمبراطور الكبير لم تقم بأي عمل حربي في بلاد الشام قبل حضور الإمبراطور[2]. وهكذا فإن الوضع في بلاد الشام بين الصليبيين والمسلمين لم يتغير كثيرًا حتى قدوم فردريك.

---

١) ابن الجوزي : مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٦٥٢؛

أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٢؛

النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ١٣٩؛

Gotscholk: Al-Malik Al-Kamil, pp. 152-153.

2) Eracles: op.cit., Tom. II, pp. 365-366;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 288;

Van Cleve: op. cit., p. 448;

Mayer: op. cit., p. 225; =

وبينما كان الإمبراطور فردريك يواصل استعداداته للخروج بالحملة الصليبية توفيت زوجته إيزابيلا في ٢٥ أبريل سنة ١٢٢٨م بعد يومين من وضع ابنها كنراد[١]، ومن ثم فإنه من الناحية القانونية لم يعد فردريك ملكا على بيت المقدس، وإنما أصبح مجرد وصي على ابنه المولود الجديد، وكان من شأن هذا التغيير أن يهدد بتحول النبلاء في الأراضي المقدسة عن ولائهم لفردريك[٢].

- وصول فردريك إلى بلاد الشام:

وفي ظل هذه الظروف أبحر فردريك الثاني بحملته الصليبية من برنديزي في ٢٨ يونيو بأسطول كبير من السفن[٣]، المحملة بقوات[٤] من السوابيين الألمان ومسلمين من حامية لوكيرا Lucera،

= سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٣.

1) Brehier: Les Croisades, p. 200;

Duggan: op. cit., p. 225;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣١٨؛

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٢) رنسيمان: المصدر السابق، جـ٣، ص ٣١٨؛

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٥٩-٣٦٠.

٣) يقدر أحد المؤرخين تعداد هذه السفن بحوالي خمسين سفينة، في حين يقدرها البعض الآخر بحوالي عشرين سفينة، ويقدرها البعض أيضا بحوالي أربعين سفينة. انظر:

Brehier: op. cit., p. 200;

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 26;

Van Cleve: op. cit., p. 451.

٤) اختلف المؤرخون في تعداد هذه القوات، حيث قدرها البعض بحوالي ستمائة في حين قدرها البعض الآخر بحوالي عدة آلاف. انظر:

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 26;

Lane Poole: op. cit., p. 225; =

وكان شعاره النسر الإمبراطوري وليس الصليب؛ لأن البابا جريجوري التاسع كان قد سحبه منه. والجدير بالذكر، أن البابا أوقع آنذاك قرار الحرمان على فردريك مرة ثانية، ووصفه بأنه ليس فارسًا صليبيًا ولكنه أحد القراصنة وتابع من أتباع محمد -صلى الله عليه وسلم-. وفي الطريق توقف فردريك في أوترانتو، وجزيرة كورفو Corfu وكيفالونيا Cephalonia، وكريت، ورودس، وفي ٢١ يوليو من نفس العام دخل ميناء ليماسول في قبرص، حيث قضى هناك خمسة أسابيع في نزاع مع يوحنا أبلين صاحب بيروت ونائب الملك الصغير هنري الأول لوزجنان ملك قبرص، وكان يوحنا ندا كبيرا لفردريك الذي أبحر في النهاية من قبرص في ٢ سبتمبر من نفس العام[1].

وصل الإمبراطور فردريك إلى عكا في ٧ سبتمبر سنة ١٢٢٨م، وقد دوت الهتافات لقدومه من قبل جميع الهيئات الدينية الحربية في بلاد الشام، مثل الداوية والإسبتارية، وفرسان القديس جوفني، والفرسان التيوتون، وجميع الأمراء والبارونات الصليبيين في الشرق، ورجال الدين الذين كان يترأسهم جيرولد بطريرك بيت المقدس، ولم يكن الصليبيون هم الذين قابلوا فردريك قط، بل وقف المئات من المسلمين خلف الصليبيين على رصيف الميناء الذي وصل

= Archer: The Crusade, p. 381;

Pernaud: op. cit., p. 226.

1) Van Cleve: op. cit., p. 451;

Duggan: op. cit., p. 224;

Brehier: Les Croisades, p. 200;

Lane Poole: op. cit., p. 225;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٤-٧٩٥.

إليه فردريك[١]. والجدير بالذكر، أنه بعد بضعة أيام من وصول فردريك لعكا وصل رسول من الرهبان الفرنسيسكان من قبل البابا جريجوري التاسع إلى جيرولد بطريرك بيت المقدس ورؤساء المنظمات الدينية الحربية لإخبارهم بقرار الحرمان الذي فرضه البابا ضد فردريك قبل خروجه بالحملة، وحذرهم وجميع الصليبيين في بلاد الشام من تقديم فروض الولاء والطاعة للإمبراطور، أو إمداده بالمساعدة التي من شأنها أن تسهل خُطَطَه في بلاد الشام، ومن يقوم بذلك سوف يتعرض لقرار الحرمان، كما أن البابا أوصى جيرولد بتوزيع قرار حرمان فردريك في جميع المناطق الصليبية، وبأن يصدر قرارات الحرمان على جميع الأماكن التي سيدخلها فردريك[٢].

وكان لابد من أن يؤدي هذا الوضع إلى انقسام حاد بين الصليبيين في بلاد الشام، تجاه فردريك، فوقفت إلى جانبه منظمة الفرسان التيوتون رغم قلة عددها، وذلك؛ لأنها كانت ألمانية، ووقفت إلى جانبه أيضا قواته الألمانية والصقلية التي سبقته لبلاد الشام، والتي جاءت معه، عدا فئة بسيطة من القوات الألمانية التي أحست أنها تورطت في الاشتراك في الحملة، كما انضم إليه السكان البيازنة والجنويون المقيمون ببلاد الشام[٣]، وفيما عدا ذلك، ناصبه العداء

---

1) Gottscholk: op. cit., p. 153;

Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 295-297;

Van Cleve: op. cit., p. 451;

Stevenson: The Crusaders, p. 308;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٦٤-٣٦٥.

2) Van Cleve: op. cit., pp. 451-452;

Brehier: op. cit., p. 200;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٦٦.

3) Mayer: The Crusaders, p. 220.

جيرولد بطريرك بيت المقدس، ومنظمتا الفرسان الداوية والإسبتارية، والفرنسيسكان والدومينيكان. أما الإنجليز فقد انضموا إلى فردريك في البداية، ثم ما لبثوا بعد ذلك أن انضموا إلى جانب البطريرك جيرولد[١]، أما السكان الذين كانوا ينتظرون قدومه فقد اعتبروه وقتئذ عاصيًا لأوامر الرب، ولهذا بدلا من احترامه احتقروه كلية[٢]. والواقع أن ادعاءات فردريك بالحكم المطلق هي التي أدت إلى وقوف معظم البارونات الصليبيين موقفا عدائيا منه في بلاد الشام؛ وذلك لأنهم شعروا أنه سوف يقضي على حرياتهم، ونظرا لأنه إمبراطور ألماني إيطالي، فإنه في نظرهم كان سيحاول هدم الصفة الفرنسية للمتلكات الصليبية في بلاد الشام، وبتعبير آخر كان هناك عداءٌ-من قبل الصليبيين الفرنسيين في بلاد الشام للإمبراطور فردريك الثاني، ومن ثم كان لابد لهم من أن يبتعدوا عن مساعدته[٣]، حتى ولو لم يكن محرومًا، ولهذا فإن قرار الحرمان كان واجهة تخفي وراءها الأسباب الحقيقية.

وقد عمل الإمبراطور فردريك على تفادي قرار الحرمان الصادر ضده، فأعطى قيادة الحملة إلى عدد من أصدقائه المخلصين، وهم هرمان من سالزا وريتشارد فيلا نجيري، وأودو من مونت بليارد، كما قبل فردريك الاقتراح الذي تقدم به هرمان من سالزا والذي يقضي بأن تصدر جميع الأوامر إلى الجيش باسم "السيد

1) Van Cleve: op. cit., p. 452;

Brehier: op. cit., p. 200.

2) Lane Poole: op. cit., p. 225;

Duggan: The Story of the Crusades, p. 225;

محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، عصر الحروب الصليبية، (دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م)، ص ٧١.

3) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 300.

المسيح"[١]. ورغم ذلك ظل موقف فردريك حرجا للغاية في بلاد الشام بسبب قلة عدد القوات التي انضمت تحت نفوذه، والتي بلغ عددها حوالي أحد عشر ألف رجل، وهي لا تكفي للدخول في مواجهة مع القوات الإسلامية[٢]. ومما زاد في ضعف موقف فردريك أكثر هو ما قام به البابا جريجوري، إذ أرسل إلى أبناء البيت الأيوبي بوجه عام، وإلى السلطان الكامل بوجه خاص، يطلب منهم عدم تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور فردريك الثاني[٣]. وبديهي أن السبب في اتصال البابا بالكامل كان واضحا؛ لأن نجاح الإمبراطور في حرب صليبية وهو محروم من الكنيسة كان معناه سخطا من الرب على جريجوري[٤]، وسيعد في نظر المعاصرين بمثابة حكم الرب للإمبراطور المحروم[٥]، كما أن البابا كان يأمل أن يعود فردريك ذليلا من بلاد الشام حتى يقدم له فروض الولاء والطاعة. والجدير بالذكر أن هذه الخطابات قد وقعت في يد الإمبراطور فردريك، وكان الكامل قد أرسلها له[٦]،

---

1) Van Cleve: Op. cit., p. 452;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٦٩.

2) Grousset: Op. cit., Tom. 3, p. 301;

Duggan: The story of The Crusades, p. 225.

3) Kantorowicz: Frederick the second, p. 184;

سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ترجمة فؤاد حسنين علي، (دار النهضة العربيـــة، ب.ت)، ص ٣٣٠؛

سعيد عاشور: "الإمبراطور فردريك الثاني"، ص ٢٠٤.

٤) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٦٩.

٥) سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٢٠٤.

٦) سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٣٠:

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٦٩.

ويبدو أن الكامل كان يقصد زيادة الشقاق بين فردريك والبابا[1]. وهكذا يتضح لنا أن البابوية كانت تضع استرجاع مملكة بيت المقدس أو الضريح المقدس كواجهة فقط لإخفاء السبب الحقيقي وهو زيادة نفوذها وهيبتها في الغرب لتحقيق السمو على الإمبراطورية، ولهذا عندما شعر البابا جريجوري التاسع أن حصول فردريك على بيت المقدس بدون رغبة البابوية سوف يرفع من شأن الإمبراطورية على البابوية، حاول جاهدًا إفشال جهود فردريك.

وجدير بالذكر، أن وصول فردريك إلى عكا، أصاب المسلمين في بلاد الشام بخوف شديد[٢]، ويبدو أن هذا الخوف كان يرجع إلى شعور المسلمين بعجزهم عن مواجهته بسبب انشقاق البيت الأيوبي ووفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في نوفمبر سنة ١٢٢٧م.

- موقف الأيوبيين من فردريك الثاني بعد وصوله إلى بلاد الشام:

من المعروف أنه بعد وفاة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق في ١٢ نوفمبر سنة ١٢٢٧م خلفه ابنه داود، الذي لقب بالملك الناصر داود، وكان عمره آنئذ يناهز العشرين سنة[٣]، فطلب منه عمه السلطان الكامل قلعة الشوبك ولكن الملك الناصر داود رفض هذا الطلب، فأدى ذلك إلى نشوب العداء بينه وبين عمه الكامل، مما دفع الأخير إلى السعي لإبعاده من ملكه، وفي هذا الصدد يقول ابن

---

1) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 28.

٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص ١٢٣.

٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٧٨؛

أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٢؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٠٨، ٢١٩، ٢٢٤؛

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٩، ص ١٤٣، ١٤٧.

واصل[1]: "وورد إليه من جهة عمه الملك الكامل يطلب منه أن يسمح له من بلاده بقلعة الشوبك فقط ليجعلها خزانة، فلم تقع منه الإجابة على ذلك. ورأى الملك الكامل إعراضًا عنه وجفاءً، فكان امتناعه تسليم قلعة الشوبك سببًا لوقوع الوحشة بينه وبين عمه، وأدى ذلك إلى تصميم الكامل إلى الخروج إلى الشام وأخذ دمشق وغيرها منه". ومما زاد في تصميم الكامل الظلم الذي أوقعه الناصر داود بأهل دمشق، إذ استولى على أموالهم، وأعرض عن مصالح الدولة، ومال إلى اللهو واللعب وشرب الخمر[2]. ويبدو أيضًا أن الملك الكامل كان مضطرًا إلى الذهاب إلى بلاد الشام، لاسيما بعد أن استولى الصليبيون على نصف صيدا من المسلمين وقيامهم ببعض الأعمال الحربية. هذا في الوقت الذي كان فيه الناصر داود أضعف من أن يقوم بمحاولة جدية لحماية أملاكه التي ورثها عن والده[3].

غادر السلطان الكامل مصر في يوليو سنة ١٢٢٨م على رأس جيش كبير ولما وصل إلى غزة مكث بها في تل العجول (جنوب غزة)، واحتل بدون قتال نابلس والقدس والخليل التابعة للملك الناصر داود، وعندئذ التمس الأخير المساعدة من عمه الملك الأشرف موسى، فأسرع بالحضور إلى دمشق في أغسطس سنة ١٢٢٨م، وتظاهر بأنه وضع ابن أخيه تحت حمايته[4]. ولم يلبث الملك الأشرف أن أرسل من

---

١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٢٥؛
المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٢.
٢) النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٩، ص ١٤٧.
٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٥.
٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٨؛
ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق ٢، ص ٦٥٤؛
أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٣؛=

دمشق السلطان إلى الكامل في نابلس يحاول أن يثنيه عن غرضه، ويؤكد له أنه ما جاء إلى دمشق إلا لكي يعاونه في خططه ويساعده في الدفاع عن البلاد ضد الصليبيين. فرد عليه الكامل مبينًا له أنه ما جاء إلى بلاد الشام إلا بسبب الصليبيين الذين لا يوجد من يقوى على مدافعتهم، لاسيما بعد احتلالهم صيدا وقيامهم بتعمير قيسارية، والذين ربما يعتدون على بلاد أخرى. ثم أوضح له في النهاية أنه سوف يعود إلى مصر، ويترك له مهمة الدفاع عن بلاد الشام، ثم رحل الكامل تاركًا نابلس متجهًا إلى مصر، فعسكر في تل العجول، وعندما علم الأشرف موسى أن الكامل ينوي العودة إلى مصر، أصابه الفزع، كما أصاب أهالي بلاد الشام المسلمين، إذ خافوا من أن يستولى الصليبيون على بيت المقدس وكل البلاد المجاورة لها، دون أن يجدوا من يقف ضدهم[1].

ومهما يكن من أمر، فقد توجه الأشرف موسى إلى تل العجول في أواخر نوفمبر سنة ١٢٢٨م، وهناك تفاوض مع أخيه الكامل حول مستقبل مدينة دمشق، وقد انتهت مفاوضاتهما بتقسيم ممتلكات ابن أخيهم[2] الناصر داود بينهما.

= Crousset: Histoires des Croisades, Tom. 3. 297.

١) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٨٠؛

ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٢٩ – ٢٣٠؛

Gottscholk: op. cit., pp. 153 – 154.

٢) أبو شامة: الذيل على الروضتين، ص ١٥٣؛

ابن واصل: المصدر السابق، جـ٢، ص ٢٣٠، ٢٣٦؛

النويري: نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ١٥٢؛

المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٤ – ٢٦٥؛

Brehier: Les Croisades, p. 200.

وبعد أن استقرت الأمور في بلاد الشام للكامل، ولم يعد في حاجة إلى مساندة الإمبراطور فردريك، شعر بالأسف لاستدعاء الإمبراطور إلى بلاد الشام(١)، ومما يدل على ذلك قول المقريزي(٢): "فتحير الملك الكامل، ولم يمكنه دفعه ولا محاربته، لما كان تقدم بينهما من الاتفاق" أما أبو الفدا(٣) فيقول: "في هذه السنة قدم الإمبراطور إلى عكا بمجموعة، وكان الملك الكامل قد أرسل إليه فخر الدين ابن شيخ الشيوخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم، فوصل الإمبراطور وقد مات المعظم، فنشب به الملك الكامل".

والواقع أن السلطان الكامل وجد أنه ليس من مصلحته أن يزج بنفسه في معركة مع فردريك، في الوقت الذي كان فيه النزاع داخل البيت الأيوبي قد وصل إلى ذروته، وإذا حاول أن يفعل ذلك فربما ينحاز الإمبراطور فردريك إلى الملك الناصر داود، كما أن الكامل لم ينس تهديدات جلال الدين خوارزم شاه التي كانت باقية حتى وقتئذ، ولهذا كان السلطان الكامل مجبرًا على انتهاج خط معتدل من الإمبراطور فردريك الثاني، غير أنه كان يدرك جيدًا أن أي تساهل مع الإمبراطور فردريك كالتنازل له عن الأراضي التي وعده بها من قبل خلال مراسلته له في صقلية، سوف تحدث لدى المسلمين ردود أفعال عنيفة ضده، والتي يمكن أن يستفيد منها في المقام الأول الملك الناصر داود(٤).

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 300;
Gottscholk: op. cit., p. 154.

٢) السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٦٦.

٣) المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ١٤١؛
ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٢٢٢.

4) Grousset: op. cit., Tom. 31 p. 330;=

وهنا نلاحظ أن الإمبراطور فردريك الثاني قد أصيب بخيبة أمل شديدة عندما وصل إلى بلاد الشام، إذ وجد أن الملك المعظم عيسى قد مات، وتولى بعده ابنه الملك الناصر داود الذي لم يكن يقوى على الوقوف في وجه عميه الكامل والأشرف الذين اتفقا على اقتسام أراضيه، فأدرك أن موقفه صعبًا لاسيما أنه لم تكن معه من القوات ما تعينه على تحقيق أغراضه ولهذا لم يبق لديه سوى سلاح واحد هو سلاح المفاوضات والاستعطاف[1].

وكان الإمبراطور فردريك قد ترك عكا وأقام معسكرة بين قيصرية ويافا، ومن هناك أرسل سفارة للسلطان الكامل -مكونة من باليان سيد صيدا، وتوماس أكيرا، تحمل له الهدايا الثمينة من الحرير والصوف والأواني الذهبية والفضية وجواد مطهم بسرج من الذهب وطبعة فاخرة مذهبة من كتاب الأخلاق لأرسطو[2]. وقد أشارت السفارة إلى السلطان الكامل أن فردريك يخبره أنه كان من الأولى عدم نشوب منازعات داخل البيت الأيوبي، كما طالبت الكامل بوعوده السابقة المتضمنة تسليم بيت المقدس للإمبراطور فردريك، وإقامة ميناء تجاري في الإسكندرية[3].

- سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٦ – ٧٩٨.

١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٩٧.

2) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 369;
Michaud: op. cit., Tom. III, pp. 29 – 30;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 302;
Gottscholk: op. cit., pp. 153 – 154.

٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٦؛
Gottscholk: op. cit., p. 154;
Lamb: The Crusade: The Flame of Islam, p. 309;
عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، (القاهرة، ١٩٨٤م)، ص ١٥١ – ١٥٢.

وجدير بالذكر أن سفارة الإمبراطور فردريك كانت تحمل أيضًا رسالة شفهية للكامل جاء فيها: "إن الإمبراطور يقدم لك التحية والاحترام، ويرغب في اعتبارك أخا وصديقًا له، وإنه لم يعبر البحر للاستيلاء على بلادكم، فإنه يمتلك من البلاد أكثر من أي ملك على ظهر البسيطة، كما أنه لم يحضر إلى الشام طمعًا في تحقيق نصر لشخصه عند طلبه استعادة الأراضي السابق استرجاعها من الصليبيين، وإنما كان حضوره بهدف الحج وزيارة قبر المسيح، وتحقيق الاتفاق الخاص بالأماكن المقدسة حتى يعم السلام والوئام بين الصليبيين والمسلمين، ولا داعي للنزاع مع الصليبيين ولا ضرورة لإراقة دماء رعاياكم، كما أن مدينة بيت المقدس - كما يعلم السلطان - لا تضم أماكن مقدسة لدى المسلمين فحسب، بل بها أيضًا أماكن مقدسة للمسيحيين، ويجب أن يتمتع المسيحيون بدخول بيت المقدس شأنهم في ذلك شأن المسلمين". ولما سمع الكامل الرسالة أعرب عن فرحه وسروره إلى باليان سيد صيدا، ووعده بالرد على الإمبراطور قريبًا، وأرسل معه هدايا كثيرة له[١].

ولم يلبث أن أرسل السلطان الكامل سفارة إلى الإمبراطور فردريك مكونة من الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وشمس الدين بن الجوزي قاضي نابلس، وصلاح الدين الأربيلي، والأمير سيف الدين سودون صاحب حمص المجاورة للمناطق التي كان الصليبيون يحتلونها. وقد حملت السفارة جواهر أروع من التي أرسلها فردريك

---

[1]) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 369 – 370;

Van Cleve: "The Crusade of Frederick II" p. 453;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٦٨؛

سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٣٠.

للكامل، وخيولاً عربية أصيلة، وعشرة جمال، ودببة وقرودًا وفيلة[١].

وقد حملت هذه السفارة أيضًا رسالة إلى الإمبراطور فردريك يعتذر فيها السلطان الكامل عن عدم تمكنه من التنازل عن بيت المقدس أو أي مدينة من المدن التي يطالب بها؛ وذلك لأن "مدينة بيت المقدس كما يوجد بها أماكن مقدسة للصليبيين توجد بها أيضًا أماكن مقدسة للمسلمين، مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى، ولا يجوز التنازل عنها بأي حال من الأحوال[٢] وعندما سمع فردريك هذا الرد لم يضطرب؛ لأنه قد وطن نفسه عليه منذ البداية[٣].

ومما تجدر الإشارة إليه تعدد السفارات بين فردريك والكامل، وفي ذلك يقول ابن واصل[٤]: "وترددت الرسل بين الإمبراطور والملك الكامل إلى أن خرجت هذه السنة (١٢٢٨م / ٦٢٥هـ)، غير أن المفاوضات التي كانت تقوم بها تلك السفارات دارت في سرية تامة، ولم يعرف بفحواها أحد سوى السفراء والكامل وفردريك[٥].

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 371;
Gottscholk: op. cit., p. 154;
جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٦٨.

2) Eraeles: op. cit., Tom. II, p. 371;
Grousset: Histoire des Croisades, p. 303;
Van Cleve: op. cit., p. 453.

٣) جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٦٨.

٤) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤، ص ٢٣٥؛
النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٩، ص ١٥٠.

5) Gottscholk: op. cit., p. 154;
سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

وخلال المفاوضات التي دارت بين فردريك والكامل، أمر فردريك قواته الصليبية أن تقوم بزراعة الأرض حتى لا تشعر بالملل من طول المفاوضات[١]، كما أن فردريك استغل المفاوضات، وأرسل عدة أسئلة علمية للمسلمين في مجال الرياضة والعلوم الطبيعية، وطلب من الكامل الإجابة عنها، فعرضها الكامل على الشيخ علم الدين قيصر، وهو أحد الرياضيين الرواد في عصره، أما بقية المسائل فكان يعرضها على متخصصين آخرين وكانوا يجيبون عليها كلها[٢].

ويعلق جوتشولك[٣] على موقف السلطان الكامل من المسائل العلمية التي كان فردريك يبعثها له، من أن الكامل كان سعيدًا بها للغاية، وكان من الطبيعي أن يلفت أنظار المسلمين اهتمام فردريك بالعلوم الإسلامية، وتعامله الطيب مع المسلمين، وبذلك فهو في نظرهم يكون على النقيض من باقي زعماء الصليبيين. كما أنه خلال المفاوضات طلب فردريك من الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن يحدثه عن الخلافة الإسلامية، فأخبره الأمير أن الخليفة هو ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فأردف فردريك قائلاً: "ما أحسن هذا لكن هؤلاء القليلي العقل – يعني الصليبيين – يأخذون رجلاً من الرعاع يجعلونه خليفة عليهم، قائما مقام المسيح فيهم، أما أنتم فخليفتكم ابن عم نبيكم فهو أحق الناس بمرتبته"[٤].

---

١) سيجريد هونكة: المرجع السابق، ص ٣٢٨ – ٣٢٩.

٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤٢؛

Gittscholk: Al- Malik Al – Kamil, pp. 155 – 156;

3) Ibid. p. 156.

٤) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٥١؛

Gottscholk: op. cit., p. 156.

والحقيقة أن العلاقة الودية القائمة بين الإمبراطور فردريك والسلطان الكامل الأيوبي، لم تقتصر عليها فقط، بل أقام فردريك علاقات أخرى مع ملوك بني أيوب، تبادلت فيها الهدايا، مثل الدب الأبيض الذي أهداه فردريك إلى الملك الأشرف موسى[١].

ويبدو أن السلطان الكامل قد أطال أمد المفاوضات لكسب الوقت، حتى يستغل وضع الإمبراطور الذي كان ينتقل من سيء إلى أسوأ، حيث كان يعلم الكامل أن البابا قد أصدر قرار الحرمان ضد فردريك وأن هناك ثورة تنظم ضده في إيطاليا، من شأنها إجباره على العودة لإخمادها[٢]، كما أن فردريك والكامل لم يكن كل منهما مستعدًّا للدخول في حرب ضد الآخر، ولذلك حاول كل منهما أن يحافظ علىّ مكانته بين قومه، بإطالة أمد المفاوضات[٣].

وفي أثناء المفاوضات بين الكامل وفردريك، حاول الأخير أن يثبت قوته للسلطان الكامل، ويبدو أنه أراد أن يضغط عليه عن طريق التلويح بالقوة، واستخدام مدينتي يافا وقيسارية اللتان أعاد تحصينهما هنري دوق ليمبورج في أكتوبر سنة ١٢٢٧م، كقاعدة لمهاجمة مدينة بيت المقدس[٤]؛ ولذلك جمع فردريك كل بارونات مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، وكل قواته وتوجه إلى يافا في نوفمبر سنة ١٢٢٨م، ولكن بطرس من مونتيجو Peter of Montaigu رئيس منظمة الداوية، وبرتراند من ثيسي Pertrand of Thessy رئيس منظمة

---

١) مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، (بيروت، لبنان، ١٩٦٨م)، ط٢، ص ٧٢.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3 p 304;
Gottscholk: op. cit., p. 156.

٣) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٢٩.

4) Van Cleve: "The Crusade of Frederick II" pp. 454.

الإسبتارية رفضا في البداية مشاركة فردريك هذا العمل بسبب قرار الحرمان الذي أصدره البابا ضده، ولكنهما لم يلبثا أن سارا خلفه بجيوشهما، بعيدًا عنه بمسافة يوم، وكان أن توقف فردريك بالقرب من أرسوف؛ خوفًا من التعرض لهجوم من قبل قوات السلطان الكامل القريبة منه والمعسكرة بالقرب من غزة، وأذعن فردريك لضغط بعض قواده لمحاولة استمالة الداوية والإسبتارية إلى جانبه، وقد وافق مقدما الداوية والإستبارية على الانضمام إلى فردريك، بشرط أن تصدر الأوامر في الجيش "باسم الرب والمسيحية" وليس باسم الإمبراطور، وأن يسيرا خلفه بقواتهما دون الاختلاط مع قواته، فوافق فردريك على ذلك وتابع سيره حتى وصل إلى يافا، وقام بسرعة بترميم التحصينات القديمة للمدينة[1]، وفي ذلك الوقت هبت عاصفة شديدة أغرقت عددًا من سفن المؤن التي كان فردريك في أشد الحاجة إليها، فقلت المؤن وبدأ فردريك يفكر في العودة إلى عكا قبل أن يموت جيشه أمام عينيه[2]، ولكن العاصفة ما لبثت أن هدأت، فتمكنت السفن والقوارب من الوصول إلى يافا حاملة المؤن التي توافدت داخل يافا بكثرة خلال وجود فردريك هناك[3].

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 371 – 372;
King: The Knight Hospitallers in the Holy Land, pp. 207 – 208;
Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 304 – 305;
Stevenson: The Crusaders in the East, p. 311.
Lamb: op. cit., p. 310;

٢) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٠؛
سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٢٩.

٣) حسن عبد الوهاب حسنين: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة (١١٩٠- ١٢٩١م/ ٥٨٦ - ٦٩٠هـ)، (الإسكندرية، ١٩٨٩م)، ص ٣٧٠ - ٣٧١.

وقد أدت تحركات فردريك من عكا إلى يافا، وقيامه ببناء بعض التحصينات فيها إلى قطع المفاوضات من قبل السلطان الكامل، خاصة بعد أن قامت قوات فردريك بنهب القرى الإسلامية المجاورة ليافا، وحدث هذا في الوقت الذي تحرج فيه موقف فردريك بعد أن وصلته أخبار من الغرب الأوربي في ديسمبر سنة ١٢٢٨م تحمل أنباء الهجوم الذي شنته قوات البابوية بقيادة حنا دي بريين على أملاكه في إيطاليا، وقرار الحرمان الذي أصدره ضده البابا مرة أخرى، كما أن عملاء البابا أشاعوا كذبًا في صقلية أنه مات، وأن البابا ادعى حق الوصاية على ابنه والإمبراطورية، فأرسل فردريك إلى قائد للبحر هنري الملطي يأمره بإعداد أسطوله ويجعله في حالة تأهب قصوى، كما أمره بإرسال عشرين سفينة حربية محملة بالقوات إلى بلاد الشام[١]. وهكذا أصبح فردريك في منتهى الحيرة، فإذا حدث أن تأخر في بلاد الشام لاسترداد بيت المقدس فإن ذلك سوف يترتب عليه ضياع ممتلكاته في صقلية، ويمكن أن يفقد أيضًا التاج الإمبراطوري، أما إذا عاد دون استرجاع بيت المقدس، فإنه سوف يفقد سيادته على الشرق الصليبي كله، وسوف يعود حنا دي بريين لأخذ مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، كما أن ذلك سوف يسبب له فضيحة كبرى، قد تؤدي إلى ضعف مركزة في نظر العالم المسيحي[٢]، وسوف يعطي البابوية سلاحًا

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 372 – 374;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 305;

Van Cleve: op. cit., p. 454;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٧٠؛

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٣٠،

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٨.

2) Grousset: Histoire des Croisades, Tom. 3, p. 306;=

للتشهير به في كل مكان، وسيعد ذلك نصرًا لها عليه، وعندئذ بكى فردريك في حنق وغضب، ولم يذق طعم النوم لياليا طوالا[١].

ولكن الوضع السياسي كان آنذاك في صالح الإمبراطور فردريك، وهو الذي أدى إلى استئناف المفاوضات مرة ثانية، وهنا نلاحظ أن الأعمال العسكرية التي قام بها فردريك قد أخافت الكامل، إذ اعتقد الأخير أنه من الممكن أن تصل قوات صليبية إضافية لفردريك تعزز موقفه العسكري في بلاد الشام، وتتيح له القيام بعمل حربي ضد الكامل[٢]، كما أن دمشق لم تكن آنذاك قد سقطت في يد الكامل والأشرف موسى، وطالما بقيت في يد الناصر داود فإن التهديد الخوارزمي مازال موجودًا، ولهذا فإن الاستيلاء عليها كان شغلهما الشاغل، ولكي يتفرغ الكامل لمدينة دمشق كان لابد أن يسوي وضعه مع فردريك أولاً[٣]، لأنه إذا حدث أن أعلن فردريك الحرب عليه، فسيقع بين ثلاثة أعداء هم ابن أخيه الناصر داود، والصليبيين، وجلال الدين خوارزم شاه الذي استنجد به الناصر داود، ولهذا كله وافق الكامل على عقد اتفاقية يافا في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩م مع فردريك الثاني[٤].

= Van Cleve: "The Crusade of Frederick II "pp. 454 – 455

١) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٠.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 307;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٩.

3)Van Cleve: op. cit., p. 455;

Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 799 – 307.

٤) سعيد عاشور: "الإمبراطور فردريك الثاني"، ص ٢٠٨؛

محمد العروسي المطوي: المرجع السابق، ص ٨٥ – ٨٦.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ لعب دورًا كبيرًا في استئناف المفاوضات مرة ثانية بين فردريك والكامل، إذ أوضح فخر الدين لفردريك أن الوقت مناسب لإرسال سفارة أخرى إلى مولاه السلطان، وقال له إن هذا الاقتراح هو اقتراح شخصي من جانبه، فقبل فردريك هذه المشورة، وأرسل سفارة إلى السلطان الكامل مكونة من توماس أكيرا، وباليان سيد صيدا(١). وفي الرسالة التي حملتها السفارة للكامل قال فيها فردريك: "أنا مملوكك وعتيقك وليس لي عما تراه خروج وأنت تعلم أني أكبر ملوك الغرب ولقد تبادلنا الرسائل سويًّا بخصوص أسباب قدومي، وقد علم البابا والملوك باهتمامي وأهدافي، فإن رجعت خائبًا انكسرت حرمتي بينهم، وهذه القدس فهي أصل اعتقادهم وضجرهم والمسلمون قد خربوها فليس لها دخل طائل، فإن رأي السلطان أن ينعم عليَّ بقبضة البلد والزيارة فيكون صدقة منه! ويرفع رأسي بين ملوك البحر، وإذا ما رغب السلطان في أن أتنازل عن الضرائب الخاصة بالمنطقة وأن أسلم المبالغ لخزائنه، فأنا مستعد لذلك أيضًا"(٢).

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 306;
Brehier: op. cit., p. 202;
King: op. cit., p. 208;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٠.

٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، جـ٥، (بيروت، ١٩٧٩م)، ط٢، ص ١١٨؛

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٧٩٩؛

Grousset: op. cit., Tom. 3 p. 303;
Lamb: The Crusade: The Flameof Islam. P. 310;
Gottscholk: op. cit., p. 154.

ولم تلبث هذه الاستعطافات التي أبداها فردريك أن أثرت على الكامل، وهو السلطان المتسامح البعيد عن التطرف في علاقاته مع الصليبيين، والذي سبق أن عرض مرارًا عليهم أخذ بيت المقدس مقابل الجلاء عن دمياط[١] ولذلك تم في ١١ فبراير سنة ١٢٢٩م إبرام معاهدة سلام بينه وبين الإمبراطور فردريك الثاني، وتم التصديق عليها في ١٨ فبراير من نفس العام، وحضر التوقيع عليها من قبل السلطان الكامل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، وصلاح الدين الأربيلي، ومن جانب فردريك هرمان من سالزا رئيس منظمة التيوتون الألمانية، واثنان من الأساقفة الإنجليز هما بيير أسقف ونشستر، ووليم أسقف إكستر، وكذلك توماس أكيرا. وفي المعسكر المقام بالقرب من يافا أقسم الإمبراطور فردريك أمام الأمير فخر الدين على شروط المعاهدة، وحلف الملك الكامل عليها أيضًا[٢]. هذا ويشير بعض المؤرخين إلى أن اتفاقية يافا كتبت باللغتين الفرنسية والعربية، واحتفظ كل جانب بنسخة منها[٣].

والجدير بالذكر أنه لا يوجد اتفاق بين المصادر العربية والأوربية حول نقاط هذه الاتفاقية إلا في بعض البنود فقط، وقد نصت الاتفاقية

---

١) سعيد عاشور: المرجع السابق، جـ٢، ص ٧٩٩.

٢) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤٣؛

Gottscholk: op. cit., pp. 156 – 157;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 307;

Lane – poole: AHsitory of Egypt in the Middle Ages, pp. 226 – 227.

Stevenson: The Crusaders in the East, p. 312;

سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٣٢ – ٣٣٩.

3) Brehier: op. cit., p. 202;

Lamb: op. cit., p. 310.

على تسليم بيت المقدس إلى الإمبراطور فردريك الثاني بشرط عدم إعادة بناء أسواره وحصونه المهدمة[١]. في حين أن المصادر الأوربية وعلى رأسها هرقل[٢] تشير إلى أن فردريك الثاني كان من حقه تحصين بيت المقدس ويافا وقيسارية وصيدا وقلعة سانتاماريا Sancta Maria الخاصة بالتيوتون، ويؤيد أصحاب هذا الرأي رأيهم بالخطاب الذي بعث به الإمبراطور فردريك إلى ملك إنجلترا والذي قال له فيه: "لقد سمح لنا بإعادة بناء مدينة بيت المقدس مثلما كانت قبل هدمها". كما نصت الاتفاقية على بقاء القرى المحيطة بمدينة بيت المقدس في حوزة المسلمين، على أن تكون تحت حكم موظف أيوبي خاص يقيم في ألبيرة على بعد خمسة عشر كيلو متر شمال القدس، كمّا يبقي في يد المسلمين الحرم الشريف الذي يشمل المسجد الأقصى وقبة الصخرة، "ولا يدخله الفرنج إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام من المسلمين، ويقيمون فيه شعائر الإسلام من الآذان والصلاة"[٣]. ونصت

---

١) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٤١؛
أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ١٤١؛
ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٢٢٢؛
المقريزي: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٦٨.

2) Eracles: Estoire de Eracles, Tom. II, p. 374;
Van Cleve: op. cit., p. 455;
Duggan: The story of the Crusades, p. 226;
Stevenson: op. cit. p. 313, noot 2.

٣) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤١؛
المقريزي: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٦٨؛
Gottscholk: Al – Malik Al – Kamil, p. 157;
Brehier: Les Croisades, p. 202;
Van Cleve: op. cit., pp. 456 – 457;=

الاتفاقية على استلام فردريك بيت لحم والناصرة، والقرى الممتدة على طول الطريق منهما إلى بيت المقدس، والقرى الممتدة على طول الطريق من عكا ويافا إلى بيت المقدس أيضًا، منعًا لتعدي المسلمين على الصليبيين عند مرورهم من هذه الطرق إلى بيت المقدس(١). وتضمنت الاتفاقية تسليم الإمبراطور نصف الأراضي التي كانت في يد المسلمين في صيدا وتبنين (تورون)، وتحصين جميع الأماكن التي تسلمها فردريك عدا تبنين(٢). كذلك تضمنت الاتفاقية السماح للبطريرك وهيئة الأكليروس، ورؤساء المنظمات الدينية دخول بيت المقدس من أجل العبادة فقط، بشرط عدم استعادة أملاكهم، وعدم حملهم السلاح(٣)، وعدم السماح للسلطان الكامل بترميم أو إقامة حصون أو قلاع جديدة طوال فترة المعاهدة، وأن يتعهد السلطان الكامل بإطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين خلال حروب دمياط وغيرها، بما فيهم الأبرياء من حملة الأطفال، وسوف يتعهد فردريك في مقابل ذلك بعدم تقديم أي مساعدات إلى إمارتي طرابلس وإنطاكية

= Lamb: op. cit., p. 310.

1) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 374;

ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٤١؛

أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٣، ص ١٤١؛

Gottscholk: op. cit., p. 157;

Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 308;

Lacroix (Dem – Paul) La Chevaleri et les Croisades, (Paris, 1887), p. 179.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 307 – 308;

Van Cleve: op. cit., p. 455.

3) Brehier: Les Croisades, p. 202;

Lane pool: op. cit., p. 227.

الصليبيتين في حروبهما مع المسلمين كما وعد فردريك بحماية أملاك الكامل ضد جميع أعدائه بما فيهم الصليبيين، خلال مدة المعاهدة[1]، وقد اتفق على أن تكون مدة المعاهدة عشر سنين وخمسة شهور وأربعين يومًا، ابتداء من ٢٤ فبراير سنة ١٢٢٩م (٢٨ ربيع الثاني ٦٢٦هـ) [2].

ويرى المؤرخ جروسيه[3] أن الإمبراطور فردريك والسلطان الكامل حاولا أن يتجنبا مشاعر شعبيهما ولو إلى حد ما؛ لأن كلاهما كان يدرك تمامًا ردود الأفعال العنيفة التي سوف تنجم عن كل تنازل يقدمه أي منهما، ولهذا جاء الاتفاق حول بيت المقدس مناسبًا للعاهلين، فمدينة بيت المقدس ردت سياسيًّا للصليبيين، ولكن تم الاعتراف بها مدينة مقدسة للديانتين، ويعتبر هذا مراعاة لمشاعر المسلمين والصليبيين معًا، ويبدو أن فردريك والكامل حاولا القضاء على العداء القائم بين الشرق والغرب، وإنهاء الحملات الصليبية بهذا الاتفاق الودي، الذي كشف عن روح التسامح الواضحة التي تسبق العصر بزمن كبير. ويعلق جوتشولك[4] على هذه الاتفاقية قائلاً: "إن هذه

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 208;

Brehier: op. cit., p. 203;

Van Cleve: op. cit., p. 455 – 456;

Lane Poole: A History of Egypt in the middle Ages, p. 227;

عبد الغني محمود عبد العاطي: "صليبية الأطفال"، مقال في ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٢، (القاهرة، ١٩٨٣م)، ص ١٦٨.

٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٨؛

Gottscholk: op. cit., p 157;

Mayer: The Crusades, p. 228.

3) Histoire des Croisade, Tom. 3, pp. 310 – 312.

4) Al – Malik Al – Kamil, pp. 157 – 158.

الاتفاقية قللت من مكاسب الصليبيين كثيرًا، إذا ما قورنت بالعرض الأول الذي قدمه الكامل للصليبيين إبان الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، والمتمثل في التنازل عن كل المناطق التي استرجعها صلاح الدين مقابل الجلاء عن دمياط ولكن الاتفاقية المعقودة بين فردريك والكامل سمحت للمسلمين بالاحتفاظ بمدينة الجليل وحبرون ونابلس ووادي الأردن وطبرية، أي الجزء الأكبر من الأماكن المقدسة"، كما أن مدينة بيت المقدس ظلت حتى سنة ١٢٣٩م مدينة مفتوحة بدون تحصين، الأمر الذي يجعل ما ذكرته المصادر الإسلامية من أن الكامل طلب من فردريك عدم تحصينها حقيقة واضحة. هذا ويشير سميل[١] إلى أن الإمبراطور فردريك تسبب في حدوث إهانة كبرى للعالم المسيحي، بسبب موافقته على إبقاء قبة الصخرة والمسجد الأقصى في أيدي المسلمين، إلى جانب تهاونه في تحصين بعض المدن لاسيما تبنين.

والحقيقة أن السلطان الكامل كان متسامحًا إلى أبعد الحدود في إبرام هذه الاتفاقية مع الإمبراطور فردريك، إذ كان الاستيلاء على مدينة دمشق أهم لديه من الدفاع عن مدينة بيت المقدس، وكان الحفاظ على أملاكه هو شغله الشاغل، لذلك نراه يتعهد لفردريك بإطلاق سراح جميع أسرى الصليبيين نظير امتناع فردريك عن تقديم أية مساعدة للصليبيين في بلاد الشام، حتى يظلوا أضعف من أن يقوموا بعمل حربي ضده، وبهذا يضمن الكامل لنفسه حياة آمنة في دولته بعيدًا عن المشاكل، لاسيما أن فردريك تعهد له بحماية أملاكه ضد جميع أعدائه، ولاشك أنه كان من بين أعداء الكامل أمراء من البيت الأيوبي، وليس الصليبيين فقط.

---

[1]) The Crusaders in Syria and the Holy Land, p. 31.

على أية حال، لم تلق هذه الاتفاقية استجابة واسعة في الأوساط الصليبية والإسلامية[١]، فالمسلمون في أنحاء العالم الإسلامي اعتبروا أن تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين عجز وخيانة من السلطان الكامل للإسلام[٢]؛ ونظرًا لأهميتها فقد شعر المسلمون أنهم فقدوا عزيزًا عليهم، فأصابهم ألم شديد، "وعملت الأعزية"[٣]. وعندما أرسل السلطان الكامل إلى السكان المسلمين في القدس يأمرهم بتسليمها إلى الصليبيين ومغادرتها، نفذوا أوامره وسط عاصفة من البكاء؛ لأنهم حزنوا لخروج القدس من أيديهم، وأنكروا على السلطان الكامل هذا الفعل واستشنعوه منه"[٤]، غير أنه في محاولة منه لتهدئة المسلمين راح يقول لهم: "إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس وأدُر خرابٍ والمسجد على حاله، وشعار الإسلام قائم، ووالي المسلمين متحكم في الأعمال والضياع"[٥] ولكن هذا القول لم يخمد شعورهم الحزين، وفي محاولة منهم للتعبير له عن شعورهم، "حضر الأئمة والمؤذنون الذين كانوا

---

1) Lacroix: op. cit., p. 179;

Stevenson: The Crusaders in the East, p. 313;

بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ٢، ص ٢٣٨.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 309;

Lane Poole: op. cit., p. 228;

سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٣٥؛

عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ص ١٥٣.

٣) ابن الأثير: الكامل، جـ١٢، ص ٤٨٣؛

النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ٢٩، ص ١٥١.

٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤٣؛

Gottscholk: op. cit., p. 158.

٥) المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٦٨؛

Lamb: op. cit., p. 311.

بالصخرة والمسجد الأقصى إلى باب الدهليز الكاملي، وأذنوا في غير وقت الآذان" فشعر السلطان الكامل أن كرامته أهينت فأمر بأخذ كل ما معهم من السفور والقناديل الفضية وأدوات المسجد وقام بطردهم قائلاً لهم: "امضوا إلى حيث شئتم"(١).

وفي دمشق حاول الملك الناصر داود استغلال هذا الشعور الإسلامي المعادي للسلطان الكامل، وراح يشنع عليه، كما أمر المؤرخ سبط بن الجوزي أن يلقي خطبة بجامع دمشق، يعبر فيها للناس عن فضائل القدس، وما ورد فيه من الأخبار والآثار، وأن يشير إلى العار الذي لحق بالمسلمين من جراء تسليمه القدس، وكان ذلك من أجل استقطاب الناس إلى صفه في قتاله الدائر مع عميه الكامل والأشرف موسى، فاستجاب ابن الجوزي له، واحتشد أهل دمشق كلهم بالجامع الكبير، وحضر الملك الناصر داود بنفسه، ومما قاله ابن الجوزي: "انقطعت عن البيت المقدس وفود الزائرين، يا وحشة المجاورين، كم كان لهم في تلك الأماكن من ركعة، وكم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة، تالله لو صارت عيونهم عيونا لما وفت، ولو تقطعت قلوبهم أسفًا لما شفت أحسن الله عزاء المؤمنين، يا خجلة ملوك المسلمين، لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات، لمثلها تتقطع القلوب من الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات". فعلت أصوات الحاضرين بالعويل والبكاء بكاء شديدًا(٢). ومن جملة أبيات القصيدة التي ألقاها ابن الجوزي في رثاء القدس:

---

١) النويري: المصدر السابق، جـ٢٩، ص ١٥١؛
المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص ٦٩؛
Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 309 – 310;
Gottscholk: op. cit., p. 158;
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٠.

٢) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٦٥٤؛=

أعيني لا ترقي مـــن العبراتِ ... صِلي بالبكاءِ الآصالَ بالبكـــراتِ
ويا قلبِ أسعر نـــارَ وجدكَ كلما ... خـــبـت بأذكارٍ يبعثُ الحـــسراتِ
على المسجدِ الأقصـــى الذي جَلَّ ... قدرُه، على موطنِ الأخباتِ والصلـوات
على القبة الأولى التي اتجهت لها ... صـلاةُ البريا في اختلافِ الجهـــاتِ
لتَبكِ على القدس البلادُ بأسـرِها ... وتعـلنُ بالأحزانِ والترحـــاتِ
أمـــا علمتَ أبناء أيـوبَ أنهم ... بسعاتــه عُدُّوا مـــن الســـواتِ[1]
مدارسُ آياتِ خلت من تـــلاوةٍ ... ومنزلٌ وحيٌ مُقفرُ العرصـــاتِ
على قبةِ المعراجِ والصخرةِ التي ... تُفاخِرُ ما في الأرضِ من صخـراتِ[2]

والجدير بالذكر، أن الملك الكامل أرسل جمال الدين الكاتب الأشرفي إلى البلاد الشرقية والخليفة العباسي في محاولة منه "لتسكين قلوب الناس وتطمين خواطرهم من انزعاجاتهم لأخذ الصليبيين القدس[3].

= ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص٢٤٥؛
النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص ١٥١.

١) النويري: المصدر السابق، جـ٢٩، ص ١٥٢؛
عبد اللطيف حمزة: أدب الحروب الصليبية، ص ١٦٨ – ١٦٩.

٢) ابن واصل: المصدر السابق، جـ٤، ص ٢٤٦؛
أبو الفدا: المختصر، جـ٣، ص ١٤٢؛
ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، جـ٢، ص ٢٢٣؛
المقريزي: السلوك، جـ١، ق١، ص ٢٧٢؛
Michaud: Histoire des Croisdes, Tom. III, p. 37;
Gottscholk: op. cit., pp. 158 – 159;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 309.

٣) المقريزي: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٧١.

أما من الجانب الصليبي، فقد وافق الألمان والصقليون فقط على معاهدة الإمبراطور فردريك مع السلطان الكامل[1]، وتعبيرًا عن سخط بقية الصليبيين قام الأحبار والأساقفة بإلقاء الخطب ضد هذه المعاهدة التي أبقت – حسب قولهم – للمسلمين المسجد الأقصى الذي يوجد أمام قبر المسيح، الأمر الذي يترتب عليه الخلط بين المسيحية والإسلام[2].
أما العسكريون من الصليبيين فقد رفضوا مبدأ استعادة بيت المقدس عن طريق السلم، إذ رأوا أن ذلك كان يجب أن يكون عن طريق الحرب، الأمر الذي كان سيترتب عليه عدم احتفاظ المسلمين بشيء في مدينة بيت المقدس[3]. كما أنهم رأوا أن استعادة بيت المقدس بدون حدودها الطبيعية المتمثلة في الأردن والكرك سوف يجعل الدفاع عنها أمرًا صعبًا، لاسيما أنها لم ترتبط بالساحل سوى بشريط ضيق، وأنهم لو كانوا يريدون بيت المقدس بدون الأردن والكرك لقبلوا عروض الكامل أثناء احتلالهم لدمياط في أثناء الحملة الصليبية الخامسة، ورفضت الإسبتارية هذه الاتفاقية على أساس أن الذي أبرمها كان محرومًا من البابا، وهم لن يتعاونوا مع إمبراطور محروم، أما فرسان الداوية فقد رفضوا الاتفاقية لهذا السبب، فضلاً عن أن فردريك تجاهل مكاسبهم في مدينة بيت المقدس، وأعطى المسلمين المسجد الأقصى الذي كان مركزًا لهم حتى سنة ١١٨٧م. وكانت التنازلات التي

---

1) Van Cleve: "The Crusade of Frederick II", p. 456.

2) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 38;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٧٦.

3) Stevenson: The Crusaders in the East, p. 314;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٣٢؛

سعيد عاشور: "الإمبراطور فردريك الثاني"، ص ٢٠٩؛

أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية، ص ٢٥٣.

أعطاها الإمبراطور للكامل في نظرهم تمكن المسلمين من استعادة المدينة بسهولة إذا فكروا في ذلك، وأبدوا استياءهم من الاتفاقية؛ لأنها منعت عنهم قدوم الإمدادات من أوربا، ولذلك شعروا أن فردريك ينتقم منهم[١].

كما أن أمراء صليبيي بلاد الشام رفضوا هذه الاتفاقية كُرهًا في فردريك لإعلانه نفسه ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، دون مناقشتهم في ذلك[٢]. وهكذا لم تلق اتفاقية يافا قبولا وسط الصليبيين بكافة فئاتهم في بلاد الشام، واستنكروا هذا العمل الكبير الذي أداه لهم فردريك باسترداد بيت المقدس دون عناء يذكر[٣].

والواقع أن الإمبراطور فردريك حاول إعادة الوفاق بيْنه وبين جيرولد بطريرك بيت المقدس، حتى يقوم الأخير بتتويجه في بيت المقدس، ليعود بسرعة إلى إيطاليا، فأرسل هرمان من سالزا إلى جيرولد، غير أن الأخير أصر على رؤية صورة المعاهدة، وعندما أتيح له ذلك رفضها كليًا، وأدانها إدانة كاملة. وفي الخطاب الذي بعث به إلى البابا أعلن أنه ضد أي اتفاقية يوقعها فردريك مع الملك الكامل؛ لأن غرض جيرولد من الحملة الصليبية التي قادها فردريك هو سفك دماء الزنادقة (المسلمين) لا التفاوض معهم، والاعتراف بحقوقهم داخل المدينة المقدسة. وهنا نلاحظ أن البطريرك لم يقبل عرض

---

1) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 313;
Lane Poole: op. cit., p. 227;
Van Cleve: op. cit., p. 457;

جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٥؛
باركر: الحروب الصليبية، ص ٨٠١.

2) King: op. cit., p. 208.

٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠١.

المصالحة الذي تقدم به هرمان من سالزا فحسب، بل حاول القضاء على ما أنجزه فردريك، بمنعه من دخول مدينة بيت المقدس، وذلك بفرض قرار الحرمان عليها وعلى الجيش الإمبراطوري حتى لا يتوجه مع فردريك إلى هناك، ولهذا الغرض أرسل بطرس رئيس أساقفة قيسارية إلى مدينة بيت المقدس، ولكن فردريك تحرك إلى بيت المقدس؛ لكي يفوت الفرصة على جيرولد[١].

- دخول فردريك مدينة بيت المقدس في ١٧ مارس سنة ١٢٢٩م:

بعث فردريك يستأذن الكامل في دخول مدينة بيت المقدس، فسمح له بذلك[٢]، وأمر بتذليل جميع العقبات أمامه في المدينة حتى يستمتع بإقامته فيها[٣]، وعندئذ أسرع فردريك إلى هناك مع قواته وعدد كبير من الصليبيين، أما البارونات المحليون فلم يتبعه منهم سوى عدد قليل، ولم يتبعه من المنظمات العسكرية سوى منظمة التيتون، ولم يصحبه من رجال الدين سوى أساقفة صقلية، وبطرس أسقف ونشستر ووليم أسقف إكستر الإنجليزيين[٤]. وفي ١٧ مارس دخل فردريك مدينة بيت المقدس ليلاً، حيث كانت مضاءة بمصابيح الزيت بفضل جهود هرمان من سالزا وأتباعه الألمان (الفرسان التيوتون). وكان الإمبراطور عند وصوله للمدينة قد تسلم مفاتيحها عند باب يافا في القدس من يد شمس الدين قاضي نابلس، الذي أرسله السلطان الكامل للقيام على خدمة

---

1) Van Cleve: op. cit., pp. 456 – 457;

Mayer: op. cit., pp. 228 – 229.

٢) المقريزي: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٦٩.

3) Gottscholk: op. cit., p. 159.

4) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 374;

Duggan: The story of The Crusade. P. 226;

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٧٦.

الإمبراطور[١]. وعند مرور فردريك في شوارع المدينة خيم الصمت عليها، وصارت خالية من الناس، فتوجه إلى دار الإسبتارية القديمة حيث أقام بها[٢].

ولم يلبث فردريك أن قرر تتويج نفسه ملكًا في كنيسة القيام، وطلب المشورة في ذلك من حاشيته فنصحه بعضهم بإجراء قداس ديني، في حين أشار البعض الآخر بما فيهم هرمان من سالزا، بأن يتم التتويج دون إجراء قُدَّاس ديني[٣]. ويبدو أن فردريك قبل الرأي الأخير، إذ في صباح اليوم التالي لوصوله دخل كنيسة القيامة مرتديًا الزي الإمبراطوري، وتبعه رجاله في موكب مهيب، وهم حاملون الشموع ولكن الكنيسة كانت آنذاك خالية من جميع الأدوات المقدسة، وهرب منها الكهنة الذين كانوا يقومون على خدمة قبر السيد المسيح، كما لم يكن يوجد على الهيكل الكبير سوى السيوف وآلات القتال. ونظرًا لأنه لم يكن أي أحد من الأساقفة يجرؤ على تتويج إمبراطور محروم، فإنه بعد أن أدى الإمبراطور الصلاة، قام بوضع تاج من الذهب على المذبح الكبير، ثم تقدم بنفسه وأخذه بيده ووضعه على رأسه، وأعلن آنذاك أنه ملك على مدينة بيت المقدس، وعندئذ صفق

---

1) Mayer: The Crusades, p. 228;
Van Cleve: op. cit., p. 458;
Archer: The Crusade, p. 382;
جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٧؛
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٢؛

2) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 374;
Michaud: op. cit., Tom. III, p. 39;
Lamb: op. cit., p. 312.

٣) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٧.

الحاضرون تصفيقًا حادًا[١]. ويبدو أن الإمبراطور فردريك أراد أن يتوج نفسه بيده في كنيسة القيامة، ليعلن من هذا المكان المقدس أنه لم يتلق التاج عن طريق أحد من رجال الدين، وإنما تلقاه من الرب مباشرة[٢].

قام الإمبراطور فردريك بعد تتويجه بإلقاء خطاب على الحاضرين باللغة اللاتينية، وقام هرمان من سالزا بترجمته إلى الألمانية والفرنسية، وقد استعرض فيه الإمبراطور الأحداث منذ أن حمل الصليب سنة ١٢١٥م، وموقف البابوية منه، وفي هذا الخطاب أنحى باللائمة على البطريرك جيرولد وأعوانه متهمًا إياه بأنه يعمل على إجهاض اتفاقيته مع السلطان الكامل[٣]. وأوضح فردريك للحاضرين عن استعداده لتكريس كل قواته لخدمة الكنيسة المقدسة، كما طالبهم بالمساهمة بأموالهم في إعادة تحصين مدينة بيت المقدس، فقام بعض الأمراء بجمع التبرعات لهذا الغرض من الجميع عدا قساوسة كنيسة القيامة الذين قام فردريك بطردهم من المدينة[٤]. ومما قاله فردريك: "فليبتهج أصحاب القلوب الطاهرة، وليشركوا الرب الذي رضي عنه شعبه، وهم يحمدون إمبراطور السلام، إن الرب وحده هو الذي يصنع

---

1) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 374;
Michaud: op. cit, Tom. III, p. 39;
جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٧٨.

2) Kantorowicz: Frederick the second, pp. 198- 199.

3) Van Cleve: op. cit., p. 458;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 314;
جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٧٨.

4) Brehier: Les Croisades, p. 203.

المعجزات الكبرى، وقد جاء في الكتب أنه حين يريد الرب إظهار قدرته فلا حاجة إلى عجلات ولا إلى خيل، إن الرب أراد في هذه الأيام، وبفضل قوة معجزاته التي هي أكثر من شجاعة الرجال، إتمام ذلك العمل الذي حاول تحقيقه منذ أزمنة طويلة أمراء أقوياء عديدون تعاونهم حشود غفيرة، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح، وعلى ذلك فإن سلطة تحرير القدس لم تستمد من الكنيسة أو من البابا، بل استمدت من الرب مباشرة، وعلى يد من اختاره لذلك، وهو إمبراطور السلام، ومن الرب وحده استمد الإمبراطور سلطته، ونسب إلى مجد الرب كل ما أنجزه هو من أعمال"(١). ومن خلال ذلك يتضحّ لنا أن فردريك حاول أن ينسب استرداد بيت المقدس إلى الرب وإليه، لأن الرب أختاره لذلك، وقد استمد قوته من الرب، وفي ذلك إشارة إلى قوة نفوذ الإمبراطور وسموه على البابوية.

ثم كتب فردريك خطابًا للبابا ولجميع أمراء الغرب الأوربي يعلمهم فيه باستعادة بيت المقدس دون سفك للدماء، ويطلب منهم ومن جميع المسيحيين تقديم الشكر للرب. والجدير بالذكر أن جيرولد بطريرك مدينة بيت المقدس الصليبية في عكا كان قد أرسل آنذاك خطابًا إلى البابا جريجوري التاسع وكل أمراء الغرب الأوربي، يعلمهم فيه بالعار الذي جلبته معاهدة فردريك مع السلطان الكامل(٢).

---

١) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٧٨ – ٣٧٩؛

مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١، ص ٢٧٦.

2) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. 39- 40;

Archer: The Crusade, p. 383;

جوزيف جاي ديس: المرجع السابق، ص ٣٧٥؛=

وقد غادر فردريك كنسية القيامة وهو ما يزال مرتديا التاج، فتوجه إلى قصر الإسبتارية، حيث عقد هناك مجلسًا لمناقشة تحصينات مدينة بيت المقدس، حضره الأساقفة الإنجليز، وهرمان من سالزا، ومقدم منظمتا الداوية والإسبتارية وعددٌ آخر من الأمراء الصليبيين، إلا أن المجلس لم يصل إلى اتخاذ قرارات في يوم انعقاده ١٨ مارس ١٢٢٩م، فتم تأجيل المناقشة إلى صباح اليوم التالي، حيث أمر فردريك بالمبادرة إلى إصلاح برج داود، واستخدامه كقلعة دفاعية، وكذلك باب القديس أسطفانوس، وقام بتسليم المقر الملكي الملاصق لبرج داود إلى فرسان التيوتون؛ نظرًا لوقوفهم المشرف إلى جانبه(١). والجدير بالذكر أن فردريك أقام وليمة كبيرة أثناء انعقاد المجلس لحاشيته، ودعا إليها عددًا من القادة المسلمين الذين بقوا في المدينة، وتحدث معهم بالعربية كما لو كان واحدًا من أربابها(٢).

وبعد هذا المجلس قرر فردريك زيارة المسجد الأقصى، فرافقه في هذه الزيارة القاضي شمس الدين نابلس تنفيذًا لأوامر السلطان الكامل، وهنا يذكر ابن واصل(٣) تفاصيل تلك الزيارة التي حكاها له القاضي

= مكسيموس مونروند: المرجع السابق، جـ١، ص ٢٧٧.

1) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 274;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 314;
Van Cleve: op. cit., p. 455;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٣٤؛
سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٢.

2) Brehier: op. cit., p. 203;
Lamb: op. cit., p. 313;

أنتوني بردج: الحروب الصليبية، ص ٢٥٤.

٣) مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ٤، ص ٢٤٤ – ٢٤٥؛
Gottschlolk: Al – Malik Al – Kamil, p. 159.=

بنفسه، فقال: "فحكي لي شمي الدين، قال: لما قدم الإنبرور (الإمبراطور) القدس لازمته، كما أمرني السلطان الملك الكامل، ودخلت معه إلى الحرم الشريف فرأي ما فيه من المزارات ثم دخلت معه إلى المسجد الأقصى، فأعجبته عمارته وعمارة قبة الصخرة المقدسة، ولما وصل إلى محراب الأقصى، أعجبه حسنه وحسن المنبر، وصعد في درجه إلى أعلاه، ثم نزل وأخذ بيدي وخرجنا من الأقصى، فرأي قسيسًا وبيده الإنجيل، وهو يريد دخول الأقصى، فصاح عليه صيحة منكرة وقال: ما الذي أتي بك إلى هاهنا؟ والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هاهنا بغير أذني لأخذنا ما في عينيه، نحن مماليك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده، وإنما تصدق عليَّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه، ولا يتعدى أحد منكم طوره، فمضى ذلك القسيس وهو يرتعد خيفة منه". ويبدو أن فردريك كان يظهر احترامًا لبنود اتفاقيته مع السلطان الكامل، وكان لا يريد أن ينتهك البند الخاص بزيارة الأماكن المقدسة منذ أول يوم وأمام بصره[1].

= وقد ورد في سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ص ٦٥٥ - ٦٥٦. ما يلي أنه لما دخل الصخرة رأى قسيسًا قاعدًا عند الصخرة عند القدم يأخذ القراطيس. فجاء إليه الأنبرور (الإمبراطور) كأنه يطلب منه الدعاء، ثم لكمه فرماه إلى الأرض، وقال له "يا خنذير ! إن السلطان قد تصدق علينا بزيارة هذا المكان وتفعلوا فيه هذه الأفاعيل القباح، لئن عاد أحد منكم ودخل على هذا الوجه لأقتلنه" ويستطرد قائلا: :وحكى لي صورة الحال قوام الصخرة، قالوا: "ونظر الإمبراطور إلى الكتابة التي في القبة، وهي "وقد طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين" قال "من هم المشركون". وقال الأنبرور للقوام: "هذا الشباك الذي على أبواب الصخرة، من أجل أيش! "قالوا: "لئلا يدخلها العصافير" فقال "قد أتى الله إليكم بالخنازير".

[1]) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 316.

والجدير بالذكر أنه عندما حان وقت الظهر وأذن المؤذنون للصلاة، وقفت كل حاشية الإمبراطور فردريك الثاني، ومعلمه الذي درس على يده المنطق في صقلية، وأقاموا الصلاة، مما يدل على أن الحاشية كانت من المسلمين، وكان السلطان الكامل قد أمر القاضي شمس الدين، بأن يأمر المؤذنين بعدم الأذان خلال إقامة فردريك في القدس، إلا أن القاضي نسي، وفي تلك الليلة راح المؤذن عبد الكريم يقرأ قول الله عز وجل: **{مَا كَانَ لِلَّهِ أن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ}**[1] و**{ذَلِكَ عِيسى ابن مَرَيمَ}**[2]. غير أنه في اليوم التالي أمره القاضي بعدم التسابيح والآذان، لهذا عندما لم يؤذن المؤذن[3] وأصبح الصباح دخل على الإمبراطور فقال له "يا قاضي، لِمَ لمْ يؤذن المؤذنون على المنابر على جاري عاداتهم؟! "فقلت له: "إن المملوك منعهم من ذلك إعظامًا للملك واحترامًا له" فقال لي "أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي من المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم بالليل"[4].

---

١) سورة مريم، من الآية ٣٥.

٢) سورة مريم، من الآية ٣٤.

٣) ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ق٢، ص ٦٥٦؛
المقريزي: السلوك، جـ١، ق ١، ص ٢٧٠، حاشية ١.

٤) ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص ٢٤٥؛
المقريزي: المصدر السابق، جـ١، ق١، ص ٦٩ - ٢٧٠، ولكن رواية المؤذن تختلف عند سبط ابن الجوزي: مرآة الزمان، جـ٨، ص ٦٥٧، إذ قال "قال (فردريك) يا قاضي: أين ذلك الرجل الذي طلع البارحة المنارة، وذكر ذلك الكلام؟! فعرَّفه أن السلطان أوصاه. فقال الأنبرور "أخطأتم يا قاضي: تغيرون أنتم شعاركم وشرعكم ودينكم لأجلي!! فلو كنتم عندي في بلادي، هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟ الله الله لا تفعلوا!! هذا أول ما تنقصون عندنا". ثم إنه فرق على القوم والمجاورين جملة كبيرة، وأعطى كل واحد عشرة دنانير، وطلب عبد الكريم المؤذن وأعطاه مائة دينار".

وتتابعت الأحداث بسرعة فائقة، إذ وصل بطرس رئيس أساقفة قيسارية إلى مدينة بيت المقدس في اليوم الثالث (١٩ مارس ١٢٢٩م)، وألقى قرار الحرمان على المدينة، ومنع الحجاج الصليبيين من زيارتها، فأدى ذلك إلى وقف مزاولة العبادة، ونزع زينات المذابح والصلبان، وقلب صور القديسيين على الأرض، وتوقفت الأجراس عن الدق، وأوقفت التراتيل الدينية، وكان القساوسة يقومون بالقداسات بصوت منخفض ومن وراء الأبواب المغلقة، كما أن أموات الصليبيين كانوا يدفنون في الحقول بدون صلوات أو احتفالات دينية (جنائزية)[١]. والواقع أن قرار الحرمان لم يوقف خطط الإمبراطور فردريك بل كان وبالاً على جيرولد، لاسيما بعد أن عاد الوفاق بين فردريك والبابا جريجوري التاسع، فاتهم الأخير جيرولد بأنه يحاول التفرقة بين الكنيسة والإمبراطور، ولكي يظهر عدم رضاه عنه فقد سحب منه منصبه كبطريرك في الأراضي المقدسة[٢].

وكان فردريك وقتئذ قد قام بالذهاب للاستحمام في مياه نهر الأردن، ولم يكن معه إلا قليل من حراسه العرب، أما باقي قواته فقد أرسلها إلى عكا، وخلال وجوده هناك وصلته رسالة من السلطان الكامل، كان الفرسان الداوية قد أرسلوها للكامل، يخبروه فيها بالوقت الذي سيخرج فيه فردريك للاستحمام في مياه نهر الأردن، وبعدد الحراس المرافقين له، وطالبوه بإلقاء القبض عليه، وقد جاء في هذه الرسالة: "إلى قيصر العظيم الإمبراطور الروماني فردريك، ملك ألمانيا ولمبارديا وتسكانيا وإيطاليا وكالا بريا وصقلية، وملك بيت

---

[1]) Michaud: op. cit., Tom, III, pp. 41 – 42;

Lane Poole: A History of Egypt in the Middle Ages, p. 228.

[2]) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 313;

Van Cleve: op. cit., p. 458.

المقدس، وسند البابوية الرومانية، وحامي حمى الدين المسيحي، بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، إننا على يقين أنه يهمكم الإطلاع على الخطاب الصادر من فرسان المعبد، ولقد أحسسنا باشمئزاز بالغ لهذه الخيانة الدنيئة، وإنا لنرجو لكم موفور الصحة، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته"(١).

ولا شك أن هذه الرسالة تدل على مدى العلاقة الوطيدة بين السلطان الكامل والإمبراطور فردريك الثاني.

- عودة فردريك الثاني إلى عكا:

على أيه حال، غادر فردريك الثاني مدينة بيت المقدس غاضبًا إلى يافا في ١٩ مارس سنة ١٢٢٩م، إذ كان يرغب في العودة بسرعة إلى إيطاليا، وقد ترك بعض الفرسان الألمان في بيت المقدس للدفاع عنها بعد رحيله منها(٢). ومكث فردريك في يافا الفترة من ١٩ إلى ٢٢ مارس، ثم غادرها إلى مدينة عكا فوصلها في ٢٣ مارس، وهناك وجد فردريك مدينة عكا في حالة ثورة أهلية، ذلك أن جيرولد بطريرك بيت المقدس، قد أعد بعض الفرق العسكرية لمساعدته في أن يجعل من نفسه سيدًا على مملكة بيت المقدس، ووافق فرسان الداوية على الوقوف إلى جانبه، وعندما طلب منه فردريك تفسيرًا لهذا العمل، أجاب بأن اتفاقية يافا التي عقدها الإمبراطور مع السلطان الكامل، لا

---

١) جوزيف جاي ديس: الزنديق الأعظم، ص ٣٨٥ – ٣٨٧؛

سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب، ص ٣٣٤ – ٣٣٥.

والجدير بالذكر أن ابن الجوزي هو الوحيد من المصادر الإسلامية التي وصلت إلينا الذي أشار إلى تلك الحادثة، إذ قال: "وخاف من الداوية فإنهم أرادوا قتله".

انظر: مرآة الزمان، جـ٨، ص ٦٥٧.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 318 – 319;

Van Cleve: op. cit., p. 45;

يدخل فيها حاكم دمشق، ومن ثم فإن المدينة عرضة للهجوم عليها من قبل هذا الحاكم، ولهذا يجب إعداد العدة للدفاع عنها، غير أن فردريك طالبه بالكف عن هذا العمل الطائش، فأجاب عليه جيرولد بأنه غير ملزم بطاعة إمبراطور محروم، فاستشاط فردريك غضبًا وأراد أن يظهر احتجاجه على مسلك البطريرك جيرولد، فدعا رجال الدين وعامة سكان المدينة الصليبيين لعقد اجتماع عام، وفي هذا الاجتماع الذي عقد أمام أبواب مدينة عكا في ٢٤ مارس سنة ١٢٢٩م، قدم فردريك تبريرًا لسياسته تجاه المسلمين، ولاسيما فيما يتعلق باتفاقية يافا التي عقدها مع السلطان الكامل، وهاجم البطريرك والداوية على عدم حضورهم المؤتمر، وأصدر أوامره إلى الجيش الذي كونه البطريرك بمغادرة عكا فورًا، وأمر توماس أكيرا بإيقاع أقصى العقوبات على المخالفين لأوامره[1].

ولم تفلح جهود فردريك في السيطرة على الموقف في عكا، وعندئذ لجأ إلى استخدام القوة، مستعينًا بجنده اللمبارديين والبيازنة، فأغلق أبواب المدينة، ووضع عليها حرسًا من أتباعه لمنع دخولها من قبل المعارضين له، كما منع دخول المؤن للسكان، وقام بوضع حراسة مشددة حول بيوت الداوية وقصر البطريرك، الذي وجد نفسه محاصرًا لمدة خمسة أيام، ومنع فردريك سفراء البطريرك من الذهاب إلى البابا، وأمر أتباعه بخطف الرهبان الذين حثهم البطريرك على الدعوى لمعارضة فردريك، وضربهم بالعصى في الميادين العامة، وطردهم من دور العبادة في الشوارع[2]. وحاصر فردريك قلعة الحجاج (قلعة

---

[1]) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 320;

Van Cleve: op. cit., p. 45;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٣.

[2]) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 42;=

الداوية) في عثليت جنوب غرب الكرمل بين حيفا وقيسارية، وعند دخولها وجد استحكاماتها قوية، فطالب فردريك الداوية بإخلائها في الحال، ولكنهم أغلقوا أبواب القلعة، وطالبوا قوات فردريك بالخروج، وإلا ستكون نتائج عدم خروجهم وخيمة عليهم، فما كان من فردريك إلا أن اتجه إلى مدينة عكا، وقد فكر في اختطاف يوحنا أبلين صاحب بيروت ومقدم الداوية ونفيهم إلى أبوليا، ولكنه لم ينفذ خطته لصعوبتها[١].

وعندئذ وصلته رسالة من إيطاليا تفيد أن حنا من بريين قاد قوات البابوية ودخل أبوليا، وهو يُعد العُدة وقتئذ لحصار المواني الإيطالية لإلقاء القبض على فردريك عند عودته، ومن ثم كان لزامًا على فردريك العودة سريعًا إلى الغرب. ولكنه قبل عودته قام ببعض الأعمال، حيث أمر بجمع كل الأسلحة وجميع العُدد والآلات الحربية الموجودة مع أنصار البطريرك جيرولد، وحملها إلى سفنه أو اتلافها حتى لا يستفيد جيرولد منها، وقام بتعيين باليان سيد صيدا مع جارنيه الألماني Garnier the German لتولي حكومة مملكة بيت المقدس[٢] وباع الشاطئ في قبرص لمدة ثلاث سنوات لأعدائه القدامى من عائلة أبلين، وترك حامية قوية في عكا من قواته اللومباردية، لحماية مصالحه في المدينة. وفي محاولة منه للموازنة بين فرسان التيتون والداوية، أعطى قلعة مونتفرات إلى فرسان التيوتون، وسلم

= Van Cleve: op. cit., pp. 459 – 460.

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٣٧.

[1]) Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 320;
King: op. cit., 209;

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ٢، ص ٨٠٣ – ٨٠٤.

[2]) Eracles: op. cit., Tom. II, p. 375.

قلعة صور إلى باليان سيد صيدا، وأبقى أودومونت بليارد كونتبلا لمملكة بيت المقدس، ومشرفًا على الجيش(١).

وفي مستهل مايو سنة ١٢٢٩م أبحر الإمبراطور فردريك من عكا عائدًا لإيطاليا، ونظرًا لأنه كان يدرك مدى الكراهية التي يكنها له الصليبيون المقيمون في بلاد الشام، فقد حاول تجنب الإهانة عن طريق الإبحار وقت الفجر حتى لا يشعر به أحد، وعلى الرغم من ذلك فعندما مر من حي الجزارة في طريقه إلى ميناء عكا، قام الجزارون وعجائز النساء والدهماء من الناس بإلقاء الحجارة وأمعاء الحيوانات وروث الخيل عليه. وعندما علم يوحنا أبلين وأودومونت بليارد بما حدث، أسرعا إلى هناك حيث تمكنا من تهدئة الأمور، وركب فردريك سفينته وابتعد عن الميناء، فألقى يوحنا أبلين عليه كلمات الوداع، ولكن يبدو أن فردريك رد عليه ببعض اللعنات، ثم توقف في قبرص، ثم غادرها إلى إيطاليا فوصلها في ١٠ يونيو سنة ١٢٢٩م(٢).

---

1) Van Cleve: "The Crusade of Frederick II", p. 46;
Michaud: op. cit., Tom. III, p. 43;
Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 321;
Brehier: les Croisades, p. 203;
Lane Poole: op. cit., p. 288;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ٣٣٧؛
أسامة زكي زيد: صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي (الإسكندرية، ١٩٨١م)، ص ٢٢١.

2) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 321 – 322;
Gottscholk: op. cit., p. 160;
Brehier: op. cit., p. 204;
Duggan: The story of the Crusade, p. 227;=

وأخيرًا يمكن القول إن حملة الإمبراطور فردريك الثاني أحرزت نجاحًا كبيرًا، فقد حققت من النتائج مالم تستطع الحملات الصليبية التي قامت منذ سنة ١١٨٩م أن تحققه، حيث تمكنت من استعادة مدينة بيت المقدس إلى الصليبيين، ليس باستخدام الإمبراطور فردريك السلاح، ولكن عن طريق صداقته للمسلمين ودبلوماسيته الفذة. والجدير بالذكر، أن النجاح الذي أحرزه فردريك كان ضد إرادة البابوية التي عملت بالطرق المباشرة وغير المباشرة على منع فردريك من استرداد بيت المقدس، إلا أن فردريك تمكن من تحقيق أهدافه رغم كل الصعوبات التي واجهته، وأثبت أن الجنوح للسلم خير من إراقة الدماء[١].

ويعتبر النجاح الذي أحرزه فردريك أقصى ما وصل إليه الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام. ونلاحظ أنه في نزاع البابوية مع الإمبراطورية لم يتورع البابا عن الاتصال بالبيت الأيوبي، لمنع الإمبراطور من تحقيق أي نجاح في الشرق، خوفًا من تدعيم مكانة فردريك في الغرب الأوربي ضد البابوية.

۞۞۞

= Mayer: The Crusades, p. 230;

Pernoud: op. cit., pp. 231 – 232.

([1]) Grousset: op. cit., Tom. 3, pp. 322 – 323;

Lacroix: op. cit., p. 178;

Brehier: Les Croisades, p. 201;

Van Cleve: op. cit., pp. 461 – 462;

Lane Poole: op. cit., p. 225.

الفصل الرابع
هيئة منظمة التيوتون الألمانية في بلاد الشام
(١١٢٨ - ١٢٢٩م)

- الهيئات الدينية الحربية في بلاد الشام.
- زي منظمة التيوتون.
- النظام الإداري لهيئة الفرسان التيوتون.
- ممتلكات وقلاع هيئة فرسان التيوتون في بلاد الشام حتى ١٢٢٩م.



- **الهيئات الدينية الحربية في بلاد الشام:**

من المعروف أن الدين خلال العصور الوسطى كان يمثل القوة الحية الكامنة في تفكير الإنسان وأقواله وأعماله، ومن الصعب على الإنسان أن يتصور في وقتنا الحالي ما كان للدين من مكانة خلال تلك العصور[١]. وقد اتخذت خدمة الله صورًا شتى، منها وجود الرهبان الذين يقضون حياتهم في عبادة الله والتأمل الديني داخل أديرتهم، كذلك قامت منظمات دينية سلك رهبانها سلوكًا أكثر نشاطًا، حيث قاموا بالوعظ، وبأعمال التمريض، ومساعدة الفقراء والمحتاجين ورعاية المرضى في المستشفيات[٢]. وكان من المناسب لروح العصر تأسيس منظمات دينية، ينكر فيها الرهبان كل مباهج الحياة وملذاتها، ويقضون حياتهم في محاربة الأعداء، من أجل الدفاع عن العقيدة المسيحية. ومما لا شك فيه أن منظمات من هذا النوع راقت في أعين فرسان أوربا، لاسيما الشباب المغامر، الذين آثروا حياة الرهبانية، ورأوا أنه من الأفضل خوض غمار المعارك من أجل السيد المسيح والمسيحية[٣].

وقد شهدت الحركة الصليبية في بلاد الشام ابتكارًا فذًا فريدًا، ساعد على وجوده النجاح الكبير الذي حققته الحملة الصليبية الأولى، وقد تمثل ذلك في الهيئات الدينية الحربية التي جمعت بين حياة الرهبانية والفروسية في رباط واحد. والواقع أن تلك الهيئات كانت تمثل نتاجًا للأفكار التي سادت أوربا آنذاك، والتي نبذت فكرة التقوقع في الأديرة[٤].

---

١) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٥٥.

2) King: The Knights Hospitallers in the Holy land, p.2.

٣) محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٥٥.

٤) المرجع نفسه.

وعلى أرض فلسطين، نشأت الهيئات الدينية الحربية من أجل الدفاع عن المسيحية ضد الإسلام، وأهم تلك الهيئات الإسبتارية والداوية، والتيوتون. والجدير بالذكر، أن الهدف الأساسي من قيام هيئات الفرسان الدينية الحربية في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية، هو العناية بالمرضى الصليبيين ورعايتهم. ولكن هذا الهدف السامي الأخلاقي لم يلبث أن تحول إلى هدف حربي، وأصبح لزامًا على تلك الهيئات الدفاع بالسيف عن الحجاج الصليبيين وممتلكات الصليبيين في فلسطين، وساعد تلك الهيئات على ذلك ما جمعوه من ثروة طائلة، وما استولوا عليه من ممتلكات عديدة، حتى صارت لهم مدن وحصون ومعاقل بأكملها، يمتلكونها ويزودون عنها[1].

وأقدم الهيئات الدينية التي تأسست في بلاد الشام هي هيئة الإستبارية Hospitallers، وتمتد جذورها في بلاد الشام إلى ما قبل الحملة الصليبية الأولى، عندما أسس البابا جريجوري العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤م) Gregory نزل Hospice لإيواء الحجاج، ولا يعرف شيء عن هذه النزل إلا أن البابا أرسل أحد رؤساء الأديرة ويدعى بروبس Probus للأراضي المقدسة مزودًا بتعليمات بتأسيس نزل في بيت المقدس لخدمة الحجاج، ويبدو أن البابا وضع تحت يده مبالغ مالية كبيرة للإنفاق منها على هذه النزل، ولم تغب هذه النزل عن بال حكام أوربا، أمثال الإمبراطور شارلمان (٧٦٨ – ٨١٤م) Charlmagne الذي قام برد النزل –المستشفى– التي أسسها البابا جريجوري العظيم

---

1) King: op. cit., p. I;

Sterns (I.) "The Teutonic Knights in The Crusader states" in setton: History of The Crusade, vol.

V, (Philadlpia, 1969) pp. 315 – 316.

سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٩٢ – ٣٩٣.

إلى الحجاج اللاتين، كما قام ببناء كنيسة بالقرب من هذا النزل، وعهد بخدمة النزل والكنيسة إلى مجموعة من الرهبان البندكتيين[١].

وهناك من يشير إلى أن بعض أهالي مدينة أمالفي Amalfi بإيطاليا حصلوا على إذن من الخليفة الفاطمي[٢] في مصر حوالي عام ١٠٢٣م، بتأسيس مستشفي في بيت المقدس لرعاية وإيواء الحجاج اللاتين الفقراء والمرضى أو الذين فقدوا نقودهم أثناء السفر الطويل من الغرب الأوربي إلى الأراضي المقدسة، فلم يعارض، فقاموا على الفور بإنشاء هذه المستشفى، وتم تدشينها باسم القديس يوحنا المتصدق بطريرك الإسكندرية في القرن السابع الذي اشتهر بالإحسان[٣].

والواقع أن استيلاء الصليبيين على بيت المقدس عام ١٠٩٩م يعد بداية الميلاد الحقيقي لمنظمة القديس يوحنا المتصدق التي قامت بتقديم بعض المساعدات للصليبيين عند وصولهم إلى بيت المقدس وحصارهم لها، ثم تطورت هذه الهيئة خلال السنوات الأولى من سيطرة الصليبيين على بيت المقدس إلى هيئة دينية دولية، عرفت باسم الإسبتار التي حرفت بالعربية إلى الإسبتارية[٤].

ويرجع تأسيس هيئة فرسان الإسبتارية إلى جيرارد المبارك Blessed Gerard وهو مواطن من أمالفي، وقد انضم الكثير من الحجاج اللاتين لهيئة فرسان الإسبتارية. وفي سنة ١١١٣م اعترف

---

١) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٥٦.

٢) الخليفة الظاهر (٤١١ – ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ – ١٠٣٥م).

3) Hamilton (B.): The Latin Church in the Crusader States, (London, 1980), p. 95 – 96;

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٥٦.

٤) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، جـ١، ص ٣٩٣؛

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٥٧.

بابا روما بهيئة فرسان الإسبتارية، وأثبت حقوقها الكاملة في بلاد الشام وأوربا الغربية. وقد انقسم فرسان الإسبتارية إلى ثلاث فئات هم الفرسان أو الأخوة المقاتلون، ثم الأطباء، ثم القساوسة الذين كانوا يؤدون الشعائر الكنسية، وكان فرسان هيئة الإسبتارية يتبعون مباشرة إلى البابا في روما(١).

أما هيئة فرسان الداوية فقد تأسست سنة ١١١٨م على يد هيو من باين High de pyens، وجودفري من سنت أومير(٢). والواقع أن هيو من باين كان أحد الفرسان البورجنديين الذين قدموا إلى بلاد الشام آنذاك لأداء فريضة الحج، فشاهد بنفسه مدى المعاناة التي يعانيها الصليبيون من هجمات المسلمين المتكررة عليهم، ومن ثم عزم على تكريس حياته لحماية الحجاج الصليبيين الفقراء المارين على الطريق من يافا إلى بيت المقدس(٣)، وسرعان ما انضم إلى هيو من باين عدد من الفرسان بلغ عددهم ثمانية، وهؤلاء أقسموا على العفة والطاعة لله والتقشف على طريق الرهبنة، وقد أطلقوا على أنفسهم "أتباع جنود المسيح الفقراء" The poor Fellow of Jesus Christ(٤)، وكلفهم بطريرك بيت المقدس بحفظ المسالك والدروب العامة، وجعلها آمنة من تهديد اللصوص وقطاع الطرق، مع بذل العناية الخاصة لحماية الحجاج(٥). وإلى جانب قسمهم السابق، أقسموا أيضًا على حمل السلاح وقتال المسلمين، وبذلك فإن هيئة الفرسان الداوية اتصفت منذ نشأتها

---

1) Hamilton: op. cit., pp. 95 – 96, 105;

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٦٠.

٢) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٣٤٥.

٣) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٦٦.

4) Archer: The Crusade, p. 170.

٥) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٣٤٥ – ٣٤٦.

بصفة الحرب[1]، وحصل أولئك الفرسان الثمانية عام ١١١٨م من الملك بلدوين الثاني (١١١٨ – ١١٣١م) ملك مملكة بيت المقدس على مقر لهم في جناح القصر الملكي بالقرب من معبد سليمان (المسجد الأقصى) في بيت المقدس، ومن ثم فقد عرفوا باسم فرسان المعبد Knights of the Temple، أما في العربية فقد عرفوا باسم الداوية نسبة إلى محراب داود[2]، وظل فرسان الداوية لمدة تسع سنوات بعد التأسيس يلبسون الملابس المدنية كبقية العامة من الناس، وفي سنة ١١٢٧م رأي هيو من باين ضرورة الحصول على تأييد البابا لتشكيل الهيئة؛ لهذا سافر إلى أوربا، وعقد آنذاك في مدينة "تروي" بفرنسا مجمعًا حضره رئيسا أساقفة "ريمس" و"سنس"[3] ومساعدوهم وأسقف ألبانو مندوبًا عن البابا ورؤساء أديرة "سيتو" و"سانت برنارد رئيس دير كليرفو" وغيرهم، وقرر هذا المجمع بأمر البابا هونوريوس الثاني وستيفان بطريرك مملكة بيت المقدس وضع قاعدة عامة لهذه المنظمة، كما اتفقوا على أن يكون البياض لباسهم، وقد ظل هؤلاء الفرسان حتى سنة ١١٢٧م تسعة أفراد فقط[4].

أما فيما يخص هيئة الفرسان التيوتون، فثمة رأي يقول إن عدم قدرة الحجاج الألمان على الحديث بلغة مدينة بيت المقدس، دفع أحد

---

١) حسن حبشي: الحروب الصليبية الأولى، ص ٩٨.

٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦، ص ٣٣، حاشية ٣؛

Archer: op. cit., pp. 170 – 171.

٣) ريمس Rheims مدينة فرنسية. سنس Sens مدينة فرنسية تقع على مسافة ٢٧ ميل جنوب بروفانس. انظر:

Setton: History of the Crusade, vol, I, pp. 641 – 642.

٤) وليم الصوري: الحروب الصليبية، جـ٢، ص ٣٤٦ – ٣٤٧؛

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٦٦.

التجار الألمان الذي كان يسكن في مدينة بيت المقدس مع زوجته إلى بناء المستشفى الألمانية لاستضافة فقراء ومرضى التيوتون[1]، وهذا ما أكده يوشع براور[2] الذي أشار إلى ظهور بعض المواقف التي لم يكن استخدام اللغة الفرنسية فيها كافيًا حيث كان المرضى والحجاج الألمان، لاسيما العامة منهم، يبحثون عمن يتحدث بلغتهم الوطنية، وفي ظل هذه الظروف أنشئ المستشفى في مدينة بيت المقدس، والذي أصبح نقطة للحجاج المتحدثين باللغة الألمانية والمولودين في ألمانيا. ويبدو أيضًا أن السبب في إنشاء المستشفى الألمانية هو عدم رغبة الجنس الألماني في الخضوع إلى الثقافة الفرنسية، وبتعبير آخر يمكن القول أن الكراهية المتبادلة بين الألمان والفرنسيين لعبت دورًا كبيرًا في إنشاء المستشفى الألمانية في مدينة بيت المقدس.

والحقيقة أن نشأة وتطور المستشفى الألمانية في بيت المقدس ينتابها غموض كبير، وإن كان جيمس من فيتري[3] يلقي بعض الضوء على هذه النشأة حيث أشار إلى أن التاجر الألماني المقيم في بيت المقدس، قام ببناء المستشفى فوق قطعة أرض تابعة له، وعندما زاد عدد الحجاج من الفقراء والمرضى الذين كانوا يتحدثون اللغة الألمانية، ونظرًا لأنهم استخدموا عندئذ منزله الخاص، فقد حصل على موافقة بطريرك مملكة بيت المقدس لبناء كنيسة صغيرة بالقرب من

---

1) Vitry: The History of Jerusalem, vol. XI, p. 55;
Brehier: op. cit., p. 142.

2) Prawer (J.): The Latin Kingdom of Jerusalem, (London. 1973)p. 270;
يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ١٩٦،

3) Vitry: op. cit., vol. XI, p. 55 – 56.
وفيتري Virty مدينة فرنسية تقع على مسافة ١٩ ميل جنوب تشالون. انظر:
Setton: op. cit., vol. I, p. 646.

المستشفى، على اسم السيدة مريم العذراء، وكان هذا الحاج الألماني ينفق على المستشفى والكنيسة الصغيرة من ممتلكاته الخاصة ومن الصدقات التي كان يجمعها من بعض المؤمنين. ومع مرور الوقت بدأ بعض الألمان يسيرون على نهجه، فتبرعوا بأموالهم وكرسوا حياتهم لخدمة المستشفى الألمانية وفقراء ومرضى الألمان في مدينة بيت المقدس، وهؤلاء لم يكونوا من فقراء ألمانيا فقط، ولكنهم كانوا من الفرسان والنبلاء الألمان، الذين آثروا الفقر على الغنى. وهذا ما أكده المؤرخ يوحنا من يبرس John of Ypres الذي يصف تطور المستشفى الألمانية قائلاً: "إنه مع ازدياد التقوى فقد زاد أيضًا في المستشفى الألمانية في بيت المقدس عدد الإخوة الذين يخدمون الرب"[١]. والجدير بالذكر أن هاتين الروايتين عن نشأة المستشفى الألمانية وتطورها في السنين الأولى لم تبينا لنا تاريخ تأسيس المستشفى، ولا مكان وجودها في مدينة بيت المقدس، ولذلك اختلف المؤرخون حول تاريخ تأسيس مستشفى القديسة مريم للتيوتون[٢] Hospital of St Mary of the Teutons فذكر يوشع براور[٣] أن ذلك حدث في بدايات حكم بلدوين الأول (١١٠١ – ١١١٨) في حين يذكر البعض الآخر أن ذلك قد تم في عام ١١٢٨م[٤]، ويشير مؤرخ ثالث إلى أن ذلك حدث سنة ١١٢٧م[٥]، أما هوبتش فيذكر أن ذلك قد

---

1) Sterns: "The Teutonic Knights in the Crusader states, p. 318.

2) Vitry: op. cit., vol. XI, p.54.

3) Prawer: op. cit., p. 270.

٤) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٦٩ – ٧٠؛

عبد الحفيظ محمد على: الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة القاهرة، ١٩٧٥م)، ص ١٧٠.

5) King: op. cit., p. 42.

تم في عام ١١١٨م[١]. ومن خلال ما تقدم يتضح لنا أن الآراء التي أشارت إلى عامي ١١٢٧-١١٢٨م كتاريخ لتأسيس المستشفى الألمانية في بيت المقدس هي الآراء الأقرب إلى الصواب.

أما موضع المستشفى الألمانية في مدينة بيت المقدس، فكان في إحدى الشوارع التي تمتد من بوابة المدينة الجنوبية الغربية عند جبل صهيون Mount Zion إلى ميدان الداوية، أسفل مساكن الأرمن. والجدير بالذكر أن الحفريات الأثرية سنة ١٩٦٨م بين أنقاض مساكن الأرمن اكتشفت بقايا كنيسة صغيرة، وقد حُددت بأنها كنيسة القديسة ماري التيوتونية[٢]. والواقع أن علاقة المستشفى الألمانية في مدينة بيت المقدس بهيئة فرسان الإسبتارية كانت علاقة غير طيبة. وإذا كان بعض المؤرخين يذكر أن أسباب ذلك غير معروفة[٣]، إلا أن البعض يذكر أن رهبان المستشفى الألمانية تطلعوا إلى الاستقلال التام، والانفصال عن هيئة الفرسان الإسبتارية، إذ كانوا على ما يبدو يرفضون أن يكونوا في موقف التابع[٤]. لاسيما أن الرهبان الذين كانوا يخدمون الألمان كانوا تابعين لهيئة الإسبتارية، ويتبعون قاعدة القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠م) Augustine[٥]. ولما كانت المستشفى

---

١) حسن عبد الوهاب: تاريخ جماعة الفرسان التيوتون، ص ٦١.

2) Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 270 – 271.

3) Sterns: op. cit., p. 318.

٤) محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧٠.

٥) يُعد واحدًا من أعظم آباء الكنيسة الغربية وقطب من أقطاب الفكر المسيحي في القرن الخامس، بل وأعظم مفكري عصره على الإطلاق، ولد سنة ٣٥٤هـ في تاجسنا شرقي نوميديا Numidia (سوق الأخرس في الجزائر حاليًا) من أب وثني وأم مسيحية، أجاد اللغة اللاتينية، ودرس القانون في قرطاجة التي غادرها إلى روما عندما بلغ التاسعة عشرة من عمره، وبسبب شكوكه لم يتزوج، فاتخذ له عشيقة، ومات أوغسطين في سنة ٤٣٠م.=

الألمانية تتطلع إلى الاستقلال بعيدًا عن نفوذ الإسبتارية، فقد قام النزاع بينهما، مما دفع هيئة الإسبتارية لتلفيق بعض التهم ضد المستشفى الألمانية أمام بلاط روما؛ ولكي يتجنب البابا سلستين الثاني (١١٤٣-١١٤٤م) Celestine II حدوث انقسامات بين الصليبيين في مدينة بيت المقدس، كتب في ٩ ديسمبر سنة ١١٤٣م لريموند من لي بوي Raymond of le puy رئيس هيئة الإسبتارية يخبره بمنح المستشفى الألمانية استقلالاً ذاتيًا عن نفوذ مقدم الإسبتارية مع احتفاظهم بقس خاص بهم ممن يجيدون التحدث بالألمانية، في الوقت الذي تظل المستشفى الألمانية خاضعة لنفوذ الإسبتارية، ولكن هذا الخضوع كان اسميًا في الواقع(١).

والواقع أن تطور المستشفى الألمانية في القدس خلال الفترة من سنة ١١٤٣م وحتى استرداد صلاح الدين الأيوبي لمدينة بيت المقدس سنة ١١٨٧م (٥٨٣م)، ينتابها غموض شديد، إذ يبدو أن كنراد الثالث إمبراطور ألمانيا لم تكن لديه أدنى علاقات مع هذه المستشفى أثناء وجوده في بلاد الشام خلال الحملة الصليبية الثانية، كما أن القس يوحنا من فرزبورج عندما زار مدينة القدس سنة ١١٦٥م، لم يكتب عن المستشفى الألمانية إلا فقرة خلال وصفه للأرض المقدسة حيث قال: "في نفس الشارع الذي يؤدي إلى مركز الداوية توجد مستشفى بكنيسة جددت مرة أخرى إكرامًا للعذراء، سُمي بيت الألمان، وإن عددًا قليلاً من غير المتحدثين بالألمانية يساهمون بأي شيء

=انظر: على الغمراوي: مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط، ص ٤١؛ محمود الحويري: رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية، (القاهرة، ١٩٨١م)، ص ٧٢.

(1) Sterns: op. cit., p. 270;

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧٠.

لإعانته"[١]. وعن تطور المستشفى الألمانية في القدس يقول أحد المؤرخين: "إنه من المستحيل القول بكيفية تطور المستشفى الألمانية في مرحلة نشأتها الباكرة في القدس، بسبب موقعة حطين، ثم احتلال مدينة بيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي الذي وضع نهاية لبقائها"[٢]. وفي سنة ١١٧٢م قام هنري الأسد من ألمانيا برحلة حج إلى الأرض المقدسة، ويهمنا هنا أن أرنولد من لوبيك[٣] الذي سرد تلك الرحلة، لم يكتب كلمة واحدة عن المستشفى الألمانية في القدس، ولم يرد ذكر هذه المستشفى بعد ذلك إلا في سنة ١١٧٦م عندما دفنت فيها صوفيا كونتيسة هولندا، التي توفيت في بلاد الشام أثناء رحلة حجها الثالثة إلى القدس[٤]؛ ولهذا يتضح لنا أن تطور المستشفى الألمانية في القدس حتى استرجاع صلاح الدين لها كان تطورًا لا ينم عن تحسن في مركزها ووضعها، وأنها ظلت ثانوية الأهمية، وقد اقتصرت فقط على خدمة الحجاج حتى قيام صلاح الدين باسترداد بيت المقدس، فأدى ذلك إلى خروج الرهبان الألمان من المدينة مع من خرجوا منها[٥].

على أية حال، إن الحاجة إلى المستشفى الألمانية أصبحت ضرورية أثناء الحملة الصليبية الثالثة، بسبب وصول أعداد كبيرة من الجنود الذين يتحدثون الألمانية، والذين أصبحوا في حاجة إلى

---

1) Sterns: op. cit., p. 319;

حسن عبد الوهاب حسنين: المرجع السابق، ص ٦٩.

2) Prawer: op. cit., p. 271.

٣) لوبيك Lubeck مدينة وميناء ألماني.

4) Sterns: op. cit., p. 319.

٥) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٧٠.

مستشفى خاص بهم[١]. ففي أول سبتمبر سنة ١١٩٠م وصلت إلى بلاد الشام خمس وخمسون سفينة محملة بالقوات الألمانية، وقد انضمت تلك القوات إلى القوات الصليبية المحاصرة لعكا؛ نظرًا لكثرة الجرحى والقتلى من القوات الألمانية، قام شخص يدعى سيبراند Sibrand ومعه بعض المواطنين من بريمن Bremen ولوبيك بتأسيس مستشفى لرعايتهم، قرب مدفن القديس نيقولا Nicholas خارج عكا، وقد استخدموا في ذلك الألواح الخشبية السميكة وأشرعة وقلاع السفن التي أوصلتهم إلى بلاد الشام في شكل خيمة كبيرة، واستمروا في ذلك شهرًا قبل وصول فردريك دوق سوابيا إلى بلاد الشام، وقام على خدمة المرضى فيها نفس الرهبان الذين خرجوا من بيت المقدس[٢].

وبعد وصول فردريك دوق سوابيا إلى بلاد الشام في ٧ أكتوبر سنة ١١٩٠م، انضم حوالي أربعين أميرًا إلى الهيئة المؤسسة، وقد نالوا تشجيع جاي من لوزجان ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، وأحبار وأمراء الصليبيين من بلاد الشام، وعلاوة على ذلك طلبوا من فردريك أن يكتب لأخيه هنري السادس إمبراطور ألمانيا ليطلب من البابا سلستين الثالث أن يوافق على تأسيس هذه المستشفى. والحقيقة أن هنري السادس فرح بهذا العمل الكبير، ولكي يثبت اهتمامه بهذه المستشفى وضعها تحت رعايته، وطلب من البابا الاعتراف بها، فوافق البابا على ذلك، وأصدر منشورًا بتاريخ ٢٢

---

1) Prawer: op. cit., p.271.

2) Sterns: The Teutonic Knights in the Crusader States pp. 320 – 321;
Mayer: The Crusades, p. 139;
Champdor: Salah Din, p. 242;
Brehier: Les Croisades, p. 142;
محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٧٠.

فبراير سنة ١١٩١م حمله إلى بلاد الشام رئيس أساقفة بريم Breme وأسقف بادربون Paderbon، وفي هذا المنشور وافق البابا على نشأة المستشفى الألمانية التي حملت اسم مريم العذراء[١].

والوقع، أن الصليبيين الألمان من بريمن ولوبيك عادوا لألمانيا بعد تأسيس المستشفى بفترة قصيرة، ولكن قبل رحيلهم من بلاد الشام، وبإلحاح من فردريك دوق سوابيا، جرى تسليم رئاسة المستشفى لكنراد كاهن فردريك وبركهارد Burkhard أمين خزانته، وهكذا يتضح أن المستشفى الألمانية خارج أسوار مدينة عكا كانت مؤسسة جديدة مستقلة عن المستشفى الألمانية التي كانت موجودة في القدس، ولكن الألمان أطلقوا على المستشفى التي أنشت خارج أسوار عكا اسم مريم العذراء، ربما على أمل نقلها إلى القدس بعد الاستيلاء عليها من المسلمين، وجعلها المستشفى الرئيسية[٢].

وبعد استيلاء الصليبيين على مدينة عكا في ١١ يوليو سنة ١١٩١م فإن إخوة المستشفى الألمانية اشتروا حديقة داخل أسوار بوابة القديس نيقولا، وقاموا ببناء مستشفى وكنيسة وبعض الابنية الأخرى في هذه الحديقة. وعلى أية حال، كان فردريك دوق سوابيا عندئذ قد مات في ٢٠ يناير سنة ١١٩١م، وتم دفنه في المستشفى الألمانية خارج عكا[٣]، ولكن يبدو أنه تم نقل رفاته إلى الكنيسة التي أُنشئت داخل عكا بعد الاستيلاء عليها[٤].

---

1) Michaud: Histoire des Croisades, vol. III, p. 591;
Champdor: op. cit., p. 242;
رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٧٩.

2) Sterns: op. cit., p. 320.

3) Morgan: Documents Relatifs Al' Histiors des Croisades, p. 99.

4) Sterns: op. cit., p. 321.

والجدير بالذكر أن البابا سلستين الثالث أرسل خطابًا إلى المستشفى الألمانية في ٢١ ديسمبر سنة ١١٩٦م، أوضح فيه للقائمين على المستشفى أنه وضعها ضمن قائمة ممتلكاته وتحت رعايته، وأعفاها من دفع العشور البابوية، وجعل الإخوة الألمان تحت إشراف الأكليروس الخاص بالأسقف المحلي، ومنحهم حق انتخاب رئيس خاص بهم، وأن يدفنوا في مقابرهم كل من يرغب في ذلك، وأمر بعدم التعرض لأملاكهم، ومن يفعل ذلك سيعرض للحرمان[١].

وظلت المستشفى الألمانية تؤدي دورها الخيري حتى سنة ١١٩٧-١١٩٨م، غير أنه منذئذ تحولت إلى منظمة عسكرية شأنها في ذلك شأن الداوية والإسبتارية، ويذكر ميشو[٢] أن بطريرك مدينة بيت المقدس الصليبية في عكا عرض عرضًا يقضي بإنشاء منظمة حربية للفرسان الألمان، كي يبقوا في بلاد الشام من أجل الدفاع عن الممتلكات الصليبية، وكان هذا العرض في أعقاب وفاة فرديك دوق سوابيا، ويبدو أن هذا العرض لم يتم الموافقة عليه إلا سنة ١١٩٨م، عندما قرر ألمان حملة الإمبراطور هنري السادس العودة لألمانيا عند سماعهم خبر وفاة الإمبراطور؛ ومن أجل ذلك وحتى يمكن بقاء الفرسان الألمان في بلاد الشام، فقد تقرر تحويل المستشفى الألمانية إلى منطقة عسكرية[٣].

ومن هذا المنطلق، فإن العديد من الأمراء الألمان، وجدوا أنه من الأحرى للمستشفى الألمانية أن تقوم بالدور العسكري إلى جانب قيامها

---

1) Sterns: op. cit., p. 321;

حسن عبد الوهاب حسنين: المرجع السابق، ص ١١٤ - ١١٥.

2) Histoire des Croisades, Tom. III, p. 590.

3) Sterns: op. cit., p. 322;

عبد الحفيظ محمد علي: الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين، ص ١٧٠.

بالدور الإنساني؛ ولهذا قرروا تطبيق قانون فرسان المعبد (الداوية) على المستشفى الألمانية، ومن جراء ذلك اجتمع الأساقفة والأمراء والنبلاء الألمان في بيت الداوية في عكا، ودعوا لهذا الاجتماع أيضًا عددًا كبيرًا من أساقفة وبارونات مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا. وبالإجماع قرر كل المجتمعين أن المستشفى الألمانية سوف تسير على نظام هيئة الإسبتارية في العناية بالفقراء والأرامل والأيتام والمرضى، وسوف تخدم جميع الصالحين الذين سوف ينزلون في بيتهم، وبالنظر إلى الأكليروس والفرسان والإخوة الآخرين سوف يتبعون نظام الداوية، أي أنهم سوف يدافعون عن الأراضي المقدسة والكنيسة المسيحية وعن كل من ينزل في بيوتهم[١].

وبعد ذلك قام إخوة المستشفى الألمانية بمساعدة الأساقفة ومقدمي الداوية الذين كانوا في الاجتماع بانتخاب هنري فالبوت (١١٩٨-١٢٠٠م) Henry Walopt رئيسًا للمنظمة، ثم قام جلبرت هورال Gilbert Horal رئيس هيئة الداوية بتسليمه قانون فرسان الداوية، وتم إرسال هنري فالبوت بصحبة فولفجر Wolfger أسقف باسو Passau للبابا أنوسنت الثالث للحصول على موافقته على المنظمة الألمانية الجديدة، فلم يتردد أنوسنت الثالث في الموافقة عليها، وأصدر مرسومًا في ١٩ فبراير عام ١١٩٩م، وافق فيه على إنشاء هيئة المستشفى الألمانية على أساس اللوائح التي قامت عليها عند التأسيس، وأمرهم بإتباع نظام القديس أوغسطين، ومما يجدر ذكره، أن المنظمة الألمانية ظلت تسير على قانون الداوية حتى سنة ١١٤٥م[٢].

---

[1]) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 590;

Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem, pp. 271 – 272'

Brehier: op. cit., p. 142;

محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٧٠.

[2]) Mayer: The Crusades, p. 139;=

وهنا نلاحظ، أن أسماء المنظمة الألمانية قد تعددت، فقد حملت اسم مستشفى القديسة مريم للتيوتون في بيت المقدس، ومستشفى الألمان في عكا، ومستشفى بيت التيوتون، والكنيسة الألمانية في عكا، وبيت الألمان في عكا، ورغم تعدد هذه الأسماء فإن التسمية التي كانت متداولة هي مستشفى القديسة مريم للتيوتون في القدس(١).

- زي منظمة التيوتون:

أما بالنسبة للزي الذي ارتدته منظمة التيوتون الألمانية واتخذته شعارًا لها، فيشير فيتري(٢) إلى أن الألمان لكي يميزوا أنفسهم وضعوا صلبانًا سوداء على العباءات البيضاء التي يرتدونها، ولكنه لم يحدد تاريخًا لاستعمال هذا الزي، مما دفع العديد من المؤرخين إلى القول: "وكان لباسهم أبيض عليه صليب أسود"(٣)، دون تحديد التاريخ، ماعدا ميشو(٤) الذي أوضح أن البابا سلستين الثالث أضاف في المرسوم الصادر في ٢٢ فبراير سنة ١١٩١م أن لباس الفرسان التيوتون سوف يكون أبيض وعليه صليب أسود على هيئة صليب القديس يوحنا ومنظمة الداوية. كما أن نفس الصليب سوف يخاط على رايات الحرب

= Champdor: Salah Din, p. 242;
Sterns: op. cit., pp. 321 – 322;
King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 169.

1) Prawer: op. cit., p. 272;
Sterns: op. cit., p. 322.

2) The History of Jerusalem, vol. XI, p. 56.

3) Mayer: op. cit., p. 139;
Brehier: op. cit., p. 142;
Champdor: op. cit., p. 242;
محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٧٠.

4) Histoire des Croisades, Tom. III, p. 591.

وعلى شعاراتهم التي كانت بيضاء. ومن الواضح أن ارتداء الرداء الأبيض وعليه الصليب الأسود حدث منذ أن تأسست المستشفى الألمانية في بيت المقدس، والدليل على ذلك قول سترنز[١]: "إن فرسان التيوتون لم يكن لهم نظام فريد خاص بهم لمدة طويلة، وأن أنوسنت الثالث وافق فقط على العادات التي طبقتها المنظمة منذ تأسيسها، وهذه العادات كانت تحوي امتياز ارتداء الرداء الأبيض لفرسان الداوية".

ويبدو أن هذا الرداء قد سبب استياء لهيئة الداوية، فما كان منها إلا أن تقدمت بشكوى للبابا أنوسنت الثالث في الأمر، فمنع البابا منظمة التيوتون من اللباس الأبيض، وقد دفع ذلك بطريرك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا إلى التوسط بين هيئة الداوية والتيوتون، لتسوية هذا الموضوع، وقد ترتب على ذلك قيام البابا أنوسنت الثالث، بإعادة امتياز ارتداء الرداء الأبيض لمنظمة التيوتون، ولكن يبدو أن هيئة فرسان الداوية جددت النزاع مع هيئة فرسان التيوتون حول هذا الموضوع مرة ثانية، فاندفع التيوتون إلى تقديم الشكاوى إلى البابوية في هذا الخصوص، ومن ثم فإنه لكي يضع البابا هونوريوس الثالث حدًّا لهذه المشكلة أصدر مرسومًا في ٩ يناير سنة ١٢٢١م، أعلن فيه أن هيئة فرسان التيوتون من حقهم ارتداء العباءات البيضاء والملابس الأخرى حسب قوانينهم، بيد أن هيئة منظمة الداوية اعترضت على ذلك، وظل الموضوع مثارًا في بلاط البابوية في روما حتى سنة ١٢٣٠م، عندما منع الباب جريجوري التاسع الداوية من إساءة معاملة هيئة فرسان التيوتون أكثر من هذا فيما يتعلق بارتداء المعاطف البيضاء[٢].

---

1) The Teutonic Knights in the Crusader states, p. 323.

2) Sterns: op. cit., pp. 323 – 324.

والواقع، أن أعضاء هيئة الفرسان الداوية كان أغلبهم من الفرنسيين، أما هيئة الفرسان الإسبتارية فكان معظمهم من الإنجليز والإيطاليين، في حين أن أعضاء هيئة الفرسان التيوتون كانوا من الألمان، وبمعنى آخر كانت هيئة الفرسان التيوتون هيئة عنصرية، واقتصر الالتحاق بها على الألمان فقط. ويدل ذلك على أن كل عنصر من العناصر السكانية الأوربية في بلاد الشام احتفظ بطابعه الخاص، لاسيما في تكوين الهيئات الحربية الدينية(١)، ورغم ذلك فإن المؤسسات الدينية التي كانت تقوم على التمييز في السلالات الجنسية لم تكن مقبولة بين الصليبيين في بلاد الشام(٢).

- **النظام الإداري لهيئة الفرسان التيوتون:**

أما النظام الإداري الخاص بهيئة الفرسان التيوتونية، فأول ما يقابلنا منه رؤساء المنظمة. والحقيقة أن اختيار الرئيس كان يتم بطريقة ديمقراطية إلى حد كبير، قائمة على دعامة الانتخاب، بواسطة مجلس منتخب مكون من ثلاثة عشر من الإخوة الرهبان في المنظمة، وكان الرئيس ينتخب مدى الحياة فلم يحول بينه وبين الحكم سوى الموت. ولم يُختر بطريقة عشوائية، بل كان يجب أن يكون فارسًا تجرى في عروقه الدماء النبيلة، فلا يكون من المواليد غير الشرعيين أو من الذين يتصفون بعدم الثقة، أو من اللصوص. وبعد انتخابه كان يتسلم خاتم الرئيس، وختم المنظمة، وكان له راية خاصة به وعلامة خاصة توضع على درعه ومعطفه(٣).

ولم تكن مهمة رئيس المنظم ة تولي قيادتها فقط، بل كان بمثابة القاضي، حيث كان يقوم بالفصل بين الفرسان الذين كانت تقع بينهم

---

١) محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٧١.

2) Prawer: The Latin Kingdom of Jeursalem, p. 270.

3) Sterns: op. cit., pp. 327 – 328.

خصومات، وكان من حقه توقيع العقوبات على المذنبين، وكانت العقوبة التي يتم توقيعها على أي أخ لا تُرفع عنه بواسطة نواب الرئيس وهما القائد الأعلى والمارشال، بل تُرفع بإذن من الرئيس، أو من ينوب عنه في ذلك. والجدير بالذكر أن الرئيس الأعلى للمنظمة كان من حقه امتلاك أربعة خيول في أوقات السلم، وفي أوقات الحرب كان يضاف إليها فرس آخر. وقد تكونت حاشيته من قس ومساعده وكاتب عربي وطاه وثلاثة من التركوبولي[١] أحدهم كان يحمل درعه، والثاني كان يحمل عباءته، والثالث أمين خزانة، وأثناء القتال كان يضاف إليه تركوبولي رابع. وعند الأسفار الطويلة، إذا ثبت احتياجه لبعض الأفراد كان ينضم إلى حاشيته حارسان، ورقيب وآخر كوكيل، وكان ينضم إليه في ساحة القتال رقيبان آخران[٢].

أما نواب الرئيس فهما القائد الأعلى والمارشال[٣]، وهما اللذان كانا ينوبان عن الرئيس في القيام بمهامه في بعض الأحيان؛ فالقائد الأعلى انحصرت مهمته في الإشراف على الإدارة والشئون المالية والتموين من حبوب وسفن وجمال ودواب حمل وعبيد وحرفيين ومخازن أسلحة وسفن، وجميع الإخوة من رجال الدين والعلمانيين

---

١) وحدات محاربة مستقلة كانوا يُستخدمون في المنظمات الدينية الحربية، وهؤلاء لم يأتوا من أوربا ولكنهم كانوا يكونون من الأماكن المقيمين فيها، حيث يكونون من أهالي البلد الذين اعتنقوا المسيحية أو اللاتين الذين كانوا يخدمون كجنود، وهؤلاء كانوا يشكلون الفيلق الخفيف في المنظمة التابعين لها. ورغم أهميتهم إلا أنهم جاءوا في المرتبة الثانية بعد طبقة الفرسان في منظمتي الداوية والإسبتارية. انظر:

Sterns: op. cit., p. 338.

2) Ibid., pp. 227 – 229.

٣) نبيلة مقامي: فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام، رسالة ماجستير غير منشورة، (جامعة الثالث، ١٩٧٥م)، ص ١٩٥ – ١٩٦.

وخدمهم الموجودين في البيت الألماني، أما المارشال فكان يشرف على جميع الإخوة الذين حملوا الأسلحة (الفرسان)، الذين وجب عليهم طاعته بعد الرئيس. وكان أيضًا يشرف على كل شيء متعلق بالأمور الحربية من خيول وبغال وسيوف وخيام وسروج وعلف، وبتعبير آخر كان يمثل وزيرًا للحربية وقائدًا عامًّا للجيش في أثناء غياب الرئيس. وإذا أُرسل المارشال في مهمة إلى الخارج تخص المنظمة، فإن القائد الأعلى كان يحل محله في الإشراف على الأعمال المنسوبة إليه. والجدير بالذكر أن المارشال كان له الأسبقية على القائد الأعلى أثناء السير للقتال، وكان يترأس مجلس المنظمة إذا غاب الرئيس. أما إذا كان المارشال غائبًا، كان القائد الأعلى هو الذي يترأس مجلس المنظمة، وبعبارة أخرى كان القائد الأعلى يؤدي عمل المارشال في حالة غيابه، كما أن المارشال كان يؤدي عمل القائد الأعلى عند غيابه أيضًا. ويؤكد ذلك بوضوح كيف أن الإدارة المركزية لهيئة الفرسان التيوتون كانت تخضع لتنظيم دقيق(١).

والواقع أن القائد الأعلى والمارشال كان لهما نواب دائمون، فنائب القائد الأعلى كان مسئولاً عن الورش وعمالها والحدائق، وجلب المهنيين من نجارين وبناءين وعبيد وجمال، وكان عليه أن يقدم لهم ما يحتاجونه من تموين، والإشراف على عملية تخزين الحبوب والملابس المستوردة من الخارج. أما نائب المارشال فكان يسمى "رئيس الفرسان"، وانحصرت مهمته في إضفاء رتبة فارس للإخوة الذين ينضمون للهيئة، ودفع رواتبهم، والإشراف على تقديم العلف للخيول(٢).

---

[1]) Sterns: op. cit., pp. 227 – 228;

حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٣١ – ١٣٢، حاشية٢.

[2]) Sterns: op. cit., p. 329.

وحتى تكتمل الإدارة المركزية في المنظمة، فإن الرئيس وهيئة المجلس كانوا يختارون أربعة ضباط برتب عالية، حيث كان أحدهما يقوم بالإشراف على المستشفى، والآخر يهتم بالملابس والأسلحة، والثالث يعنى بالإشراف على قلعة ستاركنبرج Starkenberg[١]، وكان الأخير أميناً للخزانة التي كانت تُغلق بثلاثة أقفال ولها ثلاثة مفاتيح، أحدهما مع الرئيس، والآخر مع القائد الأعلى، والثالث مع أمين الخزانة، وبهذه الطريقة لن يتمكن أحدهم من فتح الخزانة وحده، إذ لابد من حضور الثلاثة معًا لفتحها[٢].

أما مجالس الهيئة فقد انقسمت إلى ثلاثة أنواع من المجالس: المجلس الأسبوعي، وكان ينعقد كل يوم أحد، ويحضره جميع الأخوة، حيث كانت تقرأ عليهم اللوائح الخاصة بالمنظمة، أما النوع الثاني فكان المجلس الانتخابي وكان يُدعى للانعقاد في أعقاب وفاة الرئيس لانتخاب رئيس جديد، وكان هذا المجلس يضم إليه ثلاثة عشر عضواً، هم كاهن وثمانية فرسان، وأربعة أخوه آخرين. أما النوع الثالث، فهو المجلس السنوي العام، وكان ينعقد في ١٤ سبتمبر من كل عام في مقر المنظمة الرئيسي في مملكة بيت المقدس الصليبية بعكا، وفي كل بيوت المنظمة في أوربا، وكان يحضر هذا المجلس كبار الموظفين الصليبيين من الأرض المقدسة، ورؤساء بيوت المنظمة في أوربا، لمناقشة الأمور المتعلقة بالمنظمة، وكان يتم فيه تعيين كبار الموظفين

---

١) ستاركنبرج: تعني الجبل القوي في اللغة الألمانية، وهي قلعة مونتفورت Montfort الفرنسية، وهي قلعة القرين (Qurain) بالعربية انظر:

Setton: History of The Crusade, Vol. II, p. 777.

2) Sterns: op. cit., p. 329;

نبيلة مقامي: المرجع السابق، ص ١٩٦؛

حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٣٢.

للمنظمة[1]. وهنا نلاحظ أن هذا المجلس كان متبعًا لدى هيئتا الداوية والإسبتارية، وكانت قراراته هي الوحيدة التي تأتي فوق سلطة رئيس المنظمة[2].

والواقع أن العضوية داخل هيئة الفرسان التيوتون اشتملت على الفرسان والقسوس والإخوة العلمانيين والإخوة الرقباء (الخدم)، وحاملي الدروع ووحدات محاربة من التركوبولي، والأخوات المساعدات (خادمات)، وكان يتم قبول هؤلاء في المنظمة بطريقة صارمة، حيث أن المرشح للانضمام للهيئة كان يطلب منه خلال ستة أشهر من قبوله حفظ الصلاة الربانية[3] وقانون الإيمان باللغة اللاتينية، وإذا عجز العضو عن تعلم ذلك خلال المدة المحددة له؛ كان يعطى مهلة أخرى تقدر بحوالي ستة أشهر، وإذا عجز عن ذلك، كان لزامًا عليه ترك عضوية المنظمة، وإن كان من حق رئيس المنظمة أن يسمح بالبقاء على هذا الوضع[4].

ولكن الفارس كانت تحكمه بعض الشروط للانضمام للهيئة، ويبدو أن ذلك كان يجري على نفس الأنماط الموجودة في منظمات الفرسان الأخرى؛ فلكي يقبل الفرد كفارس كان عليه أولاً أن يجد مشرفًا بين الأخوة ليوصى على قبوله، وكان يجب عليه أن يثبت أنه من أصل

---

1) Sterns: op. cit., p. 231.

٢) نبيلة مقامي: المرجع السابق، ص ١٩٨.

٣) وكان يصلى (عيسى عليه السلام) في أحد الأماكن، فلما انتهي، قال له أحد تلاميذه "يا رب، علمنا أن نصلى كما علم يوحنا تلاميذه". فقال لهم: "عندما تصلون قولوا: أبانا الذي في السماوات، ليقدس اسمك ليأن ملكوتك لتكن مشيئتك على الأرض كما هي في السماء! خبزنا كفافنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا، كما نغفر نحن للمذنبين إلينا! ولا تدخلنا في تجربة، لكن نجنا من الشرير!. انظر: العهد الجديد، متى٦، لوقا ١١.

4) Sterns: op. cit., p. 326.

نبيل، وأن له ستة عشر من الأنساب سواء كان ذلك من جهة الأب أو من جهة الأم، وبعد اكتمال تلك الشروط كان عليه أن يتقدم إلى الرئيس الأعلى للمنظمة في اجتماع عام، وفي هذا الاجتماع كان المشرف عليه يعلن أمام الرئيس أن الفارس أُجرى عليه بحث شامل، وقد ثبت صلاحيته للانضمام إلى المنظمة، وعندئذ كان الرئيس يوجه إليه بعض الأسئلة المتعلقة بأحواله الزوجية، وحالته الدينية، وصحته واستعداداته المالية، وبعد ذلك كان الفارس يقسم على الاعتناء بالمرضى، والطهارة والفقر، والدفاع عن الأرض المقدسة والأراضي التابعة للمنظمة ضد المسلمين وعدم ترك المنظمة بدون إذن من الرئيس، وطاعة قوانين وعادات وتقاليد ونظم المنظمة. وفي أعقاب هذا القسم كان الرئيس يقوم بتسليمه المعطف الأبيض والصليب الأسود قائلاً له: "إننا نعدك بأن نقدم لك الخبز والماء والملبس طوال حياتك"(١).

والجدير بالذكر، أن السمات المميزة لملبس الفارس كانت المعطف الأبيض والمعطف القومي، وقد كان الملبس يتكون من القمصان الصوف والبنطلونات والجوارب وغطاء للرأس كان يوجد عليه وعلى المعاطف صليب، وفي الشتاء كان الفارس يلبس ملابس الصوف فوق المعاطف وينام على سرير من القش عليه ملاءة واحدة، وغطاء واحد ووسادة وسجادة للفارس(٢).

أما فيا يتعلق بالرؤساء الذين تولوا رئاسة منظمة الفرسان التيوتون فإن أول رئيس للهيئة كان هنري فالبوت (١١٩٨ – ١٢٠٠م) الذي تم اختياره من قبل الفرسان الألمان في الاجتماع الذي عقد في بيت

---

1) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, p. 590, 592 – 5923.

2) Sterns: op. cit., pp. 333 – 334.

الداوية سنة ١١٩٨م[1]، ولكن على أثر وفاته تولى رئاسة المنظمة أوتومن كاربن[2] (١٢٠٠–١٢٠٩م) Otto of Kerpen وقد تُوفي أوتو في ٧ فبراير سنة ١٢٠٩م فتولى رئاسة المنظمة عندئذ هرمان من بارت (١٢٠٩–١٢١٠م) [3]. أما الرئيس الرابع للمنظمة فهو هرمان من سالزا (١٢١٠–١٢٣٩م)، الذي لا يُعرف مكان ولادته، ولا أين تم انتخابه رئيسًا للمنظمة، ويبدو أن ذلك كان في سنة ١٢١٠م؛ وذلك لأنه في المؤتمر الذي عقد في مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا في نفس العام لتتويج حنا من بريين في أكتوبر من نفس العام ملكًا على مملكة بيت المقدس في عكا، كان رئيس منظمة التيوتون حاضرًا، ويعتقد أنه هرمان من سالزا، غير أنه لم يُذكر كرئيس لمنظمة الفرسان التيوتون إلا في ١٤ فبراير سنة ١٢١١م، وهو ابن لعائلة من صغار الأمراء التي خدم أعضاؤها لاندجراف ثورانجيا؛ ونتيجة لنشاطه وعبقريته ودبلوماسيته وموهبته، فقد أصبح أشهر رئيس لمنظمة الفرسان التيوتون، ومستشارًا وكاتمًا لسر الإمبراطور فردريك الثاني[4].

---

1) King : op. cit., p. 169.

١) ينتمي أوتو من كاربن إلى إحدى عائلات مدينة بريمن، ويبدو أنه من عائلة كاربن، وكان عمره عند توليه رئاسة المنظمة ثمانين عامًا، وقد اشتهر بالحكمة وعدم التسرع في قراراته. انظر:

حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٢٦، حاشية ٤؛

نبيلة مقامي: المرجع السابق، ص ١٧٧.

3) Michaud: op. cit., Tom. III, p. 591;

Sterns: op. cit., p. 357.

4) Sterns: The Teutonic Knights in The Crusaders states, p. 357.

وكان أول لقاء بين الإمبراطور فردريك وهرمان من سالزا قد تم في بلاط الإمبراطور بنورمبرج في ديسمبر سنة ١٢١٦م. ولكن الظروف التي جمعت بينهما لم تكن معروفة، غير أنه منذئذ توثقت العلاقات بينهما، وأصبح هرمان عضوًا في بلاط الإمبراطور، ولازمه في رحلاته، وكان سفيره الخاص[1]. والجدير بالذكر، أن كانتوروفيتز[2] Kantorowiez يشير إلى أن الإمبراطور فردريك أولى عناية خاصة بمنظمة التيوتون على أثر توليه عرش الإمبراطورية الألمانية، وليس أدل على ذلك من أنه منذ أن حمل الصليب سنة ١٢١٥م، اتصل بهرامان من سالزا رئيس منظمة التيوتون في بلاد الشام، ويبدو أنه طلب منه الحضور لمقابلته في ألمانيا للتنسيق معه حول الحملة الصليبية التي وعد بالقيام بها، فلبى هرمان طلب الإمبراطور وقابله في سنة ١٢١٦م.

وعلى أية حال، عاد هرمان سالزا من ألمانيا سنة ١٢١٧م ليقود منظمة التيوتون في الحملة الصليبية الخامسة على مصر، ولكنه عاد من دمياط إلى عكا في ٣٠ مايو سنة ١٢٢٠م تاركًا فرسانه هناك. والجدير بالذكر، أن هذه القوات تعرضت لهجوم من قبل قوات السلطان الكامل الأيوبي، فأدى ذلك إلى خسرانهم سفينة محملة بمئونة الشعير، أما هرمان فقد أبحر من عكا إلى إيطاليا[3]؛ ذلك أن الإمبراطور فردريك قد أرسله إلى البابا هونوريوس الثالث على أمل أن يقوم بتتويجه إمبراطورًا. ويبدو أن هرمان تمكن من إقناع البابا بالموافقة على مسألة تتويج الإمبراطور، على اعتبار أنها يمكن أن تكون حافزًا على خروج فردريك بالحملة الصليبية. ومن الواضح أن

---

1) Ibid., p. 358.

2) Frederick the second, p. 88.

3) sterns: op. cit., p. 359.

هرمان حضر هذا التتويج الذي تم في روما في ٢٢ فبراير سنة ١٢٢٠م، بدليل وجوده ضمن حاشية فردريك بالقرب من روما في ٢٥ نوفمبر من نفس العام[١].

ولم يمكث هرمان سالزا في إيطاليا بعد تتويج فردريك إمبراطورًا سوى ثمانية أشهر، حيث عاد إلى مصر في يوليو سنة ١٢٢١م، واشترك في المفاوضات بين الصليبيين والسلطان الكامل الأيوبي بخصوص عودة دمياط إلى الأخير. والجدير بالذكر، أن هرمان كان أحد الرهائن الذين أخذهم الكامل لضمان تنفيذ شروط المعاهدة التي عقدت بينه وبين الصليبيين من أجل تسليم دمياط، ثم عاد هرمان إلى إيطاليا في ٥ فبراير سنة ١٢٢٢م ليقدم تقريرًا للبابا والإمبراطور عن فشل الحملة الصليبية الخامسة[٢].

ونظرًا لأن هرمان من سالزا كان يعلم أن خروج الإمبراطور فردريك بحملته الصليبية يعتبر تدعيمًا لموقف منظمة الفرسان التيوتون في بلاد الشام، فقد بذل قصارى جهده في المساعدة لخروج هذه الحملة، فنجده يثير فكرة زواج الإمبراطور من إيزابيلا وريثة مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا وابنة حنا دي بريين، لربط الإمبراطور بالأرض المقدسة، وقد تبنى تلك الفكرة حتى تم زواج فردريك من إيزابيلا في ٩ نوفمبر سنة ١٢٢٥م[٣]. ولهذا فإنه في

---

[1]) Van Cleve: op. cit., p. 434;

Brehier: Les Croisade, p. 197;

Sterns: op. cit., pp. 359 – 360.

[2]) Ibid., pp. 360 – 361;

محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، ص ٣٣٧.

[3]) Eracles: Histoire de Erocles, Tom. II, pp. 357 – 358;

Michaud: op. cit., Tom. III, p. 3;=

يناير سنة ١٢٢٦م وضع الإمبراطور تحت وصاية هرمان الخاصة منظمة فرسان التيوتون، وجميع ممتلكاتها في مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا كمكافأة على الخدمات التي أداها له، وأكدت إيزابيلا في وثيقة خاصة أن الإمبراطور قام بهذا العمل بعد موافقتها[1].

وتوجه هرمان كمبعوث خاص من قبل الإمبراطور فردريك إلى دوقات وأمراء ألمانيا لحثهم على الاشتراك في الحملة الصليبيةK وعند عودته إلى إيطاليا في يونيو سنة ١٢٢٧م، أرسله الإمبراطور إلى البابا الجديد جريجوري التاسع ربما بغرض تعرُف البابا عليه، ومناقشته في الأمور المتعلقة بالحملة الصليبية[2] وهكذا نجد أن هرمان سالزا كان الساعد الأيمن للإمبراطور فردريك، ورسول السلام بينه وبين البابوية في روما.

والجدير بالذكر، أنه عندما أبحر الجزء الرئيسي من قوات الإمبراطور فردريك من ميناء برنديزي في أغسطس سنة ١٢٢٧م متوجهًا إلى بلاد الشام، تبعه الإمبراطور نفسه في ٨ سبتمبر من نفس العام، وكان في صحبته آنذاك هرمان سالزا، ولهذا عندما عاد الإمبراطور إلى أوترانتو بعد ثلاثة أيام من إبحاره أوكل إلى هرمان مهمة قيادة عشرين سفينة من أسطوله لبلاد الشام[3]، ويدل هذا على مدى الثقة التي كان يحوزها هرمان لدى الإمبراطور فردريك. وفي

= Grousset: op. cit., Tom. 3, p. 271, 273 – 274.

1) Sterns: op. cit., p. 362.

2) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, p. 5;
Van Cleve: op. cit., p. 439;
Sterns: op. cit., pp. 363 – 364.

3) Eracles: op. cit., Tom. II, pp. 365 – 366;
Duggan: The Story of The Crusade, pp. 222 – 223.

سبتمبر سنة ١٢٢٨م وصل الإمبراطور إلى بلاد الشام، ومنذ قدومه إلى عكا وحتى رحيله في مستهل مايو سنة ١٢٢٩م لم يقف إلى جانبه سوى هرمان ومنظمة التيوتون، ولولا ذلك ما وجد فردريك أي مؤيد له في بلاد الشام من قبل الصليبيين[١].

- ممتلكات وقلاع هيئة الفرسان التيوتون في بلاد الشام حتى ١٢٢٩م:

وحتى تقوم منظمة الفرسان التيوتون بممارسة أنشطتها داخل بلاد الشام، فقد تلقت أنواعًا مختلفة من الصدقات. فكان فرسان التيوتون يمتلكون حيًّا خاصًّا بهم في مدينة بيت المقدس قبل استرداد صلاح الدين لها[٢]، كما أن المستشفى الألمانية في مدينة القدس حصلت على أربعمائة بيزنت[٣] تجبى سنويًّا من أسواق نابلس، كما حصلت على أربع قرى؛ اثنان في حبرون، واثنان في بيسان، كذلك أُعفيت المستشفى الألمانية من الرسوم المقررة على الواردات التي تستودرها المستشفى من الخارج، ومُنحت حق تحصيل رسوم الغلال المقررة على كل المملكة، وحصلت على هبة قدرها ثلاثمائة بيزنت تجبى سنويًّا من باب داود في القدس، وامتلكت قريتين في نابلس، وثلاث حدائق كروم[٤].

---

1) Sterns: op. cit., pp. 264 – 265;

٢) نبيلة مقامي: المرجع السابق، ص ١٨٨.

٣) البيزنت: Bezant هو عملة ذهبية بيزنطية، وقد سمى بذلك نسبة إلى بيزنطة، وقد تداول هذا البيزنت في أوروبا بكثرة من القرن الثالث عشر الميلادي. ويبلغ متوسط قيمته حوالي تسعة شلنات إنجليزية. انظر:

جوزيف نسيم يوسف: العدوان الصليبي على مصر "هزيمة لويس التاسع في المنصـــورة وفارسكور"، (الإسكندرية، ١٩٦٩م)، ص ٢١٦، حاشية٣.

٤) حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ٧٠ – ٧١، حاشية ٤٩.

وقبل تحول المستشفى الألمانية إلى منظمة عسكرية، وفي أثناء حصار الصليبيين لعكا، فقد حصلت المستشفى من جاي من لوزجنان (١١٨٧ - ١١٩٢م) Guy of Lusignan على بيت داخل أسوار المدينة عند بوابة القديس نيقولا، وعلى مكان آخر لبناء مستشفى دائم، وهبة أخرى كانت عبارة عن أربعة أفدنة بالقرب من مدينة عكا، وبعد استيلاء الصليبيين على تلك المدينة في ١١ يوليو سنة ١١٩١م، قام إخوة المستشفى الألمانية بشراء حديقة مجاورة للمنزل الذي منحه له جاي من لوزجنان، وهناك قاموا ببناء المقر الدائم لهم في هذه الحديقة، وبنوا فيها أيضًا مستشفاهم وكنيستهم، والجدير بالذكر أن جاي من لوزجنان وافق في ١٢ فبراير سنة ١١٩٢م على هبته السابقة لإخوة المستشفى الألمانية، وعلى ما اشتروه بعد ذلك(١).

وفي عهد هنري من شاميني (١١٩٢ - ١١٩٧م) Henry of Champagne ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا، نال إخوة المستشفى الألمانية هبات أخرى في مدينة عكا، ففي سنة ١١٩٣م منحهم هنري من شامبيني قصرًا ومزرعة في إقليم عكا، وسورًا وبرجًا على باب القديس نيقولا مع عدة أبراج أخرى، كما منحهم خندقًا وقنطرة وبعض الحوائط الأخرى في سور المدينة، ولكنه اشترط عليهم القيام بإصلاح السور، وأن يكونوا على أهبة الاستعداد للدفاع عن المدينة من ناحية السور الواقع في حوزتهم. وعندما قبل إخوة المستشفى الألمانية هذه المنحة فإنهم يكونون قد كلفوا بأول واجبات حربية في بلاد الشام(٢). وفي نفس العام أهدى هنري من شامبيني للإخوة الألمان ضياعًا في كفر يوسف على مسافة عشرة كيلومترات

---

[1]) Sterns: The Teutonic Knights in The Crusades states" p. 348.

[2]) Ibid., pp. 348 – 349.

شمال شرقي عكا، ومبنى مكونًا من طابقين بالقرب من سور القديس نيقولا، كما حصل إخوة المستشفى الألمانية في أكتوبر سنة ١١٩٤م على إعفاء من الرسوم المفروضة على جميع المؤن والملابس وكل مستلزماتهم الشخصية(١)، وهكذا نجد أن هنري من شامبيني حاول أن يمنح إخوة المستشفى الألمانية نفس الامتيازات والواجبات التي كانت تتمتع بها منظمتا الداوية والإسبتارية في مدينة عكا(٢).

وجدير بالذكر، إن أخوة المستشفى الألمانية حصلوا على هبات أخرى خارج مدينة عكا، ففي إبريل سنة ١١٩٥م منحهم هنري من شامبيني منزلاً في مدينة صور وقطعة من الأرض تبلغ مساحتها حوالي فدانين في سدينيوم Sedinum شمال صور، وفي مارس من العام التالي منحهم أيضًا قطعة من الأرض في يافا، ومزرعة عنب خارج المدينة. وقد اعترف البابا سلستين الثالث في الوثيقة التي أصدرها في ٢١ ديسمبر سنة ١١٩٦م بكل هذه الممتلكات وأكدها لإخوة المستشفى الألمانية(٣).

ولم تقتصر هبات هنري من شامبيني لإخوة المستشفى الألمانية على الأراضي والمنازل فقط، بل شملت أيضًا الهبات المعنوية، فقد سمح لهم بأن يعلقوا على ملبسهم الأبيض صليبًا مزينًا بالذهب، وهو شارة مملكة بيت المقدس، وذلك في مقابل خدمة أداها إخوة المستشفى الألمانية لابنه يوحنا(٤).

---

١) حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٠٥ – ١٠٦، حاشية ٦٨.

2) Conder (C.R.): The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 – 1291, (London, 1897) pp. 340 – 341.

3) Sterns: op. cit., pp. 349 – 351;
Conder: op. cit., p. 341.

4) Michaud: Histoire des Croisades, Tom. III, pp. pp. 591 – 592.

وفي فبراير سنة ١١٩٨م باع عموري من لوزجنان (١١٩٧-١٢٠٥م) ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا وقبرص لإخوة المستشفى الألمانية عزبة تسمى أجويلي Aguille في إقليم عكا(١). وهكذا نجد أن المستشفى الألمانية تمكنت من امتلاك الأراضي في داخل عكا وخارجها، قبل تحويلها إلى منظمة عسكرية، الأمر الذي سوف يترتب عليه قدرة الألمان على الإنفاق على متطلباتهم العسكرية.

وعلى أية حال، استمرت الهبات تنهال على منظمة الفرسان التيوتون بعد أن تحولت إلى منظمة عسكرية؛ ففي أغسطس سنة ١١٩٨م، منح عمورى من لوزجنان فرسان المنظمة البرج المقام فوق باب القديس نيقولا في السور الشرقي لعكا، ولكنه اشترط عليهم رد هذا البرج إذا رغب في ذلك(٢)، وفي أغسطس سنة ١٢٠٠م حصلت منظمة التيوتون على منحة كانت عبارة عن منزل في مدينة صور، وفي نفس الشهر حصلت على أرض بالقرب من ألبوم Album الواقعة على مقربة من كفر يوسف التابعة للمنظمة. وفي فبراير سنة ١٢٠٦م حصلت المنظمة على منحة من جوليانا صاحبة قيسارية (١١٨٩-١٢١٦م)، عبارة عن عدد من المنازل داخل قيسارية، بالإضافة إلى برجين يقعان في سورة المدينة الشرقي، فضلاً عن الشارع الممتد في مواجهة البرج الرئيسي، كما تنازل أحد السادة الإقطاعيين في قيسارية عن ثلاثة حقول وحديقة وقطعة من الأرض لفرسان التيوتون، كما حصلت المنظمة على بيت آخر في عكا في مايو سنة ١٢٠٦م(٣).

---

1) Sterns: op. cit., p. 349;
Conder: op. cit. p. 341.

٢) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٨٠.

٣) حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٢٧ - ١٣١.

وقد اشترت المنظمة في أكتوبر سنة ١٢٠٢م من عموري من لوزجنان منطقتين في شمال عكا إحداهما كانت عبارة عن مزرعة والثانية أراض بور، وفي سنة ١٢٢٠م تمكنت المنظمة من امتلاك مجموعة أخرى من الإقطاعيات في شمال عكا بلغ عددها حوالي ست وأربعين منطقة. والجدير بالذكر، أن البابا هونوريوس الثالث وافق على هذا الشراء سنة ١٢٢٠م، كما وافق عليه الإمبراطور فردريك الثاني سنة ١٢٢٦م، واعترف هونوريوس وفردريك للمنظمة بخمسين منطقة أخرى من الإقطاعات في عكا. وفي سنة ١٢٢٩م وافق فردريك على منح المنظمة ثماني قوى أخرى واقعة إلى الشمال الشرقي من الأراضي السابقة بالقرب من تورون، وقد اشتمل هذا الإقطاع على قلعة منتفرات (القرين)، فضلاً عن أنه تنازل لفرسان التيوتون عن ستة آلاف وأربعمائة بيزنت صليبي كدخل سنوى من رسوم عكا[١].

والواقع، أن البابوية أولت عنايتها بمنظمة الفرسان التيوتون، ففي سنة ١٢١٦م منع البابا هونوريوس الثالث البارونات العلمانيين والأكليروسيين في بلاد الشام من الحصول على أفراد منظمة التيوتون على يمين الولاء والطاعة، وفي سنة ١٢١٨م أعطى البابا لنفسه فقط حق إصدار قرار الحرمان ضد أي فرد من المنظمة، وفي سنة ١٢٢٠م منح البابا منظمة التيوتون حق إقامة كنائسها في أملاكها، وله فقط الحق في منعها، كما استثنى البابا المنظمة من الخضوع لأية تشريعات أسقفية، وبتعبير آخر استقلال منظمة التيوتون عن أية سلطة دينية أو علمانية، وأن تكون المنظمة صاحبة السيادة على نفسها، وفي

---

1) Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 341;
Sterns: op. cit., p. 351 – 351.

سنة ١٢٢١م منع هونوريوس الثالث جمع العشور من أراضي الفرسان التيوتون التي يقومون بزراعتها(١).

وقدم أمراء إنطاكية بعض الامتيازات لمنظمة الفرسان التيوتون، ففي يونيو سنة ١٢٠٠م منح بوهيموند الثالث (١١٦٣-١٢٠١م) المنظمة حق حرية التجارة وشراء احتياجاتها الضرورية من إنطاكية دون دفع أية ضرائب أو التزامات أخرى، كما منحهم ريموند روبين (١٢١٦-١٢١٩م) Raymond Roupen سنة ١٢١٩م نفس الامتيازات. وفي يناير سنة ١٢٢٨م منحهم بوهيموند الرابع (١٢١٩-١٢٣٣م) طاحونة خارج أسوار إنطاكية بالإضافة إلى حديقة مزروعة بالقرب منها، ومعصرة للكروم والأرض المقامة عليها، كما تبرع لهم في يونيو من نفس العام بمائة بيزنت صليبيي من الدخل السنوي من نصيبه في رسوم عكا(٢).

والواقع، أن الإمبراطور فردريك بعد أن عقد اتفاقية يافا مع السلطان الكامل الأيوبي، أعطى منظمة الفرسان التيوتون المنزل السابق للألمان في القدس، كما منحهم منزلاً كان ملكًا للملك بلدوين الأول (١١٠١-١١١٨م) ويقع في الشارع الأرمني بالقرب من كنيسة القديس توماس St. Thomas وحديقة وستة أفدنة من الأرض(٣).

---

1) Ibid., p. 352, noot 91;

حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٥٨ ، ١٨٠.

2) Sterns: op. cit., p. 352;

Conder: op. cit., p. 341;

Prawer: The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 275;

حسن عبد الوهاب: المرجع السابق، ص ١٢٧، ١٩٣؛

نبيلة إبراهيم مقامي: المرجع السابق، ص ١٨٦.

3) Sterns: "The Teutonic Knights in the Crusader states" p. 350.

ومن الواضح أن الإمبراطور فردريك بذل قصارى جهده لتدعيم مركز منظمة الفرسان التيوتون في بلاد الشام، لتقف كند لهيئتا الداوية والإسبتارية، ولتكون قاعدة لأسرة الهوهنشتاوفن في بلاد الشام.

ولاشك أن ثراء منظمة الفرسان التيوتون الناجمة عن الهبات المالية والزراعية التي أغدقت عليها، وفرت لها الأساس المالي لمئونة قواتها وبناء القلاع والتحصينات. ومن أجل أن يساهموا بنصيبهم في الدفاع عن الممتلكات الصليبية في بلاد الشام، فإنهم امتلكوا وبنوا القلاع الحصينة. ففي أرمينيا الصغرى أعادت منظمة التيوتون بناء إحدى القلاع في هارونية[1] وكان الخليفة العباسي هارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩م /١٧٠-١٩٣هـ) قد بناها، كما بني الفرسّان التيوتون قلعة أخرى في أمودا Amouda التي كانت تتحكم في الممر الواقع على نهر سيحان Ceyhan، وكان الهدف من تلك القلعة حماية هذا الممر، وقد تكونت من أربعة طوابق، وكان الطابق الأسفل به خزان للمياه يملأ بمياه الأمطار عن طريق مواسير تمر عبر أسوار القلعة[2].وبني فرسان التيوتون قلعة أخرى تقع على بعد ثلاثة أميال جنوب منتفرات في منطقة جبلة شمال شرق عكا، وهي قلعة جودين Judin[3].

وقد امتلكت منظمة التيوتون قلعة الملك Castellum Regis الواقعة في منطقة جبلية شمال شرق عكا، ولا تبعد عن قلعة منتفرات، ولا يعرف تاريخ إنشاء هذه القلعة، وقد امتلكت المنظمة هذه القلعة في

---

١) هارونية: إحدى المدن التي أنشأها الخليفة العباسي هارون الرشيد في شرف نهر جيحان، في سنة ٧٩٩م (١٨٣هـ). انظر: عبد المنعم ماجد: العصر العباسي الأول، جـ١، (القاهرة، ١٩٧٩م)، ط٢، ص ٢٨٥.

2) Fedden and Thomson: Crusader Castles, pp. 36, 44.

3) Sterns: op. cit., p. 354.

مايو سنة ١٢٢٠م، وذلك عندما اشترتها من الكونت أوتو من هنبرج Otto of Henneberg بمبلغ سبعة آلاف مارك من الفضة وألفين بيزنت صليبيي (٩ كيلو من الذهب) [١]. وقد اعترف حنا من بربين ملك مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا بملكية المنظمة لها في مايو سنة ١٢٢٠م، وأقر هذا الشراء وأكده البابا هونوريوس الثالث في أكتوبر سنة ١٢٢٠م، كما أن فردريك وزوجته إيزابيلا قد ثبتا هذا البيع وصدقا عليه في يناير سنة ١٢٢٦م[٢].

وتعتبر قلعة مونتفرات أهم قلاع المنظمة في بلاد الشام، ويطلق عليها أيضًا فرانس تشاستين France Chastain (قلعة القرين)، وقد بنت القوات الألمانية التي سبقت فرديك إلى بلاد الشام هذه القلعة في ١٠ نوفمبر سنة ١٢٢٧م[٣]. والجدير بالذكر، أن هذه القلعة فرنسية الأصل، إذ كانت مقرًا لمونتفرات، غير أن إخوة الفرسان التيوتون اشتروها في ٢٠ إبريل سنة ١٢٢٨م من جيمس من أميجد الا James of Amigdala ومعها جميع الاقطاعات التابعة لها بمبلغ ستة آلاف وأربعمائة بيزنط صليبيي (٢٥,٦كيلو أو ٥٦,٣ رطلاً من الذهب) وهذا المبلغ قدمه الإمبراطور فردريك الثاني للمنظمة من دخله من عشور ميناء عكا، وقد قام الإمبراطور بالتصديق على هذا الشراء في أبريل سنة ١٢٢٩م، عند وجوده في عكا. وأطلق الفرسان التيوتون عليها اسم الحصن الجديد New Castle بعد أن قاموا بالتوسع في

---

1) Conder: op. cit., p. 341.
Sterns: op. cit., p. 354.

2) Sterns: op. cit., p. 354, noot 106.

3) Crousset: op. cit., Tom. III, p. 288;
King: The Knights Hospitallers in the Holy Land p. 208;
Van Cleve: op. cit., p. 448.

بنائها، لاسيما أن معاهدة السلام بين الإمبراطور والسلطان الكامل الأيوبي قد سمحت بذلك، والواقع أن المصادر والمراجع الألمانية قد أطلقت عليها اسم ستار كنبرج أي التل الحصين[1].

وتقع قلعة مونتفرات على بعد سبعة أميال شمال شرق عكا على الضفة الغربية لنهر الجليل شمال فلسطين، وعلى مرتفع صخري يسمى ترفيل Trefile يبلغ ارتفاعه حوالي تسعمائة قدم أو (١٨٥ مترًا)، في منتصف الطريق بين عكا وصور[2]. ويلاحظ أن الرحالة الغربيين والعلماء الذين زاروا هذه القلعة في أوقات لاحقة تركوا أوصافًا لبقايا آثارها، وطبقا لأكثر هذه الأوصاف ثقة فإن مونتفرات تقع على ارتفاع خمسمائة وتسعين قدمًا فوق سطح البحر عند التقاء جدولين، على أخدود ضيق يشبه شكل الحصن، وكان طول القلعة حوالي ثلاثمائة وخمسين قدمًا وعرضها حوالي ثمانين قدمًا، ومن المحتمل أن هذه القلعة كانت تتكون من ثلاثة أدوار يبلغ ارتفاعها حوالي تسعين قدمًا، وكانت تشتمل على صالة واسعة للدير والكنيسة وأماكن للنوم وحجرات للحراس، وقد أحيطت هذه القلعة بسور يبلغ طوله ألفًا وخمسمائة قدم، وكانت تغذى بالماء عن طريق صهاريج، والجدير بالذكر، أنه في أسفل الربوة التي أنشأت عليها القلعة تم العثور على آثار لحطام مجمع من المباني مكون من طاحونة وكنيسة ومستوصف أو مستشفى[3].

---

1) Fedden and Thomson: op. cit., p. 29;

رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ٣، ص ١٨٠؛

محمود الحويري: المرجع السابق، ص ٧١، ٢٠٩.

2) Conder: The Latin Kingdom of Jerusalem, p. 341;

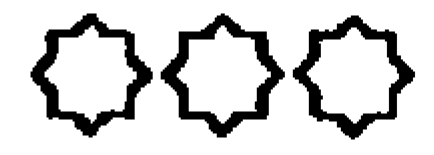
Sterns: op. cit., pp. 354 – 355;

محمود الحويري: الأوضاع الحضارية في بلاد الشام، ص ٢٠٩.

3) Sterns: op. cit., p. 356.

وبسبب حصانة قلعة مونتفرات وصعوبة الوصول إليها، فإن الفرسان الألمان اتخذوها مركزًا لقيادتهم، وحفظوا فيها أرشيفهم وخزائنهم(١)، ولما كانت واقعة على مقربة من ممتلكات المسلمين، فقد نظرت إليها البابوية ومنظمة الفرسان التيوتون على اعتبار أنها إحدى القلاع الجديدة ذات الأهمية التي يمكنها التصدى لهجمات المسلمين. ولذلك عندما طلب هرمان فون سالزا معونة مالية من البابا جريجوري التاسع سنة ١٢٣٠م، وافق على الفور، وأصدر غفرانًا لمدة عشر سنوات لم يساهم بالأموال لإعادة بناء وتحصين قلعة منتفرات(٢).

وعلى أية حال، فقد قامت منظمة التيوتون في بلاد الشام من أجل خدمة الألمان الذين كانوا يفدون على بلاد الشام لزيارة الأماكن المقدسة، وقد غلب عليها الطابع الألماني، فلم يلتحق بها إلا فرسان من أصل ألماني في حين كانت منظمتا الداوية والإسبتارية تضمان فرسان من أجناس مختلفة.



---

1) King: op. cit., p.p. 203;
Fedden and Thomson: op. cit., p. 29.

2) Sterns: op. cit., pp. 354 – 355.

الخـــــــــاتمة

وبعد، ليس الغرض من هذه الكلمة الختامية أن تكون تلخيصًا لما انتهي إليه البحث من نتائج، وإلا صار الأمر تكرارًا لا مبرر له، وإنما أردت بهذه الكلمة أن أعبر عن النتائج التي انتهيت إليها والتي أعتقد أنني إن لم أكن توصلت إليها فقد أكدتها.

فالفكرة الأولى التي أردت توكيدها في التمهيد، هي أن الحرب الأهلية التي نشبت في ألمانيا بين الإمبراطور هنري الرابع والدوقات الألمان، وعلى وجه الخصوص الأمراء السكسوس، تعود في أسبابها إلى رغبة الإمبراطور هنري الرابع في تكوين حكومة مركزية، وحكم ثيوقراطي قوي في ألمانيا، في حين أن الدوقات الألمان تمسكوا بعدم الخضوع لأية حكومة مركزية في ألمانيا، وتمسكوا بالانفراد بتصريف شئونهم الداخلية في دوقياتهم، وتطلعوا أن تكون العلاقة بينهم وبين الإمبراطور الألماني، علاقة شبه فيدرالية فقط. وبسبب تضارب معتقدات كل من الإمبراطور والدوقات، اكتوت ألمانيا بنار الحرب الأهلية، وعندما وضعت هذه الحرب أوزارها سنة ١٠٩٠م، كان السلام مصحوبًا بالقلق، وبتعبير العصر "فترة الحرب الباردة" ولهذا عندما دعا البابا أوربان الثاني للحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م، لم يكن لدى الأمراء الألمان رغبة في ترك ممتلكاتهم في ألمانيا والذهاب إلى المصير المجهول في الشرق، كما أن الشعب الألماني الذي اكتوى بنار الحرب الأهلية طيلة عشرين عامًا، سئم حمل السلاح مرة ثانية، ولهذا لم يقدم على الاشتراك في الحملة الصليبية الأولى.

وأردت أن أكد في التمهيد أيضًا حقيقة هامة، ألا وهي انتهاز البابوية فرصة انشغال الإمبراطور الألماني هنري الرابع بالحرب

الأهلية في ألمانيا ومحاولة تنفيذ برنامجها الإصلاحي المتمثل في القضاء على السيمونية وزواج رجال الدين، ونظرًا لأن الإمبراطور لم يكن قادرًا على الحرب في جبهتين في آن واحد فقد راح يهادن البابا إلى أن تمكن من تهدئة الوضع في ألمانيا، ثم كشف عن أهدافه الحقيقية المتمثلة في تعيين وعزل رجال الأكليروس. ولولا عدم استقرار الوضع السياسي في ألمانيا لما خرج برنامج إصلاح الكنيسة إلى حيز الوجود، لاسيما أن البابا جريجوري السابع، كان يعتمد كثيرًا على هذا الوضع؛ ولأن الإمبراطور كان يمكنه أن يقضي عليه وهو ما يزال في المهد. والحقيقة الثانية التي أردت أن أؤكدها من خلال النزاع بين البابوية والإمبراطورية أن هذا النزاع وتطلع البابوية إلى السمو على الإمبراطورية يعد أحد العوامل التي دفعت البابا أوربان الثاني إلى الدعوة للحرب الصليبية، وعلى كل حال، فقد جلب النزاع بين البابوية والإمبراطورية عداوة الشعب الألماني على البابوية، وهذا من شأنه كان لابد أن يؤدي إلى ابتعاده عن المشاركة في الحملة الصليبية الأولى.

أما في الفصل الأول فقد توصلت إلى نتيجة هامة تمثلت في أن فشلت القوات الألمانية وبقية القوات الصليبية الأخرى في الاستيلاء على الرها بعد استرداد المسلمين لها، أو الاستيلاء على دمشق أو توجيه الحملة الصليبية ناحية حلب أو قيسارية، معناه أن المرحلة الأولى من حركة الإفاقة الإسلامية والتي بدأت منذ أن تولى عماد الدين زنكي حكم حلب سنة ١١٢٧م وحتى استرداد الرها سنة ١١٤٤م قد ختمت بنجاح، كما أن فشل القوات الألمانية الصليبية ساعد على استمرار صعود حركة الإفاقة الإسلامية على يد نور الدين محمود.

ومن النتائج أيضًا، توطيد ثقة المسلمين في أنفسهم وإدراكهم آنذاك أن تمزقهم هو مكمن ضعفهم، أما اتحادهم فهو مكمن قوتهم، وأن

الصليبيين أضعف بكثير مما كانوا يتصورون، فهاهم وأمام أعينهم وبسبب اتحادهم تهزم على أيديهم جيوش أكبر ملوك أوربا، بما في ذلك جيش بيت المقدس الصليبية، فبدأت منذئذ دفة الأمور العسكرية تتحول في بلاد الشام لصالح المسلمين الذين بدءوا العمل من أجل استئصال شأفة باقي الإمارات الصليبية في بلاد الشام.

وبرزت خلال الفصل الثاني نتيجة هامة تمثلت في أن الألمان ظلوا في بلاد الشام إلى أن سقطت مدينة عكا في ١١ يوليو سنة ١١٩١م، ولاشك أنهم ساعدوا القوات الإنجليزية والفرنسية في الاستيلاء عليها، ولكن بسبب عدم وجود قائد للألمان، صمتت المصادر الأوربية والعربية عن ذكر أية حوادث عنهم خلال المعارك التي دارت حول عكا قبل سقوطها، ولم تتعرض لهم إلا بعد سقوط المدينة ومحاولة ليوبولد رفع العلم الألماني فيها إلى جانب الأعلام الإنجليزية والفرنسية. والجدير بالذكر أن وصول القوات الألمانية تحت قيادة فردريك دوق سوابيا ساعد القوات الصليبية المحاصرة لها على مواصلة حصارها الأمر الذي جعل مدينة عكا مهيأة للسقوط، كما ينبغي ألا ننسى أن وصول الألمان إلى طرسوس أجبر صلاح الدين الأيوبي على إرسال بعض قواته لملاقاتهم على أبواب حلب، مما كان له بالغ الأثر في تخفيف حدة الحصار الذي فرضه على القوات الصليبية المحاصرة لمدينة عكا.

كما أثمرت جهود الإمبراطور هنري السادس الصليبية ضد بلاد الشام، عن بعض النتائج الهامة التي تمثلت في تثبيت أقدام الألمان في بلاد الشام، إذ نجح كنراد رئيس أساقفة ماينز ومستشار الإمبراطور هنري السادس في تنصيب عموري من لوزجنان ملك قبرص ملكًا على مملكة بيت المقدس في عكا، وبذلك وضعت الممتلكات الصليبية ببلاد الشام في دائرة نفوذ أسرة الهوهنشتاوفن. وقد نجح الألمان في

إنقاذ بقايا الممتلكات الصليبية ببلاد الشام من الضياع، وإعادة بعض الأراضي التي كانت في حوزة المسلمين إلى مملكة بيت المقدس الصليبية في عكا. ومن النتائج التي توصلت إليها، إطلاق سراح تسعة آلاف أسير صليبيي كانوا في بيروت، وتعد هذه سابقة فريدة من نوعها في تاريخ الحملات الصليبية، لاسيما أن أولئك الأسرى حملوا السلاح فور إطلاق سراحهم، وبذلك أضافوا قوة جديدة لصليبيي بلاد الشام.

وثمة نتيجة أخرى توصلت إليها ألا وهي أن حملة الإمبراطور فردريك الثاني نجحت نجاحًا كبيرًا، فقد حققت من النتائج مالم تستطع الحملات الصليبية التي قامت منذ سنة ١١٨٩م أن تحققه، حيث تمكنت من استعادة مدينة القدس إلى الصليبيين، وليس عن طريق اللجوء إلى القوة، ولكن عن طريق صداقة الإمبراطور بالكامل الأيوبي ودبلوماسيته المنقطعة النظير. والجدير بالذكر أن النجاح الذي أحرزه فردريك كان ضد إرادة البابوية التي عملت بالطرق المباشرة وغير المباشرة على منع فردريك من استرداد بيت المقدس، إلا أن فردريك تمكن من تحقيق أهدافه رغم كل الصعوبات التي واجهته، وأثبت أن الجنوح للسلم خير من إراقة الدماء.

ويعتبر استرداد الإمبراطور فردريك لمدينة بيت المقدس سنة ١٢٢٩م / (٦٢٦هـ) أقصى ما وصلت إليه جهود الألمان في الحروب الصليبية في بلاد الشام. ونلاحظ أنه في أثناء النزاع بين البابوية والإمبراطورية لم يتورع البابا جريجوري التاسع عن الاتصال بالسلطان الكامل الأيوبي، لمنع الإمبراطور من تحقيق أي نجاح في الشرق، خوفًا من تدعيم مكانة فردريك في الغرب الأوربي ضد البابوية، وهكذا يتضح لنا أن البابوية كانت تضع استرجاع مملكة بيت

المقدس أو الضريح المقدس كواجهة فقط لإخفاء السبب الحقيقي وهو زيادة نفوذها وهيبتها في الغرب لتحقيق السمو على الإمبراطورية.

ومن النتائج الهامة التي توصلت إليها أن الألمان لعبوا دورًا كبيرًا في نشأة وتدعيم منظمة التيوتون في بلاد الشام، التي غلب عليها الطابع الألماني فلم يلتحق بها إلا فرسان يرجعون إلى أصل ألماني، في الوقت الذي كانت فيه منظمتا الداوية والإسبتارية تفتحان الباب على مصراعيه لأي فرسان من أجناس مختلفة. وهنا نلاحظ أن الإمبراطور فردريك الثاني عمل على تدعيم مكانة ونفوذ منظمة التيوتون ببلاد الشام حتى يجعل منها كيانًا قويًّا يلتف حوله العنصر الألماني ببلاد الشام.



قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر العربية:

ابن الأثير : (على بن أحمد بن أبي الكرم، ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م):
الكامل في التاريخ، الجزء الحادي عشر والثاني عشر.
(بيروت، ١٩٦٦م).

أسامة بن منقذ : (أبو المظفر بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر، ت ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م).
كتاب الاعتبار، نشره وحققه فيليب حتى.
(القاهرة، بدون تاريخ).

البنداري: : (الفتح بن علي، مجهول تاريخ الوفاة)/
من كتاب البرق الشامي - للعماد الكاتب الأصفهاني، تحقيق د. فتحية النبراوي.
(القاهرة، ١٩٧٩م).

ابن الجوزي: : (أبو المظفر بن قيزوغلي، ت ٦٥٤هـ / ١٢٥٧م):
مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ٨.
(حيدر آباد، ١٩٥١م).

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد، ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م):
العبر وديوان المبتدأ والخبر، المجلد الخامس. (بيروت، ١٩٦٨م).



ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم، ت ٦٨١هـ/ ١٢٨١م).
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، ٦ أجزاء.
(القاهرة، ١٩٤٨م).

الذهبي : (الحافظ شمس الدين، ت ٦٧٣هـ / ١٢٧٣م).
دول الإسلام، الجزء الأول والثاني، تحقيق فهيم محمد شلتوت، محمد مصطفى إبراهيم.
(القاهرة، ١٩٧٤م).

أبو شامة : (عبد الرحمن إسماعيل بن عثمان، ت ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٨م):
الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان.
(بيروت، بدون تاريخ).
تراجم رجال القرنين السادس والسابع أو الذيل على الروضتين، راجعه ونشره عزت العطار الحسيني.
(بيروت، ١٩٤٧م).

ابن شداد : (بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع، ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م):
النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الدين الشيال.
(القاهرة، ١٩٦٤م).

ابن العبري : (غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون الطيب الملطي، ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م):
تاريخ مختصر الدول.
(بيروت، بدون تاريخ).

ابن العماد الحنبلي : (أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م):
شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الرابع والخامس.
(بيروت، ١٩٧٩م).

عماد الدين الأصفهاني : (أبو عبد الله محمد، ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م):
الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق محمد محمود صبيح.
(القاهرة، ١٩٦٥م).

أبو الفدا : (إسماعيل بن عماد الدين صاحب حماه، ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م):
تقويم البلدان:
(باريس، ١٨٤٠م)
- المختصر في أخبار البشر، جـ٣.
(بيروت، بدون تاريخ).

ابن الفرات : (محمد بن عبد الرحمن، ت ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤هـ):
تاريخ ابن الفرات، الجزء الثاني، تحقيق د. حسن محمد الشماع.
(العراق، ١٩٦٩م)

القلقشندي : (شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي، ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م):
صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٥، ٧.
(القاهرة، ١٩١٥م)

ابن القلانسي : (أبو يعلى حمزة، ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م):
ذيل تاريخ دمشق، نشره أميدروز.
(بيروت، ١٩٠٨م).

ابن كثير : (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر الحافظ، ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م):
البداية والنهاية، الجزء الثاني عشر والثالث عشر.
(بيروت، ١٩٨١م).

أبو المحاسن : (جمال الدين يوسف بن تغري بردي، ت ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م):
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جـ٦.
(القاهرة، ١٩٣٦م).

المقريزي : (تقي الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١ – ١٤٤٢م)
السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ١، ٢ (٦ أقسام).
تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، جـ٣، ٤ (٦ أقسام)، تحقيق د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
(القاهرة ١٩٣٤ – ١٩٧٣م).



النويري : (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، ت ٦٧٧هـ/ ١٤٨٠م):
نهاية الأرب في فنون الأدب، جـ ٢٨ حققه ووضع حواشيه د. محمد محمد أمين، د. محمد حلمي محمد أحمد، جـ ٢٩ حققه ضياء الدين الريس، مراجعة د. محمد مصطفى زيادة.
(القاهرة، ١٩٩٢م).

ابن واصل : (جمال الدين محمد بن سالم، ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٨م):
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، جـ١ – ٣ تحقيق د. جمال الدين الشيال.
(القاهرة، ١٩٥٣ – ١٩٦٠م).
جـ٤ تحقيق د/ حسنين ربيع، مراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
(القاهرة، ١٩٧٢م).

ابن الوردي : (أبو حفص عمر بن مظفر بن عمر، ت ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م):
تتمة المختصر في أخبار البشر، أو تاريخ ابن الوردي، الجزء الثاني.
(بيروت، ١٩٧٠م).

ياقوت الحموي : (شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي، ت ٦٢٢هـ/ ١٢٢٩م):
معجم البلدان، جـ٢، جـ٣، جـ٤.
(بيروت، ١٩٥٧م).

١- المراجع العربية والمترجمة:

أحمد عبد الحميد الشامي : (دكتور) العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.
(القاهرة، ١٩٨٥م).

إدوار بروي وآخرون : تاريخ الحضارات العام، المجلد الثالث، ترجمة يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر.
(بيروت، بدون تاريخ).

إدوار جبيون : إضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها، جـ٢، ٣، ترجمة لويس إسكندر، مراجعة أحمد نجيب هاشم.
(القاهرة، ١٩٦٩م).

إرنست باكر : الحروب الصليبية، ترجمة د/ السيد الباز العريني.
(القاهرة، بدون تاريخ).

أسامة زكي زيد : (دكتور) صيدا ودورها في الصراع الصليبي الإسلامي.
(الإسكندرية، ١٩٨١م).

إسحاق تاضروس عبيد : (دكتور) روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة قسطنطين

٨٦٩ – ١٢٠٤م.
(القاهرة، ١٩٧٠م).

أسمت غنيم : (دكتورة)
الحملة الصليبية الرابعة.
(القاهرة، ١٩٨٢م).

أنتوني بردج :
تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو، نبيل الجيرودي، مراجعة د. سهيل زكار.
(دمشق، ١٩٨٥م).

بيريل سمالي : (دكتورة)
المؤرخون في العصور الوسطى، ترجمة د. قاسم عبده قاسم.
(القاهرة، ١٩٧٩م).

جمال الدين الشيال : (دكتور)
التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوربي في عصر النهضة.
(بيروت، ١٩٦٩م).

جوزيف جاي ديس : الزنديق الأعظم، ترجمة د. أحمد نجيب هاشم.
(القاهرة، بدون تاريخ).

جورج سباين :
تطور الفكر السياسي، الكتاب الثاني، ترجمة حسن جلال العروسي.
(القاهرة، بدون تاريخ).

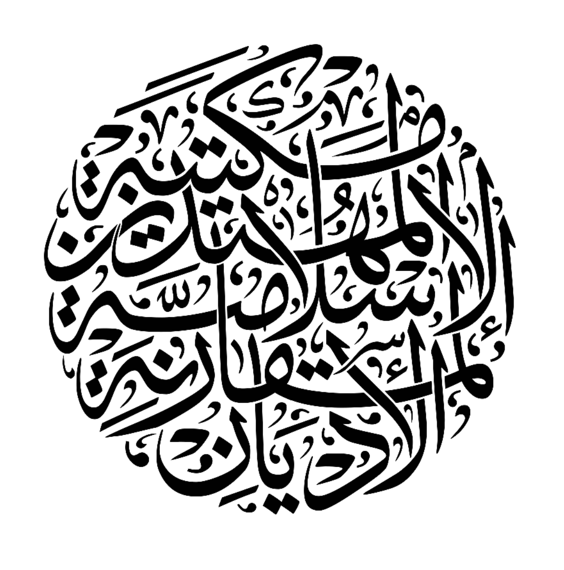
حافظ أحمد حمدي :
الدولة الخوارزمية والمغول، غزو جنكيز خان للعالم الإسلامي وآثاره السياسية والدينية والاقتصادية والثقافية.
(القاهرة، ١٩٤٨م).

حسن حبشي : (دكتور)
الحرب الصليبية الأولى.
(القاهرة، ١٩٥٨م).

حسن عبد الوهاب حسنين : (دكتور)
تاريخ جماعة الفرسان التيوتون في الأراضي المقدسة ١١٩٠ – ١٢٩١م / ٥٨٦ – ٦٩٠هـ).
(الإسكندرية ، ١٩٨٩م).

حسين مؤنس : (دكتور)
نور الدين محمود.
(القاهرة، ١٩٨٤م).

رأفت عبد الحميد : (دكتور)
"الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب". ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٢.
(القاهرة، ١٩٨٣م).



"السمو البابوي بين النظرية والتطبيق". ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٣.
(القاهرة، ١٩٨٥م).

رنسيمان : (ستيفن)
تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة د. السيد الباز العريني، ٣ أجزاء.
(بيروت، ١٩٨١م)

———— :
الحضارة البيزنطية، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة زكي علي.
(القاهرة، ١٩٦١م)

زبيدة عطا : (دكتورة)
الترك في العصور الوسطى.
(القاهرة، بدون تاريخ).

سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)
قبرس والحروب الصليبية.
(القاهرة، ١٩٥٧م)

- "الإمبراطور فردريك الثاني والشرق العربي" الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، مجلد ١١.
(القاهرة، ١٩٦٣م)

- أوربا العصور الوسطى، جزءان.
(القاهرة، ١٩٨١م)

- الحركة الصليبية، جزءان.
(القاهرة، ١٩٨٦م)

سميل (ر. سي) : الحروب الصليبية، ترجمة سامي هاشم.
(بيروت، ١٩٨٢م)

سيجريد هونكة : شمس الله على الغرب، ترجمة وتحقيق وتعليق د/ فؤاد حسنين علي.
(القاهرة، ١٩٦١م)

السيد الباز العريني : (دكتور).
مؤرخو الحروب الصليبية.
(القاهرة، ١٩٦٢م).

ـــــــــــــــ : الشرق الأوسط والحروب الصليبية، جـ١.
(القاهرة، ١٩٦٣م)

السيد عبد العزيز سالم : (دكتور)
دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي.
(بيروت، ١٩٧٠م).

شارل ديل : البندقية جمهورية أرستقراطية، ترجمة د/ أحمد عزت عبد الكريم، توفيق إسكندر. (القاهرة، ١٩٤٨م).

عادل إسماعيل هلال : (دكتور)
العلاقات بين مغول فارس والغرب الأوربي ١٢٥٨ – ١٣٣٥ / ٦٥٦ – ٧٣٦هـ)، رسالة دكتوراة غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٨٧م.

عادل زيتون : (دكتور)
العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى.
(دمشق، ١٩٨٠م).

عبد القادر أحمد اليوسف :
العصور الوسطى الأوربية.
(بيروت، ١٩٦٧م)

عبد الغني محمود عبد العاطي : (دكتور)
"صليبية الأطفال ١٢١٢م" ندوة التاريخ الإسلامي والوسيط، جـ٢.
(القاهرة، ١٩٨٣م).

عبد المنعم ماجد : (دكتور)
العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.
(بيروت، ١٩٦٦م).

:
العصر العباسي الأول، جـ١.
(القاهرة، ١٩٧٩م)
- صلاح الدين الأيوبي.
(القاهرة، ١٩٨٧م)

عبد اللطيف حمزة : (دكتور)
أدب الحروب الصليبية.
(القاهرة، ١٩٨٤م)

عزيز سوريال عطية : (دكتور)
العلاقات بين الشرق والغرب (تجارية - ثقافية - صليبية)
ترجمة فيليب صابر سيف، مراجعة أحمد خاكي.
(القاهرة، ١٩٧٢م).

عفاف سيد صبرة : (دكتورة)
الإمبراطوريات البيزنطية والرومانية زمن شارلمان.
(القاهرة، ١٩٨٢م).

على الغمراوي : (دكتور)
مدخل إلى دراسة التاريخ الأوربي الوسيط.
(القاهرة، ١٩٧٧م).

عماد الدين خليل : (دكتور)
عماد الدين زنكي.
(بيروت، ١٩٧١م).

- الإمارات الأرتقية في الجزيرة والشام (٤٦٥ – ٨١٢هـ/ ١٠٧٢ – ١٤٠٩م).
(بيروت، ١٩٨٠م).

عمر كمال توفيق : (دكتور)
"المؤرخ وليم الصوري"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، م ٢١.
(١٩٦٧م).
- الدبلوماسية الإسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين (٤٩١ – ٦٩٠هـ / ١٠٩٧ – ١٢٩١م).
(الإسكندرية، ١٩٦٨م).

فيشر (هـ. أ. ل.) :
تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة، د. السيد الباز العريني.
(القاهرة، ١٩٧٦م).

قاسم عبده قاسم : (دكتور)
أهل الذمة في مصر العصور الوسطى.
(القاهرة، ١٩٧٩م)
- الحروب الصليبية نصوص ووثائق.
(القاهرة، ١٩٨٥م)

- ماهية الحروب الصليبية، مجلة عالم المعرفة، العدد ١٤٩، مايو ١٩٩٠م.
- رؤية إسرائيلية للحروب الصليبية. (القاهرة، ١٩٨٣م).

قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي. (القاهرة، ١٩٧٩م).

كارل بوركلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ٢، ترجمة نبيه أمين فارس منير البعلبكي. (بيروت، ١٩٦١م).

كرمب (ج.)، جاكوب (أ.) : تراث العصور الوسطى، جـ١، ترجمة د. إبراهيم أحمد العدوي. (القاهرة، ١٩٦٥م).

كولستون (ج.ج.) : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة، ترجمة وتعليق د. جوزيف نسيم يوسف. (القاهرة، ١٩٦٧م).

مارتينو ماريو مورينو : المسلمون في صقلية. (بيروت، ١٩٦٨م).

محمد كرد علي :
خطط الشام، جـ١، ٢.
(دمشق، ١٩٨٣م).
محمد ماهر حمادة :
وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي (٤٨٩ – ١٢٠٦هـ/ ١٠٩٦ – ١٤٠٤م).
(بيروت، ١٩٨٦م).
محمود سعيد عمران : (دكتور)
معالم تاريخ أوربا في العصور الوسطى.
(بيروت، ١٩٨٢م)
– الحملة الصليبية الخامسة (حملة جان دي برين على مصر ١٢١٨ – ١٢٢١م / ٦١٥ – ٦١٨هـ).
(القاهرة، ١٩٨٥م).
– السياسية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في عهد الإمبراطور مانويل الأول كومنينوس (١١٤٣ – ١١٨٠م).
(القاهرة، ١٩٨٥م).
محمود محمد الحويري : (دكتور)
الأوضاع الحضارية في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد عصر الحروب الصليبية.
(القاهرة، ١٩٧٩م).

- العادل الأيوبي.
(القاهرة، ١٩٧٩م).
- العلاقات المبكرة بين أوربا والمغول.
(القاهرة، ١٩٨٦م)
- رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية.
(القاهرة، ١٩٨١م).

نظير حسان سعداوي :
المؤرخون المعاصرون لصلاح الدين.
(القاهرة، ١٩٦٢م).

نورمان بينز :
الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة حسين مؤنس، د. محمود يوسف زيدان.
(القاهرة، ١٩٥٧).

نورمان ف. كانتور :
التاريخ الوسيط، جـ١، ٢، ترجمة د. قاسم عبده قاسم.
(القاهرة، ١٩٨١م).

هارتمان (ل.م.)، باراكلاف (ج) :
الدولة والإمبراطورية، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف.
(الإسكندرية، ١٩٨٩م).

هايد :

تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى جـ١، ٢، ترجمة محمد أحمد رضا، مراجعة عز الدين فودة.
(القاهرة، ١٩٨٥ ، ١٩٩١م).

هسي (ج.م.) :

العالم البيزنطي، ترجمة د. رأفت عبد المجيد.
(القاهرة، ١٩٨٢م).

هلستر (س. ورن) :

أوربا العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحي الشاعر.
(القاهرة، ١٩٨٨م).

يوشع براور :

عالم الصليبيين، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، د. محمد خليفة حسن.
(القاهرة، ١٩٨١م).

Throop (P.A.) :

Criticism of the Crusade, a study of pulic opinion and Crusade Propoganda.
(Philadelphia, 1975).

Van Cleve (T.C.) :

"The Crusade of Frederick II", in setton: History of the Crusade, vol. II.
(Philadelphia, 1955).

Vasiliev (A.A.) :

Histoire de L' Empire Byzantine, II, Tom.
(Paris, 1932).

Runciman (S.) :

AHistory of The Crusades, 3 vols.
(Cambridge, 1954).

Saybders (J.J.) :

AHistory of Medieval Islam.
(London, 1965).

Siven (E.) :

L' Islam et la Croisade "ideologie et propaganda dans les reaction Musulmanis aux Croisades".
(Paris, N.D.).

Smail (R.C.) :

The Crusaders in Syria and the Holy land.
(London, 1973).
Crusade and settlement.
(University Collg Cardiff, 1985).

Sterns (I.) :

The Teutonic Knights in The Crusader States", in setton: History of the Crusade, vol.v.
(Philadlphia, 1969)

Stevenson (W.B.) :

The Crusaders in The East.
(Cambridg University, 1968).

Parkes (J.) :

AHistory of Palstine from 135A.D. to Modern Times.
(London, 1949).

Rernoud (Regine) :

The Crusades, Trans., by Enid Mcleod.
(London, 1962).

Perry (V.G.) :
The Second Crusade", in setton: History of the Crusade, vol., II. (Philadlphia, 1955)

Prawer (J.) :
The Latin Kingdom of Jerusalem.
(London, 1973).

Ropenson (J.H.) :
History of western Europe.
(New York, 1903)

Newby (P.H.) :
Saladin in His time.
(London, 1983).

Oldenbourg (Zon) :
The Crusades, Trans from the France by Anna Carter.
(New York, 1965).

Orton (P.C.W.) :
The Shorter Cambridage Medieval History, vol. I.
(London, 1953).

Germany in the reign of Frederick II", in Camb. Med. Hist. vol., VI.
(London, 1980).

Ostrogorsky (George) :

History of the Byzantine State, Trans from the Germany by Jeon Hissay.
(London, 1986).

Painter (Sidney) :

Western Europe in the Eve of the Crusade", in setton: History of the Crusade, vol., I.
(Philadlphia, 1955)

The Third Crusade Richard the Lion Hearted and Philip Augustus", in setton: History of the Crusade, vol., II.
(Philadlphia, 1955)

Locroix (Dem – Poul):

La Chevaleri et les Croisades.
(Paris, 1887).

Lammens (H.S.J.) :

La Syrie Precis Historique, Tom. I.,
(Beyrouth, 1921).

Lamb (H.) :

The Crusades The Flame of Islam.
(London, 1931).

Lane Poole (Austine):

Germany, 1125 – 1152", in Camb, Med. Hist. vol. V.
(London, 1980).

Lane – Poole (Stanly):

AHistory of Egypt in the Middle Ages.
(London, 1901).

Frederick Barbarassa and Germany", in Camb. Med. Hist., vol., V.
(London, 1980).

Lyon (B.) and Rowen (H.H.) , Hamerow (T.S.):

AHistory of the Western forled, vol., I.

(U.S.A., 1974).

Mayer (H.E.) :

The Crusades, tr. From Germany by john Gillenghon.
(Oxford, 1972).

Michaud :

Histoire des Croisades, 4 Toms.
(Paris, 1849).

Munro (D.C.) and Sellery (G.C.):

Medieval Civlization, Selected studies from Europen Authors.
(New York, 1920)

Malet (A.) and Isac (J.):

Le Moyen Age, Jusqu a la querre de Cent Ans.
(Paris, 1927).

Grousset (R.) :

Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jerusalem, 3 Tome.
(Paris, 1936).

Hamilton (B.) :

The Latin Church in the Crusader states.
(London, 1980).

Hoyt (R.S) and Chodorow (Stanly):
Europ in the Middle Ages.
(New York, 1976).

Hussay (J.M.) :
Byzantine and the Crusades 1081 – 1204" in
Setton: History of the Crusade, vol. 11.
(Pennsylvania, 1962).

Johson (Edager N.):
The Crusades of Frederick Barbarossa and Hanry VI" in
Setton: History of the Crusade, vol., II.
(Pennsylvania 1962).

Kantorowicz (Ernst):
Frederick The Second, 1194 – 1250.
(London, 1913).

King (E.J.) :
The Knights Hospitallers in the Holy Land.
(London, 1931).

Cambell (G.A.) :

The Crusades.
(London, 1935).

Chalandon (F.) :

Histoire de Premier Croisade.
(Paris, 1925).

Champdor (A.) :

Salah Din, Le plus pur Heros Dl' Islam.
(Paris, 1956).

Conder (C.R.) :

The Latin Kingdom of Jerusalem 1099 – 1291.
(London, 1897).

Duggan (Alfred) :

The story of The Crusades, 1097 – 1291.
(London, 1963).

Feeden (Robin) and Thomson (John):

Crusader Castles.
(London, 1957).

Franzius :
(Enno)

History of the Byzantine Empire.
(New York, 1967).

Gottschalk (Hans L.):

Al – Malik Al – Kamil van Egtoten und seine zeit.
(Wiesbaden. 1958).

٢- المراجع الأجنبية:

Archer (T.A.) and Kingsford (C.L.):

The Crusade.
(London, 1894).

Balzani :
(UGO)

Itlay , 1125 – 1152" in Camb. Med. Hist., vol V.
(London, 1980).

Blockwell (B.) :

Mediaveal Gremany 911 – 1250, Essay by German History, tr.,

Geoffry Barraclough, vol. II.
(Oxford, 1961).

Brehier (Louis) :

Les Croisades.
(Paris, 1928).

Brook (Z.N.) :

Germany under Henry IV and Henry V in Camb. Med. Hit., vol. V.
(London, 1980).

Gregory VII and the First Contest between Empire and Papacy "in Camb. Med. Hist., vol., V.
(London 1980).

Gregory VII and the First Contest between Empire and Papacy "in Camb. Med. Hist., vol., V.
(London 1980).

De Vitry (J.) :

The History of Jerusalem", in Palestine Text Society, vol. V,



XI, tr. From the original Latin by Aubrey stwart.
(London, 1896).

William of Tyre :
A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. By Emily Atwater Babcock and A.C. Krey, vol. II.
(New York, 1943).

ثانيا : المصادر الأجنبية:

Anna Commnena :
The Alexied, tr. By Elizabth A.S. Dawes.
(London, 1967).

Ashour (S.) and Robie (H.):
Fifty Documents in Medieval History.
(Cairo, 1971).

Brundage (J.A.) :
The Crusades A Documentary Survey.
(The Marquestte Uni., 1976.)

Eracles :

L's Estoire de Eracles et la Conquette de la Terre d. Qutremer, in, R.H. C. Occ., Tom. II.
(Paris, 1859).

Kinnamos (J.) :

Deeds of John and Manuel Comnenus. Tr. By Charles M. Brand.
(New York, 1976).

Margaret (R.M.) :

Document Relatifs Al' Histoires des Croisades, la Cntinuation des Guillaum de Tyr 1184 – 1197.
(Paris, 1982).

Otto of St. Blasien :

The Third Crusade, 1189 – 1190, in thatcher (Q.J.) and Mcneal (E.H.), Asource Book for Medieval History.
(America, 1905).



المحتويات